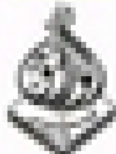
رحلة أبي طالب خان

الى العراق وأوروبا





ترجمة: مصطفى جواد



رحلة أبي طالب خان

الى العراق وأوروبة

ترجمها من الفرنسية الى العربية:

الدكتور مصطفى جواد



* اسم الكتاب: رحلة أبي طالب خان الى العراق وأوروبة
* ترجمها من الفرنسية الى العربية: الدكتور مصطفى جواد
* الطبعة الأولى لدار الورّاق للنشر: 2007.

* تصميم الغلاف: جبران مصطفى.
* صورة الغلاف: لفنان مجهول من القرون الوسطى.
* الناشر: دار الورّاق للنشر ـ بغداد.

First edition in Arabic by Alwarrak Publishing 2007

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
Suite 500, 56 Gloucester Road,
London SW7 4UB. UK
Fax: 0044-207 581 9213
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 6435-113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

الإهداء

إلى أصدقاء خالي مصطفى جواد الأوفياء
والذين لم ينسوا فضله وعلمه.
كانوا وما زالوا يذكرون مآثره على الدوام
أهدي هذا الكتاب

حسين إبراهيم السمّاك

حياة العلامة الدكتور مصطفى جواد في سطور

بقلم: سالم الآلوسي

روعت الأوساط العلمية والأدبية بإعلان نبأ وفاة صديقنا العلامة الجليل والمؤرخ الثبت والأديب الضليع الدكتور (مصطفى جواد) مساء يوم الأربعاء 7 شوال 1389هـ الموافق 17 كانون الأوّل 1969م بمرض القلب الّذي أبتلي به قرابة أربع سنين، وبالرغم من وطأة مرضه وحاجته إلى المعالجة والراحة، واصل الفقيد جهوده في التأليف والبحث والترجمة فلم يقعده المرض ولم تثنه عن عزمه شدّة الآلام، ولما شعر الفقيد بدنو أجله كان يتحامل على نفسه مردداً البيت التالي:

كأن فؤاده كرةٌ تنزى   حذار البين لو نفع الحذار

فكنت تراه يدخل المكتبة ليؤلف كتاباً في تاريخ كان قد بدأ به، أو يترجم كتاباً يرى فيه فائدة تاريخية، أو يدبج مقالة يجد فيها طرافة لغوية، وكثيراً ما كان يردّد عليّ قوله: «الموت سنة الله في خلقه، وأمنيتي أن أنجز قبل أن أموت، بعض البحوث والمؤلفات الّتي أراها نافعة للمؤرخين والأدباء والباحثين».

* * *

ومن بين تلك الكتب الّتي تناول تعريبها من الفرنسية هذا الكتاب الّذي يجده القارئ الكريم بين يديه «رحلة أبي طالب خان» وقد زرناه عصر يوم من الأيّام من أيّام ربيع 1969م الاستاذان جعفر الخليلي، وفؤاد عباس

وأنا، فوجدناه ـ رحمه الله ـ طلق المحيا رضي النفس فقلنا له: الحمد لله صحتك جيدة! فأجابنا: كلا: يا أيُّها الاخوان الأعزاء، صحتي ما زالت بتدهور مستمر، وآلامي تتزايد فلم يبق ـ بعد أن عجز الأطباء ـ إلا رحمة الله، وإذا ما وجدتموني فرحاً مستبشراً، فقد أعانني الله على الفراغ من ترجمة «رحلة أبي طالب خان» ولم يبق أمامي إلا سيرة هذا الرجل، وقد أعياني البحث في المظان والمراجع المتوفرة بمكتبتي فلم أعثر على ترجمة له، ثمَّ التفت ـ رح ـ إلى الأستاذ جعفر الخليلي ورجاه أن يبحث له في المصادر الفارسية علَّه يجد «ما يروي الغلة ويشفي العلة» كما قالها ـ رحمه الله ـ ضاحكاً.

إن فقد العلامة أبي جواد، خسارة لا تعوض، وتلبية لطلب ابن أخته، السيِّد حسين إبراهيم السمَّاك، الَّذي أشرف على طبع هذه الرحلة، بتدوين سيرة الفقيد رأيت أن أقدم هذه النبذة الموجزة الَّتي جعلتها بشكل مسرد تاريخي، لتصدير الكتاب بها، تاركاً أمر كتابة سيرته مفصلة، وقد بدأتها، إلى وقت قريب إن شاء الله.

1904م ـ ولد الفقيد في محلة «عقد القشل» ببغداد، في جانب الرصافة إلا أنني أعتقد أن تاريخ ولادته أسبق من هذا بسنتين كما هو مثبت على (دفتر هويته) الصادر عام 1924 عندما كان معلماً في الناصرية في هذه السنة. وكان والده جواد بن مصطفى ابن إبراهيم، الَّذي ينحدر عن عائلة تركمانية، كما صرح لي في عدَّة مناسبات، خياطاً بسوق الخياطين المجاور لخان مرجان (دار الآثار العربية اليوم).

أمَّا أمّه فهي هدية بنت طالب من عائلة عربية.

ـ انتقل مع والده الَّذي كف بصره إلى قضاء دلتاوة (الخالص اليوم) بمحافظة ديالى.

ـ درس القرآن الكريم، عند كتاب معلمة تعرف: (الملة صفية).

ـ دخل مدرسة دلتاوة الابتدائية الَّتي كانت تُسمَّى بـ(المكتب) يومذاك.

1917 ـ دخل الجيش الإنكليزي المحتل «دلتاوة» وكانت هذه السنة آخر أيام دراسته في العصر العثماني.
بعد وفاة والده، اضطر إلى الانقطاع عن الدراسة، فاشتغل مع أخيه الأكبر ـ كاظم ـ في إدارة بساتين والده في «دلتاوة».

ـ بعد عودته إلى بغداد أدخله أخوه «كاظم» المدرسة الجعفرية ومنها انتقل إلى مدرسة باب الشيخ الابتدائية، الّتي كان مديرها أيّامئذٍ المرحوم السيّد هاشم الآلوسي.

1920 ـ عاد إلى دلتاوة بسبب ضيق حالته المعاشية للانتفاع من غلة البساتين.

1921 ـ دخل دار المعلمين الابتدائية بعد اجتيازه امتحاناً في العربية والرياضيات (الهندسة).

ـ خلال دراسته بدار المعلمين نظم أولى قصائده الشعرية.

1924 ـ تخرج من دار المعلمين وعين معلماً في مدرسة الناصرية الابتدائية براتب 170 روبية.

1924 ـ نشر بعض قصائده في مجلة المعلمين الّتي كان يصدرها السيّد هاشم السعدي ـ رح ـ.
نقل للتدريس في مدرسة السيف الابتداية في البصرة ولبث فيها نصف سنة.

1927 ـ نقل بعدها إلى مدرسة الكاظمية الابتدائية مدرساً للغة العربية وفروعها.

1928 ـ تزوج من زوجته الحالية السيّدة شفيقة مصطفى الطباطبائي.

1928 ـ نقل من مدرسة دلتاوة الابتدائية إلى ديوان وزارة المعارف (وزارة التربية والتعليم اليوم) للتحرير ومساعدة أستاذه المرحوم يوسف عز الدّين الناصري.

- نقل بعدها للتدريس في المدرسة المأمونية بدل الأستاذ الشاعر محمَّد مهدي الجواهري.

- كان ينشر في مجلة لغة العرب ألَّتي كان يصدرها الأب أنستاس ماري الكرملي لمدة أربع سنوات.

1932 - بالنظر لضآلة راتبه، قرر الاستقالة من وزارة المعارف ليكون معلماً في مدرسة الآباء اليسوعيين ببغداد، فتدخل بعض رجال المعارف وعاونوا على نقله إلى ملاك المدارس الثانوية، فعين مدرساً في المتوسطة الشرقية.

1934 - رشح للبعثة العلمية في الولايات المتحدة للتخصص في علم الآثار، ولما رأى صعوبة السفر إلى هذه البلاد النائية، قرر السفر إلى فرنسا.

- سافر إلى القاهرة ودخل كلية الآداب فيها مستمعاً، ثمَّ عكف على دراسة اللغة الفرنسية.

وفي القاهرة نشر للأب أنستاس الجزء التاسع من تاريخ الجامع المختصر لابن الساعي المؤرخ البغدادي.

- نشر في مجلة المقتطف بعض قصائده.

1934 - رحل إلى باريس ودخل (السوربون) بجامعة باريس لدراسة الآداب العربية وعلومها.

1939 - تخرج من السوربون بعد أن نال شهادة الدكتوراه.

1940 - عين في دار المعلمين العالية (كلية الآداب اليوم)، وبقي فيها حتَّى عام 1944.

1944 - عين في مديرية الآثار العامَّة ملاحظاً فنياً، وكان من المؤسسين لمجلة «سومر» وقد نشر فيها عدداً من البحوث والمقالات الأثارية والخططية.

1946 - انتخب عضواً في لجنة التأليف والترجمة في وزارة المعارف.

ـ سافر إلى عدد من الأقطار العربية والشرقية والأوروبية، فزار مصر، سورية، لبنان، تركية، إيران، الهند، فرنسا، إنكلترا، إيطاليا، يوغسلافيا وسويسرا.

1948 ـ انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

1949 ـ انتخب عضواً في المجمع العلمي العراقي فنائباً للرئيس، وبعدها انتخبه مجمع اللغة العربية بالقاهرة عضواً فيه، وكان دوره في جميع هذه المجامع دور العالم المحقق الثبت.

شارك في عدد من المهرجانات العلمية الدولية، كمهرجان ابن سينا ببغداد وطهران 1954 ومهرجان الغزالي بدمشق.

سافر للمعالجة من مرضه إلى لندن 1966

وجيكوسلوفاكيا 1968

ألمانيا الديمقراطية 1969

نشر عدداً من المؤلفات وحقق بعضاً من كتب التراث ونشر مئات من البحوث والمقالات في التاريخ واللغة والأدب ودراسات في الفنون الشعبية (ألتي كان يفضل تسميتها بالفنون العامية).

ـ آخر كتاب صدر له «قل ولا تقل» الجزء الأوّل وقد نشره ابن أخته السيّد حسين إبراهيم السّماك.

سيرة أبي طالب خان

هو أبو طالب بن محمَّد خان، كما ذكر هو في سيرة نفسه في أوّل رحلته، وقد فصلنا ذلك عن رحلته، وسنذكره بنصه قبل سرد الرحلة، وذكر أن أباه كان يلقب بالحاجي وبالبيك فاسمه ولقبه هما «حاجي محمَّد بيك خان» وأصله تركي وولد بأصبهان، وقد اضطر جور الشاه نادر شاه أباه أبي طالب منذ شبيبته أن يهاجر إلى البلاد الهندية والتجأ إلى أبي المنصور خان النواب فأحسن استقباله وتلقَّيه واصطنعه، ولما مات نويل راي والي كورة أوده خلفه في هذا المنصب الخطر تعييناً محمَّد قلي خان ابن أخي النواب المذكور آنفاً، وصار والده من أقرب المقربين إليه ثمَّ مات النواب أبو المنصور خان سنة 1167هـ ـ 1753م وخلفه ابنه شجاع الدولة، وقد حمله حسده لابن عمه محمَّد شجاع أن أمر باعتقاله وقتله، وشاعت قسوته وعمَّت حتَّى أتباع القتيل، فأراد أن يعتقل والد أبي طالب حاجي محمَّد بيك مع أنه كان قد اعتزل قبل وقوع هذه المصيبة وسكن هو وعياله لكنو[1]. ولما علم والده بما نواه النواب شجاع الدولة التجأ إلى البنغال مع أفراد من خدمه، وكان سفره سفر الخائف بحيث لم يحمل معه إلا ذهبه وجواهره، وبقيت أمواله الأخرى تحت سطوة مضطهده، فقضى عدَّة سنين في البنغال ثمَّ مات في مقصود آباد سنة 1182هـ ـ 1768م وكان قد استقدم أهله قبل ذلك.

وكان أبو الحسن جده لأمه رجلاً تقياً ديناً صيناً، وكان من بلد بهاء الملك سعدي خان جد ملك أوده الحالي وكان مخلصاً له كل الإخلاص

(1) وتعرف أيضاً بلكأنو وهي من مدن البلاد الهندية المشهورة. (المترجم).

حتّى لقد اعتزل الأعمال كلها بعد وفاة هذا الأمير وعزم على قضاء ما بقي من أيّامه في الاعتزال.

وولد أبو طالب في لكنو سنة 1167هـ ـ 1753م، ومع الحقد الّذي حقده على والده النواب شجاع الدولة لقيت والدته من الحاقد المضطهد عوناً لذكرى العلاقات الّتي كانت بين الأسرتين، وأوصاها إيصاءً صارحاً أن تحسن تعليمه وتهذيبه، وكان والده حين عزم على الإقامة في البنغال كتب إلى أمه في أن تقدم عليه هي وأولادها جميعاً، فتركوا لكنو وسافروا براً إلى باتناه ومن هناك أبحروا إلى مقصود آباد، وكانت هذه أوّل سفرة لأبي طالب وكان له أربع عشرة سنة من العمر، وبعد أن لبث في مقصود آباد نحواً من سنة ونصف سنة توفي والده في السنة المذكورة، وألقيت كل أعمال العامّة والخاصّة عليه وأسندت إليه، وكان أهله قبل هذا الحادث المشؤوم قد خطبوا له فتاة من ذوي قرباه القريبة من أسرة مظفر ينك نواب البنغال وعقدوا عليها، فقضى عدّة سنين في خدمة ذلك الأمير، وبعد سنين خلف آصف الدولة مسعوداً الأودي ودعاه كبير وزرائه مختار الدولة أن يعود إلى لكنو فعاد وأسند إليه وظيفة أوميلدار في أيتايا وهي وظيفة استيفاء الضرائب وتعتمد على قوّة عسكرية، وكذلك عدّة أصقاع واقعة بين نهر جمّاه ونهر الكانج، وبقي في هذه الوظيفة سنتين يطوف البلاد غالباً ليجمع واردات العرش، وبعد أن مات حاميه وولي حيدر بك خان فقد وظيفته وعاد إلى لكنو[1].

وفي أثناء هذه الحروب والأحداث عين الكولونيل «ألكسندر هاناي» مستوفياً في كوروك بور فاستأذن النواب في أن جعله معاوناً له، وكان أبو طالب يقيم تحت خيام باستمرار ثلاث سنوات يباشر فيها هذه الوظيفة، أو تحت أكواخ من البواري ومن الخيزران ثمّ نحي الكولونيل عن هذه الوظيفة فرجع مرّة أخرى إلى لكنو، وسرعان ما حدث خلاف بين حيدر بك خان ووكلاء شركة الهند، سبب اضطراباً في الشؤون المالية فقد أخذت واردات المملكة تنقص يوماً بعد يوم مع أن جباة الخراج والضرائب كانوا يأخذون

(1) وتُسمّى أيضاً لكانو كما ذكرنا آنفاً. (المترجم).

بالقسر والقهر من ملتزمي الأرضين مبالغ هي أعظم ممَّا كانوا يأخذون منهم من قبل، فأفرطوا في جورهم حتَّى لقد ثار عدد كبير من الملتزمين، يرأسهم الراجا بولبودرسنك، وهذا الرئيس سليل ملوك الهند بخط مستقيم، وإذ كان في طاعته مائة ألف راجبوتي وكان يُعد مماثلاً للنواب الوزير الَّذي لا يود الراجا الاعتراف بسلطته، فأرسل عليه، لإخضاعه، جيشاً مؤلفاً من جنود النواب نفسه والسيبويين الريفيين، ولكن دسائس حيدر بك خان والجباة أحبطت هذا الهجوم، وتردت شؤون النواب تردياً حمل المستر هاستينكز[1] الحاكم العام على استقالة سلطته في الأمر، وأوعز إلى ميدلتن[2] أن يستشير أبا طالب فيما يتخذ من التدبير والتشمير لإخضاع الراجا المذكور آنفاً وإعادة النظام التام إلى البلاد، وعلم أبو طالب أن حيدر بك خان لم يستطع أن يشارك في تحمل الاضطراب في أمور النواب، وأنه ما دام مقرباً معاضداً سنثيره أعماله وتحنقه، أو تؤدِّي إلى تلفه فأراد أن يبقى محايداً في الأمر ولكن الوكيل الإنكليزي ألح وحلف لأبي طالب ليحمينه من أعدائه فأجابه إلى رجائه وأخذ أبو طالب يتعقب الراجا بولبودرسنك مدة سنتين وهزمه في عدَّة وقعات ثمَّ استولى على معسكره وقتل الراجا وهو يحاول الهرب، وأنقذ أبو طالب النواب من عدو كان يسعى منذ ستين سنة لإتلاف أسرته وأعاد السلام إلى البلاد، ومنذ هذا الحين بدأت الملمات تنزل على أبي طالب فإن ميدلتن غادر لكنو، وعاد هاستينكز إلى إنكلترا، وبقي أبو طالب في متناول أعدائه، وقد نال حيدر بك خان ببراعته ورثائه الحظوة عند الحاكم العام الجديد، وأظهر له عدَّة سنوات إمارات الرعاية والعناية، واجتهد أن يقبل وظيفة في وزارته، فلما أخفق في اجتهاده قلب له ظهر

(1) هو هاستينكز وارن، ولد في جرجيل ببريطانية سنة 1732م ونشأ في تلك البلاد وتعلم فيها، وفي سنة 1750 سافر إلى البنغال ببلاد الهند ورتب كاتباً فيها وبعد سبع سنين رتب وكيلاً لشركة الهند الشرقية في بلاط نواب البنغال ثمَّ ترقى في الدرجات إلى أن صار حاكم الهند العام وكان دارساً للآداب الشرقية، واتهم باحتجان أموال الدولة ثمَّ بريء وتوفي في ديليسفورد سنة 1818م. (المترجم).

(2) هو ميدلتن توماس فانشو 1769 ـ 1822م أوَّل أسقف في كلكتا وقد أسس فيها كلية لتعليم المبشِّرين بالنصرانية. (المترجم).

المجن وتنمر له وقطع ستة آلاف الروبيات الّتي كان يقبضها معاشاً له فمن ثمّ عزم أبو طالب على الرجوع إلى البنغال وركب سفينته في نهر الكانج سنة 1202هـ ـ 1787م وجاء إلى كلكتا ليرفع شكواه إلى اللورد كورنواليس[1] فتلقاه بأدب وافر ووعده أن يحميه ويجعله في حيزه، وإذ كان على عزم السفر إلى مدراس لمباشرة قيادة الجيش المرسل على السلطان تيبو صاحب بقي أمر أبي طالب معتلاً مختلاً زمناً متطاولاً أربع سنوات. وفي هذه الفترة من عمله استقدم عياله إلى كلكتا وهجره أصدقاؤه بالتدريج لما رأوا تخلي الحظوة والحظ عنه، على عادة الأصدقاء المنتفعين. وقد أفنت ماله النفقات الّتي أنفقها على نقل عياله في هذه المسافة الطويلة إن صح القول، وزادت همومه بموت ابنه في عمر أربع سنوات ضحية لوبالة المناخ وجهالة الأطباء في كلكتا.

ولما رجع كورنواليس إلى البنغال تذكر الوعد الّذي وعده أبا طالب وكان حيدر بك خان قد توفي منذ زمن غير بعيد فأرسل كورنواليس أبا طالب إلى لكنو سنة 1207هـ ـ 1792م وزوده كتب توصية به إلى الوكيل الإنكليزي «جيري» وإلى النواب آصف الدولة. وقد أحسن أتباع آصف الدولة في الحقيقة استقباله، ولكنه بقي يوماً بعد يوم يأمل أن يبلغه خبر ترتيب له في بعض المناصب إلا أنه لسوء حظه غادر كورنواليس بلاد الهند، ومنذ ذلك الحين حبطت آماله، وأقصي النواب آصف الدولة المستر جيري من لكنو، وأصدر في الوقت نفسه أمراً إلى أبي طالب بأن يترك المدينة، واعترض أبو طالب على هذا التحكم فكان اعتراضه غير مجد شيئاً، وصمّت الآذان عن شكواه فترك أفراداً من عياله في لكنو وأرسل بالباقين إلى الله آباد ورجع هو إلى كلكتا مرّة ثالثة سنة 1210هـ ـ 1795م. وكان السير «جون شور» الّذي عرف باللورد تيكماوث حاكماً عاماً فأحسن استقباله ولطف به، ووعده أن يسعى في إزالة شقائه وبلائه إلا أن آصف

---

(1) هو كورنواليس شارل المركيز 1738 ـ 1805م، دخل الجيش البريطاني سنة 1756 وخاض عدّة معارك وخصوصاً سنة 1780 وسنة 1781 ثمّ رتب حاكماً عاماً لبلاد الهند وقهر السلطان تيبو صاحب سنة 1791، وعين بعد ذلك نائباً عن الملك في إيرلندا وقاوم عدّة ثورات فيها. وقبل وفاته بقليل أعيد ترتيبه حاكماً عاماً لبلاد الهند. (المترجم).

الدولة مات بعد زمن قليل، ولم تترك لجون شور الاضطرابات الَّتي حدثت بوفاته وقتاً للتفكير في شأن أبي طالب قبل أن يسافر إلى أوروبا.

إن السنوات الثلاث الَّتي سلخها أبو طالب في كلكتا قد تركه فيها جميع أصدقائه وأتباعه، وزاده غماً ترك خدام أبيه القدامى إيَّاه، فرأى نفسه في حال تستحق الترثي وإذ ذاك زاره صديقه الاشتيام[1] «داود ريشاردسن» ولكونه يحسن الفارسية والهندية حادثه في أمور مختلفة وأعلمه أنه قد نوى الرجوع إلى أوروبا، آملاً أن يعيد إليه صحته هواء بلاده الأصلية، فإن صحته أخذت تتردى يوماً بعد يوم، وأنه سيعود إلى كلكتا بعد ثلاث سنوات، وقال لأبي طالب: «أنت في عطالة الآن فاصحبني في هذه الرحلة فتغيير المجال ورؤية العجائب والغرائب الَّتي في أوروبا تنفي عنك هذه السوداء الَّتي أرهقتك وسأحاول تعليمك اللغة الإنكليزية في أثناء السفرة البحرية هذه وأقضي جميع حاجاتك». وبعد أن فكر أبو طالب في هذا الأمر بعض الوقت رأى أن الرحلة طويلة وخطرة جداً، ومع ذلك فقد اعتزم السفر فلعلَّه يرى حادثاً ينهي حياته وآلامه معها، ولم يفرط في الوقت بل ذهب في غد ذلك اليوم واستأجر موضعاً للسفر في السفينة شارلوت إحدى سفن شركة الهند إلا أن سوء الحظ أدى إلى احتراق هذه السفينة بعد أيَّام قليلة، ومع ذلك فقد كان مصمماً على السفر، فأبحر من غير تلبُّث على السفينة «كرستيانا» واشتيامها يُسمَّى نيتلمان وكانت على عزم الإقلاع إلى الدانمارك.

هذا ما ذكره أبو طالب من سيرة نفسه في أوَّل كتاب رحلته بالتحرير والتحبير، وقد ظهر للقارئ أنه لم يذكر سنة ميلاده وإنما استنتجناها من كلامه، ولا ذكر المدرسة الَّتي درس فيها، ولا المدرسين الَّذين درَّسوه، ولا العلوم والفنون الَّتي درسها، بله إن الإنسان إذا ذكر سيرة نفسه وكتبها بقلمه كانت عرضة للنقد والتحقيق أكثر منها لو كتبها غيره من غير المعروفين بمعاداته، وبان من هذا الجزء من سيرته أنه كان عالماً بأمور الحساب والجباية، وقاد جيشاً لمحاربة راجا ثائر وأخضعه، وأنه كان يلتجيء

---

(1) الاشتيام ربان السفينة، وقد وردت في شعر البحتري وغيره. (م).

للإنكليز غالباً في نيل منصبه، ولعلّ ذلك كان من أسباب كراهة ناس من الحكّام الهنود وغيرهم له وتحلتهم له عن موارد العيش الهنيء، مضافاً إلى نباهته وذكائه، وقد دلّت سيرته الّتي اتضحت من رحلته المحررة أنه درس الآداب الفارسية فضلاً عن اللغة الفارسية، وأنه كان شاعراً في هذه اللغة ينظم قصائد ومسمّطات قد ترجمنا ما وجدنا منها في الرحلة، وألّف كتاباً في المختارات الشعرية بالفارسية، وقد ادعى عند وصوله إلى القسطنطينية أنه من سلالة النّبي محمّد ﷺ أي علوي واشترى من سوقها عمامة خضراء كعمامة العلويين في أيّامه وما قبلها بزهاء مائتي سنة وما بعدها، ولكنها كانت زرقاء لأن سوق القسطنطينية كان مظلماً فبيعت له الزرقاء مكان الخضراء، مع أنه لما كان في فرنسا صبغ عمامته بالحمرة، ونسي أنه قال في أوّل رحلته «والدي كان يُسمّى حاجي بك خان وكان تركي الأصل ولكنه ولد بأصبهان.. وجدي الأمير أبو الحسن بيك كان زاهداً تقياً ديناً صيناً». ولقبُ «البيك» لأبيه وجده لأمه يؤيد كونه من أسرة تركية فكيف يكون علوياً؟ هذا ما لا أستطيع الإجابة عنه ولا كتب هو ما يسوّغ دعواه، ودلّت أخباره في رحلته داخل البلاد الإسلامية أنه كان شيعياً حاد العقيدة جاد المذهب، في العصر الّذي كان فيه الأتراك العثمانيون والقاجاريون ومتأخرو الصفويين قبلهم يوقدون نار التعصب الذميم البغيض بين أهل السُنة والشيعة إيقاداً مستداماً محتدماً، وقد نال في أوروبا جاهاً فدعاه الملك جورج الثالث مرّات ودعاه نابليون الأوّل إلى حفلته إلا أنه كان مريضاً.

ترجمة أبي طالب في كتاب تراجم عالمية ودائرة المعارف البريطانية

وقد وجدنا لأبي طالب ترجمة في كتاب «تراجم عالمية» وهي بالفرنسية، وقد ذكر في الجزء الأوّل منها في نشرتها الجديدة بباريس سنة 1843م وتكاد عامتها تكون مستخلصة من رحلته المحررة، قال كاتبها ـ 1: 85 ـ: «أبو طالب مرزا سائح وأديب ولد سنة 1751م في لكنو. . . وقد ترجم للسلطان سليم الثالث القاموس في مجلدين (إلى الفارسية) ترجمة كاملة مصححة وخلع عليه السلطان إلا أنه رفض الهدية الّتي أهداها إليه عند عزمه على ترك القسطنطينية مكتفياً بالوعد الّذي وعده السلطان به وهو طبع الكتاب في القسطنطينية. . . وأخذ منه إجازة وفرامين لبواشية مختلفين في السلطنة التركية، وقد غادر عاصمة العثمانيين في اليوم الثاني عشر من كانون الأوّل في طريق أماسيه وسيواس وملطية وديار بكر وماردين ونصيبين وكردستان والموصل ثمّ وصل إلى بغداد في اليوم الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة 1803م. وفي أثناء إقامته بهذه المدينة زار المدن المقدّسة المشهورة كمدينة الإمام علي ومدينة الإمام الحسين وكان الوهابيون قد سلبوا ما فيها، وقد فصل أمرهم تفصيلاً غريباً ووجد هناك إحدى عماته وكانت قد ألجأتها صروف الزمان إلى ترك الدُّنيا والانقطاع للتأمُّل والعبادة في المدينة المقدّسة، وكان الوهابيون قد سلبوا منها جميع ما عندها فأعانها أبو طالب بما استطاع. وترك أبو طالب بغداد في اليوم العاشر من آذار من السنة المذكورة قليل الرضا عن الوكيل الإنكليزي مضيفه، ذلك لأنه رفض من أجله مثوى في دار الباشا، وانحدر في دجلة إلى البصرة وسكن عند

سفير إيراني، وقد امتعض من عجرفة القنصل الإنكليزي «مانستي» وطمعه ثمَّ أبحر من البصرة في اليوم العاشر من أيار في مركب لهذا الوكيل ونزل في اليوم الثالث من حزيران في بومباي... إن رحلة أبي طالب خان في آسيا وإفريقيا وأوروبا الَّتي كتبها بنفسه بالفارسية ترجمت إلى اللغة الإنكليزية وربَّما كانت ترجمتها طبق المخطوط، ومترجمها «ج ستيوارد» ونشرت سنة 1810م بلندن ثمَّ طبعت ثانية في كلكتا في السنة نفسها في مجلد واحد، وعن الترجمة الإنكليزية ترجمت إلى اللغة الفرنسية، ترجمها جي سي جانسن ونشرها مع نقض للآراء المعروفة في أوروبا في حرية النِّساء بآسية، كتبه المترجم نفسه في باريس سنة 1811م بجزئين وترجمت إلى اللغة الهولندية ترجمها ليندن سنة 1813 في مجلدين. والنص الفارسي لرحلة أبي طالب خان قد نشر عند موته، نشره ابنه مرزا حسين علي بكلكتا في مجلد كبير ضخم، وكنا قد تحققنا من أي ترجمة استمدت الترجمة الفرنسية الَّتي نشرها «ش. مالو» بباريس سنة 1819 وهي النشرة الثانية بالفرنسية... وقد الف أبو طالب لباب التواريخ وهو مختصر جغرافية أوروبا وتاريخها...

وقد وجد الأستاذ الأديب الفاضل فؤاد عبَّاس ترجمة لأبي طالب في دائرة المعارف البريطانية وتفضل بترجمتها إلى العربية ونحن نذكرها بنص ترجمته، وهذا نصها «أبو طالب خان 1752 ـ 1806م: أبو طالب خان ابن حاجي محمَّد بك من أصل تركي، ولد في لكناو، وقد قضى سنيه الأُولى في مرشد آباد في مظفر جنك، وحين اعتلى آصف الدولة العرش سنة 1775م رجع إلى أوده وعين عملدار منطقة اثاوة ومناطق أُخرى غيرها، وخدم أيضاً موظفاً للواردات تحت إرادة الكولونيل هناي الَّذي مصر قطر سوار واستخدم من بعد ناثانائيل ميدلتون المقيم البريطاني فأشركه مع ريشارد جونسن في إدارة (الجاكير): ضرائب الأراضي المصادرة من بيكمات أوده، وبقي في أوده حتَّى سنة 1796، وفي شباط سنة 1799 أبحر من كلكتا قاصداً أوروبا فزار إنكلترا وفرنسا وتركيا وبلاداً أُخرى ثمَّ رجع إلى الهند في آب من سنة 1803 وضمن رحلاته في كتابه (مسيري طالبي في بلادي إفرنجي) المطبوع سنة 1812 وترجمه إلى الإنكليزية س. ستيوارت سنة 1814

وترجمه إلى الفرنسية ش. مالو سنة 1819 والف أيضاً (لب السير) و(وجهانما) و(خلاصة الأفكار). وكتابه تنبيه الغافلين الَّذي أرخ فيه مدينة أوده تحت حكم آصف الدولة يعد مرجعاً مهماً كما قام به حيدر بك وبعض المقيمين الإنكليز وينطوي على دفاع حار عن سياسة هناي في إدارة الواردات وترجمه إلى الإنكليزية (و. هوي) سنة 1888م. وأبو طالب خان هو الَّذي نشر الطبعة الأولى لديوان حافظ في كلكتا سنة 1791م؛. وذكر المترجم الأديب الفاضل بعد ذلك مرجعين لهذه الترجمة الفرنسية في نقاط مهمة من سيرة أبي طالب، وكانت وفاته سنة 1221هـ.

أمَّا ترجمتنا هذه فهي من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ولم نستطع معرفة مترجمها الفرنسي لأن لها في هذه اللغة ترجمتين لأديبين فرنسيين قدمنا ذكرهما، والنسخة الَّتي امتلكناها في باريس أيَّام كوننا بها كانت قد سقطت منها الصفحة الأولى الَّتي ذكر فيها اسم المترجم، إلا أنها تدلُّ على براعة في الترجمة وتفهم لأغراض الراحل، وعلو كعب المترجم في الكلم الفرنسي الغريب ولم يحذف هذا المترجم منها إلا فقرات ذكرها الرحالة أبو طالب في التشريح عندما اطلع في اكسفورد على التشريح الحديث وقد أشير إلى الحذف في موضعه من الرحلة.

رحلة أبي طالب خان

رحلة أبي طالب خان من نوادر الرحل في العالمين في موضوعها وأسلوبها وبراعة كاتبها وشمول ملاحظاته، فالمألوف في عصره وقبله وبعده أن الأوروبيين كانوا يسيحون في بلاد الشرق ويكتبون في وصفه رحلا وفي آثاره كتباً، ولا نزال نتسقط أخبار الشرق المتأخرة من رحل الأوروبيين فيه وخصوصاً أخبار العراق، أمّا أن شرقياً يسيح في بلاد أوروبة ويصفها هذا الوصف المسهب فيه، المحتوي على كل غريب وطريف، فضلاً عن التاريخ السياسي الّذي عاصره الرحالة، فهذا من أندر النوادر في عصره ولذلك أسرع الإنكليز والفرنسيون والهولنديون إلى ترجمة الرحلة إلى لغاتهم. لوجدانهم فيها أوصافاً ومباحث وأموراً خاصة ببلادهم لم يجدوها عند كتابهم ورحاليهم فإن أبا طالب كان نافذ الملاحظة منعم النظر مثقفاً ثقافة شرقية عالية قلّما يفوته ذكر شيء ممّا وقع عليه بصره أو تناوله في أثناء السياحة فكره، وستبقى رحلته مثالاً لتأليف الرحلات والاستقصاء والشمول، ولقد أحسن تنظيمها وحبكها والظاهر لنا أنه كتبها مذكرات متفرقة فلما عاد إلى بلاده رتبها ونظمها وأحسن تأليفها وأحال عند الحاجة إلى الربط بين أجزائها وأنبائها على ملاحظات متأخرة قبل أن يلاحظها[1]، كما أحال على ملاحظات متقدّمة لاحظها، ففي الأوليات دليل على أن التأليف وقع بعد الارتحال.

---

(1) كقوله وهو يصف كورك بإنكلترا: «وقد كنت رأيت في خليج جنوة في سياحتي ومضيق الدردنيل» قبل أن يراهما. (م).

المرأة في رحلة أبي طالب

وممّا لحظناه وتبيناه في رحلة أبي طالب نصيب المرأة الوافي فيها، فقد ظهر لنا أن أبا طالب كان زير نساء مغرماً بهن، وصّافاً لجمالهن، كثير التملّق لهن، وافر الغزل، ونحسب أن من أسباب الإقبال عليه والالتفات إليه في أثناء إقامته بلندن غرامه بالنّساء وإطراءه لهن ونظمه أشعاراً في محاسنهن، ومن الأدلة على تملقه للنّساء تكراره عبارات استحسان الجمال، وهو فوق ذلك قلّما مرّ ببلدة أو مدينة أو قرية فلم يصف نساءها فضلاً عن الحفلات والمراقص والضيافات والمآدب الّتي حضرها، فلم يفته فيها ذكر بنت حوّاء، ويفهم من كلامه أنه عاشر إنكليزية في لندن معاشرة مخادنة، ورأى من حرية المرأة الإنكليزية إذ ذاك ما سهّل له ذلك، وساعده على نيل القبول من النّساء جمال له شرقي يلوح لنا من أثناء كلامه وبياض لون وسط مخالف لما عرف من ألوان الشرقيين[1] كما يفهم من بعض اقتصاصه، ولعلّ ذلك ناشئ من كون أصله تركياً وأن أباه عاش في أصفهان وهي مدينة باردة المناخ وأهلها موصوفون ببياض البشرة وحمرة الوجنات وليس بعيداً أن والدته كانت فارسية من أصفهان، والغالب على الأبناء أن يرثوا في أجسادهم ملامح أمّهاتهم وألوانهن، بَلْهَ لباقته وأناقته وبراعته في الحديث وأدبه وقريحته الفياضة بشعر الغزل، وأمثلة ذلك قوله في وصف مدينة الكاب بأفريقية: «فهكذا كانت ظرافة الضابط كولنز وزوجته السيّدة كولنز تلك الظرافة الّتي جعلتني أقضي ظهيرة جدّ مستحسنة في حياتي» ثمّ قال في

---

(1) يدلّ على ذلك قوله: «واتفقوا على ظنّهم أنّي أمير فارسي» وذلك بعد قوله: «وآخرون يحسبون أنّي من سادات الألمان أو أسباني».

وصف نسائها «فالنِّساء الهولنديات قد تعودن كثيراً أن يتخطين المهاوي حتَّى ليصحبن أزواجهن دائماً في هذا النوع من التنزهات» ثمَّ قال: «ولكن الشابات الهولنديات حسنات الأجسام كثيرات النشاط ولا يستطيع الإنسان أن يتهمهن بالقسوة والفظاظة[1] ومن سوء الحظ أنهن يردن أن تهدى إليهن هدايا جزيلة[2] والنِّساء الهولنديات المتزوجات سيِّئة سمعتهن والإنكليز الَّذين لهم بعض الغنى كل واحد منهم قد خادن سيِّدة منهن يزورها اعتياداً من غير أن يرى ممانعة أو مدافعة أو إباءً من زوجها، وقد جرت العادة بأن يعتزل الزوج زوجته حينما يصل خدنها الإنكليزي المدلل وهذا يعني أن الإنكليز ينفقون جميع ما يحصلون عليه وما يربحون» ثمَّ قال: «ويطيب لي أن أذكر بالثناء الحسن رجلاً اسمه المستر بومكارد، وهو هولندي ظريف... وامرأته كانت جد متحببة وكانت ذات علم غزير وتتقن سبع لغات مختلفات» وقال: «ولكنِّي لا أستطيع أن لا أقول كلمات على الأمسيات الساحرة الَّتي أمضيتها في دار الليدي بارنيت المعروفة عموماً باسم أميرة الكاب فكنت غالباً أكون في دارها مع شابة إيرلندية ذات جمال كامل» وقال بعد ذلك: «وإذ كنت أجهل اللغة الهولندية كان من المحال أن أكالم النِّساء الشابات الهولنديات ومع ذلك فقد رقصن بحضوري رقصاً شهوانياً ونظرن إليَّ نظرات معبرات فأحمر خجلاً وأضطر أن أنزوي في ركن من أركان باحة الرقص، هذا وإن عدَّة أوانس تحرشن بي ذات يوم وأجملهن وكانت أجرأهن خطفت منديلي وقدَّمته إلى إحدى صواحبها فاستغرقن في الضحك كلهن وإذ ظهر أن صاحبتها لا تريد قبوله استرجعته منها قائلاً: أنا لا أهبه إلا لأجمل فتاة منكن. إشارة منِّي إلى عادة الأتراك في رميهم المنديل إلى المرأة الَّتي يريدون أن يقضوا اللَّيل معها، وتوجَّهت الدعابة بذلك على شيطانتي المحبوبة فانصرفت وقد ضرَّج الخجل خديها بالاحمرار». قال كل هذا في ذكر نساء الكاب وحدها، ثمَّ قال في وصف كورك وذكر رجلاً اسمه بيكر: «وعيال هذا الرجل الفاضل هم اثنا عشر شخصاً وفيهم ابنتا أخيه وإحداهما المعية محبوبة الخلق والأخرى جميلة

---

(1) أراد بالنسبة إلى الرِّجال الهولنديين.

(2) وأنى لأبي طالب الهدايا الجزيلة وهو مسافر بنفقات صاحبه؟!.

متحفظة، وعند الغداء عنيت بي السيّدات الف عناية ولم أر من نساء جميلات مثل هذه المداراة وقد خجلت من لطفهن شاكراً، وهؤلاء الملائكة من النّساء قدمن إلينا بعد ذلك الشاي وسألتني إحداهن هل هو محلى على الكفاية؟ فأجبتها: لا يمكن أن لا يكون كذلك وقد أعدته يدان جميلتان جداً[1]، فأخذت الجماعة تضحك جميعها وخجلت الفتاة كأنها وردة دمشق» ثمّ قال في وصف إيرلندا: «ولم أستطع كتمان إعجابي بالفتيات الشواب اللواتي يجرين بين هذه الجماعات إمّا بسبب البرد وإمّا لنشاطهن الطبيعي وهن لا يحسسن في جريهن إنساناً ويكاد الإنسان يحلف أنه يرى فيهن فراشات ترفرف». وقال في ذكر إحدى المآدب الّتي أدب إليها: «ولما رفعوا غطاء المائدة اقترب الشرب لصحة الملك والملكة ثمّ صحة عدّة نساء جميلات ممّن أعرفهن ولا أستطيع أن آبى ذلك على واحدة منهن» ثمّ قال: «والإيرلنديات ليست لهن أساليب جفاء وخشونة وإنما لهن عيون رفيقة رقيقة وشعور جميلة كشعور الإنكليزيات ولكنها ليست طويلة ولا جميلة كشعور الإيكوسيات وسحنتهن من سحنة الإيكوسيات وفيهن نشاط ناري وقوّة حيوية وحدّة أذهان». ثمّ قال في ذكر بعض الإيرلنديات: «والسيّدة فيلمنك لما علمت بأنّي عرفت زوجها في كلكتا رجت منّي أن أزورها في دارها في الحال وكان منها الف لطف وسألتني ذات يوم هل زوجها مبتهج في كلكتا؟ فقلت لها: كيف يمكن أن يكون سعيداً وهو بعيد عن صاحبة له لها هذا التحبب وهذه الظرافة[2]؟! فخجلت السيّدة فليمنك وقالت لي: إنك ملاق. وابنتان من بناتها قد صحبتا أباهن إلى الهند، وله ثلاث بنات أخر وهن جميلات كحور الجنة العين». ثمّ قال في وصف ما جرياته في لندن: «ودعاني شارل كوكرل مرّة في كل أسبوع إلى الطعام على مائدته الّتي كانت لي ابتهاج في حضوريها وأن أرى أجمل نساء إنكلترا».

وقد وصف لندن والجمال النسوي الّذي فيها نظماً مسمطاً بقوله وقد ترجمت نظمه شعراً:

---

(1) هذه من عبارات التملّق الّتي اعتادها أبو طالب لمخاطبة النّساء بها واجتذابهن ونيل رضاهن. (م).

(2) راجع حاشية الصفحة السابقة.

لنعش مستقبلاً في لندنا   نقف الأيام وقفاً حسنا
لجمال قد أثار الفتنا   من نساء فتيات صدننا
ولندع رؤية غرس وبنا

إن طوبى وهي أحلى مشتهى   وكذا السدرة ذات المنتهى
ثمّ دوح الجنة الوافي البها   لم تشر منك فؤاداً قد لها
بين سرو الأرض ممّا حولنا

فإذا ما لمتنا شيخ الحرم   في هوانا لم يكن منا ندم
قد حبانا اللّه دوماً بالنعم   وحمدناه وشيخاً يحترم
وله الشُكر وإحسان الثنا

املا الكاس إلى أصبارها   من عصير الكرم وأرقب نارها
لست أخشى أن تراني تائهاً   تاركاً مثل غفول قدسها
دين آبائي الألى عافوا للدنا

فربيع العمر وقف للجمال   كان في الهند وقد ولى وزال
وجمال الألبيون اليوم قال   أنا تعويض فلا تخش المآل
ولدى بسمته زال العنا

يا بديعات الجمال الفاتنات   قد سحرتن فؤادي يا بنات
بضفيرات غريبات الشيات   وبحسن قد عبدناه ولات
وملأتن حياتي بالهنا

إلى آخرها وهي مذكورة في هذه الرحلة بتمامها. وسيرى القارئ فيها كثيراً من أمثال ما ذكرناه.

ترجمة أبي طالب بقلمه

ودونك ما ذكره أبو طالب من سيرة نفسه في أوّل كتاب رحلته وهذا نصّه قال: «4»[1].

«أحسب أن من الواجب عليّ أن أحدّث القارئ بعدّة خصوصيات من تاريخي قبل أن أقصّ أخبار رحلتي، فوالدي كان يُسمّى حاجي محمّد بك خان، وكان تركي الأصل مولوداً في أصبهان ومنذ شبيبته اضطره بغي نادر شاه إن يهاجر إلى بلاد الهند وفيها أحسن استقباله وتلقيه النواب أبو منصور خان ولما توفي نويل راي حاكم رستاق أوده نال منصبه المهم محمّد قلي خان ابن أخي النواب، وصار والدي من المقربين عند هذا الأمير ثمّ مات أبو منصور خان النواب سنة 1167 الهجرية أي سنة 1753 الميلادية وخلفه في منصبه ابنه شجاع الدولة، ولكنه كان يغار من ابن عمه محمّد شجاع فأمر باعتقاله وقتله، وعمّت قسوته حتّى أتباع الأمير القتيل، فأراد أن يقبض على والدي مع أنه كان قد اعتزل الأعمال قبل وقوع هذه الكارثة هو وعياله في لكنو، ولما علم بمقصد النواب التجأ إلى البنغال مع أفراد من خدّامه، وأعجله سفره السريع عن أن يأخذ معه شيئاً غير ذهبه وجواهره فبقيت أمواله تحت حكم مضطهده، وقضى والدي عدّة سنوات في البنغال ثمّ مات في مقصود آباد سنة 1768 الميلادية».

و«جدي لأمّي أبو الحسن بيك كان رجلاً زاهداً عابداً صيناً ديناً وكان من بلد النواب برهان الملك سعادة خان جد الملك الّذي يحكم في أيّامنا

(1) هذا رقم صفحات الترجمة الفرنسية لهذه الرحلة. (م).

هذه بأوده، وكان جد مخلص لهذا الملك حتَّى اعتزل الأمور كلها بعد وفاته ليقضي أيَّامه الباقية في الاعتزال».

«وولدت أنا في لكنو ومع ما كان يحمله النواب شجاع الدولة على أبي من الحقد أعان والدتي عدَّة معونات من أجل ذكرى العلاقات الاجتماعية الَّتي كانت بين أسرتينا وأوصى والدتي إيصاء، مصروحاً بأن تسعى في تعليمي تعليماً حسناً وتثقيفي، وكان والدي لمَّا عزم على الإقامة في البنغال كتب كتاباً إلى أمِّي يدعوها إلى الانتقال مع الأطفال جميعهم فتركنا لكنو وسافرنا براً إلى بانتالا ومنها أبحرنا إلى مقصود آباد وهذه أوَّل سفرة سفرتها وكان عمري إذ ذاك أربع عشرة سنة».

«ووقعت وفاة والدي في مقصود آباد بعد أن أمضينا فيها ثمانية عشر شهراً، فوكلت العناية في جميع شؤونه إليَّ[1]، وقبل هذا الحادث المتعس كان أهلي قد عقدوا لي عقد الزواج بفتاة من ذوي القرابة القربى لمظفر ينك نواب البنغال فقضيت عدَّة سنوات في خدمة هذا الملك، وبعد سنوات خلف آصف الدولة مسعوداً الأودي في منصبه فدعاني وزيره الأوَّل مختار الدولة إلى الرجوع إلى لكنو وأسند إليَّ منصب عملدار في إيتايا وأصقاع أخرى بين نهر جمَّاه ونهر الكانج فبقيت في هذه الوظيفة سنتين، وإن كنت غالباً أطوف لجباية خراج الدولة».

«وبعد موت الرجل الَّذي رعاني وحماني ونصب حيدر بك خان في منصبه فقدت وظيفتي، وفي أثناء هذه الحوادث رتب الكولونيل ألكسندر هناي مستوفياً للخراج في كوروك بور واستأذن النواب في أن يجعلني معاوناً له، فلبثت في هذه الوظيفة ثلاث سنوات أسكن باستمرار في الخيام أو أكواخ مصنوعة من البواري والخيزران، ثمَّ نحي الكولونيل عن منصبه هذا فرجعت إلى لكنو وسرعان ما وقعت خلافات بين الوزير حيدر بك خان ووكلاء شركة الهند فسبَّبت اضطراب الأحوال المالية في المملكة ونقصت الواردات يوماً فيوماً مع أن الجباة كانوا يجورون على مقطعي الأرضين ويستأدونهم بالقهر مبالغ عظيمة أكثر ممَّا كانوا يؤدونه، حتَّى أثار ظلمهم

(1) لم يذكر أبو طالب حقيقة هذه الشؤون. (م).

عدداً كبيراً من المقطعين يرأسهم الراجا بولبودرسنك، وهذا الرئيس من سلالة ملوك الهند القدامى على خط مستقيم، وإذ كان تحت حكمه مائة ألف راجبوتي كان يعد مماثلاً للنواب الوزير ولا يريد الاعتراف بسلطته، فأرسل عليه جيشاً من جند النواب والسيبوبين والريفيين لإخضاعه وردعه ولكن دسائس حيدر بك خان أحبطت هذا الأمر وشاركه في الإحباط الجباة، وأصبحت شؤون النواب جد سيئة بحيث أيقن المستر هاستينكز الحاكم العام أن من الواجب عليه التدخل واستعمال سلطته، وكلّف المستر ميدلتن أن يستشيرني فيما ينبغي أن يتخذ من العُدد والتدبير لإحباط ثورة الراجا وإعادة النظام إلى البلاد، وكنت أعلم أن حيدر بك خان لم يستطع كاهله أن يتحمّل الاضطراب الحادث في شؤون النواب وأنه ما دام مقرّباً لا تحدث مشروعاتي إلا إثارته وإحناقه أو لا تؤدّي إلا إلى تلفي فأردت أن أبقى محايداً في هذا الحادث إلا أن الوكيل الإنكليزي أصرَّ وحلف لي ليحميني من أعدائي جميعهم، وانتهى الأمر بي إلى الموافقة وإجابة سؤاله، فتعقبت بولبودرسنك مدّة سنتين وهزمته في عدّة وقعات، حتّى استوليت أخيراً على مخيمه وهلك هو في محاولته الهرب، وهكذا أنقذت النواب من عدوٍّ كان يسعى منذ ستين سنة في تلف أسرته وأعدت السلم إلى البلاد».

«ومنذ ذلك الحين بدأ شقائي فالمستر ميدلتن غادر لكنو والحاكم هاستينكز عاد إلى أوروبا وبقيت في متناول أعدائي، وكان حيدر بك خان بلباقته ورئائه قد نال حظوة الحاكم العام الجديد وأظهر لي عدّة سنوات علامات الرعاية واللطف وبذل وسعه في أن أقبل وظيفة في وزارته، فلما أخفق أخذ يقاومني وقطع ستة آلاف الروبية الّتي كانت راتبي المالي من النواب، فعزمت على الرجوع إلى البنغال وركبت سفينة في نهر الكانج سنة 1787م وذهبت إلى كلكتا لأقدّم شكواي إلى اللورد كورنواليس فاستقبلني هذا السيّد بأدب وافر ووعدني بأن يرعاني ويحميني ولكنه كان على عزم السفر إلى مدراس لتولي قيادة الجيش المرسل على السلطان «تيو» وظل أمري متأخر الإجراء أربع سنوات، وفي أثناء هذه الفترة استقدمت عيالي إلى كلكتا وتفرّق عنّي أصدقائي لما رأوني محلاً عن الحظوة، وبهظتني النفقات الّتي أنفقتها في نقل عيالي إبهاظ التلف إن صحّ التعبير، وتفاقمت

همومي بموت ابني في عمر أربع سنوات ضحية لوخامة المناخ وجهل الأطباء في كلكتا».

«وتذكر اللورد كورنواليس عند رجوعه إلى البنغال بالوعد الّذي وعدني به، ومات حيدر بك خان قبيل ذلك فأرسلني إلى لكنو سنة 1792 وأرسل معي بكتب توصية إلى الوكيل الإنكليزي (جيري) والنواب آصف الدولة، وقد تلقاني هذا الأمير في الحقيقة هو وأتباعه تلقياً فائقاً رائقاً وبقيت أعتقد يوماً بعد يوم أن نبأ ترتيبي في منصب من المناصب بالغي لا محالة إلا أنّي لسوء حظي غادر اللورد كورنواليس بلاد الهند، ومنذ ذلك أخفقت آمالي كلها ونحى النواب المستر جيري ونفاه من لكنو وأصدر إليّ أمراً في الوقت بأن أترك المدينة، واعترضت على هذا الظلم فلم يُسمع لي اعتراض ولا شكوى فتركت أفراداً من عيالي في لكنو وأرسلت بالآخرين إلى الله آباد ورجعت المرّة الثالثة إلى كلكتا سنة 1795».

«وكان السير جون شور وهو اليوم اللورد تيكن ماوث حاكماً عاماً فاستقبلني بلطف ووعدني أن يجتهد في دفع الأسواء عنّي ولكن النواب آصف الدولة مات بعد زمن قصير والاضطراب الناشئ من هذا الحادث لم يترك للحاكم وقتاً وفراغاً للتفكير في شؤوني قبل أن يبحر إلى أوروبا، وفي أثناء السنوات الثلاث الّتي قضيتها في كلكتا هجرني جميع أصدقائي حتّى أتباعي، وزاد همي أن رأيت خدم أبي القدامى قد تركوني، فوجدت نفسي في حال محزنة، وإذ ذاك زارني صديقي الربان داود ريشاردسن وكان هذا الرجل الفاضل يحسن الفارسية غاية الإحسان وكذلك الهندية وتحادثنا في موضوعات مختلفة فأعلمني أنه عزم على الرجوع إلى أوروبا ليرى هل يعيد إليه صحته هواء وطنه الأصلي؟ لأن صحته أخذت تتردى يوماً فيوماً وأنه سيعود إلى كلكتا بعد ثلاث سنوات وقال لي: «إنك بطال الآن فاصحبني في هذه السفرة فإن تغيير مجال الحياة والنظر إلى عجائب أوروبا وغرائبها ينفيان عنك هذا السوداء الّتي استولت عليك، وسأحاول تعليمك اللغة الإنكليزية في أثناء هذه السفرة البحرية وأقوم بجميع ما تحتاج إليه» وبعد أن فكرت في هذا الأمر وهذا الاقتراح بعض الوقت رأيت أن السفر طويل وخطر جداً، ومع ذلك صممت على الارتحال متوقعاً حادثاً يضع حداً لحياتي وآلامي».

«ولم أفرط في الوقت فقد استأجرت موضعاً للسفر غد ذلك اليوم في السفينة (شارلوت) إحدى سفن شركة الهند وكان من النحس أن احترقت هذه السفينة بعد أيّام قليلة إلا أننا كنا عازمين ومصممين على السفر فركبنا السفينة كرستيانا من غير تلبث ولا تلكؤ وربانها يُسمَّى نيتلمان وكانت على عزم الإقلاع إلى الدانمارك».



رحلة أبي طالب خان

سنة 1213هـ ـ 1799م من الهند

إلى العراق وتركيا وفرنسا وإنكلترا من طريق البحر والبر

رحلة[1] أبي طالب خان

سنة 1213هـ ـ 1799م من الهند
إلى العراق وتركيا وفرنسا وإنكلترا من طريق البحر والبر

(السفر إلى الهند)

قال (12)[2] وفي غرة شهر رمضان من سنة 1213 الهجرية الموافقة لليوم السابع من فيفرية (شباط)[3] سنة 1799 الميلادية استأذنا أصحابنا في السفر فقصدنا إلى كلكتا على ظهر سفينة من نوع «بدكرو» أي سفينة كبيرة، عازمين أن ندرك السفينة المُسمَّاة كرستيانا (الدانية)[4]، فأدركناها في اليوم الثالث راسية في «كدجرة» وركبناها، واحتجز كل منا حجرة من حجرها. إن السفينة كانت في اختلال كبير وكثير، وأكثر ملاحيها من لسكرية البنغال فيهم من الجهالة قدر ما فيهم من الكسالة، وكانت الحجر صغيرة مظلمة كريهة الرائحة، وخصوصاً الحجرة الَّتي كانت نصيبي، ذلك لأنِّي ورفيقي «داود ريشارد سون» كنا آخر المبحرين فيها، أمَّا سائر ركاب السفينة فقد

---

(1) أصل الرحلة باللغة الفارسية وقد ترجمت إلى اللغة الإنكليزية ثمَّ نقلت إلى اللغة الفرنسية، وقد نقلنا إحدى ترجمتيها الفرنسية إلى اللغة العربية. (المترجم).

(2) ابتدأنا الترجمة من الصفحة الثانية عشرة من الترجمة الفرنسية لأنها أوَّل الرحلة، أمَّا ما قبلها فترجمة المؤلف لنفسه.

(3) في التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية تأليف اللواء محمَّد مختار باشا المصري، ص607 ـ أن أوَّل شهر رمضان من سنة 1213هـ يوافق اليوم السابع من شباط سنة 1799 م. (م).

(4) الدانية نسبة إلى الدانمارك الدولة المشهورة. وكانت هذه السفينة على عزم الرجوع إلى الدانمارك، وكان مع أبي طالب داود ريشاردسن أحد الضباط الإنكليز.

اختاروا أحسن الحجر قبلاً، ومن سوء حظنا أننا قد دفعنا أجرة سفرنا إلى إنكلترا، في كلكتا نفسها، فأصبح عدولنا عن السفر فيها غير ممكن، وكنا مجبرين على الرضا بما عين لنا وما سمح لنا به.

وكان ربان السفينة «نيتلمان» متكبِّراً عنيداً، وكان نائبه أمريكي الأصل يشبه كلباً ضخماً متجهماً، إلا أنه كان محبوب الخلق جداً، يُضاف إلى ذلك أنه كان عليماً بالملاحة، ولم تكن قط كذلك حال النائب الثاني ولا حال مساعدي الربان الآخرين فقد كانوا يجهلون الملاحة أصلاً، فضلاً عمّا كانوا عليه من الفظاظة وسوء الأدب.

وباليوم السادس عشر من الشهر المذكور آنفاً أي شباط غادرنا «كدجرة» وواصلنا الانحدار في سفينتنا مع النهر وكان الماء يبلغ من سمكها ثلاث عشرة قدماً ونصفاً ومررنا فوق عدَّة كثبان تجمع رملُها في قعر النهر ولم يكن أسفل خشب السفينة يعلوها إلا بست بوصات في أكثر المرَّات. وإذا كان مدّ البحر في النهر قد بدأ بالجزر خشينا أن نعرِّض السفينة لخطر الانتشاب في الرمل والجنوح فيه. وفي صباح اليوم الثاني بينما كنا نستعد لجذب الأنجر ومتابعة السفر، أعلمنا اشتيام[1] سفينة خافرة أنَّ بارجة حربية فرنسية تُسمَّى (لافورت[2]) تطوف على مقربة من نهر الكانج، وقد استولت على عدَّة سفن، وصدر أمر بأن لا تخرج السفن من موانيها، فيجب علينا انتظار رفع الحظر حتَّى نستأنف السفر، وكان بعض الخطر في أن نصعد في ذلك النهر، فأجمعنا أمرنا على أن نرسي السفينة حيث كنا إلى أن يرفع الحظر. وفي أثناء إقامتنا في «كدجرة» زودونا، باستمرار تام، خبزاً طرياً وزبداً وبيضاً وسمكاً وخضراوات. ولمَّا كانت السفن تأبى التقدُّم إلى الموضع الَّذي كنا فيه اضطررنا أن نقتات البسكت والزبد المملوح وأن نأخذ قسماً من أزوادنا الَّتي اتخذناها للسفر في البحر.

يُضاف إلى هذا الحادث الرابك حادث آخر لم يكن أقل منه ربكاً، ذلك أننا وإن كنا بعيدين جداً عن الشاطئ فقد أغار على سفينتنا الذبان بكثرة بحيث كان من

---

(1) الاشتيام: مدير أمور السفينة وربانها، كما قدَّمناه. (م).

(2) أي القويه. (م).

الصعوبة بمكان أن نقدر على الكلام من غير أن نضع أيدينا على أفواهنا تفادياً من أن نبتلع ذبابات عدّة منه، فقضينا هناك عشرين يوماً تامة في هذه الحال الغامة غير دارين ما الّذي نعزم عليه من الأمر. وأخيراً سمعنا ذات يوم دويّ رمي مدفع على مسافة معينة فظننا أن سفناً حربية إنكليزية كانت راسية في مدراس قد أرسلت لتعقب السفينة الحربية الفرنسية، وفي الحال لمحنا ثلاث سفن تجري نحونا بأشرعة[1] جدّ منشورة، إن هذا الأمر أيّد ظننا، ولكن السفن الثلاث لما قربت منا علمنا أنها كانت أربعاً فلقيت السفينة الحربية الفرنسية، فهجمت عليها ثمّ أخفقت حملتها، فاضطرت إلى التلجيج، والابتعاد تاركة إحداهن تحت سيطرة الفرنسيين.

وبعد ليال شبت النار في سفينة إنكليزية كانت راسية بالقرب منا فرّعبنا احتراقها وتركها ملاحوها، وإن كانت مشحونة بكمية كبيرة من نسيج قنب البنغال، إن رباننا «نيتلمان» وهو يعود في هذه السفرة إلى وطنه، لم يكن يخشى في الظاهر محاسبة الإنكليز له البتة فأرسل قارب سفينة الجنيب إلى نحو السفينة المحترقة، عدّة أيّام متوالية وأمر ملاحيه الّذين في القارب المذكور أن يحملوا إليه كثيراً من صناديق الشراشف[2] الّتي لم تأتِ النار إلا على نصفها، غير أنه كانت عاقبته الندم على هذا الاختلاس الشنيع.

وباليوم الثامن والعشرين من شباط بلغنا الخبر الصحيح الّذي مُفاده أن سفينة إنكليزية اسمها «سيبيت» في مجيئها من مدراس هجمت بشدّة وعنف على السفينة الحربية الفرنسية المقدّم ذكرها واستولت عليها.

وباليوم الثالث من شوال الموافق لليوم الرابع من مارس (آذار) ألقت السفينتان المذكورتان آنفاً مراسيهما على مقربة من سفينتنا. إن السفينة «سيبيت» قد لحقها ضرر كبير، وفي الوقت نفسه فقدت «لافورت» السفينة الفرنسية المأسورة جميع سواريها فسحبتها قاهرتها السفينة الإنكليزية.

---

(1) لم تكن السفن البخارية مخترعة في أيّام رحلته وإن استعمل البخار لشؤون أخرى، فكل السفن المذكورة في الرحلة شراعية أو مردية. (م).

(2) تحتمل الكلمة الفرنسية معنى «الجوخ» أيضاً، ولما كان ذكر نسيج قنب البنغال قد تقدّم رجحنا الشراشف. (م).

وباليوم الرابع من الشهر انحدر خمسة عشر قارباً في النهر لنقل الأسرى الفرنسيين إلى كلكتا، ورفع حظر سير السفن، وجاءتنا السفينة الخافرة وقادتنا إلى غور كبير يسميه الإنكليز «خليج البنغال» ومن هاهنا تبدأ رحلتنا.

وبينما كانت السفينة تجري بنا منذ عدَّة أيّام بريح مؤاتية، إذ لحظنا ذا صباح أن اشتيام سفينتنا قد غيَّر وجهتها، فبعث هذا الأمر ملاحيها على الدهش البالغ، ومن المعلوم الأكيد أننا أنفدنا ما خزّناه من الماء العذب في توقفنا الاضطراري في مصب نهر الكانج فلم نجد بُدّاً من إنحاء السفينة نحو جزائر «نيكوبار».

جزائر نيكوبار

هذه الجزائر وعدتها سبع عشرة جزيرة في الأكثر تختلف سكناها من حيث كثرة السكّان وقلّتهم، وترسو عندها السفن غالباً عندما يعوزها الماء والزاد، وقد حاولنا أن نبلغ كبراها وهي المُسمّاة «كارنيكوبار» فلم نستطع ذلك بسبب الرياح المضادة لنا، وكذلك لم نستطع بلوغ الثانية منها وبعد أن قاسينا عُسراً كثيراً وبذلنا مجهوداً وفيراً، أرسينا سفينتنا بالقرب من الثالثة. ولما لمحنا الأرض وددت أن أراها أيضاً بجلاء ووضوح ولذلك استعنت بمجهار «تليسكوب»، ومع تطبيق عينيَّ على هذه الآلة لم أستطع تمييز الأرض، وإذ استولى عليَّ الدهش رجوت من أحد الضباط أن يوضح لي هذه الغرابة، فقال لي: إن هذه الجزُر على الحقيقة لا تزال من حيث النظر تحت الأفق وجسم الماء الكري الّذي يفصلها عنا يخفيها عن أنظارنا، وهذا الشكل أو النوع من الحوادث الحسية ناشئ عن قوّة انكسار الأشعة الّذي يرفع، في الجو الغليظ، بظاهر النظر، جميع الأجسام فوق ارتفاعها الحقيقي.

إن الجزيرة الّتي أرسينا عندها تُسمّى «تريبيز» محيطها خمسة وعشرون ميلاً، والجزيرتان اللتان لمحناهما أيضاً هما «راجوري» و«بيكو»، وجاءنا جماعة من سكانها يحملون كمية من جوز الكاكو وجوز الصنوبر والليمون ومن الفواكه الأخرى، وذكور البط والطيور والدواجن، ليأخذوا بها، على

سبيل المقايضة، أقمشة شراشف وتبغاً وجميع أنواع السكاكين، ولم يظهر منهم اهتمام بذهبنا ولا بفضتنا. إن جوز الكاكاو ينشأ بكثرة كاثرة في هذه الجزر فهم يقايضون به: كل عشر جوزات بلفيفة واحدة من الجروت أو من «السكاير» من التبغ. تلك الّتي ثمنها قرابة «ليكونداس» واحد ـ أي تسعة دراهم[1] في البنغال. وهذه الجزائر قريبة من خط الاستواء فلذلك يكون لها ربيعان وخريفان، وسكانها حِسان الخلقة، شديدو العضلات خاصة، تدلُّ أمزجتهم على نشاطهم، ويشبهون الصينيين في منظرهم ومظهرهم، ولكن لونهم مائل إلى الصفرة وليس لهم لِحى إلا قليلاً منهم، وجميع لباسهم لفافة ضيِّقة تغطي خصورهم، وأطفالهم صباح الوجوه جداً، ودورهم من الخشب والخيزران وسطوح دورهم مغطاةً بالقش والأضغاث، وأشكالها دائرية، لا يمكن حاذقٌ موازنتها ومقابلتها إلا ببيادر حنطة، وعدَّة من هذه الدور لها مع ذلك ثلاث طبقات، والطبقة الأرضية، للطيور الدواجن وللمعزى وغير ذلك، والطبقة الوسطى خاصّة بالرِّجال والطبقة العليا خاصّة بالنِّساء وهؤلاء الجزيريون[2] يدينون بالإسلام، ويخفون نساءهم[3] باحتياط شديد، ولا يدعوهن يتصلن بالأجانب أي اتصال كان.

وعندما تزوَّدنا أزواداً استعد اشتيام السفينة وتهيأ للسفر، ولكن أمراً غير متوقع فاجأنا وحال دون السفر، وذلك أن ستة عشر من اللّسكر الّذين في السفينة اعتصموا في الغابات لما قاسوه من سوء المعاملة في السفينة، وكان الباقون في السفينة ينتظرون إطلال اللّيل ليفعلوا ما فعل الأولون، ومن حسن الحظ أن عدَّة من أعيان الجزيرة جاؤونا في أثناء ذلك وخافوا أن يُتَّهموا بمواطأة الهاربين فيما فعلوا فعرضوا على ربان السفينة أنهم يستطيعون رجع الهاربين إليها، وإذ كان الربان «نيتلمان» في موقف حرج جداً،

---

(1) ذكر الدراهم محصور بين قوسين في الترجمة الفرنسية، ولا شك في أن الدراهم المذكورة تختلف عن دراهمنا، العتيقة والجديدة. (المترجم).

(2) لا تحذف ياء فعيلة عند النسبة إليها إلا إذا كانت علماً مشهوراً، كما جاء في أدب الكاتب لابن قتيبة مثل «بجيلة وبجلي وحنيفة وحنفي» وفي اسم الجنس تبقى الياء مثل «سليقي».

(3) نصيب النِّساء من رحلة أبي طالب عظيم جداً، وكان إذا رأى خيال امرأة ذكرها لأنه كان مغرماً بالنِّساء عموماً كما ذكرنا.

أعطاهم عهداً، وأقسم عليه، أن يهب لهم قطعاً من أقمشة الشراشف الَّتي اختلسها من السفينة المحترقة في نهر الكانج على سبيل المكافأة لهم، إن عهداً مغرياً مثل هذا فتن هؤلاء الأبالسة الفقراء[1]، ولعلمهم بجميع مضايق الغابات والجبال استطاعوا، أعجل ما يكونون، أن يدركوا الهاربين، ويُعيدهم إلى ظهر السفينة في أثناء اللَّيل، ولكن الربان كافأ عنايتهم وعناءهم بأحط نوع من إنكار الجميل، فقد زعم أنه لا يستطيع بهذه الساعة، فتح الصناديق المحتوية على القماش، وإنما حثهم على أن يأتوه صباح الغد، فيكافئهم حقاً بسخاء على نَصَبهم، ولكنه لما بان الفجر رفع الأنجر وأصبحت السفينة على بعد عدَّة أميال في البحر قبل أن يتصور الجزيريون الخديعة من هذا الغدر أو يفكُّروا في حدوثها.

مغادرة نيكوبار

وغادرنا جزائر نيكوبار في اليوم الرابع من إبريل (نيسان) سنة 1799م وبعد ثلاثة أيَّام صرنا إلى الدرجة السابعة من درجات خطوط العرض الشمالية، وكانت الشَّمس كأنها تصبُّ رصاصاً على رؤوسنا، فإن الحرارة كانت تبعاً لذلك شديدة جداً، ومطرتنا السَّماء خمسة وعشرين يوماً، ولم نكن نتقدَّم في سيرنا إلا ببطء بالغ، وفي الحقيقة لم يسجل كتاب سيرنا البحري إلا عشرة أميال، وقد استبنا أن السكون كان شاملاً في كل الأيَّام على التقريب، ما حول خط السير، وهذا الحادث الحسي ناشئ، كما أوقن، من تأثير الشَّمس.

وباليوم السادس عشر من نيسان وصلنا إلى قريب من خط الاستواء، وإذ كانت الشَّمس غير محجوبة الشعاع بالسحاب استطعنا أن نشاهد النجم القطبي بعناية تامة، وكانت جمهرة نجوم الدب الأكبر وجمهرة نجوم الدب الأصغر تظهر أيضاً بعيدة في ارتفاع النجم القطبي كبعده هو نفسه في كلكتا، وهو يستبين على هذا القول، في الأفق. ثمَّ جاوزنا خط الاستواء في الدرجة المائة من درجات الطول من شرق لندن باليوم التاسع عشر من

(1) هذا هو التعبير الفرنسي وهو من تعابير المجاز عندهم فلم يكونوا فقراء حقيقة ولا أبالسة ولكنه من بابة الترثي لهم. (المترجم).

الشهر المذكور آنفاً. ومنذ عدّة أيام كنا نرى أسراباً من الطير منها كبار بحجم الوزّ، ومنها صغار في قوّة الحمام، وهي تغتذي بالسمك فقط. وتقضي اللّيل فوق الماء، وحينما تريد تكثير نسلها لتكثير نوعها تقترب من الساحل وهناك تلبث طول زمن الحضن والتفريخ وقد أمسك الملاحون طائر آخر من النوع الصغير، ارتطم بأحد الصواري.

احتفال إلّه البحر

وكان الملاحون يلعبون لعبة مداعبة فيها من المضحكات ما فيه الكفاية: وهي أن ثلاثة منهم يرتدون بهيأة غريبة، ويتلطخون بالحُمرة والصُفرة ويأتون إلى سطح السفينة بملابسهم وشعورهم تقطر ماءً، فالأوّل منهم يحمل كتاباً والثاني يحمل بوقاً والثالث لابس ملبساً بلغ الغاية في السخرية ومظهر أنه قائدهما فتحضر لهم مقاعد فيقعدون عليها، ويعلن البوق أن «نبتون» إلّه البحر آت ليشرّف بزيارته السفينة الّتي تقرب من مُستقرّه، وإذ ذاك يأمر الإله المضحك جميع من لم يعبروا بعد خط الاستواء بالحضور، ليغفر خطاياهم بالغُسل، فتتراكض جماعة كبيرة من الشبان والشابات والأطفال، الّذين هذا الاحتفال جديد عليهم، ويختفون في زوايا مختلفة من السفينة ومنهم من يتسلقون الصواري ولكن كاتب الأقوات والأطعمة فتح كتابه وقرأ أسماء جميع من يجب عليهم التعميد[1]، وأوعز إليهم بالحضور والمثول، وكلّما حضر أحد الركاب عصبوا عينيه وأقعد قسراً على لوح موضوع بالعرض على دن أي برميل، فيصبون على رأسه عدّة أسطال من ماء البحر، وفي الوقت يجرون من الوراء اللوح القاعد هو عليه، بحيث يقع في البرميل. ولما بلغني الدور قصدت إلى بعض الضباط، وبتقديمي قنينات من العرق أعفيت من تعميدا الاحتفال.

السمك الطائر

وباليوم الخامس والعشرين من نيسان صادفنا كثيراً من السمك الطائر،

---

(1) هذا اصطلاح نصراني بمعنى الغسل المذكور قبلاً، استعمله المترجم هنا.

ورأينا عدَّة منه يرتفع في طيرانه إلى سمك ثلاث مخاصر[1] أو أربع، ويطير مسافة خمس مائة[2] قدم على التقريب، ويحرك أجنحته أي زعانفه كالطير، وكنت حتَّى ذلك الحين أحسب، خلافاً لشهادة السياح، أن هذا النوع من السمك لا يأتي إلا القفز ولكنِّي الآن موقن بأنه يجب أن يُعد من الحيوان الطائر، وقد سقطت منه عدَّة سمكات على سفينتنا، فأصلحت للمائدة، ووجدت لحمها لذيذاً جداً، وله طعم كطعم الطير الداجنة[3].

وفي الدرجة الخامسة من درجات خطوط العرض الجنوبية برد الجو كثيراً وإن كنا لم نبلغ الدرجة العشرين من زاوية الشَّمس، وفي الدرجات الثانية عشرة منها صفا الجو صفاءً محسوساً[4]، وحاولت أن أتبين القطب الجنوبي بالتهدي ببعض النُّجوم فلم أرَ قط جمهرة نجوم تقابل جمهرة نجوم الدب الأكبر ونجوم الدب الأصغر، بل قليلاً من النُّجوم القطبية.

الرياح التجارية

وباليوم السابع والعشرين من نيسان السنة المذكورة (1799) دخلنا في مجرى رياح «الأليزة»[5] وهذا الحادث الحسي يستوجب إيضاحاً: إن الملاحين الأوروبيين تعرَّفوا بالتجارب أن بين الدرجة العاشرة والدرجة

---

(1) المخاصر هي جمع المخصرة وهي ضرب من العصا لها طول معلوم عند الرحالة ولعلَّ الهنود يقيسون بها.

(2) هذه هي الكتابة الجديدة لهذا العدد وأمثاله وهي الصحيحة من حيث القاعدة العامَّة.

(3) قال مصطفى جواد هذا السمك عرف في عالم الحيوان باسم «الخطاف» بفتح الخاء، وجراد الماء، قال الفريق أمين المعلوف: «فصيلة الخطاف أو جراد البحر: سمك طيار في البحار الحارة والمعتدلة. خطاف: جراد الماء والواحدة جرادة: سمكة طيارة، ذكرها الدميري باسم الخطاف قال الخطاف بفتح الخاء وتشديد الطاء: سمكة ببحر سبتة لها جناحان على ظهرها، أسودان تخرج من الماء وتطير في الهواء ثمَّ تعود إلى البحر. وورد ذكر جراد الماء في كتاب سلسلة التواريخ قال: وذكروا أن في ناحية البحر سمكاً صغيراً طياراً يطير على وجه الماء يُسمَّى جراد الماء، ولا يزال هذا السمك يعرف في البحر الأحمر بجراد الماء، كما ذكر فورسكال. «معجم الحيوان: ص101».

(4) أي محسوساً به، حذف الجار والمجرور لكثرة الاستعمال كالمشترك أي المشترك فيه.

(5) هي الرياح التجارية عندهم.

الثامنة والعشرين من درجات العرض الجنوبية تهب الريح باستمرار من الجنوب الشرقي، وتدفع بسرعة، في فسحة ثمانين درجة من الطول، جميع السفن القاصدة إلى بلاد الهند والسفن العائدة منها، وناس ليسوا بأقلاء يحسبون أنه لو لم يكن في طريق السفن «رأس البون اسبرانس» أي الأمل الحسن[1] وأمريكا الجنوبية لاستطاع البحريون في قليل من الزمان أن يدوروا حول الأرض في فسحة هذه الدرجات، وإذ استكشف التجار هذه الرياح وكانت مفيدة للتجارة سمَّاها الإنكليز «الرياح التجارية» أمَّا في الدرجات الأخر من العرض فالرياح متغيرة ومشكوك في حالها.

وبالأيام الأولى من شهر أيار «مايس» كان البحر هائجاً فكانت أمواجه ترتفع غالباً إلى مستوى سطح السفينة وتدخل فيها من القناني[2] والمشاكي[3]، ومع أننا لم نكن إلا على الدرجة الحادية والثلاثين من زاوية الشّمس، كان البرد في أثناء ذلك قارساً جداً، ووجدت من المستغرب جداً أن أيار الّذي هو في البنغال زمن القيظ الشديد كان بارداً أيضاً. وجرت بنا السفينة فجاوزت بنا جزيرة «موريس» وطرف جزيرة مدغشقر الجنوبي على مسافة ستين فرسخاً أو سبعين، وقد قيل إن الجزيرة الأخيرة يحكم فيها ملك مسلم، وأن سكّان عدّة من أصقاعها يتكلّمون بالعربية.

ومنذ تحركنا في هذا السفر كنا نخشى أن يأسرنا الفرنسيون، فقد كانوا في حرب على إنكلترا، وقد زاد خوفنا وتضاعف عند مقاربتنا لجزرهم، غير أننا لحسن الحظ نجونا وسلمنا ممَّا كنا نخشاه، وفي ذلك الوقت على التقريب كابدنا إعصاراً بحرياً شديداً دام ثلاثة أيّام وكان الموج يرتفع فيكون كالجبال ويزعج السفينة بشدّة جعلت من المستحيل على الإنسان أن يقف قائماً، وحينما كنا نقعد كانت رؤوسنا تصدم حواجز السفينة، وبغتة، حين لم أكن أفكر في شيء، سقط على صدري بجميع

---

(1) ترجمه بعضهم «رأس الرجاء الصالح» مع أن الأعلام لا تترجم في الاستعمال، بل في الإيضاح.

(2) هكذا ورد في الترجمة الفرنسية والظاهر أنه من مصطلحات لأشياء في السفينة.

(3) المشاكي جمع المشكاة وهي الكوة والروزنة وشبههما.

ثقالته إنكليزي ضخم البدن جداً، ولم يكن يفصل حجرته عن حجرتي إلا نسيج من الخيش «الجنفاص»، فآذاني أذىً فظيعاً، وقد طالما أغضبني هذا الإنكليزي لأني كلما رفعت صوتي بعض الرفع أو أقله في حجرتي عَرَضاً صرخ هذا الرجل الساذج قائلاً: والآن إذن ألا تدعني أنام حيناً ما؟.

وطَوال الإعصار البحري كنا نقاسي نصباً في إعدادنا طعامنا، فكنا مُجبرين على أن نأكل ونحن مضطجعو الأجسام، ومن زيادة الشقاء أن السفينة دخل فيها من ماء الموج ليل نهار ما أوجب استعمال المضخات باستمرار، وقد رعب هذا العارض ركاب السفينة أشد الرعب أمّا أنا فقد كنت نصِباً تعباً من الحياة، أرى جميع هذه الأمور بغير مبالاة[1].

وباليوم الرابع والعشرين من أيار من السنة المذكورة تبيَّنا بعض القارة الأفريقية على نحو من مائتي ميل من شمال رأس «بون أسبرانس» المذكور آنفاً ولم يكن قط أن نرسي السفينة فيه بعض الزمن، ومع ذلك فرؤيتي تلك الأرض أذرت الدموع من عينيَّ، وشاهدنا على طول الساحل مخلوقات بحرية بشيعة وعدَّة من الحيتان[2] المعروفة باسم البال كانت تقترب جداً من السفينة، بحيث نراها بجهرة، والواحدة منها أكبر من الفيل الضخم أربع مرَّات، وهي تدفق ماء البحر من مناخرها الواسعة في سمك خمس عشرة مخصرة، وإذ كانت هذه الحيتان الثدوية، لا بدَّ لها أن تطفو غالباً لتتنفَّس سهُلت رؤيتها على الرائي، والأوروبيون يقتلونها ويستخرجون دهنها وشحومها البِيض ويتخذون منها تجارة عظيمة.

كان الوقت رهيباً في بقية الشهر فنحن لم نرَ الشَّمس ولا الكواكب عدَّة ليال وعدَّة نُهُر[3]، وكان الموج يتكسر باستمرار بمشاكي سياجها بعد سدها، وكنا مجبرين أيضاً إمَّا على أن ننغمس في ظلام دائم وإمَّا على أن نوقد ليل نهار من الشمع، لقد بدأ الشمع يعوزنا، كنا إذن مكفنين بالظلمات كالجثث في قعر

(1) ستحلو للرحالة الحياة، كما سيأتي بقلمه في رحلته ويرى الحياة أحلى من سكر النبات خصوصاً بين الفتيات. (المترجم).

(2) الحيتان جمع الحوت.

(3) النهر جمع نهار.

قبورها ولولا جلبة الموج الصخاب لحسبنا أنا من أهل الآخرة، فتذكرت حينئذٍ قول حافظ الشيرازي الشاعر[1]:

ودوي الأمـواج يـبـدو رهـيـبـاً   بـسـرور مـن فـكـرة الآلام
إن مـن سـاح في السـواحـل نـاجٍ   في ظلام اللّيل البهيم الطامي

وباليوم الرابع من حزيران من هذه السنة (1799م) لمحنا رأس «الكاب» وهو جبل المائدة وبُعيد ذلك لمحنا خليج المائدة، الّذي تقوم في أسفل ساحله «مدينة الكاب» وأعلمنا إذ ذلك أن أزوادنا قد جفت وينبغي لنا بالضرورة الإرساء في الميناء للحصول على أزواد جديدة، ولكننا كنا جداً متأخرين وإذ لم يرد الربان الدخول في الخليج ليلاً بسبب صخور البحر التحتانية صممنا على الانتظار إلى صباح الغد، وكانت الريح مؤاتية كل اللّيل بحيث استطعنا من غير نصب أن نُبرَّ[2] في مدينة الكاب إبراراً. ولكن الضابط ذا الرتبة الثانية قد نام وهو يباشر ما عليه من توجيه السفينة، فاتجهت نحو الجنوب فلم نستطع الوصول إلى الأرض في اليوم التالي ليوم الوصول كله، والفينا أنفسنا مضطرين ثانية أن نقضي اللّيل في لجة البحر. وأخيراً استعددنا وتأهبنا صباح اليوم الثالث لدخول الخليج غير أن عاصفة رهيبة ذات رعود وبروق فاجأتنا وردّتنا خمس درجات نحو الجنوب، وسقطت صاعقة على سطح السفينة فقتلت ثلاثة ملاحين وجرحت اثنين جرحاً بليغاً جداً.

مشاق السفر

ولكي أطلع مواطني الّذين يرغبون في السياحة، أذكر المشاق الّتي كابدتها في سفري على السفينة كريستيانا وإنّي قاسم هذه الشدائد على أربعة أصناف.

أ ـ في كل السفن قد يحتاج المسافر إلى الخبز الجيد والزبد واللبن والفواكه والخضراوات، وقد يضطر إلى شرب الماء الآسن والتمضمض

(1) المترجم الفرنسي نثر النظم الفارسي، ونظمته أنا شعراً وكذلك كل ما جاء من شعر الرحالة كقصيدة مدح لندن الآتية فيما بعد. (المترجم).

(2) أبر إبراراً نزل إلى البر من البحر وهو ضد أبحر إبحاراً.

بالماء المالح[1]، ويحصر في موضع غير صحي مع الكلاب والخنازير، وإذا صعد إلى سطح السفينة فإنه يجلب على نفسه البلل أو يسقط في البحر، يضاف إلى ذلك الأخطار الَّتي هو معرض لها على الدوام، وكراهة حصره في موضع واحد والهُدام[2] الَّذي يحدثه اضطراب السفينة.

ب ـ أنا كنت أنام في حجرة صغيرة جداً، ومحجوب عنها الضياء كل الحجب ثمَّ أنَّها مخالفة للصحة كلياً، وخدم السفينة لا يعتنون بالنظافة، وضيق المكان يحول دون وضع البهائم في موضع مفصول ولقد قاسيت نصباً كبيراً من شراسة جيراني من الركاب الَّذين لا يطلبون إلَّا تسهيل الفرص لأنفسهم.

ج ـ إنَّ الأجانب «وأريد بهم غير الأوروبيين» لا يستطيعون أن يحلقوا أو يقصُّوا أظفارهم، وعليهم أن يأكلوا بالسكين والشوكة وليس لهم مكان خفي للاغتسال فهم لا يستطيعون أن يتطهَّروا، وقد تألمت من هذا الأمر الأخير العسير، ثمَّ إنَّ الملاحين لا يغسلون أيديهم، ولا وجوههم إلَّا بالصباح، وكنت مضطراً في الغالب أن استمد من ماء البحر بنفسي عند احتياجي إليه، وذلك بإناء من أواني الصفر ولكن العواصف أفقدتني عدَّة منها ولم يبق لي أخيراً منها إلَّا إبريق، فتعذَّر عليَّ الوضوء وأصبح من المستحيلات حقاً القيام بفرض ديننا[3].

د ـ يعمُّ جميع السفن الَّتي ليست للإنكليز[4] اضطراب هائل، فالملاحون يتركون الماء يدخل في السفينة، ويتلفون كل شيء بلا ضرورة وكل عمل منهم لا يكون إلَّا في هرج ومرج وكلام خشن بذيء. ولم يكن زادنا إلَّا من السمك المملوح والبيض الفاسد الَّذي يبعث رائحة كريهة لا

---

(1) قيل إنَّ الفصيح أن يُقال: «الماء الملح» غير أنَّ ابن القرية فصيح العرب وصف البصرة للحجاج قال: «حرها فادح وماؤها مالح وفيضها سائح».

(2) الهدام هو دوار البحر أي صداعه بغثاثة النَّفس والقيء.

(3) يعني الصلوات الخمس.

(4) خالط الرحالة الإنكليز في بلاد الهند منذ شبابه ولهم في نفسه أثر حسن، يتمثل غالباً في تقييد رحلته هذا. (م).

يُطاق شمها، وقد اعتاد الملاحون العادة الحمقاء من نومهم على ظهر السفينة وسط الماء الّذي غمره، يضاف إلى ذلك أنّ ضباط السفينة جهلاء والملاحين غير مدربين ولا مهذبين.

إنّ صديقي «أوكست بروك» من كلكتا كان محقاً في تكراره عليّ قوله: «لا تبحر أبداً إلّا في سفينة إنكليزية[1]» ولما رأى أنّي عزمت، بخلاف نصيحته، على السفر في سفينة دانيّة «دانيماركية» بعث إليّ عند ركوبها كمية كبيرة من الفواكه اليابسة والمربيات والبسكويت، واستأخذني[2] في الوقت نفسه ملابس مدفئة، وكنت جد سعيد، أن اتخذ، بلطف منه، تلك الاحتياطات، ولولا ذلك لهلكت حقاً من البرد والجوع.

تيهان في البحر

وباليوم الثالث عشر من حزيران من السنة المذكورة تراخت الريح، إلّا أنّ ذلك لم يكن قط باعثاً على راحتنا فمنذ عدّة أيّام لم نرَ الشّمس، ولم يكن عندنا تقاويم يومية والضباط لم تكن لهم تجارب في الملاحة، وفقدنا كل اعتبار، ولم يستطع أحد أن يقول: في أي قاموس من البحر نحن كائنون؟ ولا كيف ينبغي أن تكون السيطرة على السفينة؟ ومن زيادة التعس أنه قد ظهر أنّ الماء العذب المخزون لا يكفينا حاجتنا إلّا أيّاماً قليلة، فنحن قد صرنا إذن إلى أشد ضيقة وكدنا نهلك لولا رحمة الله تعالى ورأفته. وكان الضباط كلهم يحسبون أنّا بعيدون تماماً في غرب الكاب وأنّنا على التقريب في منتصف الطريق إلى جزيرة «سنت هيلين» وإذا نحن بمدير المعيشة في السفينة، (وكان ذا عينين حادتي البصر، ورحل عدّة رحلات إلى الهند) قد نزل إلى كوثل[3] السفينة، ليتحقق كمية الطيور الدواجن الباقية، ورمى ببصره إلى ما وراء السفينة، فصرخ قائلاً: «ها هي ذي الأرض قد تركتموها وراءكم»، ولسماع هذه الكلمات انشمر عدّة ضباط إلى الصاري الأعظم، فلمحوا الأرض في الحقيقة،

---

(1) راجع الحاشية في أعلاه.

(2) أي حملني على أن آخذ.

(3) الكوثل: المؤخر.

باستعمالهم مناظيرهم[1]، من غير أن يستطيعوا تحديدها، وإذ ذاك أصدروا أمراً بإدارة السفينة وإنحائها نحو الأرض، وفي آخر عدَّة ساعات تعرفوا جبل المائدة و«بن دوسكر أي خبزة السكَّر[2]» وفي الحال استتاب البحريون شجاعتهم وبذلوا جميع مجهودهم لبلوغ الأرض المُرادة.

وباليوم الحادي والعشرين من حزيران وجدنا أنفسنا بإزاء «بي دي لاتابل» ولتغير مجرى الريح كان يجب أن نتجه وجهة «فالس بي» لأنه بعد زمن معين لا يجوز دخول كل سفينة في خليج «بي دي لاتابل» لأنَّ الريح الَّتي تهب من الجنوب الغربي، تجعل دخوله خطراً في برهة أربعة أشهر من السنة، فلذلك كان للحاكم أمر عمد واضح بأن يمنع كل سفينة من الولوج في الميناء وأجيز له إطلاق الرصاص على الَّذين يأبون الإذعان لإشارة المنع المعلومة.

وباليوم الثالث والعشرين من تموز[3] تلك السنة دخلنا مساء بعد عسر ما في «فالس بي»، ولكن اللَّيل الَّذي أطل علينا سريعاً أجبرنا على أن نلقي مرساة السفينة، لئلا يصدم السفينة صخر جرف البحر، وفي صباح الغد استأنفنا السير، وبالظهيرة أرسينا السفينة بإزاء المدينة. وهذه المدينة في واد خصيب وفي وسط مرج من الأزهار والأعشاب الذكية الروائح، ومساكنها لا تتجاوز ثلاثين مسكناً، ولكنَّها منظمة ومحكمة البناء وفي كل منها عين ماء. وهذا الموضع جدّ ملائم للتبرد في أوقات الرياح اللافحة الحر من الجنوب الغربي، وقد وجدنا هناك سبع عشرة سفينة منهما سفينتان حربيتان لحماية الميناء من هجوم الفرنسيين، ولقد مضى زمن طويل لم أرَ فيه سكاناً من البشر، ولقد خلبني جمال هذه المدينة وميناثها، وشعرت في إبراري فيها بشعور جديد وإحساس مزيد.

وسرعان ما علمت أنَّ الركاب جميعهم تألموا من سوء سيرة الربان «نيتلمان» وأنَّهم عزموا على أن لا يرجعوا إلى السفينة، بل يذهبوا إلى مدينة الكاب وينتظروا

---

(1) المناظير جمع المنظار.

(2) جاء في الحاشية «سمي هذان الجبلان هذه التسمية لأنَّ أحدهما يشبه المائدة والآخر يشبه خبزة السكر».

(3) لعلَّه حزيران فإنَّه سيذكر أنَّه سافر بعد النزول في «فالس بي» إلى الكاب في اليوم الثاني من حزيران فتأمَّل ذلك.

وصول بعض السفن الإنكليزية، لكي يبحروا فيها إلى أوروبا، وكنت في حالة التمييل بين أن أترك رفاقي في السفر، وأن أخسر مبلغاً جزيلاً من الدنانير بملازمتهم ومرافقتهم، فاخترت الأمر الأخير من الأمرين ونزلت إلى البر، واستأجرت مثوىً في الدار الّتي سكن فيها المسافرون الآخرون، وصاحب مثوانا اسمه «بارنيت» وهو أيكوسي الأصل، مداهن ذو وجهين[1] فوافقت على أن أدفع إليه عشر روبيات كل يوم للسكن والطعام، ولم يكن معه إلّا زوجة وطفلان وخمسة عبيد، ومع أنّنا كنّا في داره خمسة عشر إنساناً وفينا خدمنا كان يتدارك حتّى حاجاتنا الصغرى ويبادر إلى تحقيق رغباتنا.

وقبيل وصولنا إلى هذه البلدة كان الإنكليز قد استولوا على مدينة الكاب وركزوا فيها حامية عدّتها خمسة آلاف جندي أوروبي في قيادة المقدم «دنداس[2]» وكان يقوم بوظيفة الحاكم فيها أيضاً، لغياب حاكمها اللورد «ماكارتني» والضابط «كولنز» كان يقود جنود خليج «فالس بي» المقدم ذكره آنفاً، فذهبت إليه أزوره، فتلقاني بأعظم أدب وفي الغد جاءني يزورني، كفاءً لزيارتي ودعاني إلى التغدّي في داره، ودعا معي جماعة كبيرة وكانت مائدته نفيسة[3]، ولم أكن أفهم أيّامئذٍ إلّا قليلاً من اللغة الإنكليزية. ومع ذلك فهكذا كانت ظرافة الضابط «كولنز» وزوجته «المسز س.[4] كولنز» تلك الظرافة الّتي جعلتني أقضي ظهيرة جد مستحسنة في حياتي. وكان الضابطان «لي» و«كوج» اللذان يقودان السفينتين الحربيتين المقدم ذكرهما آنفاً قد تلقياني أسرع تلقٍ ودعواني مرتين إلى مشاهدة احتفالين عيديين أقاماهما على سفينتيهما، وأمرا بإطلاق عدّة إطلاقات مدفعية إعلاناً بوصولي وبمغادرتي للسفينتين، وأفاضا عليّ أخيراً كل التكريم الّذي جرت العادة بإفاضته على أعيان الزمان.

ولم تنسلخ مدة طويلة على إقامتي في دار المستر «بارنيت» حتّى شعرت بتبدل كبير في سيرته، فكانت المائدة في كل يوم أردأ ممّا قبلها، وأحياناً كان يسيء معاملتنا، وجاءني ذات يوم يرجو منّي تبديل مثواي، بمثوى أصغر منه

(1) جاء في الترجمة أنّه كان حراً منافقاً وهما صفتان متناقضتان. (م).
(2) ذكر الرحالة هذا المقدم كأنّه من معروفيه ولم يقل «في قيادة مقدم اسمه كذا وكذا». (المترجم).
(3) كان الرحالة يحب الإنكليز وألوان طعامهم. (م).
(4) لقب النّساء المتزوجات في إنكلترا في ذلك العصر. (م).

لأنه ينتظر، على حسب قوله، نزلاء جُدداً، فنقلت أمتعتي إلى مثوى مجاور لما كنت فيه ثمَّ جاءني بعد قليل جداً فقال لي: إنَّ هذا البيت كان محتجز السكنى ويجب عليَّ أن أختار بيتاً آخر من الدار، فأذعنت أيضاً مرَّة أخرى، وأسكنني في المثوى الجديد الَّذي عيَّن عليه، فوجدت فيه صناديق أمتعة لرجل شريف كان قد ذهب إلى مدينة الكاب وسيعود في المساء فساءني هذا الأسلوب في التصرف، وسألت صاحب الدار ما كانت غايته؟ فأجابني ذاكراً: إنَّه سامحني كثيراً في أجرة مثواي فإن أردت البقاء في الدار فيجب أن أدفع عشرين روبية كل يوم، فقلت له: إنَّك تتصرف تصرُّف السادرين الأغوياء، واستعددت للسفر إلى مدينة الكاب، ومع أنَّ الشمس لم تكن قد متعت حين خروجي من منزله فقد استأداني أجرة اليوم كله وكنت مغتاظاً فوق ذلك من زوجه فقد كنت وهبت لها حين وصولي، كيساً مملوءاً من أجود أنواع الأرز البنغالي، وقيمة الكيس في مدينة الكاب أربعون أو خمسون روبية.

مدينة الكاب سنة 1799م

وباليوم الثاني من حزيران[1] سافرت إلى مدينة الكاب في عربة تجرها ثمانية أحصنه، ويقودها رجل واحد بمهارة مدهشة، فقد كانت الأحصنة تارة تخوض الماء فيبلغ صدورها وتارة تنغمس العربة في الرمل، وكنَّا أحياناً نصعد تلالاً وآكاماً فيها حُدُر[2] ومع ذلك فكانت الخيل تحضر إحضاراً، وبعد أربعة أميال أو خمسة من المدينة كان الطريق واسعاً ومستوياً، وعلى طواريه سياج من نبات شائك، وكان الريف جيد الزراعة، ويرى الإنسان هنا وهناك بساتين وغياضاً وضياعاً وأرحاء، تساعد جداً على تجميل جمهرة المناظر. والإنكليز والهولنديون الَّذين يسكنون مدينة الكاب يخرجون للنزهة كل يوم في هذا الطريق، على الخيل وفي العربات منذ الزوال إلى الساعة الرابعة، فعلى مسافة ثلاثة أميال من المدينة تظهر المدينة نفسها ذات منظر مبهج، وبينها وبين خليج

(1) لعلَّ الرحالة وهم في تسمية الشهر، لأنهم دخلوا خليج «فالس بي» في الثالث والعشرين من تموز، كما ذكر، أو كان ذلك التاريخ هو الخطأ.
(2) الحدر جمع الحدور وهو الجانب المنحدر الَّذي لا تثبت فيه الرجلان. (م).

«فالس بي» مسيرة يوم واحد. وإذ كان في الطريق المذكور فنادق كان من الأمر السار أن يستطيع الإنسان التغذّي والتمشي في الساعات الّتي يريدها.

وكان اللّيل قد أرخى سدوله حين دخلنا مدينة الكاب ولكني كنت قد أحكمت أمري باحتجازي مثوى لي في فندق المستر «كلارك» فذهبت إليه قاصداً حين وصولي. إنّ مدينة الكاب تحف بها جبال، وعدّة دور منها قائمة على مقربة قريبة من رأس التابل (أي جبل المائدة) بحيث يخشى الأجنبي في كل لحظة أن يراها مدمّرة بسقوط الجبل عليها، والجبال المذكورة آنفاً تغطيها أعشاب طيبة الروائح وأزهار كثيفة وهي للأنعام مراعٍ جيدة، ويرى الإنسان هناك منابع ماء غزيرة عذبة، لا تقتصر فائدتها على استعمال السكان بل تستعمل لإدارة عدّة أرحاء ولنضح الأرضين.

إنّ سكان الكاب يذهبون غالباً إلى قمة جبل «التابل» للهو عليها وهو موارب في عدّة مواضع فلا يستطيع الإنسان تسلقه بغير حبل ومع هذا فالنّساء[1] الهولنديات قد تعودن كثيراً أن يتخطين المهاوي حتّى ليصحبن أزواجهن دائماً في هذا النوع من التنزهات. وفي الجانب الآخر من المدينة يرى الإنسان «بي دي لاتابل» وفيه عدّة مضارب مدفعية مهمة، ومنها مضارب قليلة من جهة الساحل، وهذا يعني أنّ مدينة الكاب محصنة تحصيناً جيداً، حتّى أنّ الإنكليز لما هجموا عليها، قبل أن يستولوا عليها، اضطروا أن يذهبوا أوّلاً إلى «فالس بي» وهناك نزلوا إلى البر، وبعد أن اجتازوا الجبال، بصعوبة بالغة هجموا على مدينة الكاب من الجانب الأرضي، وهكذا أجبروا الهولنديين على الاستسلام.

دور[2] مدينة الكاب زهاء عشرة أميال، والدُّور أكثرها مبنية بالآجر، ومنها قليل مبني بالحجارة، وطرقها الواسعة المتصافّة تصافاً حسناً لها رُصُف[3] مبلطة بحجارة صغار أو الطاباق العريض ولها مثعب[4] أو مثعبان،

(1) سيرى القارئ أنّ الرحالة لا ينفك بذكر النّساء بأدنى سبب كما ذكرنا قبلاً.

(2) الدور عند القدامى هو «المحيط» عند العصريين.

(3) الرصف جمع كثرة الرصيف.

(4) المثعب هو مجرى الماء المستقذر في المدينة ويُسمّيه العصريون «المجرى والمجاري» وهو ـ

تثعب فيه المياه، بحيث لا يمكن أبداً، على التقريب، أن يُرى فيها طين حتّى في الشتاء. وجميع الطرق والدروب والشوارع مكنوفة بصفين من الأشجار، الّتي تظل ظلاً وارفاً أي ذات الظل الوارف، وأمام كل دار مصاطب من الحجارة سمكها أي ارتفاعها قدمان يجلس عليها السكان، ليدّخنوا بسبلهم في أماسي الصيف، وهذه العادة الّتي أحسبها خاصة بالهولنديين عادة حسنة.

وعدّة دور من المدينة مؤثثة بظرافة وفيها مرايا ومناضد ومناور[1] وشمعدانات وأكثر هذه من الفضة، وجدران البيوت والحجر والغرف مزينة بورق ملون بمختلف الألوان والشبابيك عليها ستور نفيسة من أقمشة الهند أو من القطيفة، وفذلكة القول إنَّ بهاء هذه المدينة أنساني حاقّ الإنساء ذكرى بهاء كلكتا الّذي كنت أحسب حتّى هذا اليوم أنّه أعلى من بهاء جميع المدن الّتي بين بلاد الهند وأوروبا، ثمَّ تغير حسباني بالنسبة إلى مدينة الكاب وأستطيع أن أقول متحققاً أنّي منذ أوّل يوم من فصولي حتّى وصولي إلى إنكلترا كنت أرى تزايد البهاء والنفاسة في الأشياء فكل مدينة أبلغها أراها أجمل من الّتي غادرتها. وكان الأمر بالضد حين رجعت إلى بلاد الهند، وعلى هذا ظهر لي بعد إقامة طويلة في لندن ثمَّ زيارتي باريس أنَّ هذه المدينة الأخيرة هي دون الأولى كمالاً من غير شك، أجل فيها آثار أجمل من آثار لندن، ولكنُّها أقل تنظيماً ونظافة واستنارة باللّيل، والميادين العامّة والحدائق أقل عدداً فظننت أنّي هويت من الجنّة إلى النّار[2]، ولم أشعر بجميع جمال عاصمة فرنسا إلّا عندما كنت في إيطاليا، فمدن إيطاليا، على حسب رتبتها في الذكر، ظهرت لي جميلة بالمقابلة بينها وبين القسطنطينية، وظهرت لي هذه الأخيرة جنّة الأرض حينما تذكرت بغداد والمدن الأخرى من وطن أهل العقائد الصحيحة[3]، وفي قرابة وسط الكاب ميدان جميل دوره ميلان وفيه يتدرب الجنود، ويكتنفه من الجانبين

خطأ من حيث الاصطلاح، لأنَّ القدامى من العرب سموه بالمثعب والمثاعب ولأنَّ المجرى عام لكل ماء. (م).

(1) المناور هو جمع المنوار.

(2) قلنا: لا شك في أنَّ حب الرحالة للإنكليز ساهم في تعظيمه جمال لندن. (المترجم).

(3) يعني المسلمين عامّة.

دروب ذات دور شاهقة ومن الجانب الآخر الحصن والبحر، إنَّ الحصن منظم ويشبه كثيراً حصن كلكتا ولكنَّه أصغر منه. وأسواق المدينة جدّ جميلة. ومشحونة بالسلع والتجارة.

النِّساء الهولنديات

حسبنا من الكلام على مدينة الكاب فلنتكلَّم قليلاً على السكان فجميع الهولنديين الَّذين أتاحت لي الفرص أن أراهم في الكاب ثقلاء الدم، ضخام، سخفاء العقول، ولكن الشابات الهولنديات حسنات الأجسام، كثيرات النشاط، ولا يستطيع الإنسان أن يتهمهن بالقسوة والفظاظة[1]، ومن سوء الحظ أنَّهنَّ يردن أن تهدى إليهن هدايا جزيلة، والنِّساء الهولنديات المتزوجات سيِّئة سمعتهن والإنكليز الَّذين لهم بعض الغنى كل واحد منهم قد خادن سيِّدة منهن يزورها اعتياداً من غير أن يرى ممانعة أو مدافعة أو إباءً من زوجها، وقد جرت العادة بأنَّ الزوج يعتزل زوجته حينما يصل الخدن الإنكليزي المدلل، وهذا يعني أنَّ الإنكليز ينفقون جميع ما يربحون وما يحصِّلون على أنَّ الهولنديين ينالون من الغنى أكثر ممَّا ينالون في أثناء حكومة دولتهم وفي الحالة العُمْى[2] أرى الهولنديين رداءً[3] أنذالاً، قلما يضيفون الضيوف ويبالون أنَّ نساء سمعتهم، ولم أرَ شعباً غيرهم يعامل العبيد بقسوة كمعاملتهم وإذا كان للعبد من عبيدهم حرفة أو صنعة فهم يجيزون له الاحتراف أو الاشتغال بها، ولكنَّهم يوجبون عليه أن يدفع إليهم دولاراً واحداً إلى أربعة دولارات في كل يوم، بحسب وسائل عملهم، وفي مقابل تلك الإجازة، ويحتفظون لأنفسهم ببنات العبيد إذا كن جميلات وإلَّا باعوهن وأجبروهن على الاعتمال مع آبائهن، وإن اتفق أنَّ عبداً أمكنه جمع مبلغ كافٍ في أن يبتاع حريته ويتحرر فإنَّهم يطلبون منه ثمناً مغلى مفرطاً، أو يضعون في طريقه كثيراً من العراقيل، وإذا كانت الجواري[4] مكلفات أن

---

(1) الظاهر: أنَّ الرحالة رأى منهن رقة عليه.

(2) العمى مؤنث الأعم.

(3) جمع رديء.

(4) الجواري جمع الجارية وهي أنثى العبد في الغالب. (المترجم).

يعتنين بخدمة السرر والغرف والحجر للمسافرين أمكنهن أن يحصلن على شيء من الدراهم ولكن ساداتهن لبخلهم يسلبونهن قسماً كبيراً منها.

وفي أثناء إقامتي في الكاب كابدت أذى هائلاً من قذارة مواضع الاستراحة[1] والغائط فإنّهم لا يعتنون بتنظيفها وليس في المدينة حمامات حارة ولا حمامات باردة، والسكان يجهلون كل الجهل استعمال المغسل والتطهر.

وإذ كنت أجهل اللغة الهولندية كان من المحال أن أكالم النّساء الشابات الهولنديات ومع ذلك فقد رقصن بحضوري رقصاً شهوانياً، ونظرن إليّ نظرات جدّ معبرات[2] فأحمر خجلاً واضطر أن أنزوي في باحة الرقص، هذا وأنَّ عدَّة أوانس تحرشن بي ذات يوم، وأجملهن كانت أجرأهن خطفت منديلي وقدَّمته إلى إحدى صواحبها فاستغرقن في الضحك كلهن، وإذ ظهر أنَّ صاحبتها لا تريد قبوله، فاسترجعته منها قائلاً: «أنا لا أهبه إلّا لأجمل فتاة منكن» إشارة منّي إلى عادة الأتراك في رميهم المنديل إلى المرأة الّتي يريدون أن يقضوا اللّيل معها، وتوجّهت الدعابة بذلك على شيطانتي المحبوبة، فانصرفت وقد ضرج الخجل خديها بالاحمرار.

أهل الكاب

أقمت في دار المستر «كلارك» حتّى اليوم الثالث عشر من تموز سنة (1799م) وفي أثناء تلك الإقامة تعرّفت إلى عدَّة أشخاص وتحققت أنَّ في مدينة الكاب ناساً كثيراً من المسلمين، وصاحب مثواي لم يتوانَ عن أن يبرهن لي على أنّه هولندي صحيح النسب بدعاواه العريضة، وقد أنبته تأنيباً كثيراً، رده عليّ بكثير من الوقاحة، حتّى لقد تهدَّدني بتقديمي إلى باحة القضاء، وشكوته إلى الضابط «ويليامسون» أحد رفقائي في السفر وإذ كان بينه وبين إحدى نساء الدار تواطؤ إنحاز إلى صاحب الدار، وبعد ذلك أتيحت له فرصة الندم على سيرته الّتي سارها، فإنَّ الجارية الّتي واطأها ووطئها قد اتضح أمرها وعاقبها سيِّدها بشدَّة وأخذ جميع الدراهم الّتي

(1) يعني المراحيض وأشباهها.
(2) يكثر الرحالة من ذكر افتتان النّساء ولعلّه كان على جمال من الصورة. (المترجم).

أعطاها إيّاها الضابط المذكور، وإذ ذاك غادر ويليامسون الدار وجاء إليّ معتذراً. وبعد مشاجرتي للمستر (كلارك) سكنت في دار مسلم مستور حييّ فعُني بحالي واهتم بي أعظم عناية واهتمام.

كنّا أيّامئذٍ في قلب الشتاء ومع ذلك كنّا نرى الخضرة والأزهار في كل مكان، وكانت الفواكه لذيذة وفي وفارة وكثرة حتّى لقد رأيناها معروضة في موضع واحد، على اختلاف مناطقها الحارة والمثلوجة. وكان على مسافة ما من المدينة بستان مشهور يعرف باسم كونستانتيا يغل عنباً فائقاً رائقاً ووجدته ألذ عنب أكلته في حياتي ويصنعون منه نبيذاً لذيذاً. يصدر باسم «كونستانس» إلى جميع أصقاع الدُّنيا.

وأهل الكاب يبيعون في الأسواق كثيراً من البقر والضأن والمعزى وهو من النوع الجميل يكون فيه كثير من الشحم والدهن، وفي المدينة خضراوات جيدة ولكن الأرز والحنطة فيها من النوع المقارب[1]. ومن العسير جداً أن يحصل المسافر على زبد طري، ومع كثرة هذه الأشياء ووفارتها في الظاهر تباع بأسعار عالية جداً.

إنَّ خيل مدينة الكاب جميلة وقوية وجد مروضة وأحسبها من أصل الخيل العربية، وهؤلاء يستخدمون البغال أيضاً، وفي الغالب يتخذونها لجر العربات والعربات القروية يجرها البقر وإنَّ هذا الجزء من أفريقية فيه كثير من النعام، وقد أروني نوعاً خاصاً من الكلاب وقططاً وحشية تعيش في الغابات.

وباستثناء الهولنديين يرى السائح ناساً من كثير من الأقطار الأخرى، وتستعمل في المدينة سبع لغات أو ثمان والشعب مؤلف في قبيله الكبير من المالقيين والزنج، وأكثرهم من قدامى العبيد الّذين ابتاعوا حريتهم وتحرروا أو أعتقهم سادتهم ولقيت بينهم كثيراً من المسلمين منهم عدَّة أشخاص يمتلكون أملاكاً معتبرة ويطيب[2] لي أن أثني الثناء الحسن على رجل اسمه «المستر بومكارد» هولندي ظريف كان يقيم منذ ثلاثين سنة في البنغال وكان

---

(1) هو الوسط، ليس بالجيد ولا الرديء.

(2) بدأ الرحالة يذكر الّذين تعرَّف إليهم وكان لهم أثر حسن في نفسه، والتذكير هو الغالب فمنهن نساء. (م).

بعض الزمن حاكم «جنيسورا» وامرأته كانت جدّ متحبّبة، وكانت ذات علم غزير وتتقن سبع لغات مختلفات. وإن وجب عليَّ أن أذكر جميع الألطاف الّتي ألطفني بها المقدم «دنداس» المقدم ذكره في هذه الرحلة فإنّي لم آت على نهايتها، ولكنّي لا أستطيع أن لا أقول كلمات على الأمسيات الساحرة الّتي قضيتها في دار الليدي «بارنيت» المعروفة عموماً باسم «أميرة الكاب» فكنت غالباً أكون في دارها مع شابة إيرلندية ذات جمال كامل والسيِّدة «كرافورد» كانت قليلة الكلام، إلّا أنَّ فيها جميع ظرافة الأميرات الهنديات وقد أغرمتُ بها غراماً. والليدي «بارنيت» و«السيِّدة كرادفورد» كانتا الإنكليزيتين المتميزتين الوحيدتين اللتين كان زوجاهما معهما في الكاب، والضباط الآخرون كانوا مضطرين أن يبسطوا آمالهم ورغباتهم بين أيدي الهولنديات[1] فكثير منهن بهذا السبب فعلن[2] زواجاً نافعاً جداً.

وفي أثناء إقامتي بمدينة الكاب تغيَّرت الرياح واستطاع الاشتيام «نيتلمان» أن يقود سفينته من «فالس بي» إلى «بي دي تابل» وما كاد يصل إليه حتَّى اتهمه «المستر برينكل» وكيل شركة الهند بأنّه نهب ما في السفينة الّتي احترقت في نهر الكانج بالهند فاستدعي إلى باحة القضاء، وصدر الحكم بتجريمه وتغريمه زهاء (ثمانية وأربعين ألف فرنك).

وفي أثناء الأجراء لهذه الدعوى وضعت سفينته في الحجر والملاحون تفرقوا، أنَّ «نيتلمان» وجد نفسه إذن في حال تعذر واستحالة لاستئناف السفر، ومع هذا فأحسب أنه لم يكن مغتاظاً من هذا الحادث لأنّه تزوج بعيد ذلك سيِّدة هولندية وأقام في الكاب، وإذ ذلك رفع الركاب أمره إلى القضاء وأجبروه على أن يعيد إليهم نصف المبلغ الّذي أعطوه إيّاه أجرة لسفرهم، وكان لي من ظلافة النّفس ما منعني من مطابقتهم على ذلك وكنت أخشى من جهة ثانية مناقرة الوكلاء[3] الهولنديين، وقد أكّد لي «نيتلمان» أنّه إن صدر الحكم عليه لا له

---

(1) يعرض الرحالة بما أشار إليه من أنَّ الضباط الإنكليز كان لكل منهم خدينة من زوجات الهولنديين.

(2) استعمل «فعلن» لأنّه لم يكن زواجاً بل كان سفاحاً.

(3) الوكلاء عند العرب هم المحامون عند العصريين، وهذا الاصطلاح ممَّا أسيئت ترجمته قبل نصف قرن لأنَّ الّذي يحامي لا يأخذ أجر. (م).

فسيعيد إليَّ حقي كما أعاده إلى الآخرين ولكنّه أنكر هذا الوعد أخيراً إنكاراً باتاً وخسرتُ مالي، وكيفما كان الأمر فقد كنت مبتهجاً بخلاصي من هذا الرجل الرذل الرديء، وأتيحت لي فرصة السفر إلى إنكلترا في الوقت نفسه، فاحتجزت لنفسي موضعاً في السفينة «بريتانيا» بأربعين ديناراً «لويزا»[1] وكانت السفينة صغيرة قد جاءت من البحر الجنوبي مشحونة بما تنقله إلى لندن.

مغادرة الكاب

وباليوم التاسع والعشرين من أيلول سنة (1799م) المذكورة أبحرنا من الكاب أنا ورفيقي وصديقي الضابط «ريشاردسن» في السفينة «بريتانيا» المذكورة آنفاً، وكانت هذه السفينة خاصة بصيد العنبر أي البال، وكانت مشحونة بالدهن، ولكونها ذات براءة ملكية كانت مسلحة تسليحاً جيداً وقبل ذلك كان لها استيلاء وغلبة على الإسبان، وعدَّة ملاحيها ثلاثون أو أربعون رجلاً وكلهم مدربون تدريب ملاحي السفن الحربية وقد كنَّا فيها منحصرين بعض الانحصار ولا شك. ولكن كل شيء كان في انتظام على ظهرها، وكانت الأسلحة جد معتنى بها بحيث لم نحسّ قط بحادث مزعج ممَّا كابدناه في السفينة الدانية.

إنَّ بريتانيا كانت سفينة شراعية جيّدة حقاً وقد تتبعت في طريقها عدَّة سفن إلَّا أنَّها لم تستولِ على بعضها، واسم اشتيامها «كلارك» وكان عالماً حق العلم بالملاحة فكنَّا إذا اقتربنا من ساحل من السواحل، يقول لنا دوماً متى سنصل إليه، وذلك قبيل ساعة واحدة على التقريب، وفي الحال بعد ارتحالنا من الكاب وافقتنا رياح الأليزة (التجارية) أيضاً فقطعنا أربعمائة ميل في اليوم.

جزيرة سنت هيلين

وفي صباح اليوم الثالث عشر من تشرين الأوَّل من هذه السنة «1799م» تبينا جزيرة «سنت هيلين» وبالظهر ألقينا مرساة سفينتنا في مينائها، وقد أبررت فيها بُعيد الوصول، ودعاني الحاكم فيها «بروك» إلى التغدّي

---

(1) اللويز نقد من الذهب فرنسي.

عنده، وهذا الرجل الفاضل، كان قد خدم، ثلاثين سنة، في الهند، بصفة ضابط، وأمضى بعض الزمان في بلاط الإمبراطور «شاه عالم» وهو يحسن التكلّم باللغة الهندية كل الإحسان.

إنَّ جزيرة «سنت هيلين» في وسط المحيط الأعظم على عدَّة مئات أميال من الأرض تحت الدرجة السادسة عشرة من درجات العرض الجنوبية، ومحيطها زهاء ثمانية وعشرين ميلاً، وصخورها البادية من الساحل سود اللون ومحترقة، وفي داخل أرضها يجد الإنسان عدَّة أودية طيبة، وآكام تزينها شجيرات فائقة الجمال، وكل البساتين القابلة للزراعة قد جعلت بساتين منظرانية، وسكانها بقوَّة عملهم، استطاعوا أن يشقوا فوق الجبال طرقاً ملتوية متحويَّة يمكن فرسين اثنين أن يسيرا فيها مقرونين، غير أنَّ ميل منحدراتها يمنع غالباً من استعمال العربات، وأعظم جبل فيها سمكه ميل واحد على التقريب وهو يقذف من أحد صدوعه دخاناً ينشر رائحة كبريت قوية، وليس في كل الجزيرة إلَّا جدولان قليلا الأهمية، وإذ كان النبات فيها تابعاً بكليته للمطر يتفق غالباً أن يجف المراعي والخضراوات وتعدم الرطوبة، وهذا الَّذي يضرُّ بالسكان إضراراً كبيراً، وإذا كان الموسم مواتياً فالقطاف يكون في عدَّة بساتين ذا كمية مدهشة من التفاح وغيره من الفواكه، إنَّ أحد الضباط ممَّن أعرفهم، يستغل في سنة واحدة من بستانه ربحاً صافياً مقداره «ثلاثون ألف ليرة فرنسية» وهذه الجزيرة لا تغل الحبوب فسكانها يجتلبون من أوروبا الدقيق وعدَّة غلات أخرى، ويستطيع الإنسان أن يحصل على بقر وضأن وطير داجنة، ولكنَّها بأسعار عالية جداً. والحليب في الجزيرة قليل نادر، ولكنَّه من النوع الطيب، فإنَّ فيه زبدين يستخرج أحدهما بعد الآخر، ويرى الإنسان في الجزيرة جميع أشجار آسيا وأوروبا وفواكههما ومناظر خيالية. وحين كنت أتنزه في بساتين الضابط «روبرتسون» مع ابنتيه المحببتين وأوازن بين حالي الحاضرة والآلام الَّتي قاسيتها في السفينة «كريستيانا» أرى نفسي في هذا الوقت قد نقلتُ إلى الجنَّة، وممَّا يدهش في هذه الجزيرة أنَّ الإنسان لا يسمع فيها رعداً أبداً ولا يرى برقاً.

إنَّ المدينة قائمة في وادٍ ضيق، يظهر أنَّه من أثر سيول الجبال، وطول

هذا الوادي ميلان على عشرين[1]، ويبلغ عرضه مائة مخصرة وقد أسس الإنكليز المدينة بعد أن تمكنوا في بلاد الهند بنحو من أربعين سنة، وفيها عدّة مبان مبنية بالحجارة ولكن السطوح من قش الزرع أو الآجر، وفيها عدّة دكاكين كثيرة البياعات، يُباع فيها بالتفاريق كل نوع من تجارات الهند وأوروبا، وفيها حانة ومقهاة[2] وفي أعرض موضع من الوادي ميدان واسع اعتاد الجيش أن يُعرض فيه، وعدّة مضارب مدفعية هائلة تحمي الساحل وفي أعالي التلال قلاع للدفاع، منها يستطيع المدافعون بسهولة أن يغرقوا السفن المعادية الّتي تجترئ فتلقي أناجرها في الخليج، ويرى الإنسان في الأرض المتقدمة قليلاً برجاً عظيماً مبنياً كله من الحجارة المهندمة ثخن جدرانه خمس عشرة قدماً، إنَّ المهندس الّذي هذه هندسته يدّعي بأنّه لا يمكن أن يُستولي عليه، ويدوم دوام الصخر الّذي يبني عليه.

إنَّ السفن لا تستطيع أن ترسو إلّا بإزاء المدينة فالماء في ذلك جدّ عميق حتّى لتستطيع أن تقترب فيكون بينها وبين الساحل مائة مخصرة، ولما تمكن الإنكليز أوّل مرّة في هذه الجزيرة كانت كثيرة المعزى الوحشية أي الأروي[3]، ولكن هذه الحيوانات في قفزها من صخور إلى صخور كانت تزحزح غالباً حجارة كبيرة تسبّب أضراراً بسقوطها على الدور المبنية في المهواة، فوضعوا لرؤوسها أثماناً، فمن جاء بجثة معزاة منها أعطي مبلغاً من المال، وهكذا أبيد هذا النوع من المعزى.

إنَّ سكان الجزيرة شديدو السمرة، فهم في الحقيقة خلاسيون من الأوروبيين والهنود والزنوج، ولا يزال كثير من الزنوج بين عبيد الجزيرة. وقد رجا منّي حاكم الجزيرة «بروك» أن أسكن في داره مدة إقامتي فيها، وأعدّ لي فرساً وكلّف ابنه استصحابي في جميع تنزهاتي خارج المدينة وقد زرت بساتين الحاكم وبساتين نائبه وجميع المواضع الّتي تستحق أن تُرى، وفي وقت استئنافنا الإبحار بعث إليّ بهدية هي كمية من الفواكه والخضراوات.

(1) هكذا ورد في الترجمة.

(2) المقهاة موضع شرب القهوة والجمع مقاه ومقهيات.

(3) الأروي جمع الأروية وهي العنز الوحشية.

مغادرة سنت هيلين

وفي اليوم الخامس عشر من تشرين الأوّل من السنة، بعد أن تغذّيت في دار الحاكم المتحبب، ركبت السفينة ورفع الملاحون الأنجر وغادرنا هذا البلد الجميل. وفي اليوم العشرين مررنا على مسافة ميلين من جزيرة «الأسنسيون» وهذه الجزيرة كجزيرة «سنت هيلين»: صخرة عظيمة قائمة في البحر المحيط تحت الدرجة الثامنة من درجات العرض الجنوبية، وإذ لم يكن فيها ماء عذب لا تني السفن عندها إلّا لأخذ السلاحف، فإنّها كثيرة فيها، وهذه الحيوانات تأتي ليلاً فتبيض على الساحل، والّذين يصطادونها يقلبونها ظهراً لبطن ثمّ ينقلونها متى شاؤوا.

وباليوم الخامس والعشرين اجتزنا خط الاستواء إلّا أنّ الوقت كان بارداً خلافاً للعادة، وقد أخذنا سمكاً كثيراً ورأينا أسراباً من الطير تشبه الخُطّاف، تتبع السفينة، وهذه الطير ـ كما يُقال ـ لا تستقر أبداً على الساحل، وتصنع أعشاشها من الأعشاب البحرية وزبد البحر، وتطفُو الأعشاش فوق الماء، وتضع فيها بيضها ولكن هذا الخبر يبدو ضعيف الاحتمال فلا يتهيأ قبول تصديقه، على أنّ الضابط «كلارك» قصّ عليّ قصة أكثر مخالفة للعادة أيضاً، قال: إنّه أبرّ ذات يوم في ساحل أفريقية مع قاربين ليتزود ماءً، وفي الوقت نفسه خرج من وسط الموج فجأة مائتان أو ثلاثمائة حيوان الواحد منها أكبر من الحمار وتعرف باسم «خيل البحر» ولكنّها من غير شك عجول البحر وتقدّمت إلى مسافة أكثر من ميل في الساحل تاركة في الرمل آثار قوائمها، ولما عادت أطلق عليها الضابط إطلاقة من بندقيته وقتل واحداً منها، فعقبته الأخرى في الحال لتثأر بصاحبها، ولم ينج هو وبحارته إلّا باختفائهم بين الصخور، ووثب عدّة ملاحين إلى أحد القاربين وقدر على أن يصل إلى السفينة ولكن الحيوانات المذكورة وهي هائجة حطمت القارب تحطيماً في عدّة قطع.

وباليوم السادس والعشرين ظهراً، تبينا على بُعد سفينة، حسبها الربان فرنسية فأعد كل شيء للهجوم وكنّا يومئذٍ بين أوروبا وأمريكا، وإذ كان أكثر الملوك في حرب بعضهم على بعض كانت هذه النواحي من البحر المحيط

أخطر نواحيه وإذا احتربت سفينتان فالغالبة منهما تسحب المغلوبة إلى ميناء من موانئ دولتها، فتبيع السفينة، لفائدة نفسها، وما تحمله، وبعد سويعات علمنا أنَّ تلك السفينة أمريكية، ومع أنَّ إنكلترا ليست في حرب عليها طلب المستر «كلارك» من ربان السفينة الأمريكية أن يأتي إليه ويقدّم مستنداته، فأسرع ذلك المسكين وقد تملكه الخوف، بإذعانه للأمر وأحضر كتابه اليومي وشهاداته واحتبسوه طول النّهار وبالمساء أعطي إجازة الاستمرار على السفر. وفي الغد لاقينا سفينة هامبوركية مشحونة متجهة إلى جزيرة موريس وكانت سفينة جميلة ذات ثلاثة صوار، شحنتها أزواد مملوحة، وصدر الأمر إلى ربانها بالتوقف وحضر عند الربان الإنكليز وقدّم إليه وثائقه المحررة، وأهدى إلى ركاب سفينته شيئاً من الجبن الطيب. وأجيز له أن يواصل السفر حيث يشاء.

وباليوم السابع والعشرين من تشرين الأوّل من السنة المذكورة (1799) مساءً وصلنا إلى الدرجة الخمسين من درجات العرض الشمالية، حيث سررنا برؤية أنجم الدب الأكبر وأنجم الدب الأصغر والنجم القطبي وكان الوقت ممطراً جداً وقد أكّد لي الربان أنّه قاسى دائماً نداوة في فسحة هذه الدرجات.

وباليوم السابع من تشرين الثاني من السنة المقدم ذكرها دخلنا، المرّة الثالثة في منطقة رياح الأليزة (التجارية) الّتي تسيطر على ما بين الدرجة العاشرة والدرجة السابعة والعشرين من درجات العرض الشمالية، وقد دفعتنا بأعظم سرعة بحيث كانت السفينة تقطع أحياناً عشرة أميال بالساعة الواحدة، وكان البحر هائجاً بما يقرب من هيجانه الّذي كان بإزاء مدينة الكاب ولكن سفينتنا كانت في حال جيدة، ومسيطراً عليها حاق السيطرة، فلم نشك من حادث مزعج البتة كالّذي كنّا شكونا منه في السفينة الدانية.

وباليوم الحادي عشر لاقينا عشر سفن هندية إنكليزية تحرسها سفينة حربية واحدة، وكل منّا ومنها أنشأ علمه، ثمّ مررنا بالمستوي العالي للجزر الّتي يسمها الإنكليز «بلاد الهند الغربية» ولكنّنا لم نستطع تمييزها لأنّها كانت بعيدة جداً في الجهة الغربية. وباليوم الرابع عشر وصلنا قبالة جزائر

«كناري» أي الجزائر «فورتونه[1]» الَّتي يبتدئ المسلمون منها حساب درجات الطول، وهذه الجزائر قائمة تحت الدرجة الثالثة والثلاثين من درجات الطول الشمالية، ولكنَّنا تركناها في جهة الغرب ودخلنا بُعيد ذلك في بحر «الميديترانه = المتوسط» الممتد نحو الشرق حتَّى مدينة حلب.

ومن اليوم التاسع عشر إلى السابع والعشرين من ذلك التشرين، صادفنا رياحاً معاكسة لنا وكان البحر هائجاً، ولكنَّنا لم نكابد من المكاره غير كوننا محرومي الغذاء والنوم[2]، ثمَّ كنَّا في اليوم العشرين في مدخل ذراع البحر الَّذي يفصل إنكلترا عن فرنسا، وأمّلنا أن نرسي السفينة، في يوم غد ذلك اليوم في «بورتس ماوث» أحد أشهر الموانئ في إنكلترا ولكن ريحاً من الشرق استمر هبوبها بشدَّة حالت بيننا وبين دخوله، واضطررنا أن نوجه السفينة نحو ساحل إيرلندا.

وددت أن أقدم إيضاحاً لعدَّة مصطلحات إنكليزية وفرنسية لأسهِّل على مواطنيّ فهم هذا الكتاب: «القنال وهو جزء من البحر محصور بين أرضين، ولكنَّه مفتوح من الجهتين. والـ(بي) ــ الخليج: هو جزء من البحر يدخل في الأرض وشكله مستدير. وسي[3] (مير) هو البحر، ومن الخلجان ما هو ماء ممتد كثيراً يحف به البحر جزئياً مثل «البحر المتوسط» والخليج العربي والبحر الأحمر وأشباهها.

إنَّ بحر المانش يجري على التقريب من الشرق إلى الغرب، وبسبب ذلك، يكون من المحال دخوله حين تهب الرياح من الشرق فالسفن مضطرة أن تطوف ذهاباً وإياباً حتَّى تتغيَّر وجهة الرياح، وكنَّا على التحقيق في الحال الأخيرة، وبعد أن جاهدنا مدة يومين، تلك الرياح، دون أن نتقدَّم غيَّر رباننا وجهتنا، خوفاً من السفن الفرنسية الجوالة، وصمَّم على الدخول في قنال «سنت جورج» الَّذي يفصل إيرلندا عن إنكلترا، ليكون في أمن وسلامة.

---

(1) أي السعيدة.

(2) هذا عجب من القول لهذا الرحالة، فماذا يريد أن يكابد غير ذلك وهو راحل لا مقاتل؟!. (المترجم).

(3) هذا بالإنكليزية والَّذي يليه بالفرنسية.

وفي اليوم نفسه لاقينا سفينة ذات صاريين غمرها النسيم[1] الأخير بالماء، وتركها الملاحون، وكان شحنتها جدّ خفيفة وكانت طافية كحيوان غمره الماء، فذهب الربان «كلارك» في قارب إليها وبمساعدة ملاحيه، وكانوا غطاسين بارعين، استطاع أن يستخرج عدَّة خوابٍ من النبيذ النفيس الفاخر وكمية كبيرة من الفواكه والمربيات، وكنّا بالقرب من الساحل، وإذ كانت الريح باردة جداً أجيز لنا أن نصطلي بالنَّار، ودبَّرنا أمرنا بالأزواد الَّتي وجدناها قبيل ذلك، وقرَّت أعيننا قليلاً بالخلاص من الزمن السيء، بفضل الَّذين تركوا سفينتهم وطفنا بعض الزمن أيضاً في قنال سنت جورج ولما كانت الرياح مضادة دائماً عزم رباننا أن يرسي السفينة في «خليج كورك» ويقضي فيه عدَّة أيَّام بدلاً من أن يضيع زمانه بمجاهدة ما حل به.

خليج كورك

وباليوم السادس من كانون الأوَّل سنة «1799م» أيضاً تبيَّنا خليج كورك وهو بالقرب من سلسلة جبال تمتد بمنحدر سهل حتَّى ساحل البحر، والأرضون القريبة منها ذات مزارع، يفصل بعضها عن بعض حواجز. وسرعان ما وصلنا إلى الخليج ومررنا بين القلعتين اللتين تحميان مدخله. وتركنا وراءنا قلعة ثالثة أخرى مشيَّدة على صخرة في وسط الخليج، وبهذه القلعة يكون مقسوماً قسمين، فأرسينا السفينة قبالة مدينة «كوف».

وجدنا هناك أربعين أو خمسين سفينة من حجوم مختلفة منها ثلاث حربية، ودَوْر الخليج ستة عشر ميلاً وهو يشبه حوضاً مستديراً، وفي الشرق منه تقوم المدينة مبنية على شكل هلال، وحصنان صغيران يحميان كلاً من نهايتيها، وبالقرب من هناك نهر عظيم كثير الشبه بنهر الكانج يصب في البحر، وهذا النهر يمتد بعيداً جداً في داخل الأرضين، ويشتق مدينة كورك، وهذا الماء السماطي المجرى وهذه التلال الَّتي تعلوها الخضرة وجمال المدينة وهذه المنازل الأنيقة والأكواخ المسقفة الجميلة والمنظر الرهيب للحصنين وجميع هذه السفن مجموعة في الخليج، كل أولئك جعلتني أحس

---

(1) هكذا ورد، والنسيم لا يغمر فالترجمة غير محكمة.

إحساساً[1] طيبة، وقد كنت رأيت في سياحتي خليج[2] جنوة ومضيق الدردنيل ولكن لم يظهر لي ذاك ولا هذا موازياً لما هو نصب عينيّ[3].

وفيما بعد الظهيرة ذهبنا لزيارة المدينة، ولكن داخلها لا يناسب ظاهرها، فليس فيها عمارة فخمة ولا تستعمل إلّا لإرساء السفن ألّتي تنقل إليها التجارات وليس فيها إلّا شارع واحد طوله نصف ميل في أكثر تقدير، ومع هذا يرى الإنسان عدَّة دكاكين معروض فيها التفاح والكمثري والعنب وأكثر ما فيها فواكه جافة، ولما وفينا ما في أنفسنا من حب الاطلاع، ذهبنا إلى البريد وسلمنا إليه كتبنا، وسيِّدة الدار ألّتي سكناها وقد كانت كريمة التضييف جداً رجت منا البقاء للغداء، وخدمتنا حين تغدّينا هي وأبناؤها وبناتها، وكان الطعام من السمك ولحم البقر والبطاطس، من الأنواع النفيسة جداً، ولم آكل شبيهاً لها في النفاسة في حياتي، وكل هذه السلع مشهورة في مدينة كورك هذه، وسفن لندن تأتيها تتسوق وتتزود من أسواقها، ولما قرب حين رجوعنا إلى السفينة أردنا أن ندفع ثمن غدائنا، كما هو العادة في أوروبا ولكن مضيفتنا لم تقبل شيئاً منّا، وأرادتنا، فوق ذلك، على أن نجيئها في الغد لنزور المدينة، وقالت لنا إنَّ فيها كثيراً من التحف والنوادر، فقبلنا ما دعتنا إليه، وفي الغد صباحاً صرنا إلى دارها فقدَّمت لنا أفراساً وكلفت ابنها باستصحابنا. إنَّ سيرة هذه السيِّد الطيبة أعجبتني جداً، وكان لها واحد وعشرون ولداً[4]، بقي منهم في الحياة ثمانية عشر، وهم يسكنون معها، ولم أقدر عمرها بأكثر من ثلاثين سنة.

وبعد أن سرنا قرابة ثلاثة أميال بلغنا شاطئ «لي» وهو نهر قد رست فيه عدَّة سفن صغار، وفي هذا الموضع طوف كبير، وإذ كانت أفراسنا مروضة ذُللاً وضعناها فيه بسهولة وهكذا عبرنا النهر. ومن هنا إلى كورك

---

(1) الإحساس جمع الحس.

(2) يعني الخليج الّذي سيذكره في سياحته وإذ كتب سياحته بعد أن رأى جميع ذلك فهو يحيل على ما لم يذكره كأنّه قد ذكره.

(3) هذه الجملة الأخيرة تدلُّ على تحيز الرحالة. (م).

(4) الولد عند العرب للذكر والأنثى.

ـ أعني مسافة تسعة أميال ـ كانت جميع الأرضين جيدة الزراعة، وقد جمَّل المنظر العام منازل الريف والغياض والبساتين.

مدينة كورك

وبالظهر بلغنا مدينة «كورك» وخرجنا[1] لنراها بعد ذلك، ورأينا دُور المحلة الَّتي زرناها منها مبنية بالآجر ولها وجوه[2] منظمة وأبواب جميلة وشبابيك ذات زجاج، ودواخلها مزخرفة زخرفة أنيقة. وهي ذات أربع طبقات، ورأيت في المدينة دكاكين جميلة مملوءة من كل أنواع السلع الترفيَّة والضرورية، وإذ لم تؤسس هذه المدينة إلَّا لرفاهية التجار، كانت العناية مبذولة لتسهيل الإيراد والإصدار في السلع والتجارات أكثر من بذلها لتفخيم العمارات. ويشق المدينة قناتان، بحيث تستطيع السفن أن تصل إلى المخازن التجارية، بتلك الوسيلة، وتدخل المعامل عند احتياجها إلى الترميم والإصلاح. وقد أنشئ على هاتين القناتين قناطر حركية تُعلَّى وتخفض، كما يُراد، ولكن الماء الَّذي هو راكد أبداً والقاذورات الَّتي ترمى فيه يخرجان رائحة تسبِّب للإنسان التقيؤ وتضر بالصحة. والمدينة قائمة في أرض مطمئنة بحيث لا يراها الرائي إلَّا عند الوصول إليها.

في أثناء كوني في «كورك» علمت أنَّ اللورد «كورنواليس» حاكم الهند القديم خفَّف الاختلافات الَّتي تبث الاضطراب في هذا القصر منذ عدَّة سنين واعتزل في «دبلن» وهي على بعد ثلاثة أيام من كورك، وكنت أنوي دائماً الذهاب إليها لأؤدّي الواجب عليَّ لسيادته حين أزور إنكلترا وإذ كنت قريباً جداً[3] من سيادته رأيت من الخير لي أن أستفيد من الفرصة، فأقصده للزيارة، إنَّ جمال البلاد ساعد كثيراً على اتخاذي هذا التصميم، وعلمت أيضاً أنَّ سفينتين قد تلفتا في المانش منذ الزمان الأقرب، فبعثني ذلك على ترك السفينة الَّتي كنت فيها وأن لا أرى «لندن» إلَّا بعد أن أرى دبلن،

---

(1) عني بالخروج خروجه من الموضع الَّذي استراح فيه.

(2) سمَّاها بعضهم «واجهات» من عنده وليس في العربية واجهة ولا واجهات.

(3) يعني بالنسبة إلى بلاد الهند.

وأطلعت على نيَّتي الضابط «ريشاردسن» فأراد مرافقتي، فتركنا إذن على السفينة خدمنا وأمتعتنا، وإذ كنّا على استعداد للسفر إلى دبلن زارنا رجل اسمه «مستر بيكر» أحد أصدقاء «ريشاردسون» القدامى، فقد علم بوصولنا وجاء ليرانا وطلب إلينا بشيء من الإلحاح أن نصحبه إلى منزله في الريف على مسافة أميال قليلة من هناك، فذهبنا وقد أعجبتني جداً حديقته بجمالها وبساتينه، واستحسنت النظام الحسن الشامل لجميع أقسام داره، وقد لاحظت خاصة بسرور مطبخه[1]، وهو أوَّل مطبخ كنت رأيته من هذا النوع، فيه مكينة، لشيّ اللحم يديرها الدخان، وقد أثارت إعجابي، وقد ذكرتني أنّي رأيت في كوف سفوداً[2] يديره كلب، إنَّ هذا الحيوان المسكين كان مخبوءاً في دولاب مقعَّر، وعدم الصبر يبعثه على تحريك أرجله هكذا يحدث في الدولاب حركة دوران توصلها سلسلة إلى السفود، واللحم ينشوي بانتظام قبالة النَّار، وهكذا كان الكلب يعمل كل يوم، باستمرار خلال ساعتين أو ثلاث منذ خمس عشر سنة.

قال لي المستر بيكر أنَّه اشترى هذا الملك بعشرين ألف روبية، فقسم منه أرض صالحة للحراثة وقسم آخر مروج والباقي، ما عدا البستان، يحتوي على مراع للأنعام إنَّه يستغل منه من الحنطة والتين والعلف ما يزيد على حاجته. ويقطف كذلك فواكه ويجني بطاطس وخضراوات أخرى، ويربي في مزرعته ضأناً وطيراً ولا يشتري لداره من السوق إلّا توابل ونبيذاً، وفذلكة القول أنَّه يعيش في ملكه الصغير ما لا يستطيعه كبير من كبراء الإنكليز وساداتهم. في معيشته، ببلاد الهند بدخل مقداره لك روبية[3]. وعيال هذا الرجل الفاضل هم اثنا عشر شخصاً وفيهم ابنتا أخيه وإحداهما ألمعية محبوبة لخلق والأخرى جميلة متحفظة. وعند الغداء عُنيت بي السيِّدات ألف عناية، ولم أرَ قط من نساء جميلات مثل هذه المُدارات وقد خجلت من لطفهن شاكراً، وهؤلاء الملائكة من النِّساء قدمن إلينا بعد ذلك الشاي وسألتني إحداهن هل هو محلّى على الكفاية؟ فأجبتها: لا يمكن أن

(1) كان الرحالة مغرماً بالطعام ولا سيّما طعام الإنكليز.

(2) السفود هو السيخ عند العوام العراقيين.

(3) اللك هو مائة ألف روبية وقد قابله المترجم الفرنسي بثلاثمائة ألف فرنك. (م).

لا يكون كذلك وقد أعدته يدان جميلتان[1] جداً، فأخذت الجماعة جميعها تضحك وخجلت الفتاة كأنّها وردة دمشق[2].

وباليوم الثامن من كانون الأوّل من السنة المذكورة سافرنا إلى «دبلن» في عربة البريد، وهذه العربة تستخدم لبريد الكتب والطرق ولم تكن مأمونة، وكنّا في خفارة ثلاثة حراس من الجند يتناوبون كلّما استبدلنا بالخيل، ووجدنا في الطريق جميع ما نحتاج إليه وقد تصبّحنا[3] في «فيرموي» مدينة صغيرة أنشأت حديثاً ونمنا في «كلوميل» فإذا سمع أرباب الفنادق صوت بوق السائق أعدوا كل شيء ضروري لنا بحيث لا يصيبنا أقل تأخر أو إبطاء أبداً. وفي الغد تصبحنا في «كيلكيني» مدينة مشهورة بهوائها النقي ومياهها العذبة وعذاوتها وكذلك بجمال سكانها وأدبهم وقضينا اللّيل في «كارلو» ثمَّ وصلنا إلى دبلن في مساء الغد.

إنَّ البلاد الّتي جزناها كانت وعرة جداً بحيث لم تكن حركتنا في ثلاثة أيّام إلّا صعوداً وهبوطاً مع أنّنا لم نلاق الجبال الشديدة الميل.

وصف ريف إيرلندا

إنَّ قرى إيرلندا تشبه كثيراً قرى الهند فالمنازل مغطاة بقش الزرع وأغصان الصفصاف ومنهم من يغطي السطوح بالأعشاب وأغلب القرى ليس فيها من السكان أكثر من زهاء اثني عشر إنساناً، والشقاء مستول على سكان الريف وضعفاء الشعب حتّى ليعد فلاحو الهند أغنياء بالإضافة إلى هؤلاء.

وهذا الفقر ناشئ عن غلاء السلع وكمية الملابس والوقود اللّذين يحتاج إليهما في مناخ بارد كهذا.

ومع أنَّ الطرق كانت مبلطة بالظراب[4] فالسكان لا يحتذون أحذية، وإنّما

---

(1) هذا المعنى يكرره الرحالة في مخاطبة النّساء وإن اختلف اللفظ، والظاهر إن كان يطري جمالهن إلى حد الابتذال.

(2) ترجمة داماس وللكلمة معنى ثان «حرير موشى».

(3) أي أكلنا طعام الصباح.

(4) هي الحجارة المؤللة أي المحددة الرؤوس.

يسيرون طوال السنة مكشوفي الأذرع والسُّوق وهذا الَّذي يجعل هذه الأعضاء من أبدانهم حُمراً كقدمي امرأة هندية حين تخضبها بأوراق الحناء.

يُقال إنَّ أكثر الإيرلنديين لا يعيشون إلّا على البطاطس والمعزى والخنازير والكلاب، والرِّجال والنِّساء والأولاد ينامون جميعاً في اختلاط في الضياع ومع أنَّ الفلاحين فقراء رأينا الريف مزروعاً زراعة حسنة ويغل كثيراً من الحنطة والشعير والجلبان والسلجم «اللفت» وخصوصاً البطاطس. وأرز البنغال غالي السعر جداً في إيرلندا، ويُعدُّ لي منه دائماً في كل غداء صحن بعد إغلائه بالماء، على حين أنَّ مضيفي وأضيافه الآخرين يجتزئون بالخبز والخضراوات. وبالشتاء وفيه تكون الأرض مغطاة بالثلج يعلفون الخيل والبقر حشيشاً وحباً، ويغذون الضأن بالسلجم.

وفي هذه البلاد نوع من الأرض يعرف بالتورب[1] قليل الصلاحية للحراثة ولكنَّهم يتخذون منه فحماً جيداً، ومنها نوع آخر أعلى من ذلك، يسميه الإنكليز «كول[2]» وهو نوع من الحجارة السود، يستخرج من معادن، وعند الإيقاد يخرج حرارة شديدة، والتورب مع ذلك يفضل على السرقين البقري الَّذي يوقده فقراء الهنود.

وصف دبلن سنة 1799م

عند وصولي إلى دبلن استأجرت مثوىً في شارع «إنكليش استريت» في دار سيِّدة أرملة اسمها «بال[3]»، وفي إيرلندا لا يُستأجر المثوى استئجاراً شهرياً بل يستأجر أسبوعياً، وكانت أجرة مثواي ثلاثة جنيهات في الأسبوع، والأشخاص الَّذين أردت زيارتهم جاؤوني ثمَّ أرسلوا إليَّ بدعوة للتغدي في يوم ما، وفي الغالب كانوا يحملون بطاقة الدعوة بأنفسهم، فإن كنت غائباً تركوا لي أسماءهم مكتوبة على بطاقة مع الدعوة.

والضابط «ريشاردسن» سافر إلى لندن بُعيد ما زار اللورد النائب[4]،

---

(1) هو تراب نفطي.

(2) هو الفحم الحجري.

(3) هو اسم زوجها أو اسم أسرته كما جرت عادتهم. (المترجم).

(4) لم يذكر الرحالة اسمه وإنَّما قال «ليوتنانت» أي قائم مقام.

وإذ لم يكن لي قط شغل يحدوني على مغادرة دبلن عزمت على السكنى بعض الزمان في هذه البلاد، وإن خاطرت بكوني وحيداً بين الأجانب، ولم أشعر بندم على ذلك، والأشخاص الّذين يعرفونني لما رأوا أنَّ الضابط «ريشاردسن» تركني وحيداً، ضاعفوا العناية بأمري، وأعترف أنّي منذ أن لم يكن لي بعد ذلك مترجم تقدَّمت في تعلُّم اللغة الإنكليزية تقدُّماً سريعاً.

ولما كانت غايتي من السفر إلى دبلن أن أقدم ما يجب عليَّ من الاحترام إلى اللورد «كورنواليس» أبلغته بذلك بُعيد وصولي واستأذنته في أن أزوره، فأعربت لي سيادته عن سروره بأنّه يستطيع أن يراني غد ذلك اليوم، ولقيت منه في الحقيقة أحب استقبال، وهذا اللورد كلّف صاحب سرّه أن يريني عجائب المدينة، وألزمني في الوقت نفسه أن أحضر لرؤيته غالباً في قصره، وفي أثناء إقامتي بدبلن كنت أذهب إليه بغير انقطاع أقدم إليه ثنائي[1] كل أسبوع وفي كل مرة أرى منه أدلّة على الإقبال وحب الاتصال.

وإنّي واصف لقراء رحلتي هذه المدينة ورأيي فيها وهي أجمل مدينة في الحقيقة رأيتها حتّى ذلك الوقت. دبلن على مسافة قريبة من البحر ومحيطها اثنا عشر ميلاً، وفيها منازل كثيرة مبنية بالحجارة، وكأنّها لم يستعمل في بنائها ملاط من شدّة تلاحم الحجارة وتطابقها، وأكثر الدور فيها مع ذلك مبنية من الأجر، الملحم بالسمنت، وهذا السمنت يشكل حول الأجرة حاشية صغيرة بيضاء، ومنازل كل طريق على سمك واحد، وهذا يضفي عليها في الظاهر، استواءً جدّ مقبول في العين، ودواخل الدور مصبوغة بالبياض أو مزوقة بالألوان الأخرى، ويرى الرائي في كل دار شبابيك ذات زجاج، وكل الدور على التقريب لها أربع طبقات، إحداهن تحت وجه الأرض وفيها المطابخ والمغاسل وأقبية الفحم والنبيذ وغيرها، والطبقة السفلى مخصصة بالدكاكين ومجالس الطعام، والطبقة الأولى هي المزخرفة زخرفة أنيقة جداً وفيها تستقبل الأصحاب، والثانية فيها غرف النوم لسيد الدار وسيدتها، والّذين يأتون لزيارتهما ثمَّ الثالثة وهي الّتي تعلو شبابيكها على السطوح وسقوفها خفيضة جداً، تستعمل لإسكان الخدم. إنَّ سطوح الدور مغطاة بحجارة زرق، سخيفة

---

(1) يعني الثناء عند الإطلاق «المدح».

من الأردواز. مثبتة بمسامير على ألواح صغيرة ضيقة، وهذه الحجارة أجمل بكثير من القرميد، وأكثر بقاءً مع الدّهر. وأقسام الدور مزخرفة في الأعم الأغلب، زخرفة فائقة، وستور الشبابيك من الأقمشة الهندية والحرير أو القطيفة، وبقية الأثاث من المرايا والشمعدانات والرسوم الأصباغية والمناضد المصنوعة من شجر الأكاجو[1] وللكراسي وسرر الراحة، وفي كل الأقسام موضع خاص بالنّار وهذا الموقد مصنوع من المعدنيات المصبوبة والفولاذ المصقول جداً، ومقدم هذه المداخن محدود بمنضدة من المرمر موضوعة أفقياً، فيضعون عليها بالصيف طاقات ورد وفي الشتاء أواني من الغضار، ما كان أعجبها، كما أرى. وجدران الغرف والحجر ملصق عليها ورق مزوَّق، في الغالب، بلون البساط المبسوط فيها، ويدخل في الدور من باب في الطبقة السفلى منها، عليه أرقام الدار واسم مالكها قد نقشت فوق لوح من المعدنيات، ولكل الأبواب مطارق فمن يُرد أن يدخلها يطرق بها ليسمع الخدم، وهم حضور في الطبقة السفلى المذكورة، ومع ذلك ففي عدّة دور أجيراس تستعمل لذلك الأمر نفسه.

إنَّ طرق دبلن واسعة وجوانبها الخفيضة المبلطة المخصصة بالمشاة وحدهم، وأوساطها المبلطة أيضاً تسلكها الخيل والعربات فقط، وإنّك لترى بإزاء كل منازل الأغنياء والأعلياء ضرباً من المنافذ المسيجة يدخل منها الضياء والهواء إلى الطبقة الّتي تحت وجه الأرض من الدار ويستعمل أيضاً ممراً أو منطلقاً من غير أن يوسخ مدخل الدار.

إنَّ أجمل الشوارع مقصورة على الدكاكين ذوات الشبابيك الكبيرة المزجَّجة[2]، حيث تعرض السلع والتجارات على أنظار المارة، ورأيت فوق كل باب لوحاً مصبوغاً بالسواد مكتوباً عليه بحروف من ذهب[3] اسم التاجر. وبالمساء تضاء هذه الدكاكين إضاءة عظيمة، وتظهر أثراً ومظهراً جميلين، وقد جمع فيها كل طريف وعجيب ونادر من أقطار الدُّنيا الأربعة،

---

(1) الأكاجو اسم جنس لأنواع من الشجر الأمريكي من جنس واحد، ومنه ما يستعمل للأثاث ومنه ما يستعمل للصناعة وله جوز يؤكل بعد إصلاحه ودهن يتخذ حبراً للتخطيط. (المترجم).

(2) المزجَّجة هنا: ذات الزجاج.

(3) لعلَّ الأصل «بحروف مذهبة».

ومخازن الجواهر والأشياء الجديدة، استلفتت اهتمامي، إلّا أنّ دكاكين الحلاوى وتجارة المأكولات كانت أشد استلفاتاً من جميعها، ففي عامة الأيّام أخرج للتنزه بعد التصبّح، فأقضي ساعة واحدة في هذه الطرق الجميلة. وإذا أطل اللّيل أضيئت المدينة جميعها بمصابيح معلقة في كرات من الزجاج على سمك عشر أقدام أو اثنتي عشرة قدماً، وهذه المضاوئ[1]، مضافة إلى أنوار الدكاكين الزاهرة تجعل الشوارع نيّرة كنورها في النّهار، وأحد هذه الشوارع فيه كثير من دكاكين الصيدلانيين الّذين عندهم كمية من أواني المواد المائعة الملونة فذكرني أنوار تربة الولي «إمام باره» في لكنو حين أوقدت في عهد آخر نواب[2]: آصف الدولة.

لا يستطيع الإنسان أن يتصور منظراً أكثر غرابة من منظر هذه الجماعات من النّاس الّتي تطوّف، في كل منحىً من المناحي، شوارع دبلن، وقد جعلتهم العادة جدّ بارعين في السير بحيث لا يتصادمون أبداً، ولم أستطع كتمان إعجابي بالفتيات الشواب اللواتي يجرين بين هذه الجماعات، إمّا لنشاطهن الطبيعي، وكلّهنّ لا يحسن في جريهن إنساناً، ويكاد الإنسان يحلف أنّه يرى فيهن فراشات ترفرف.

وفي جميع مدن أوروبا عدد كبير من العرابات، فمنذ وصولي إلى دبلن إلى يوم سفري من إنكلترا إلى باريس أستطيع أن أقول إنّ أذنيّ ما فتئتا تصطكان من جلبة الخيل والعربات، وعدّة عربات الكراء الخاصة بخدمة دبلن «سبعمائة عربة» وهي لا تستعمل إلّا لنقل النّاس من شارع إلى آخر، وجميع السادة والأغنياء، لهم عربات خاصة منهم ذوات فرسين وذوات أربعة[3] وذوات ست، والخيل ضخمة جداً ومن نوع خاص، وتستعمل لكل أنواع الأعمال حتّى الحراثة، ولا يُربى البقر في إيرلندا إلّا لأكل لحمه، وأذناب الضأن صغار ولكنّه لذيذ اللحم والطير الداجنة جيدة اللُّحمان أيضاً.

إنّ في دبلن عدّة مربعات كبيرة وفي كل منها فوّارة عليها قبة والماء

---

(1) جمع مضوأ من الضياء.

(2) في الأصل نباب. (المترجم).

(3) الفرس تذكّر وتؤنّث.

يخرج من فم تمثال أسد أو حيوان آخر، ولكيلا يضيع الماء ركبت حنفية لكل أنبوب معدني، فإذا أدارها الإنسان انقطع الماء عن الجريان، ويرى الإنسان أيضاً في عدّة مواضع شعبية تماثيل فرسان وعدّة ملوك، وقد نُصبت بارتفاع على مناصب من الحجارة، وهي تبدو للناظر إليها من مسافة غير بعيدة كأنّها معلقة في الهواء، وهذه الفوّارات والتماثيل محوّطة بدرابزين، وباللّيل تعلّق عليها مصابيح لئلا تصدمها النّاس فتشدخهم.

وفي إنكلترا، وأكثر منها فرنسا وإيطاليا، للنّاس ولع بالنحت الّذي لا يقرب من الوثنية، وقد بيع ذات يوم وأنا حاضر، تمثال، ليس له رأس ولا ذراعان ولا ساقان بمبلغ «أربعين ألف روبية[1]». ومن الأمور المستغربة جداً أنّ شعباً جدّ عاقل ويعيب على أشراف الهند ازدياناتهم بالذهب والفضة، على طريقة النّساء، كهذا الشعب يبلغ به الجنون أن يستعمل نقوده فيما لا فائدة فيه كالّذي مرّ. وفي لندن جملة جدّ كاملة من هذه التماثيل، تراها في جميع الأمكنة، أذكر مثلاً، مداخل الحدائق، ومداخل البنايات العظيمة، وفي داخل أقسام الدور تماثيل نساء رواقص وبأيديهن طبيلات، وعلى مداخل المداخن تماثيل الآلهة اليونانية، وفي المقابر تماثيل الموتى، وفي الحدائق أخيراً تماثيل الشياطين وتماثيل أنمار أو ذئاب لإخافة الحيوانات ومنعها من الدخول فيها.

وأوساط مربعات المدينة[2] مغروس فيها أشجار، والسكان المتميزون جداً يتنزهون فيها مساءً وصباحاً، ولكن العامّة ممنوعون من ذلك، وجوقات الموسيقيين الّذين يطوفون في المدينة يعزفون نوبات موسيقية بمكافأة من النقد قليلة.

وللأوروبيين منازة أخرى غير الميادين العامّة وهي الّتي يسمونها «الحدائق» وهي أمكنة محوطة، فيها شوارع مشجرة بأشجار جميلة، وفيها

(1) لعلّه كان من التماثيل الأثرية المنقوشة بأحد الخطوط القديمة والرحالة لا يقدره حقّ قدره. (المترجم).

(2) يظهر أنّ الرحالة رسم تلك المربعات في أصل رحلته وحذفها المترجم الفرنسي، بدلالة إشارته إلى ذلك في الترجمة. (المترجم).

مروج خضر وسواقٍ، بنيت عليها قناطر صغيرة من المرمر أو الحجارة، ويضعون في هذه الحدائق غالباً أنعاماً وأظباء، وفي عدَّة منها أنشئت مبانٍ جميلة، وغرست بساتين نضرة، وهناك يجتمع من سكان المدينة جماعات في كل يوم أحد.

وما حول دبلن من الأرضين والقرى فيها جمال وفتون وهو يفوق في ذلك، ما حول لندن، وعلى مسافة عدَّة أميال من دبلن، يرى الإنسان، في الطريق، جمهرة من المزارع وأحوية[1] من منازل الريف، يقضي فيها الأغنياء فصل الصيف، وأبهى وأبهج موضع رأيته في حياتي هو «حديقة فونيكس» فباستثناء الجمال الّذي وصفته وأضفته للحدائق عموماً تحتوي هذه الحديقة عدَّة مبانٍ من الحجارة المهندمة ويشقها نهر دبلن، بضفتيه الخضرتين، وقناطره الرشيقة المقنطرة بين مسافة وأخرى، ويرى الرائي هناك أيضاً تلالاً، يغطيها الثلج من جانب، في الشتاء، على حين يبقي الجانب الآخر خضِراً نضِراً، فيحدث من ذلك تناقض مستحسن جداً، وعند رؤيتي هذا الموضع ذا النعيم المقيم علمت لماذا كان الإنكليز[2] الّذين لاقيتهم في الهند يتأسفون على وطنهم الأصلي.

ينبغي للإنسان أن يتنزه بالقرب من دبلن على ساحل البحر فإنَّه يتمتع بمنظر يمثل الفخامة، لأنَّ عدداً كبيراً من السفن في الميناء، وعلى طول الضفة في مسافة عدَّة أميال لا يرى الرائي إلَّا منازل من الخشب مركبة على عجلات، ومخصصة باستعمال المستحمين، وتجرها البقر في البحر فإذا كانت منه على مسافة لائقة فتح باب أفقي فيها، يستحم منه المستحم كما يشاء.

وأعجب مأثرة مجسمة في المدينة برج مبني على مسافة ميلين داخل البحر، وموصول بالساحل برصيف عرضه أربعون مخصرة، يوقد عليه في كل ليلة مصباح كبير وكثير من المناور لأضاءة السفن[3] الّتي لولا هذه

(1) الأحوية جمع حواء على وزن كتاب وهو مجموعة الدور.

(2) نسي الرحالة أنَّه يصف بلاد إيرلندا لا بلاد إنكلترا موطن الإنكليز الأصلي. (المترجم).

(3) هكذا وردت الترجمة الفرنسية. (م).

الحيطة، لخاطرت فتتحطم بصخر البحر التحتاني في دخولها الميناء، أمّا الرصيف فلا يستعمل للاتصال بالمنار فقط بل لمنع أمواج البحر من أن تصل إلى المدينة.

إنَّ النهر الَّذي يمر بدبلن يُسمَّى «لايف في» وعرضه كعرض نهر «كومبتي» في لكنو ببلاد الهند، وكلاءات[1] فخمة تقوم على ضفتيه، وعشر قناطر جميلة تصل بين قسمي المدينة، ولهذه القناطر درابزينات من الحديد معلق عليها مصابيح، فإذا أوقدت مساءً حسبت أنّي أرى إنارة من إنارات أشراف هندستان[2]، في احتفال زواجهم أو بعض أعيادهم. وفي البلاد قنىً كثيرة تستعمل لنقل الفحم والسلع من قطر من المملكة إلى آخر، وبعضها[3] يمتد من دبلن إلى «اليمريك» ويستطيع الإنسان أن يسافر فيها في سفن مغطاة من نوع سفننا المُسمَّاة «بودكرو»[4] وفي سفن أكبر منها حجماً تتسع لعدد كبير من النَّاس، والخيل الَّتي تسحب هذه المراكب تسير في الطرق المشجرة الَّتي على حافي النهر، وتحفظ في القنى دائماً كمية من الماء كافية، وذلك باستعمال السدود، ورأينا حول دبلن أيضاً عدَّة دور صناعة لصنع السفن تحتاج إلى عناية خاصة.

كلية دبلن

وأشهر جميع المباني الشعبية في دبلن بناية الكلية، والدخول فيها من ازج[5] جميل يؤدي إلى عمارة عالية ذات خمس طبقات وفيها يسكن الطلاب الداخليون، ومنذ سنوات خلون زاد عددهم فبلغ ألفاً ومائتين، وبهو خزانة الكتب جدّ أنيق، طوله مائة مخصرة وعرضه عشرون، وفي الخزانة أكثر من أربعين ألف مجلد، مكتوبة بلغات مختلفة، وقد سررت بأن رأيت فيها عدَّة كتب فارسية، منها نسختان خطيتان جميلتان من كتاب «شاهنامه»

---

(1) الكلاّء على وزن عطار رصيف السفن على النهر أو البحر. (م).

(2) هكذا وردت التسمية في الترجمة. (م).

(3) أي أحدها. (م).

(4) ذكرها الرحالة في أوّل رحلته. (م).

(5) الازج هو البناء المعقود طولاً.

وهو قصيدة أبطالية في تاريخ إيران القديم، والخمس القصائد للشاعر نظامي، وفي الكلية متحفة جمع فيها كثير من العجائب والطرائف حمل أكثرها من البلاد الأجنبية وقد لَحَظت خاصة جثة رجل ملفوفة بُعصبات ومطلية بالصمغ وكانت قد عثر عليها بالقرب من أهرام مصر.

دار البرلمان وغيرها

وأعظم بناية بعد الكلية هي بلا خلاف بناية «دار البرلمان» ففيها بهوان عظيمان أحدهما لمجلس اللواردة[1] والآخر لمجلس العموم، وهذان البهوان مزخرفان بسجاجيد صُوّر فيها مناظر حروب ووقائع، وحوادث أخرى تاريخية وبعد رؤيتي دار البرلمان ذهبت إلى دار المكس ودار البورصة وهما عمارتان بنيتا بهندسة عمارية فائقة، وفي الدار الأولى تدفع المكوس عن جميع التجارات والسلع الّتي يؤتى بها إلى المدينة، والثانية ملتقى التجار الّذين يجتمعون فيها للتباحث في منافعهم وأرباحهم، وقد رأيت فيها خصوصاً ساعة رياحية لها وجه يشبه وجوه الساعات المعتاد استعمالها، وعقربان تشيران بالتحقيق إلى مهب الريح، ومن هناك زرت باحة القضاء، والقبة الفخمة الّتي تُسمّى «روتوند» وقد أنشئت هذه البناية لعزف الموسيقى الشعبي فإنّها تتسع لأربعة آلاف إنسان ولكن الحكومة استعملتها وقتياً بمثابة قلعة. والعمارات الخمس الّتي تكلمت عليها مبنية بالحجارة المهندمة والأربع الأخيرات لها قباب فخمة، وتؤدّي النُور إليها كاملاً شبابيك واسعة مزججة وقد زانت أوجهها أعمدة وأروقة. ويرى الإنسان في دبلن عدداً كبيراً من العمارات الموقوفة على عبادة الله وقد زرت منها عدّةً وأشهرها تُسمّى «كريست جرج»[2] وهي بناية واسعة أنشئت قبل أكثر من ستمائة[3] سنة، ولا يستطيع الرّجال أن يجلسوا فيها بجانب النّساء، وهو ما أراه رشيداً. وفي دبلن عدة ثكن عسكرية وكثير من المستشفيات، وهذه

---

(1) اللواردة جمع لورد ومن الخطأ جمعه على لوردات.

(2) أي بيعة المسيح، والبيعة على وزن الشيعة، وهي معبد النصارى واصل الكنيسة لليهود ثمّ استعيرت. (م).

(3) هذه هي الكتابة الصحيحة الّتي يجب أن تعم. (م).

المؤسسات الأخيرة تستحق الإعجاب حقاً، ولكل منها اختصاص فواحد منها للنِّساء الحبالى وثان لليتامى وثالث للجنود الجرحى أو العجزة ومن المألوف في هذه البلاد أن يوصي أشخاص عند الموت بإعطاء أرضين أو مبالغ مالية جسيمة للقائمين على المستشفيات، وهذه العادة المستحبة يمكن أن تكون عذراً للذين جمعوا الأموال وركموها في حياتهم ولم يستعملوها قط.

ولم يكن في دبلن إلّا حمامان حاران سطوحهما تشبه قرنين واسعين، وقد رأيت هذه المنشآت مهملة أقبح الإهمال فالأحواض صغيرة بحيث لا يسع الحوض إلّا شخصاً واحداً بصعوبة، ويُضاف إلى ذلك أنَّ ماءه لا يغمر إلّا نصف الجسم، ومع ذلك فقد كنت مضطراً أن أستحم في أحدهما ولم أجد أحداً يخدمني فيه، فاضطررت إلى استعمال فرشة مصنوعة من شعر الخيل تشبه الّتي تستعمل لتنظيف الأحذية، بدلاً من المدلكة. وبالشتاء لا يستحم أهل دبلن أبداً وبالصيف يذهبون إلى البحر أو إلى النهر، فهذان الحمامان مخصصان بالعجزة والمرضى والناقهين.

وليس في دبلن إلّا محكيان[1] أي تياتران يتسع كل منهما لألف وخمسمائة إنسان والبهو الّذي يجلس فيه النظارة يستغرق نصف البناية وهو مقسم ثلاثة أقسام. القياطين[2] الألواج[3] حيث يقعد الأغنياء أو الإعيان، والبارتير «مقاعد الصحن» وفيها يقعد التجار، والأروقة الخاصة بطبقة العامّة من الشعب. وأجرة التفرج خمسة شيلينات أو ثلاثة شيلينات أو شيلين واحد، والملعب وهو موضع المحاكين يستغرق النصف الثاني من البناية، وتحجزه ستور كثيرة وزخارف تمثل مدناً وحصوناً وحدائق وغابات وغيرها، وكل البهو مُنار بشمعدانات كبيرة مشعبة ومناوير[4] وفي الفصل الّذي أبهجني أكثر من غيره حكوا ساحراً حبشياً اسمه «أرلكين» وتمارين فروسية

(1) المحكى هو المسرح عند المصريين. (م).

(2) جمع القيطون وهو مثل اللوج.

(3) الألواج جمع اللوج.

(4) جمع منوار وقد مر. (م) (المترجم).

«آستلي» وزمرته ألهتني حق الالهاء، وهذا الفارس من البارع في فروسيته له محل في لندن ولكنّه يجيء في كل سنة ليقضي أربعة أشهر أو خمسة في دبلن لإبهاج الإيرلنديين، ببراعته ومهارته الّتي تفوق كثيراً جميع ما رأيته في الهند.

ولم يكن عجبي قليلاً من اختراع للأوروبيين جديد اسمه «بانوراما»[1] وملعبه يمثل «جبل طارق» القلعة المشهورة القائمة على مدخل البحر المتوسط في ضفة إسبانية، وقد قادوني في ممر مظلم، في قاعة كبيرة مستديرة صُور على حيطانها مدينة جبل طارق، وقد أحسنوا تنظيم الضياء بحيث تظهر الأشياء جميعها طبيعية، ورأيت وقعة بحرية بين الفرنسيين والإنكليز ويسمع الإنسان فيها ما عدا دوي المدافع أصوات القنابر وهي تصفر من حولنا، وتقلع الصواري والأشرعة من السفن.

أخلاق الايرلنديين

إنّي محاول أن أقدّم رأياً في أخلاق الإيرلنديين، فأغلبهم نصارى على مذهب الكاثوليك الروميين، وأفراد منهم يدينون بدين الإنكليز الّذين يسميهم الكاثوليكيون «منشقين» وخوارج أو فلاسفة، ومعنى ذلك أنهم يعتقدون الإله وينكرون الوحي، أو كفار، وهم أكثر تسامحاً من الإنكليز وأقل أباطيل من الإيكوسيين، وهم أكثر شجاعة وحباً للتصريح وأوسع كرماً، ولكن يعوزهم غالباً التروئة والتفكير والرشاد ومع هذا فأذهانهم جيدة وإحساسهم[2] ايدة، ولما كنت في دبلن وكان يتفق أن أضل طريقي فكنت أسأل عنه أوّل من أراه فكان، بعد أن علم بأنّي أجنبي، يترك عمله حالاً ويستصحبني إلى الموضع الّذي أريد الذهاب إليه.

والإيرلنديون جدّ مبذرين فمن النادر أن يكونوا قادرين على أن يعينوا أصدقاءهم إعانة مالية، وفقرهم يمنعهم من أن ينجذبوا نحو الترف كالإنكليز، ولا يكلفون أنفسهم نصب التحديد لنفقاتهم، وتملق الكبراء كما

(1) هو تصوير الأشياء أو رسمها في دائرة. (م).

(2) الإحساس جمع الحس وقد تقدّم.

يفعل الإيكوسيون، للحصول على الثروات والتشريف، وهم قلما يصلون إلى المراتب العالية في الدولة، وتقدمهم قليل في العلوم، على أنَّ عيبهم الأكبر استهتارهم بالشراب فأغنياؤهم ينفقون في النبيذ مبالغ معتبرة[1]، ويستهلك الشعب كثيراً من المائعات الكحليَّة المصعَّدة المُسمَّاة «ويسكي» ممَّا يستخرج في هذه البلاد، وفي «الايكوس»، وقد كنت ذات يوم أتغذَّى في دار اجتمعت فيها جماعة كبيرة أخذ صاحب الدار يدعونا أن تذوق النبيذ، ولما رأى أنِّي ما أشربه ملأ كاسين نبيذاً بوردوياً ورجا منِّي أن أتناول أحدهما، ولما رفعوا غطاء المائدة، اقترح الشرب لصحة الملك (ملك إنكلترا) والملكة ثمَّ صحة عدَّة نساء جميلات ممَّن أعرفهن، ولا أستطيع أن آبى ذلك على واحدة منهنَّ، وفي الأخير أذكر أنَّا كنَّا قعوداً إلى المائدة منذ ثماني ساعات وإذ ذاك أمر خدمه أن يقدِّموا نبيذاً. مع كوني حينئذٍ فاقداً لنصف تمييزي رعبني ذلك الأمر رعباً حداني على أن أقوم بسرعة مستأذناً في الانصراف. فأعرب لي داعيّ عن شديد اغتياظه من أن يراني منصرفاً عن المدعوين بهذه العجلة وهذا القِصر في الوقت، بحيث لم أرد البقاء حتَّى ينفد النبيذ شرباً، ويُؤتى بالشاي والقهوة. وقال لي ناس من الإنكليز: إنَّ الإيرلنديين حينما يكونون سكارى يتشاجرون ويضطربون على طريقة المقابلة «دويل» وأنا أصرِّح من جهتي أنِّي لم أرهم قط يسترسلون إلى هذا الإفراط ولا رأيتهم يفقدون حتَّى الرزانة والوقار.

الكاريكاتور

والرسامون الإيرلنديون يرسمون أحياناً وجوهاً سخرية تُسمَّى «كاريكاتور[2]» لا يراها الإنسان دون أن يضحك، والغاية منها في العادة الإبانة عن عيوب الوزراء أو السخرية من أهواء الأفراد ورذائلهم، ويبيعونها في دفاتر مؤلفة من عدَّة ورقات، وأتذكر أنِّي حصلت على واحد منها جدّ غريب ففي الورقة الأولى منه رسم رجل إيكوسي هاجر من بلاده وذهب

(1) المعتبرة بهذه المعنى كلمة مولدة، وتستعمل للأشياء الممدوحة. وللغة حقها في التطور على أن لا يعد الارتكاس تطوراً.

(2) سيذكر الرحالة أنَّ الإنكليز كذلك كانوا يتعاطون رسم الكاريكاتور.

يبحث عن السعادة في موضع آخر، ولما كان الجرب مرضاً عاماً في «إيكوس» رسم الراسم هذا المسكين يحك ظهره بحجر في طريق لندن وفي الورقة التي تليها رسم هذا الإيكوسي سائقاً لخيل البريد وكيس الكتب على ظهره، وفي الورقة الثالثة يصبح قهرماناً لسيِّد كبير، وعنايته وبراعته تجلبان له المال فيقرضه سيِّده، بأرباح كبيرة وفائض غزير وهكذا يجمع ثروته. وفي الورقة الرابعة، يتعرف إلى أرملة غنية ويتزوجها وينال بعض التقدير، وفي الخامسة، يحصل بتملقه على عناية الوزير به وعلى منصب مهم في الدولة، وفي الورقة الأخيرة يكون رئيس وزراء.

وسيرة[1] الإيرلندي ليست طويلة ولا مختلفة، فهو ينخرط في الجندية ويتميز بشجاعته ويصل بهذه الدرجة إلى رتبة الجنرال، وإذ ذاك، يشاجر على المائدة موظفاً آخر ويقاتله بطريقة المقابلة «دويل» ويموت قتيلاً. والإنكليزي[1] يظهر في منظر ثور كبير اسمه «جون بل» وهذا الحيوان يأكل كثيراً، ويعد شديد المقاومة والعناد، والإنكليز أيضاً شرهون على الطعام، وخشنون في عاداتهم غلاظ، ويلقون أنفسهم في الخطر بغير تقدير ولا تروئة، وفي نفقات عديمة الفائدة. والإيرلنديات ليست لهن أساليب جفاء وخشونة، وإنما لهن عيون رقيقة رقيقة وشعور جميلة كشعور الإنكليزيات ولكنها ليست طويلة ولا جميلة كجمال شعور الإيكوسيات وسحنتهن أجمل من سحنة الإيكوسيات، وفيهن نشاط ناريّ، وقوّة حيوية، وحدّة أذهان.

وفي أيّام إقامتي الأولى في دبلن كان النَّاس يزعجونني، وكانوا يجتمعون حولي كلّما خرجت، وهم جدّ مستعجبين من رؤيتي، ولكنّهم لم يحاولوا أن يسبوني ويؤذوني، فمنهم من كان يظنني جنرالاً روسياً[2]، كان منتظراً قدومه منذ بعض الزمن وآخرون يحسبون أنّي من سادات الألمان أو إسباني[2]، وأكثرهم اتفقوا على ظنهم أنّي «أمير فارسي».

---

(1) لا يزال الرحالة يوضح صور دفتر «الكاريكاتور» المذكور. (م).
(2) هذا يدلّ على أنّ الرحالة كان أبيض اللون وإلّا فكيف يظن جنرالاً روسياً؟ أو سيّداً ألمانياً؟ أمّا الإسباني فأسمر غالباً. (م).

وفي حدود خمسة عشر يوماً بعد وصولي سقط كثير من الثلج. فكان ذلك مبهجاً لي لأنّي لم أرَ مثل ذلك من قبل، فسطوح الدور وأعالي الجُدُر والأسوار والمزارع والجبال، أصبحت في غضون عدّة أيّام مبيضة بياضاً باهراً، وكان البرد جدّ قارس وخشيت على صحتي الأذى، ولكنّي سرعان ما شعرت أنَّ المناخ ملائم لي، فقد كان لي اشتهاء فائق، وازددت قوّة، وفعالية كل يوم وإنّي لأتذكر أنّي حين كنت في الهند لم يكن عليَّ إلّا قميص واحد من الموصلي من عمل «داكا» وكنت لا أمشي ميلاً إلّا تعبت تعباً شديداً، وفي إيرلندا وإن كنت مرتدياً ملابس ثقيلة بحيث يمكن أن تكون حمل حمار[1] فقد طفت كثيراً من مواضعها دون أن أحس بأقل نصب وتعب. وفي الهند كنت أنام اعتياداً سبع ساعات أو ثمانياً في اليوم من غير أن أحس براحة أو تبرّد، ولكنّي في أثناء الشهرين اللّذين سلختهما في إيرلندا كنت لا أنام البتة أكثر من أربع ساعات ليلاً، ولم يكن لي مع ذلك توقان إلى النوم في أثناء النّهار.

إنَّ البرد الّذي يعم هذه الجزائر، جدّ صحيّ، كما أحسب، إنّه يورث الجسم والعقل قوّة ونشاطاً، ويجمّل النّساء ويبعث على تمرُّن يساعد كثيراً على تقوية المزاج، وفي أثناء إقامتي في إيرلندا وإنكلترا أصابتني غالباً، من غير أن ألحظ، ضربات، لو كنت في الهند لكانت سبباً كافياً في إمراضي عدّة أيّام، والبرد يمنع الإيرلنديين من البقاء عاطلين، ثمّ يحدوهم ذلك البقاء على ارتكاب الرذائل، فالشبان والشابات هم بريئون في سن الخامسة عشرة كبراءة الصبيان والصبايا في الهند في سن الخامسة أو العاشرة، فكل رغباتهم ورغباتهنّ في اللعب أو الكعك. وهذا الشعب قد هيأت له برودة الجوّ أيضاً فضّل ارتداء الملابس الضيّقة جداً الّتي تمنعهم من الاسترسال إلى البلادة والكسل كالهنود الّذين يقضون النّهار غالباً في الراحة ولذّات الشهوات ويقصرون اللّيل على الشؤون والولائم.

إنّي أخشى أن لا يصدق مواطني بما قصصت لهم وعليهم، فيتفق غالباً في

---

(1) سيعيب الرحالة هذا التدثر وهذا الإكثار من الملابس وهذا التشبيه على الأتراك كما سنرى فيما يأتي. (المترجم).

هذه البلاد أنَّ المستنقعات والأنهار يجمد ماؤها بكليته[1]، وإذ كان الصقيع جدّ جاسئ لتحمل ثقل كثير يجتمع كثير من النَّاس للتزحلق والتزلّق عليه، ويتخذون لذلك التروض بغالاً من الخشب قد طبقت عليها قطع من الحديد القاطع، وهذا اللعب في أوّل أمره يظهر أنّه عسير جداً، وهكذا يصيب الإنسان دائماً، في ابتداء التروض، عدَّة سقطات، ولكن بعد عدَّة أشهر من التدرب والتمرن، يستطيع الإنسان أن ينزلق فوق الصقيع بسرعة لا يمكن تصورها، ويستدير إلى كل منحنٍ، وقد رأيت أشخاصاً يخطون اسم سيدة ما بأعقاب نعالهم التزحلقية. وفي فرنسا وإنكلترا وإيرلندا لا يتزحلقون إلّا للمتعة ولكني سمعت أنَّ النِّساء في هولندا، يتزحلقن هكذا في الأسواق حاملات حتَّى مسافة عشرين ميلاً سلال بيض وزبد ثمَّ يعدن للتغذّي في دورهن.

إنَّ الأربعة والأربعين يوماً الَّتي أمضيتها في دبلن كانت أجمل أيَّام حياتي[2]، فاللورد والليدي «كلارندون» أكثرا من رعايتي والعناية بي، والدوق «ليستر» أفضل رجل في المملكة أثقل كاهلي بألطافه. وداره أجمل دار في دبلن، وعنده جمهرة تماثيل وألواح رسم ثمينة، وعدَّة بنات ساحرات بجمالهن رائعات، وقد كان لي شرف التعرُّف إلى الجنرال «فالنسي» الَّذي مع قوامه القصير كان طيب القلب، وكان يعرف اللغة العبرية والعربية والفارسية، وقد أكَّد لي أنَّ بين الهنود والإيرلنديين تجانساً كبيراً. والسيِّدة «فليمينك» لما علمت بأنّي عرفت زوجها في كلكتا رجت منّي أن أزورها في دارها في الحال، وكان لي منها ألف لطف[3]، وسألتني ذات يوم هل زوجها مبتهج في كلكتا؟ فقلت لها: «كيف يمكن أن يكون سعيداً وهو بعيد عن صاحبة له لها هذا التحبب وهذه الظرافة؟[4]». فخجلت السيِّدة فليمينك وقالت لي: إنَّك مَلاَّق. وابنتان من بناتها قد صحبتا أباهنَّ إلى الهند، ولها ثلاث بنات أُخر يقمن معها، وهن جميلات كحُور الجنَّة العين.

---

(1) هذا غير معقول فالطبقة العليا هي الَّتي تجمد. (المترجم).

(2) وسنرى ماذا يقول في أيَّام لندن عاصمة أحبابه وأوليائه؟. (م).

(3) ليس المراد عندهم حقيقة العدد بل كثرة المعدود. (م).

(4) تأمَّل أسلوب الرحالة في تملق النِّساء وهو ما أشرنا إليه قبلاً.

معيشة الإيرلنديين

إنّي لم أتكلّم بعد على طريقة المعيشة عند الإيرلنديين، فكل منهم يتصبح في العادة بداره ولكنّهم يجتمعون في الغداء، وهذه الأكلة تكون على ثلاث خدمات، فبعد التغذّي يواصل الرجال شرب النبيذ ساعة أو ساعتين ثمّ يلتحقون بالنّساء لشرب الشاي أو القهوة. وفي المساء يجلسون إلى المائدة لتناول ما يسمونه «سوبر» أي العشاء، وهذه كانت أكلتي المفضلة، لأنّهم لا يحتفلون لها كاحتفالهم للغداء، فالخدم ينصرفون والضيوف يخدمون أنفسهم.

إنَّ لأهل هذه البلاد طريقة حميدة جداً في كيفية الزيارة الطقوسية[1]، فإنَّ الإنسان يكتفي بأن يذهب إلى باب الدار لمن يريد زيارته فيطرق الباب ويقدم اسمه إلى الخدم في قطعة مربعة من الورق المقوّى تُسمَّى «بطاقة الزيارة»، فإن كان يريد أن يرى سيد الدار في داره دخل وقضى نصف ساعة معه، وهذه العادة فيها ما يدهش الرجل الهندي، ولهم عادة أخرى في أوروبا أستحبها كثيراً وهي التخلص من حضور الخدم عند استطاعته[2]، والأمر في الهند بالضد فإنّهم لا يخرجون من مثواهم في الدار ولكنّهم هنا ينصرفون حالما ينتهي التغذّي ولا يظهرون إلّا بعد أن يدق جرسهم وأستحسن كذلك عادة الأوروبيين في أنّهم لا يقطعون على أحد كلامه حينما يكونون جماعة، ولا يتكلمون إلّا بصوت ليّن ومعتدل، وذا مساء حينما كنت أحادث سيدة الدار، دخل خادم البهو وفي يديه صحن من الخضار الصيني الفائق فعثرت رجله لسوء حظه بالبساط فسقط وانكسر الصحن ألف كسرة ولكن السيدة لم تظهر أنّها لحظت هذا الحادث وواصلت محادثتها إيّاي بأبرد دم، وأعدم ندم.

ويطيب لي أن أنصف الإيرلنديين جداً لأنّي قبل أن ابر في أرضهم كنت احتقبت عليهم أحكاماً سيئة بسماعي أحاديث ناس من المسافرين، فقد وصفوهم بالغلظة والخشونة والرداءة والوحشية.

---

(1) الطقوسية هي من الزيارات الدينية. (المترجم).

(2) في الترجمة الفرنسية غموض هاهنا. (م).

إنَّ الضابط «ويليامسن» أحد ركاب السفينة «كريستيانيا» الدانية كان ذا خلق عائب اتخذ لنفسه مسرَّة خبيثة بإرهابي حين كلمني على المكاره الَّتي سأقاسيها في إنكلترا، فذات يوم مثلاً حينما كنَّا نتغذَّى، وضعت، بتفرُّغ[1]، قطعة من الخبز على المائدة وأخذت أقطعها بسكيني في عناية. فقال لي: «إن قطعت خبزك بهذه الطريقة أيَّام أن تكون في إنكلترا، فالسيدات بارتعابهن لموائدهن لن يدعونك مرَّة أخرى للتغذِّي عندهن، ولا تحسب أنَّك تجد في هذه البلاد أحداً يعينك على تقطيع لحم طعامك كما تفعل هنا». وكان إن اتفق أن أنصبَّ من يدي شيء من المرقة على المائدة أو على ملبسي ينظر إليَّ بإنكار ويقول «إن تفعل كذلك في إنكلترا لا يبق أحد معك على المائدة». مع أنَّه في كل موضع دعيتُ فيه إلى وليمة، في دبلن أو لندن كان سيد الدار أو سيدتها ذلك يعذراني[2] على عدم دربتي ويجبراني[2] أحياناً أن آكل على طريقة أهل بلادي فإذا أبيت ذلك حملهما لطفهما على أن يقطعا لي لحم طعامي بأنفسهما. ومرَّة أخرى قال لي «ويليامسن»: «لا يود أحد أن يقرضك في لندن ولو اثني عشر فلساً» «وأنَّه يجب عليَّ أن أعطي دراهم في جميع الطرق الَّتي أمر فيها، وينبغي أن أعطي أيضاً من يدلني على طريقي». ولم يكن شيء أبطل من هذا القول وأكذب منه، ففي الغالب كان ينفق عليَّ إنكليز من معارفي اثني عشر شلناً أو خمسة عشر بحجَّة أنَّهم دعوني إلى قضاء دورة تنزهية ليروني عجائب المدينة. وأهدوا إليَّ كتباً وسكاكين ومناظر وساعات وأشياء أخرى ثمينة، وعرضوا عليَّ أيضاً وغالباً أن يقرضوني حتَّى ألفي كنيه وثلاثة آلاف، وأنا أذكر هذه الأفعال المعتبرة خصوصاً لأوضح الفرق بين أخلاق الإنكليز الَّذين يعيشون في الهند والطبائع الحقيقة لأهل هذه البلاد.

العبور إلى إنكلترا

وفي كانون الثاني سنة «1800م» استأذنت جميع أصدقائي في دبلن وودَّعتهم وأبحرت على سفينة مُسمَّاة «باكبوت» تستعمل لنقل الكتب والركاب من جزيرة إلى أخرى، وكانت مغادرتنا ساحل إيرلندا في منتصف

---

(1) هذه كلمة الأصل والظاهر أنَّ ترجمتها إلى الفرنسية لم تكن صحيحة. (م).

(2) النون مشددة.

اللَّيل، وكانت الريح مؤاتية لنا حق المواتاة وفي الغد صباحاً أرسينا في «هوليهيد» وأبررنا في الحال ودخلنا البلدة فسكنا في فندقها، وكان صاحبه يُدعى «جاكسُن». ولما رأى هذا الرجل أنّي أجنبي تصور أنه سيربح منّي كثيراً إن استطاع أن يربثني في فندقه، وبذل إذن جميع مجهوده في أن يريدني على أن أقضي بعض الزمن في «هوليهيد» ولكن إيرلنديين حَزَرا ما نواه هذا ووبخاه، ودعواني أن أتغذّى معهما، وفي المساء نفسه سافرنا معاً في عربة البريد الذاهبة إلى «شستر».

بلدة هوليهيد

إنَّ بلدة هوليهيد قذرة ظاهرة القذارة ومشهورة فقط بمينائها الَّذي هو بإزاء دبلن وهي قائمة على جزيرة صغيرة يفصلها عن بلاد «الغال» ذراع من البحر يقارب في عرضه عرض نهر الكانج في مجراه شرقي كلكتا، وبلاد الغال وإنكلترا والإيكوس هي أقسام بريطانيا الكبيرة الثلاثة، وولي عهد المملكة أي الابن الأكبر للملك يلقب بأمير الغال.

وبعد مرحلة مقدارها خمسة وعشرون ميلاً وصلنا إلى ذراع البحر الَّذي ذكرته آنفاً، واجتزناه ونزلنا في «بانكور فيري»، وقُدِّم إلينا تصبُّح نفيس، وواصلنا السفر بلا تلبث. والموضع الأوَّل الَّذي توقفنا فيه بعد ذلك يُسمَّى «أبركونوي» وهذه مدينة عتيقة قائمة بين جبال شامخة على شاطئ نهر جميل، يصب في البحر على مسافة ما هناك، وكانت الجزيرة محصنة قديماً، ويرى الرائي فيها حتَّى الآن بقايا سورها وهي بقايا تشبه بقايا (الله آباد) في بلاد الهند. وبعد أن تغدينا صعدنا إلى العربة، وفي منتصف اللَّيل بلغنا «شستر». وهذا الصقع ذو أرض متعادية[1] وذو تلال فكنَّا غالباً مضطرين أن ننزل من العربة لنتسلق المواضع الأمايل[2]. ومع ذلك فبلاد الغال وإن كانت جبلية تشمل كثيراً من الأرضين القابلة للحراثة، ويكون فيها مراعٍ خصيبة.

(1) أي فيها صعود وهبوط.

(2) الأمايل جمع الأميل.

مدينة شستر

وشستر وهي كُبرى مدن هذا الصقع، مركز جميع الأعمال والشؤون، إنّها كبيرة ومسكونة، وأقدم، كما قيل، من لندن، ولها خصائص جديرة بالملاحظة، وعدَّة طرق منها لها أروقة يسير تحتها المشاة، بمنجاة من المطر في أي فصل كان، وهي مبلطة الحواجز فيها فسحة كبيرة للعربات والفوارس، وإنَّ وجود عدَّة مبان مزينة بأروقة، يجعل لها منظراً فخماً، وفي هذا الصقع من مقاطع الحجارة ما جعلهم يبتنون بالحجارة المهندمة حتّى جدران الحدائق وباحات المنازل المطمئنة الوطيئة.

وعدَّة من أصدقائي أوصَوا بي ناساً من شستر وكانوا ينتظرونني إذن منذ عدَّة أيّام في هذه المدينة وفي غد وصولي إليها زارني مستر اسمه «فلّيمينك[1]» وثلاثة أو أربعة أشخاص آخرين أوسعوني لطفاً ودعوني أن أزور المدينة معهم. وفي وقت الغداء اجتمع معنا أعيان البلد، وأبهجونا طول اللّيل بالعزف الموسيقي والرقص، ولما افترقنا رجا منّي عدَّة أشخاص أن أقضي بعض الوقت في شستر وتشريفهم بصحبتي، ولكني تأخرت عن الوصول إلى لندن تأخراً منعني من إجابة رجائهم الكريم، وبحسب نصيحة أصدقائي توثقت من قائد العربة الشعبية بأنّنا لا نذهب أبداً إلى لندن من غير أن ننام مرَّة في الطريق، وغادرنا شستر بين الساعة الأولى والساعة الثانية بالصباح فتغدينا في «ستافورد» الّتي هي على تسعة وأربعين ميلاً من هنا، وكان اللّيل قد انتصف حين بلغنا «نورثامبتون» وفيها توقفت لقضاء اللّيل، وقد فرحت كثيراً باتباعي نصيحة أصدقائي، لأنّي تعيشت عشاءً نفيساً[2]، وارتجعت بالنوم قواي الّتي أذهبها تعب السفر، وفي صباح الغد ركبت العربة وفي اليوم الخامس والعشرين من شعبان (1251هـ) الموافق الحادي والعشرين من كانون الثاني 1801م[3] وصلت سالماً صحيح البدن إلى لندن بعد سنة قمرية، إلّا خمسة أيّام من سفري من كلكتا.

---

(1) غير فليمينك الّذي ذكرنا أنّه مقيم في كلكتا في وظيفة من قبل الدولة الإنكليزية. (المترجم).

(2) كان الرحالة مغرماً بالطعام كما قدّمنا من الكلام. (م).

(3) ذكر الرحالة أنّه بدأ رحلته من إيرلندا في 16 كانونا الثاني سنة «1800م» فكيف صارت سنة «1801م»؟ (المترجم).

الرحالة في لندن

قبل أن أغادر دبلن اهتممت بأن رجوت من الضابط «ريشاردسن» أن يحتجز لي مثوىً في لندن، إنّي إذن ذاهب فساكن عند وصولي في منزل أجد فيه حماماً حاراً وحماماً بارداً، وقد سكنت فيه سبعة أشهر ولكني في آخرها تشاجرت مع صاحب الدار وانتقلت إلى مربعة «راثبون»، وما كدت أستقرّ في مثواي الجديد حتّى جاءني عدّة من أصدقائي فقالوا لي: إنّك أخطأت باستئجارك في هذا الشارع، فإنّ نصف منازله تسكنها الخواطئ[1]، وأكدوا لي أنّ السيّدات وكثيراً من الرّجال لا يجرؤون على القدوم إليّ لزيارتي في موضع كهذا، ومع هذا فلوجودي المنزل ملائماً لي وموافقاً لهواي لعدّة أسباب صممت على البقاء فيه. وصيتي من الوثاقة والحمد بين الإنكليز بحيث يرضون أن يغتفروا إصراري، على أنّي رأيت خلاف ما قال الأصدقاء، فلم تقتصر زيارة النّاس لي هناك على أعيان الأشخاص، بل زارتني سيّدات متميزات لم يمررن قط قبلاً في هذا الشارع وقد جئنني في عرباتهن حتّى باب الدار، ليهنئنني أو يتركن لي بطاقاتهن، فأقمت هناك أربعة عشر شهراً ثمّ انتقلت إلى شارع «وردور»، ثمّ في شارع «برويك».

وبُعيد وصولي إلى لندن كتبت إلى المستر «دنداس[2]» أحد الوزراء الأوائل في المملكة، أطلب إليه لقاءً منه، فعيَّن لي، بحسب الترتيب مقابلة، ولما ذهبت إليه ولقيته أبان لي ألف علامة من التقدير[3] وأحسن لقائي. وبعد أيّام كان لي شرف الحضور عند الملك[4] (جورج الثالث[5]) وعند الملكة «شارلوت» فهذان الشخصان الجليلان تقبّلاني بأنس تقبُّل وحادثاني وقتاً ما، وألزماني أن أحضر البلاط غالباً. وجميع الأمراء وعظماء المملكة رحّبوا بي بتبار وتشويق، وعُنوا بجمع كل ما يمكن أن يوائم ذوقي: ألوان طعام لذيذة وأنبذة فائقة رائقة، ونساء

---

(1) الخواطئ جمع الخاطئة وهي المومسة والقحبة والرقحاء والزانية بأجرة. (م).

(2) تقدّم ذكر الرحالة له في رحلته.

(3) هذه عبارة المترجم. (م).

(4) لم يذكر الرحالة اسم الملك ولا قرن اسمه بالجلالة كما فعل باسم الملكة وهو أمر غريب. (م).

(5) ولد جورج الثالث سنة 1738م وتوفي سنة 1820م وتولى المملكة سنة 1760. (المترجم).

سواحر ورقص باهر فاتن، وأغانٍ ملحّنة، كل أولئك شاركت في فتن إحساسي وزيد إيناسي.

وربّما اتُهمت بحب النّفس والاستئثار إن قلت إنَّ القوم كانوا ينشدون عشرتي وإنَّ أجوبتي البديهية البادهة وكثيراً من الارتجالات الحسنة الشرقية أصبحت موضوع محادثات في أجمل مجالس لندن، وأعترف مصرِّحاً بأنّي في أثناء إقامتي استفدت من برودة المناخ لأتبع نصيحة الخالد الذكر حافظنا[1]، وأركن إلى الحب والمسرّة.

وكنت أزور بغير انقطاع مواضع الفُرجة، وعدّة نساء من نساء البلاط كنَّ يبعثن لي من البطاقات للأوبرا بما وجدت معه كثيراً من الفرص لأنعم بها على كثير من الشبان الإنكليز، معتداً لها هدايا إليهم، ومباهجي لم تكن مقصورة بما في العاصمة فقد كنت غالباً أذهب خارجها للتفرج والابتهاج، على مسافة أربعين ميلاً أو خمسين وأحياناً ثمانين ميلاً. وقد قلت آنفاً إنَّ أعظم الأشخاص قدراً في لندن لم ينفكوا يضفون عليَّ حلل الاحترام، وإحسان القدر، وأذكر خاصة المستر «شارلس كوكريك» فلو كنت أخاه ما زادني عطفاً على العطف الّذي أتاه لي، فقد صحبني في كل المواضع الشعبية ودعاني مرّة في كل أسبوع إلى الطعم على مائدته الّتي كان لي ابتهاج أن أرى في حضوريها أجمل نساء إنكلترا[2].

وأغنياء لندن اعتادوا أن يتركوا لندن بالصيف ليطوفوا في الريف، وقد استصحبني المستر كوكريل في إحدى سياحاته، فركبنا «باروشاً» أي عربة مكشوفة، مشدوداً إليها أربعة أفراس فارهة رائعة، ففي اليوم الأوّل زرنا «وندسور» دار لهو الملك، فالقصر أي الحصن مقام في حديقة رائقة، وفيه مثاوٍ[3] جميلة مزينة بعدد كبير من ألواح الرسوم الملونة، أكثرها تمثل الملوك القدامى والملكات وأميرات إنكلترا. وفي أحد الأبهاء من القصر أربع وعشرون صورة لنساء مشهورات بجمالهن، كن زينة لبلاط أحد الملوك، وهذه

---

(1) يعني حافظاً الشيرازي. (م).

(2) يصرِّح الرحالة دائماً بغرامه بالنّساء الجميلات. (م).

(3) المثاوي جمع مثوى وهو خير لفظ لما يسميه الغربيون «أبارتمان». (م).

الألواح، وقد رسمت بحسب الطبيعة، كانت أجمل ما رأيت من نوعها، وبيعة[1] القصر عمارة عتيقة، مبنية على ذوق جدّ خاصّ، ويُرى فيها التاج والعرش والسلاح «اللأمة» بكمالها، لكل ملك قديم، وكل شيء يمكن أن يُعد من العجائب الحقيقية والطرائف الغريبة.

وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى قصر رئيس الوزراء «المستر أدينكتون» وهو مالك بساتين، رأيت فيها مجموعة كبيرة من النباتات الأجنبية.

أوكسفورد في سنة 1800م

ثمّ بلغنا «أوكسفورد» بعد أيّام قليلة، وهي مدينة مشهورة جداً وفيها أجمل جامعة في إنكلترا، والمباني الشعبية فيها المبنية بالحجارة المهندمة، تشبه بأشكالها، عدّة معابد ومشاهد في الهند، وشوارعها واسعة ومنتظمة، وقسم منها مشجَّر من جانبيه، وهذه المدينة هي دار إقامة لأعلم رجال الوطن وملتقّى التلامذة الّذين يجتمعون فيها من جميع أصقاع المملكة وفيها ثلاث وعشرون كلية، لكل منها خزانة كتب جميلة، وقد رأيت في خزانة إحداهن قرابة «عشرة آلاف كتاب خطّي» عربية وفارسية، وهذه الكليات الثلاث والعشرون، تؤلف ما يُسمّى «الجامعة» وذلك يعني «مجمع جميع العلوم»، وقد أنشئ لاستعمال الجامعة مرصد فخم فيه كثير من آلات علم الفلك وعدّة مجاهير[2] كبيرة، وفي الجامعة أيضاً بناية للتشريح[3]، وكان من لطف أحد الأساتذة أن أراني جميع الأبهاء، وأطلعني على أسرار هذا العلم الجليل، وفي بهو وطيء مخصص بالتبضيع رأيت عدّة تلامذة يشتغلون بهذا العلم على جثة فأروني شموعاً مصنوعة من شحم الإنسان، وغرائب أخرى. وإذ كان الأوروبيون أعلم جداً منّا في علم التشريح جئت أوضح عدّة من آرائهم الّتي تناقض آراءنا[4].

وحين أتممنا اختبارنا، بالتفصيل جميع ما تحوي أوكسفورد من غريب

---

(1) البيعة على وزن الشيعة هي كنيسة النصارى. (م).

(2) أي تلسكوبات، والمجاهير جمع مجهار وقد اصطلح عرب العصر على المجاهر.

(3) جاء في أقوال عبد الله بن وهب الراسبي رأس الخوارج «نحى الله أمراً لا يكون تشريح ما بين عظمه ولحمه وعصبه أيسر عنده من سخط الله». (المترجم).

(4) حذف المترجم الفرنسي كلام الرحالة وأشار إلى الحذف. (م).

وعجيب ذهبنا إلى «بلينهام» حيث يقيم دوق (دي مالبوروغ) وهذا الموضع بلا جدال ولا خلاف أجل من كل موضع رأيته أيّامئذٍ، ففخامته أنستني جمال بساتين ويندسور وجميع المواضع الّتي زرتها، فالبساتين دورها أربعة عشر ميلاً، وفيها دوح ذو ظل ثخين، والمنزل بالحرى القصر فخم، وقد شمل هو والبنايات التابعة فسحة أرض مقدارها نصف ميل مربع، وعدَّة سَواقٍ رائقة الماء تشق الحديقة، وأعرضها قد زينت بقناطر جميلة، وهناك عمود من الحجارة سمكه سبعون ذراعاً، وعليها تمثال من المرمر للدوق الكبير، بحجمه الطبيعي، وهو في وسط الحديقة. وهذا الرجل المشهور كان قائد القوات الإنكليزية على عهد الملكة «آن» من أشرف الملكات في إنكلترا. وعند رجوع[1] الدوق المذكور آنفاً كوفئ بإحسان على خدمته للدولة بهذا القصر الفخم وبجراية مقدارها «خمسون ألف روبية». وأشجار الحديقة تمثل، كما قيل لي، جيشاً معبأ للقتال، والسجاجيد والبسط في أهم أقسام القصر رسوم الوقائع الّتي خاضها الدوق الكبير.

وبعد زيارة العمارة والبساتين سرنا مسيرة في الحديقة وقصدنا إلى أحد أصدقاء المستر «كوكريل» وقد دعا، لاستقبالنا، جماعة كبيرة، ومن ثمَّ قصدنا إلى المستر «ستراتون» شاب متحبب جداً، يملك في أرباض المدينة أملاكاً مساحتها أربعة آلاف أكر[2]، وهذا الشاب الفاضل، شديد العناية بالصيد، ويقتني خيلاً كثيرة وكلاباً وغيرها، وكنت شديد التوق إلى معرفة كيفية الصيد في إنكلترا، فقدَّم إليّ متفضلاً، على سبيل الإعارة، فرساً وبندقية، وخرجنا بالضحى ومعنا خادمان ليقودا فرسينا ويحملا الصيد، وقد سرنا عشر ساعات تقريباً راكبين تارة وماشين أخرى، وقد جئنا بعشرين دراجة وخمس أرانب[3].

وما في الأرض بلاد تربي كلاب صيد أكثر من إنكلترا، ففيها كلاب لكل نوع من الصيود. للظباء وللثعالب، وهم يجمعون الكلاب في أسراب

---

(1) يعني رجوعه من الحروب الاستعبادية.

(2) الأكر يساوي «4050» متراً مربعاً. (م).

(3) لم يذكر الرحالة ما صاده فلعلّه كان لا شيء. (المترجم).

بين خمسين كلباً وستين، ومنها نوعان خاصان يستخدمان في الصيد بالبندقيات، والكلاب الّتي كانت معنا كانت مدربة جداً، فكانت إذا شمت شيئاً من الصيد وقفت لتجعل للصياد وقتاً للاقتراب، فإذا أوعز الصياد إليهن بعلامة تقدّمت بهدوء تام وأثارت الصيد، وقد عجبت من ذكاء هذه الحيوانات، فإنّ الواحد منها إذا توقف توقفت سائر الكلاب اقتداءً به، وبقيت بلا حراك، وقد سمعت ممّا يحكى في هذا الموضوع نادرة مدهشة: هي أنّ كلباً من كلاب التعقُّب[1] اندفع ليجتاز جداراً، وفي تلك اللحظة لمح أرنباً في الجهة المقابلة، فاجتهد جهداً كبيراً للوقوف على الجدار وظل حتّى قتل صاحبه الأرنب.

وفي إنكلترا يعاقب من يصطاد في أرض غيره عقوبة شديدة على حسب القوانين، وتستثنى من ذلك حالة واحدة هي أنّه إذا خرج الإنسان يصيد الأوعال والثعالب والأرانب بالكلاب اللابدة[2] فإنّه يتعقّبها أحياناً في الريف مسافة أربعين ميلاً أو خمسين، فتنغطس في نهر فيرمي الصياد نفسه وكلابه في النهر عوماً لإدراك الصيد. ويدخل الثعلب أحياناً وجاراً أو ثقباً في الأرض، فيطلق عليه كليب صغير من نوع «باسيت» القصير الأرجل، فيخرجه في الحال. وخيل الصيد يجتاز الجدران والسواقي والخنادق من غير أن تسقط راكبها. وعند الرجوع إلى المسكن غيَّرنا ملابسنا، للاستراحة وجلسنا إلى المائدة، وجاءت السيِّدة «كوكس» مع عدَّة سيِّدات أخريات فأحيين بحضورهن اجتماعنا. وفي بكرة الغد سلكنا الطريق ثمّ تصبحنا في «شيبنك نورتن» ثمّ تغدينا في ستوّ». إنّ المستر «كوكريل» كانت له شؤون مهمة تستدعي حضوره في بلده «سيسينكوت» وقد دعاني بإلحاح إلى مصاحبته، ولكنني قبل سفري من لندن كنت قد رُميت بسهم من «كوبيدون[3]» فجرحني[4]، فلم أستطع مقاومة رغبتي في الرجوع إلى حبيبتي

(1) هي الّتي تتعقّب الصيد بعد أن يُصاب لتقبض عليه. (م).

(2) هي الّتي تلبد بالأرض بعد أن توقف الصيد. (المترجم).

(3) كوبيدون هو إله الحب عند الروم. (م).

(4) يلمح الرحالة بهذه الجملة إلى أنّه أغرم بامرأة جميلة وبلغ الغرام منه شغاف قلبه ومدح لأجلها لندن. (م).

الجميلة، وافترقنا لذلك، ووجدت فرصة الاجتياز بمدينة «هينلي» ألتي من طيبتها أن قامت على ضفة نهر (التاميز) وهي، كما قيل، من أجمل مدن إنكلترا، غير أني لم أجدها أجمل من «ريجموند[1]» ولا من «كيلكني». وبعد أيام من رجوعي إلى لندن نظمت القصيدة[2] المخمسة المسمَّطة الآتية، عارضتُ بها نظماً لحافظ الشيرازي:

(قصيدة في مدح لندن)

لِنَعِشْ مُستقبلاً في لندنا نقفُ الأيام وقفاً حسنا
لجمال قد أثار الفتنا من نساءٍ فاتناتٍ صِدننا
ولندغ رؤية غرس وبنا

إن طُوبى وهي أحلى مشتهى وكذا السدرة ذات المُنتهى
ثمَّ دوح الجنَّةِ الوافي البَها لم تُثِر منك فؤاداً قد لها
بين سَرْوِ الأرض ممَّا حولنا

فإذا ما لامَنا شيخ الحَرَمْ في هوانا لم يكن منَّا نَدَمْ
قد حبانا اللَّهُ دوماً بالنِّعَمْ وحمدناه وشيخاً يُحترم
وله الشُّكر وإحسان الثناء

املا الكأسَ إلى أصبارها من عصير الكرم وأشبب نارها
لست أخشى أن تراني تائهاً تاركاً مثل غفول قدسَها
دينَ آبائي الألى عافوا الدُّنا

فربيع العمر وقفاً للجمالْ كان في الهند وقد ولَّى وزال
وجمال «الألبيون» اليوم قال: أنا تعويض فلا تخشَ المآل
ولدى بسمته زال العنا

قد سَحَرتنَّ فؤادي يا بنات وبحُسن قد عبدناه ولات
يا بديعات الجمالِ الفاتنات بضفيرات غريباتِ الشيات
وملأنَّ حياتي بالهنا

---

(1) لم يصف الرحالة «ريجموند» حتى يكون للقارئ رأي فيها. (م).
(2) تعرب هذه القصيدة عن استهتار المؤلف بالنساء. (المترجم).

فـالـشـفـاه الـحُـمـر فـبـكُـنَّ وُرودْ   أحببت المرمر والطين الهَمود
إن يهبني اللّه عمراً في الوجود   مـرَّة ثـانـيـة كـنـت أجـود
لـلـصـبـيـحـات بـه دون اعـتـنـا
إذ رمى «كوبيدُ» قلبي بالسهامْ   لم يكُ الجرح ابتداءً بالغرام
طالما صاب فؤادي في الأنامْ   طبع الخلق على هذا الهُيام
لـون زهـر الـبَـر فـيـه اقـتـرنـا

أصدقاء الرحالة وصديقاته

وبعد رجوعي إلى لندن قدَّمني أصدقائي، عوداً على بدء، إلى أحسن الجماعات، فكنت أقضي في الغالب، أمسيَّة في كل أسبوع في دار المستر «بلودن» فهذا الرجل الفاضل أقام بُرهة طويلة في بلاط لكنو بالهند، وشركة الهند قدَّرت خدمته أحسن القدر ثمَّ جعلته في منصب من مناصب مديريها. والسيِّدة «بلودن» تأخذ بمجامع القلب، وملأى نشاطاً، وإذ كانت الدار معنية بالموسيقى كانت الاحتفالات مصحوبة دائماً بالرقص والعزف الموسيقي، وقد تهيأ لي سرور التعرُّف إلى عدَّة سيِّدات محببات ولا سيَّما الآنسة[1] «هايد» والسيِّدة «أنستروثر»، إنَّهما تغنيان وتمثلان القوميديا «الكوميدي»، بحسب رأيي، أحسن من السيِّدة «بللينكتون» والسيِّدة «بانتي» وإن كانت الممثلة الأولى تعد أحسن مغنية للمحكى «التياترو»، والثانية تأتي بمتع الأوبرا، ومع هذا فالموسيقى الإيطالية تقرب، أكثر من جميع الموسيقيات، من الأنغام العذبة لأهل هندستان.

ولطفت بي الليدي «ميتكالف[1]» بدعوتها إيَّاي إلى عدَّة مباهج، وفي يوم من أيَّام الصيف، كانت الجماعة تشرب الشاي تحت شجرة كبيرة، وكان معنا الآنسة «هوسي» والآنسة «تيلور[1]» وعدَّة نساء أُخريات فاتنات، وكان الحديث محتدماً، فأعلمتنا الليدي «ميتكالف» أنَّ الشجرة الَّتي كنَّا قعوداً تحتها عالية جداً، وإن كانت الأشجار من نوعها كثيفة الأغصان

---

(1) يذكر الرحالة هؤلاء النِّساء كأنَّهنَّ معروفات عند القرّاء مع أنَّهنَّ معروفات عنده فقط. (المترجم).

غالباً، فهي قصار صغار، فأجبت في الحال، بأنَّ هذا لم يكن قط مستغرباً وأنّي لو كنت في الغالب مثلها لي شرف رؤية الآنسة «هوسي» بالقرب منّي لافتخرت ورفعت رأسي أكثر ممّا هي عليه[1]، فأخذ كل منهم يضحك وامتدحوا ظرافتي.

وكان لي شرف التخالط مع إيطالي اسمه «فيراري»، وكان موسيقاراً بارعاً، وقد عزفت له قطع موسيقية في الأوبرا، وكان إلى ذلك يلعب أحسن اللعب بالشطرنج، وأتاح لي ذلك فرصة الاستفادة في هذه اللعبة. واستصحبني ذا مساء إلى دار أحد مواطنيه، وكان في وقت واحد يستطيع اللعب بثلاثة دسوت شطرنج من غير أن يرى لعبه[2]، ويغلب جميع ملاعبيه.

وكنت ألاقي، غالباً، عند السير «ج. ماكفرسن» حاكم البنغال القديم، أمراء الأسرة المالكة، فكانوا يعربون لي عن أكبر رعاية وعناية، وتشرَّفت باختلاطي أيضاً بأشخاص من أهل الأدب، وخصوصاً السير «فريديك إيدن» والسير «جون سنت كلير» والسير «جوسف بانكس». فالأوّل ألّف رسائل في مواد مختلفة والثاني متبحّر في علم الزراعة والثالث اتبع الضابط «كوك» في رحلته حول العالمين، ويعد أكبر فيلسوف في هذا العصر وهو رئيس الجمعية الملكية «سوسيته رويال» في لندن. فهؤلاء العلماء عُنوا بأمري كل العناية. ورأيت عند السير «بانكس» أشهر رسامي الألواح بإنكلترا، وأراد عدَّة منهم أن يرسموا صورتي، وفي أثناء إقامتي بلندن رسموا صورتي ست مرّات في الأقل[3]، وأكثر هذه الرسوم كانت كما قيل، جدّ مشابهة لصورتي الحقيقية، على أنّي وجدت أنَّ المستر «إيدريك» أحسن من أدرك مشابه صورتي، ولكن يُقال إنَّ لوح المستر «نورثكوت» كان أحسن رسماً.

وتهيأت لي غالباً في دار السير «ج. بانكس» فرصة الحديث مع المستر «ويلكنز» فهذا الفاضل أقام عدَّة سنين بالهند ويُتقن اللغة الفارسية،

---

(1) هذا أسلوب الرحالة في تملق النّساء تختلف عباراته ومعناه واحد كما رأيت وكما سترى.

(2) يصعب علينا تصور ذلك، كما يصعب إمكانه. (المترجم).

(3) يظهر أنّهم رسموها للغرابة والطرافة. (م).

وهو من أوائل الإنكليز المكبين بنجاح على دراسة اللغة السنسكريتية، وقد ترجم منها قصيدة بعنوان «بها كفنت كيتا». وعلى ذلك النمط عرفت المستر «و. أوسلي»، إنَّه معني كثيراً بالآداب الشرقية، واستطاع باشتغال مستدام أن يتبحر في اللغة الفارسية حتَّى لقد ترجم من هذه اللغة بغاية السهولة ونشر عدَّة كتب لتسهيل تعلمها.

والجنرال «ويلكنسن» والسير «جون تالبوت» استقبلاني بإعزاز واعتزاز، وكان لي اتصال وثيق بالليدي «أيلفورد» المتميزة بشرفها في طرائفها كتميزها بلطفها ومحاسنتها، فضلاً عن كونها تقية وجدّ حساسة بحيث إذا سمعت ذكر الله تعالى وذكر موت صديق أو فعل قساوة أغرورقت عيناها بالدموع حالاً. وقد جمعت إلى هذا التأثر المفرط ذهناً واسع الإدراك وتذوقاً للشعر، وقد جمعت مجموعة من أناشيدي الشعرية، ومع الفرق العظيم بين المجازات اللفظية أدركت دائماً كل الإدراك ما أعنيه من المعاني، وذات يوم استصحبتني لأرى في المحلات المجاورة لنا نقوشاً تماثيلية في نوع من السنديان ملونة بإبداع واختراع تفوق كثيراً من حيث الأمانة الفنية الألواح والسجاجيد الَّتي كنت رأيتها حتَّى ذلك الزمن. وسيادتها أحسنت إليَّ باستصحابي إلى «رانلاغ» الَّتي وصفتها وصفاً مفصلاً في كتابي «سياحة شعرية» وإلى دار العسكريين المشوهين في «شيلسي» وإلى متحفة السير «أشتون ليفر» وإلى عدَّة مواضع أخرى. وزوجها السير «ويليام أيلفورد» عضو البرلمان مشهور بإنصافه واستقامته، وله معرفة واسعة بالفنون والعلوم، فالله تعالى يحفظ الليدي «أيلفورد» وابنتيها المحبيتين. ثمَّ إنِّي لن أنسى أبداً السرور والبهجة اللتين ذقتهما في مصادقتي ومخالَّتي[1] للسيِّدة «أيلفورد». ولما كنت على عزم ترك إنكلترا ذهبت إليها استأذنها وأودعها هي وزوجها، فأعطياني أشياء طريفة، علامة للذكرى، وقد تأثرت السيِّدة «أيلفورد» جدّ التأثر من مغادرتي بحيث لم تطع لها نفسها في أن تقول لي «الوداع».

وسأكون شاكراً أبداً ألطاف الليدي «بريل» وابنتها الوديدة ففي كتابي

---

(1) المخالة أن يكون الإنسان خليلاً، وهي أشد من الصداقة وأصدق منها. (م).

الموسوم باسم «المثنوي» أهديت ثلاثة أناشيد شعرية إلى الآنسة[1] «بريل» ولكنّها لم تعرب عن إعجاب منها بها إلّا قليلاً جداً لا يناسب ما هي عليه من الكمال الرباني[2]، فقد جمعت في شخصها جميع الخلابة الأوروبية وألطاف نساء الهند المؤثرة، وليس للسّماء مخلوق أخلب منها وأسحر، ولم تسمع الملائكة أصواتاً عزفية أعذب ولا ألذ من الأصوات الّتي تخرجها من شبابها، والضابط «سايمز» من بين أصدقائي، كان أحقهم بأسفي على فراقهم فقد كان رجلاً مشهور الاستقامة والبذامة وقد قضى عدّة سنوات في الهند، وأرسل سفيراً إلى «آفا» في أيّام حكم السير «جون شور» ولما رجع إلى بلاده نشر وصفاً لكل عجائب البلاد وعادات أهلها، وقد عاملني معاملة كما لو كنت أخاً له وهو الّذي كان ترجماناً لي عندما تشرفت بالحضور في حضرة صاحب الجلالة الملك[3] وكان من المتفق عليه أن يرجع معي إلى الهند، ولكن في الوقت الّذي أردنا أن نبحر فيه غير عزمي اللورد «بيلهام» وافترقنا مسبلة أعيننا دموعهنّ.

وإنّي مقدّم احترامي إلى اللورد «كارهامبتون» وهو رجل فاضل سليل أشراف، وكان من أتباع اللورد «كورنواليس» حينما هذا كان الأخير حاكم الهند[4]، فقد شرّفني بدعوته إيّاي مرّتين إلى التغذّي على مائدته، وعاملني بلطف ومحاسنة. وقد تعرّفت إلى السير «جيمس إيرل» أحد أطباء الملك، وكان السير جيمس يذهب بي غالباً إلى مسافة عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً خارج لندن لأرى حدائق ومواضع أخرى تستحق الرؤية، ودعتني زوجته عدّة مرّات إلى اجتماعاتها، وسمعتُ فيها موسيقى عذبة رائقة، مع عدد كبير من النّساء الصبيحات، وكانت أجمل هؤلاء الحوريات الآنسة «ماريان».

وقد زرت المستر «نيبين» صاحب سرّ القيادة البحرية والسير «جون» والضابط «موراي» اللذين رُتّبا في مناصب مهمة في البنغال، وقد استقبلاني

---

(1) أهداها إلى الآنسة بريل ولم يهدها إلى أمّها؟!. (م).

(2) عنى الصفات الّتي حلاها الله بها.

(3) سيذكر الرحالة رجلاً آخر بهذه الصفة. (المترجم).

(4) في الترجمة الفرنسية «حاكم إيرلندا» وقد تقدّم أنّه كان حاكم الهند وأنّه من سكّان إيرلندا. (المترجم).

استقبالاً حسناً، ولن أستطيع أيضاً أن لا أذكر بين أصدقائي، إلّا إذا أنكرت الجميل، المستر «ديبريت» فإنّه، وإن لم يكن إلّا كتبياً ساذجاً، له مشاعر رفيعة وروح طيبة وكان منزله الملتقى المعتاد للأعضاء المعارضين.

والليدي «وينيفريد» سيِّد إيكوسية، ذات فضيلة عظيمة، شرَّفتني بأن دعتني، من غير معرفة بي، إلى أمسياتها، ولقد فتنت بأساليبها الطريفة، فأخذت منذ ذلك الوقت، أقوم بحقوقها على الدوام، إنّها تسكن اعتياداً في مدينة «أيديمبورغ» ولما تركت لندن قالت: إنّك تخطئ الصواب بأن ترجع إلى الهند دون أن ترى بلاد «الإيكوس» وحثتني على مصاحبتها إلّا أنّني كنت في نفس الحالة الّتي كنت فيها حين سفري إلى أوكسفورد فاستعفيتها إذن بغاية الأدب في الاستعفاء فلم تودّ أن تقبل عذري وحجّتي، وبيوم ارتحالها جاءت إلى باب مسكني في عربتها لاستصحابي معها، ولارتباكي معها خجلاً من طيبتها وفضلها وعدتها أن التحق بها بعد شهرين، فوافقت أخيراً على تركي وودعتي[1]. وبعد أن انسلخ الشهر إن تأهبت للسفر إليها وإذ ذاك بلغني نعيُها وقد آلمني حق الإيلام هذا الخبر فقد كانت سيِّدة ظريفة.

ويحسن بي كثيراً أن أذكر فضل الضابط «براثويت» وزوجته اللذين أرياني عجائب لندن وخاصة البرج والمتحفة البريطانية، وقد خدم هذا الضابط في الهند مدة طويلة وكان يبتهج كثيراً مع أهل البلاد، وهو على رأيي من أسعد رجال أهل الأرض وامرأته الّتي تساوي نظرة منها كنزاً حملت له في الزواج بائنه[2] مقدارها عشرة ألكاك من الروبيات واشترطت عليه أن يتسمى باسم أبيها فقط وهي بنت الجنرال «براثويت» قائد القواد في مدراس وتحب أشفق الحب زوجها وتعلّق صورته أبداً على عنقها.

وكنت أقضيَي أمسيات مبهجات في دار المستر «كوردون» بين عياله، وكان

---

(1) هذا الخبر يدلّ على أنّ الرحالة لم يكن مفتوناً بالنّساء حسب بل كانت عدّة نساء مفتونات به. (م).

(2) البائنة ما تحمله الزوجة من المال من أهلها إلى زوجها وقد ذكرنا سابقاً أنّ اللك مائة ألف روبية. (المترجم).

لي في هذه الدار ابتهاج بلعبي بالشطرنج مع الجنرال «موني» وبرؤيتي الآنسة «لاتور» ألتي بلغت من الكمال ما يجعلها أعلى من كل مدح، إنها من الجميلات اللواتي جرحن قلبي أعمق الجروح. وكان لي من الخير أن أرى إلى مائدة الكونت «سبنسر» اللورد المشهور «مكارثي» فهذا قام بأعسر المهمات: كان سفيراً في روسيا سنوات قلائل، واستحقت صفاته الحميدة ألطاف الأمبراطورة الروسية، وأرسل بعد عدة سنين إلى الصين، وقام بالرسالة حق قيام، وأسند إليه في أثناء حرب «حيدر علي[1]» الحكم في مدراس، وجعلت له خلافة الحكم لحاكم البنغال أيضاً ولكنه رفضها، ومع بلوغه سبعين سنة من العمر يظهر كأنّه في عمر الخامسة والأربعين، وكان يأتيني في الغالب زائراً، وأشهدني احتفالات رائعة، وكان من مسرتي أن خالطت اللورد هاردويك وهو رجل فاضل من أسرة قديمة جداً وهو الّذي خلف اللورد كورنواليس في حكومة الهند[2] وتزوج أخت الليدي «آن بارنيت» ألّتي تعرَّفت إليها في مدينة الكاب ولذلك جاءني فحضّني على قضاء بعض الزمن في داره الريفية على مسافة أربعين ميلاً من لندن ولكن كان من كثرة الدعوات ما حداني على رفض دعوته، وقد لقيتُ في منزله السيِّدة «مونتاك» كنة الليدي مونتاك الّتي يبعث «أوتيلها» بالقرب من مربعة بورتمان على العجب والإعجاب وهذه السيِّدة كان من فضلها أن قدَّمتني إلى المستر «هوب» أحد أشهر التجار في أوروبا، ومع أنَّ الثورة الفرنسية، كما قيل أضاعت عليه نصف ثروته فهو يعد اليوم أثرى تاجر في لندن. ومائدته كانت ذات كلفة مفرطة.

والسير «شارلس بوكتون» أظهر من الدلائل على مودته لي وميله إليّ، وقد أقام بالهند عدَّة سنين وتعلَّم الفارسية وقد رأيته أوَّل مرَّة في بلاط الملك وهناك نُدب لأن يكون ترجماناً لي في حضرة جلالة الملك، وعليّ أن أشكر للماركيز «دي طاونز هند» ما أفاضه عليّ من اللطف، والمستر «بروس» أخو اللورد «ايلكن» كان من فضله أن عرَّفني بأمّه مؤدبة الأميرة «شارلوت دي كالس». ولما رجع إلى الهند أراد أن يمرّ بالقسطنطينية ليرى أخاه، وكان سفيراً لإنكلترا في تركيا، وقد حضني كثيراً على مُرافقته في

(1) كان في بلاد الهند.

(2) كرر المترجم الفرنسي «إيرلندا» مكان الهند وقد أشرنا إلى مثل ذلك سابقاً. (المترجم).

سفره ولكني كنت يومئذٍ أريد زيارة لندن أيضاً بالتفصيل فلم أجبه إلى دعوته المستحبة.

وكنت أختلف غالباً إلى دار الجنرال «شارلس موكان» الضابط القائد لجيش شركة الهند في الزمن الَّذي كان فيه «زمان شاه» متهدداً باجتياح الأقاليم الشمالية، وقد اكتسب في الهند ثروة جسيمة، وكانت له ابنة قد تزوجت[1] المستر «الشينكتون» وقد أهديتُ إليها أحد أناشيدي الشعرية.

والضابط «مكنزي» الَّذي سكن الهند بُرهة طويلة ويحسن التكلُّم بالفارسية، كان يأتيني في الغالب ليزورني. والمستر «كريشتي» صاحب التقدير بذل لي من عنايته ورعايته كل ضرب وقد أراني جميع الأشياء الطريفة الَّتي وكُل إليه بيعها، وقد أطلعني مرَّة على مجموعة من ألواح الرسوم، قدر ثمنها «بستين ألف ليرة استرلينية» ولما عدتُ إلى داره بعد عدَّة أيَّام كان كل شيء منها قد بيع.

وكان لي ابتهاج التعارف مع المستر «هاريمان» وقد لقيت في داره كثيراً من الفرنسيين، منهم رجل فاضل كان قد ربَّى «نابليون بونابارت[2]» ورأيت في المنزل نفسه حما الجنرال «دي بواكس» الَّذي أثرى بخدمته «مهداجي سنديا» رئيس مهراتس وكان مضطراً إلى الهجرة من وطنه (فرنسا) بعد موت الشقي لويس السادس عشر.

والمستر «ودجيوود» المشهور بالاكتشافات المهمة الَّتي أغنى بها فن الغضار الصينيّ أعرب لي عن اهتمام بي وحسن التفات، وكانت له رغبة في أن يصحبني إلى بلاد الفرس وبلاد الهند ولكن خوفه من الهلاك في الطريق صدفه عن تلك الرغبة.

إنَّ عدداً كبيراً من النَّاس المتميزين أحسنُوا استقبالي، ولم أذكرهم خشية أن أضجر القارئ[3]، ومع أنِّي كنت اختلف إلى كثير من الجمعيات والجماعات كنت أقضي جزءاً كبيراً من زماني بنظم الأشعار ورؤيتي عجائب

---

(1) هذا هو التعبير في الترجمة الفرنسية ولم يقل «تزوجها» ولعلَّه التعبير الأصلي. (م).

(2) لم يذكر الرحالة اسم هذا الرجل فذهبت الفائدة التاريخية من كلامه هذا وسيذكر أخبار نابليون في رحلته. (المترجم).

(3) وكأنَّ الرحالة لم يقصر في إضجار القارئ بذكره من ذكر من أصدقائه وصديقاته. (م).

العاصمة وأرباضها، وقد زرت ذات يوم «كرينويج [كرينيج]» مع جماعة من أصحابي، وكان الملوك يقيمون فيها قديماً، ولكنّها اليوم مستشفى للبحريين المشوهين، وهذه المؤسسة حقيقة بالإعجاب حقاً، وعلى مقربة منها مرصد مشهور فيه أجمل الآلات الّتي يمكن الحصول عليها في أوروبا، ومن هذا الموضع يحسب الإنكليز درجات الطول عندهم.

والمستر «سيويل» كان من لطفه بي أن استصحبني إلى دكتور مشهور ببراعته الكيميائية وقد اخترع مكاين مختلفة مفيدة وعجيبة، وقد أجرى بحضوري تجارب حسبتها من السحر فبقطرات من ماء الفضة استطاع أن يُميع الذهب ويحلله وكذلك الفضة والعقيق أيضاً. وأمرَّ ناراً في ماء إمراراً وصيَّر الماء هواءً والهواء ماءً، وجزأ عدَّة مواد ثمَّ جمعها وأنشأ مجموعة من أشياء أخرى، يكون ذكرها مملاً للقارئ ولكنَّها تحدث لي أعظم ابتهاج.

الماسونيون في إنكلترا سنة 1800م

وعلى مسافة أميال قليلة من لندن يرى الإنسان حديقة[1] خاصة بالأحرار الماسونيين[2]، وهؤلاء صنف من فرقة يقص النَّاس من أمورها قصصاً عجيباً، ولهم قواعد خاصة ويتعارفون في كل مكان بإشارات معينة عندهم تخفى على الّذين لم ينتحلوا مذهبهم ولم يشركوا في معرفة أسرارهم. والتخويف بالموت لا يبلغ أن يحملهم على البوح بأسرار نحلتهم. وقيل إنَّ ملك إنكلترا لما ارتاب بأمرهم أمر ولي العهد من أبنائه أن يدخل في طائفتهم ويكون من «البُناة الأحرار» ثمَّ يوضح له هل عقائدهم مضادة لمصلحة الدولة؟ فانخرط الأمير في سلكهم واطلع على أسرارهم ثمَّ قال لأبيه: إنَّ قواعد الماسونية مفيدة للدولة كل الإفادة وإنَّه يعد الماسونيين من الرعايا المخلصين جداً ولكنَّه لا يفشي شيئاً لأبيه ممَّا يتصل بأسرارهم.

أنا أجهل «الافرنكماسونية» وكل ما سمعت من أخبارها أنَّ الملك

(1) سيذكر الرحالة في حديثه هذا أنَّ اسمها «سبا».
(2) معنى الاسم الحقيقي «البناة الأحرار». (المترجم).

سليمان بن داود، لما بنى هيكل أورشليم «القدس» حشر بناة وفعلة وصُناعاً من جميع أصقاع العالم وخصوصاً أوروبا، وأنَّ الفَعلة والصناع لتخليد ذكرى هذا الحادث المجيد (حادث بناء الهيكل) تواضعوا أسراراً يجب عليهم أن لا يُطلعوا عليها إلّا من يعترف بصحة نحلتهم وينضوي إلى جماعتهم.

إنّي أستحسن[1] جداً مبادئهم فهم لا يحاولون أن ينقلوا أحداً من دينه إلى دين آخر، وهم محسنون إلى الفقراء ومستعدون دائماً للتعاون بينهم، والمشاجرة والمخاصمة والمجادلة والمحاجة منفية عن جمعيتهم، فهم متآخون متصافون أبداً.

وقد زرت حديقة «سبا» ذا مساء كان فيه أمير الغال يرأس محفل الماسونيين هؤلاء، وكانت الحديقة قد أُضيئت وكان فيها زحام كثير لأشخاص من النوعين الرِّجال والنِّساء ووضع العشاء تحت الأشجار وإلى كل مائدة نحو من عشرين إنساناً في رقابة أحد الماسونية الأوائل، وكان بين المدعوين كثير من عامَّة الشعب، فانهمكوا في أبهج المسرات وتحدثوا ببالغ الألفة ورفع الكُلفة عن أخيهم في نحلتهم «جورج[2]»، ومنذ دخلت الحديقة، حدَّقت إليّ جميع العيون، وأكثر الماسونيين دعوني أن أؤاكلهم على مائدتهم، واجتهدت أن أستعفي ولكنَّهم ألحُّوا، فاضطررت أن أقبل كأس نبيذ من كل مائدة. وأنَّ عدداً كبيراً من النِّساء الجميلات حضنني على أن أملأ قدحي نبيذاً مرَّة ثانية، وهكذا شربت في تلك الأمسية من النبيذ ما لم أشرب مثله قط، وأطلقوا في أثناء العشاء نيراناً صناعية وعزفت موسيقى الأمير نوبات عذبة. وفذلكة القول أنّي كنت أجدني كأنّني أشهد الأعياد والاحتفالات الموصوفة في قصص الخرافات أو في قصص «ألف ليلة وليلة».

وأراد عدَّة ماسونيين إدخالي في جمعيتهم ولكني رفضت هذا الشرف

---

(1) اطلع الرحالة على شؤون من شؤنهم أكثر ممّا قال من أنّه لم يسمع من أخبارهم إلّا كذا وكذا وخصوصاً بعد أن أكل معهم، وهذا رأيه فيهم وعليه تبعته. (م).

(2) لعلّه الأمير رئيس المحفل المذكور. (المترجم).

خوفاً من أنَّ مبادئهم لا تتفق حق الاتفاق مع سبيلي في الحياة، وقد أقنعوا مع ذلك السفير التركي «أفندي إسماعيل»[1]، وصاحب سره أفندي يوسف أن يعتقدوا عقائدهم، ووقفوا هذين المسلمين على جميع أسرار الماسونية[2].

من عجائب لندن

ذكرت آنفاً ومقدماً أنَّ الإنكليز يحبون أن يجمعوا مجموعات من الأشياء النادرة، والمواضع الَّتي تحوي هذه العجائب تُسمَّى «المتاحف» وأشهرها في لندن «المتحفة البريطانية» وهي مؤسسة وطنية، أعني أنَّ الدولة تنفق عليها، وبنايتها تحتوي على زهاء مائة رواق، ولكل رواق اسم مأخوذ من تسمية ما جمع فيه، وأرى من العبث أن أصف هذا القدر من العجائب والطرائف، وقد لزم تفتيش الطبيعة جمعاء للحصول عليها، وأنا أذكر خاصة قرنين طولهما كطول قرني ظبي عمرة سنتان قطعوهما من جبهة امرأة بعد موتها. وهذه المتحفة قائمة بالقرب من سور المدينة فيرى الرائي من شبابيكها القرى الجميلة الَّتي في «هامبستيد» وفي «هايكيت» على تلال تحد الأفق.

ورأيت في لندن إيرلندياً عجيباً جداً، كان طوله سبع أذرع وطول كل من قدميه ذراع، ويداه عريضتان بعرض قدم، وكل أعضائه الأخرى في هذه النسبة متناسبة، وبعد تطاولي بلغ رأسي حزامه فإذا وقف قائماً وجب أن يتقاصر لكيلا يصدم رأسه السقف، وهذا العملاق يعيش عيشة تعسة، فقد منع من الخروج لئلا يخيف النِّساء والأطفال، واضطرُ أن يظهر في عجائب المخلوقات مقابل شلن واحد.

وذات يوم بينما كنت أجتاز مربعة «بورتمان» لحظت جماعة من الصبيان قد ارتدوا أسمالاً قد سوَّدها الدخان وهم يغنّون ويعلنون ابتهاجهم،

---

(1) هكذا وردت التسمية في الترجمة الفرنسية. (م).

(2) ومنذ ذلك العصر دخلت الماسونية في تركيا وانضم إليها كثير من أعيان الأتراك ولا تزال شائعة هناك في طبقات الموظفين والمعلمين والأساتذة، كما هو الأمر في كثير من الأقطار العربية وبلاد الفرس اليوم وأخوة الإيمان خير منها. (المترجم).

فسألت عن حقيقة هذا المنظر فقيل لي إنَّ السيِّدة «مونتاك» كانت قد فقدت بالضياع أحد أبنائها فأعاده إليها جماعة من منظفي المداخن ومنذ ذلك الوقت، أخذت السيِّدة تقيم احتفالاً كبيراً للصبيان من موظفي المداخن بلندن، في كل سنة تجديداً لذكرى ذلك الحادث السعيد.

خزانة كتب الملك

ورأيت بسرور عظيم خزانة كتب الملك الخاصَّة، وفيها جمهرة من الكتب، مؤلفة بجميع لغات أوروبا، وفيها عدَّة مخطوطات جميلة بالفارسية والعربية، وقد رأيت نسخة من «شاه جهان نامه» وفيها صورة هذا الملك، فبعد انتهاب «دهلي» اشترى النواب آصف الدولة، هذا الكتاب الَّذي كان يهتم به أعظم اهتمام ثمَّ أهداه إلى المستر «ج. شور» حاكم البنغال، وهو أهداه بعد ذلك إلى جلالة الملك.

وأراني المستر «دانيال» صور عدد كبير من الأشخاص عرفتهم في الهند، وكذلك مناظر «تاج محل» قبر الإمبراطورة «منتازي زمان» ومواضع أخرى مختلفة، وقد رُسمت الصور بأكبر عناية. وإذ كان كثير من الإنكليز موقنين بأن لا وجود في الهند لأي عمارة فخمة كنت جدّ مبتهج بأنَّ المستر «دانيال» جعلني قادراً على أن أثبت لهم ضدّ إيقانهم، وحثثت عدَّة من أصدقائي على زيارة هذه الألواح المرسومة، فاستولى عليهم العجب والإعجاب عند رؤيتهم إيَّاها.

وكان لي في لندن شرف التقاء سيدتين أو ثلاث من الهنديات وكن قد استصحبن معهن أولادهن إلى أوروبا لتعليمهم فيها، ومن أولئك السيدات السيدة «دو كارول»، ويُقال إنَّ المستر «دو كارول» أنقذها من الإحراق بالحطب[1] عند موت زوجها الأوَّل ثمَّ تزوجها بعد أن نقلها إلى النصرانية. وزرت أيضاً «نوربيكم» وكانت قد جاءت من الهند مع الجنرال «دي براكني» وهي تتزيًا بالزّي الإنكليزي، ولها شكل جدّ حسن، وأعطاها الجنرال «دي

---

(1) يشير المؤلف إلى إحراق الزوجة حين موت زوجها عند طائفة من الهنود. (المترجم).

براكني، الدار الّتي تسكنها اليوم حين وقفها على هواه في أن يتزوج شابة فرنسية[1].

وصف إنكلترا وما فيها ولندن خاصة

ربّما كان قُرّاء رحلتي حَسرى من قراءتهم إيّاي بطلاً لتاريخي وقتاً طويلاً جداً وإنّي واضع تحت أعينهم ملاحظات على إنكلترا من حيث العموم ومصوّر لهم بإيجاز أخلاق سكّان هذه المملكة، وشكل حكومتهم وهيأة دولتهم.

إنكلترا بلاد وعرة وتربتها المركبة من نوعين من الصلصال المختلط بالحجارة خصيبة في الحبوب كخصبها في المراعي، والأمطار لعدم استمرارها مدة طويلة لا ترطب الأرض كثيراً أبداً، ولذا قويت جذور خضراواتها قوّة مبينة، والفواكه فيها كثيرة جداً، وتلذُها الأفواه، وقد رأيت أصلاً من أصول الكروم مغروساً في صحن دار ضيق قد غطّى بأغصانه كل وجه الدار، وأثمر ثمراً كافياً حاجة عيلة كاملة، ومن العناقيد ما وزنه نحو من عشر ليفرات، وفي إنكلترا من الأزهار مثل ما في الهند وبلاد الفرس، وليس هذا القطر في نوع محصولاته بأقل غرابة منه في خصائص سكانه، الّذين لجميعهم أخلاق مختلفة جداً بحيث لا تجد اثنين يفكّران ويعملان بطريقة واحدة.

والحيوانات الأهلية وخصوصاً البقر والكلاب خليقة بحسن الملاحظة لجمالها، والأنعام من أنواع أجمل من أنواع بلاد الهند، والبقر كثيرة اللبن ويصنع من لبنها زبد وجبن فاخر ولحومها لذيذة، وفي إنكلترا أنواع من الخيل: الخيل الأكاديش[2] كبيرة وقوية جداً بالنسبة إلى أمثالها في البلاد الأخرى، تظهر كأنّها غريبة الخلقة، وتستخدم لجر الأحمال الثقال وحرث الأرض، فإنّ الإنكليز لا يستخدمون البقر في الحرث، أما خيل السروج

(1) هذا يعني أنّه استصحبها معه ليتزوجها ثمّ عدل عنها إلى الشابة الفرنسية. (م).

(2) تسميها العامّة بالعراق «الكدش» والواحد «كديش» وصحيحه «إكديش». (المترجم).

الّتي هي للركوب فإنّها ريّضة يستطيع رجل واحد أن يقود منها عشرة أفراس بمرّة واحدة معاً بحبل واحد، ويبعثها على اجتياز الجدران والخنادق.

ويعمُّ إنكلترا المزارع والحدائق، محوَّطة بالحسك أو الأسوار، وفي الحدائق بساتين ورياض وبرك ومراع، وعلى قلّة أنهار وغابات، ويقيم فيها أصحابها في العادة خمسة أشهر أو ستة من كل سنة مثل العرب، إنّهم يتركون المدن في أثناء الصيف ويذهبون للتبرُّد والهواء الطيب في الريف، ويكتسبون هكذا قوّة لتحمُّل قُر الشتاء بعد ذلك.

وإنكلترا مُجادة الزراعة، ومع هذا فالأقلاء الّذين لقيتهم في المزارع جعلوني أظن أنَّ السكان قليلون، وفي كل مكان يجد طرقاً واسعة جيدة التبليط[1]، والسواقي والأودية الّتي تشقها عليها قناطر، وبذلك يطوف الإنسان تلك المواضع بغاية السهولة، ويرى الإنسان من مسافة إلى أخرى فنادق يحصل فيها على كل ما به حاجة إليه، والقرى تشبه قرى الهند، والمنازل، في الحقيقة، أكثرها مبني بالآجر أو الحجارة ولكن سطوحها خفيضة ومغطاة بقش الزرع.

إنَّ لندن هي عاصمة المملكة وأكبر مدينة عرفتها، ومحيطها أربعة وعشرون ميلاً والضياع المحيطة بها الّتي يظهر أنّها جزء منها تمتد في كل المناحي إلى مسافة عدَّة أميال، وفي كل سنة يُضاف إلى المدينة دروب جديدة، منازلها تشترى أو تُستأجر قبل أن يتم بناؤها. وعامّة دور لندن مبنية بالآجر، وفيها غالباً أربع طبقات ووجوهها ذات صفوف منتظمة من الشبابيك المزججة، وفي عدَّة منازل للأشراف ساحات أو أروقة، تزيد في أناقتها، والسطوح ممالة ومغطاة بالقرميد أو بحجارة سخيفة تُسمَّى «الأردواز»، والتقسيم الداخلي لأقسام الدور هو كالمألوف في دبلن، والدروب والشوارع والدكاكين تكون كتلك مُنارة في المساء، وتفوق بغناها جميع ما يمكن أن يُتصور من الفخامة والنفاسة، ولكن لندن كثيرة الاعتبار

---

(1) في الترجمة الفرنسية «مصفحة بحديد» وهو خطأ، وقد مرّ في أقوال الرحالة أنَّ طرق إيرلندا مبلطة بحجارة مؤللة، فقال المترجم الفرنسي إنَّ الرحالة يريد مصفحة بحديد، وهو من سوء فهم أيضاً. (المترجم).

خاصة بما فيها من الميادين الشعبية، وفي وسط كل ميدان نوع من البساتين محوط بسياج من الحديد، وأصحاب الدور المجاورة للبستان عندهم مفتاحه، والنّساء يستطعن التنزه فيه مع أطفالهن في أيّ ساعة كان ذلك، من غير خشية منهن أن يسبّهن الرعاع.

والمقاهي أقل عدداً ممّا في باريس[1]، ولكنّك في جميع الشوارع، على التقريب، تجد فنادق أو أوتيلات مؤثثة كاملة الماعون، وعدّة من هذه المؤسسات فخم، وفي الموضع المُسمّى «تافرن دي لندن» مثلاً، يُعد الطعام، في ساعات قليلة، لخمسمائة إنسان.

وأذكر من المؤسسات الثقافية الإنكليزية الّتي أعجبتني خاصة «نواد[2]»، وهي مؤلفة من عدّة أشخاص غير معينة على مذهب واحد وعمل واحد يجتمعون في كل شهر في حانتهم ليتباحثوا في مصالحهم، ومن الأندية ما عدّة أعضائه تبلغ مائتي عضو ولكن هؤلاء الأعضاء قلما يجتمع منهم في المرصة الواحدة أكثر من ثلاثين عضواً أو أربعين، ويحكم على الغائبين بغرامة قليلة تستعمل في تلافي قسم من نفقات الغداء.

وهذه النوادي وافرة العدد جداً فمنها ما هو مؤلف بكماله من الرسامين للألواح أو أهل الفن أو أهل الأدب أو غيرهم، ولا يدخل الإنسان في هذه الجمهرات إلّا بدعوة خاصة، والأعضاء منتخبون بطريقة التسمية المحرّرة المكتوبة. وللإنكليز جمعيات أخرى تشبه هذه على التقريب يشربون فيها الشاي والقهوة و«الشربة» كالجمعية الملكية بلندن الّتي تعقد جلساتها في كل يوم أحد عند السير «ج. بانكس» وتختبر فيها الاختراعات الجديدة وتصلح الّتي هي مُعيبة[3]، وجميع العلماء يجتمعون لاطلاع الجمعية على أعمالهم وتحكيمها فيها. وقد تفضل رئيس الجمعية عدّة مرّات بإباحتي حضور الجلسات فسرني ذلك أعظم السرور.

وفي لندن عدّة محكيات «تياترات» شعبية، وإذ كانت تختلف قليلاً عن

---

(1) لم يصف الرحالة باريس حتّى يكون القارئ على علم بما فيها. (م.)

(2) الفصيح «أندية» وهي جمع النادي كالوادي والأودية وقيل النّدي على وزن النبي. (المترجم).

(3) من «أعابت تعيب إعابة: كان فيها عيب». (المترجم).

ألّتي في دبلن لم أصرف القلم إلى وصفها، ففي البلاد مائة موضع أخرى يستطيع الأجنبي أن يقضي وقته باستلطاف فيها. إنّ رجلاً اسمه «المستر والكر» استأجر في الأيّام الأخيرة بهواً للتفرج عرض فيه طوال الصيف كله مكينة فلكية تبين الصورة الصحيحة لجميع حركات الأجرام الفلكية، وقد علّق في وسط البهو، لتمثيل الشّمس كرة من الزجاج فيها مصباح، وتدور هذه الكرة على قطبها باستمرار، وحول الشّمس عدّة كرات أخرى أقل حجماً تمثل الزُهرة «فينوس» والأرض والقمر والمريخ والمشتري وزُحل وكوكب «هرشل» المكتشف حديثاً، ويحرك جميع هذه الكرات دولاب، وهو يمثل فكرة محققة للمذهب الباهر في نظام الفلك، الّذي ذهب إليه العالم «كوبرنيك».

وللإنكليز تلّة خاص يسمونه «المسخرة[1]» وهو أنّ عدّة مئات من الأشخاص يبرقعون وجوههم ببراقع أو وجوه صناعية من المقوى ويتنكرون كل على هواه فمنهم من يتزيّا بزي الأتراك ومنهم بزي الفرس ومنهم بزي الهنود وهلمّ جرًا، ولكن أكثرهم يتنكرون بزي الفعلة والصُّناع ويقلّدون باتقان حركاتهم ولغتهم، وهذا التنكر يشجعهم على الكلام بجراءة وإظهار جميع ما لهم من الألمعية والذكاء والفطنة، في الغالب. وقد حضرت ذات يوم أحد هذه التلهيّات فدخل البهو رجل في ملبس البيت وعلى رأسه قلنسوة اللّيل وفي رجليه خُفان فقال للجماعة: «أنا أدفع خمسة كنيهات في الأسبوع أجرة لمثواي في أعلى البناية وأنتم تحدثون هذه الجلبة ألّتي تمنعني من إغماض عيني. وسينبلج الصبح وأنتم لا تنصرفون؟ أنتم قرويون جُفاة، وأرى من الواجب عليّ أن أستعدي عليكم الشرطة لتعتقلكم». فحسبت أنّه كان يتكلّم جاداً، ولكن الجماعة أخذوا يضحكون واستحسنوا هذه الدعابة. وفي لندن عدّة مراقص، ولكن النّاس قلما يختلفون إليها.

وصلت إليّ، ذات يوم، بطاقة لم يكتب عليها إلّا هذه الكلمات الآتية «السيّدة ستكون في دارها في...»، فظننت أوّلاً أنّ هذا موعد التقاء

(1) سمي في أيّام العباسيين «بالسماجة» وورد ذكر السماجة في كتب التاريخ والأدب ولا سيّما كتاب الديارات للشابشتي «ص39». (المترجم).

وعدتينه امرأة متظرفة، ولكن أحد أصدقائي، وقد استشرته، أعلمني أنَّ هذه دعوة إلى «الروت» وهو اسم الاجتماع أشخاص يجتمعون وليس لهم غاية خاصة، والسيِّدة الداعية، ليس لها، في العادة، إلّا وقت للاستعلام عن صحة الضيوف، والخدم يقدِّمون الشاي والقهوة والشربات المبردة وغيرها، ثمَّ ينصرف الشاربون والشاربات ليُخلوا مكاناً لغيرهم، وقد رأيت في دعوات من هذا الضرب ثلاثمائة أو أربعمائة يتعاقبون في غضون أمسية واحدة.

وفي لندن عدد وافر من العمارات الشعبية، عامتها مبنية بالحجارة وأعظمها «دير ويستمينيستر» وفيه قبور الملوك، والبيعة الكبرى «للقديس بولس» ومدفن «الأطفال المعثور عليهم» و«دار الوقف للنِّساء النفساوات» ومستشفيات «كرينويج[1]» و«شيلسي» للبحريين والجنود المشوهين، وفيها عدد كبير من الكليات في كل كلية منها أربعمائة صبي أو خمسمائة.

والإنكليز لا يعملون على استمرار التصدُّق بإعطاء مقدار قليل من الدراهم سائلاً أو شاعراً فقيراً أو موسيقياً مسكيناً، إنَّهم يكرهون هؤلاء النَّاس ولا يتصدَّقون عليهم، ولو اتبعوهم سائليهم عدَّة أميال ولكنَّهم يؤسسون في كل قرية ذات أبيل[2] دوراً يجد فيها الأشقياء[3] ملجأ كافلاً، فالعيلة البائسة ليس عليها إلّا أن تذكر حالها لأحد موظفي الملجأ. فتقدَّم إليها المعونة في الحال، والملاكون يدفعون لرعاية هذه المؤسسات والعناية بها ضريبة، مبلغها السنويّ زهاء ثلاثة ملايين ليرة استرلينية، ومع هذا فيرى الإنسان كثيراً من السؤال في لندن، غير أنَّ هؤلاء، على ما قيل لي، كُسُل[4] يستحبون هذه الحال على حياة منتظمة، وفي المحاكي «التياترات» يقدم المحاكون مرَّات تمثيلات تصرف أجورها إلى الفقراء[5].

---

(1) ذكرها المؤلف سابقاً باسم «مستشفى كرينويج». (م).

(2) الأبيل يعرف اليوم بالخوري. (م).

(3) من الشقاء وهو ضد السعادة والرفاهية. (المترجم).

(4) الكسل على وزن الكتب جمع كسول قال الراعي:

طال التقلب والزمان ورابه   كسل ويكره أن يكون كسولا.

(5) سيذكر الرحالة حادثة من هذا الضرب في احتفال أقيم في «فو كسهول».

وفي لندن عدَّة مئات من الجهابذة[1] لهم صلات معاملات بجميع أصقاع العالم، وأوَّل مؤسسة للجهبذة تُسمَّى «بنك إنكلترا»، وهو عمارة كبيرة، مشتملة على زهاء مائتي مكتب ومحسب والمشتركون في هذا المصرف يؤلفون شركة تشبه شركة الهند، ويدير أمورها عدد ما من المديرين، وإيَّاهم يُودع الوطن جميع كنوزه ألّتي ـ كما قيل ـ لا تقل عن مائة مليون ليرة استرلينية، بين ورق مالي ونقد. وهذه الشركة يظهر أنَّها تربح أرباحاً جسيمة، لأنَّها قلَّما تدفع بقطع معدنية، وأوراقها المالية تُتداول في كل المملكة، كأنَّها فضة مضروبة نقداً.

وبإزاء البنك المذكور عمارة أخرى هي «البورصة» وكل التجار يجتمعون فيها، كل يوم، لعقد صفقاتهم، وسماع أخبار تجارية وأخبار سياسية من جميع أقطار العالمين.

والأرباض ألّتي تعد، كما قلت آنفاً، قسماً من أقسام لندن، قائمة على الضفة الجنوبية لنهر التاميز وتتصل بعامَّة المدينة بثلاث قناطر فخمة من الحجارة، طول كل قنطرة زهاء ربع ميل، والدولة تنشئ الآن أسفل من ذلك، في موضع يُسمَّى «كرافيسيند» جسراً عجيباً إن صح أن يُسمَّى كذلك وهو أزج تحت الأرض يصل بين ضفتي التاميز، والتاميز في هذا الموضع عرضه كعرض نهر الكانج، وسيضاء الأزج بمصابيح ويمكن العربات أن تمر فيه في كل ساعة، ولا أعلم البتة «مشروعاً[2]» جريئاً شرع فيه أجرأ من هذا.

إنَّ كل السفن الأجنبية تصل إلى لندن في نهر التاميز، وقد اشتقت لتسهيل التجارة الداخلية قنوات تتصل بهذا النهر، من كل نواحي إنكلترا، وبهذه الوسيلة، تنقل من طرف من المملكة إلى آخر أثقل البضاعات، بأقل كلفة ممَّا لو نقلت على البر، وهذا ما يجعل في المستطاع بيعها بأسعار أقل من أجور النقل البري.

---

(1) الجهبذ عند القدامى يساوي رجل البنك اليوم بالتقريب. (المترجم).

(2) هو في الأصل «مشروعاً فيه» ثمَّ حذف الجار والمجرور كالمشترك والمحجور. (المترجم).

الفنون والعلوم في إنكلترا

في جميع الاختراعات الأوروبية الّتي لا يستطيع الرجل الآسيوي أن لا يثمن فائدتها يأتي قبل كل شيء ذكر المطبعة أعجب المخترعات، فبمساعدة هذا الفن يستطاع بوقت قصير أن ينشر بين الشعب ألوف نسخ من كتب ومقالات المؤلفين المشهورين، وتنتقل هكذا إلى الذرية من غير خطأ، كائناً ما كان، من الأخطاء الّتي تشوّه المخطوطات، كما هو مألوف، فإلى المطبعة يعود فضل نشرهم جرائدهم الأخبارية ولولا الجرائد لم تكن الحياة مطاقة، فجميع النّاس يقرؤونها من الأمير إلى الفقير وتطلع الجرائد كل يوم، ويبعث بها كل صباح إلى الأغنياء، والّذين لا يستطيعون المشاركة فيها يذهبون لقراءتها في المقاهي والمواضع الشعبية الأخرى، إنّ هذه الأوراق تشرح جميع ما يحدث في المملكة وفي البلاد الأجنبية وينشر فيها التفصيل الصحيح لجميع الوقائع الحربية الّتي تحدث في البر والّتي تحدث في البحر، والتباحث والتشاور في المجلسين وحالة الحصاد وأثمان الحبوب وجميع البضاعات الأخرى، وتعلن موت العظماء، ومولد النبلاء، وتعلن أيضاً للشعب أسماء ما ينفذ من القطع في الملاعب والمحاكي ومن يظهر فيها من الممثلين.

وبعد وصولي إلى لندن بأيام قليلة، أقيم احتفال في «فوكس هول» تصرف أجوره إلى الفقراء، وقد دعاني المديرون بكل أدب قبل أيام من الاحتفال إلى أن أحضره، ولما كنت مستعداً للمشاركة في عمل جيد وافقت على الحضور بكل سرور، وفي الحال أعلن في الجرائد أنّ الأمير «ميرزا»[1] سيشرف الاحتفال بحضوره حدائق «فوكسهول» ولما كانت هذه الحدائق في الجانب الآخر من التاميز ولم أزر قط هذه المحلة حدث ازدحام خارق للعادة بين الفضوليين، وكنت حين أذهب إلى البلاط أو إلى أحد من كبار الدولة، لا تغفل الجرائد عن ذكر ذلك في الغد، وقد وصفوني دائماً بأمير الفرس مع أنّي لم أتخذ على سبيل الحقيقة هذا اللقب في إنكلترا[2].

(1) يعني نفسه فقد أصبح الآن أميراً. (المترجم).

(2) جاء في الحاشية: ميرزا معناها أمير، فإن تبعت الاسم الحقيقي أو سبقته فمعناها من ذرية محمّد (كذا). وكلمة «خان» تعني ملكاً فارسياً (م).

ليس في الأرض بلاد فيها السياحة أهون منها في إنكلترا، فإذا عرضت للإنسان أمور مهمة قاهرة احتجز محلاً في «عربات البريد» وانتقل في ستة أيّام أو سبعة إلى مسافة أكثر من «تسعمائة ميل» من غير أن يخشى شيئاً من الوقت السيء، وهذه العربات تدفع ضريبة إلى الدولة وتخدم جميع طبقات الشعب، وتوجد أمثالها في فرنسا وسائر أقطار أوروبا وليس في قطر منها للمسافر من العناية به ما له في إنكلترا، ففي إيرلندة كنت أشكو من كثرة ارتجاج العربات ومن فظاظة سُواق العربات، على أنَّ ذلك في فرنسا أوحش وأوخش.

فالطعام والغلات ألّتي هي أعم شراءً غالية جداً في إنكلترا، فالفقير فيها جدُّ تعس، إن كان له بعض الاشتهاء والابتغاء للحم، فالليفر من اللحم ثمنه عموماً، سبعة بنسات ونصف، وأربع ليفرات من الخبز ثمنها خمسة عشر بنساً والبيرة المضاعفة أو بورتر ثمن البنت[1] منها خمسة بنسات، وثمن الخضراوات والفواكه يختلف على حسب الفصل.

والإنكليز يخصِّصون مبالغ عظيمة بصيانة «بيوت الزرع الحارة» ألّتي فيها نباتات وفواكه في منتصف أشدّ البرد، ويقدِّمون على موائد الأغنياء فاكهة «الأناناس» والبطيخ وحاصلات أخرى من المنطقة الحارّة، ولنقل ونحن في طريقنا إنّه لم يستطع واحد من أعاظم أباطرة الهند بكل قدرته واستطاعته أن يستنبت في بلاده الكشمش والكرز «حب الملوك» أشهر فاكهتين في أوروبا.

ويعود أعظم جزء من ثروة الإنكليز إلى فضل ملاحتهم وكذلك استيلاؤهم في كل وقت على بلاد أعدائهم من غير أن يعرضوا أنفسهم لأخطار جسيمة، والفرنسيون بالضدّ منهم فمع جيش لجب لهم وجنود شجعان لا يستطيعون أن يضرُّوهم لأنَّ الإنكليز تحميهم مضارب مدفعيتهم الطافية[2] ولا يسعني إلّا الإعجاب بالفن ألّذي يصنعون به سفنهم والقواعد ألّتي ابتدعوها لحفظ الصحة والقانون ألّذي يطبقونه في سفنهم[3] والخبر

(1) البنت كيل قديم. (المترجم).

(2) يعني ألّتي في سفنهم الحربية (م).

(3) الرحالة مفتون بالإنكليز وبكل ما هو إنكليزي. (م).

الآتي يمكن أن يصور الدم البارد في هذا الشعب: حكى لي اللورد «تينماوث» أنه في رجوعه من الهند إلى بلاده، عندما كان في مستوى الكاب وبون اسبيرنس سقطت الصاعقة على الصاري الأكبر لسفينته والتهبت النَّار في الحال في أشرعة السفينة وقلوسها[1] وقبل أن يستطاع إطفاؤها كان الصاري قد أكلت عامَّته النَّار، ومع ذلك فالملاحون، اجتهدُوا بفعاليتهم وبراعتهم معاً أن لا تصيب ألسنة النَّار الأشرعة الأخرى، وأجزاء السفينة السالمة، جرى كل ذلك بهدوء بحيث لم يلحظ اللورد «تينماوث» الحريق وكان في حجرته مع أسرته إلَّا حينما صعد ظهر السفينة.

وفي الحرب الأخيرة كان قيصر روسيا وملك بروسيا وملك الدانمارك وملك السويد غاضبين على الإنكليز لأنهم كانوا يزعجون سفنهم، بحجَّة أنها كانت تحمل بضاعة فرنسية وصمَّمُوا باتفاق عام بينهم أن يعاقبُوا البحرية البريطانية إن استمرت على هذا الأسلوب، فاستولوا على جميع السفن التجارية البريطانية، الَّتي كانت في موانيهم ومنعُوا منعاً واضحاً إصدار بضاعة من بلادهم، ولما بلغ الإنكليز هذا الخبر، كان الارتعاب فيهم عاماً شاملاً ولكن الحكومة لم تظهر خوفاً كائناً ما كان، وإنَّما أمرت اللورد «نلسن» بالتطويف في البحر الشمالي في خمسين سفينة بحرية بمسامتة السواحل لدول هؤلاء الملوك والاستيلاء على جميع سفنهم الَّتي يلاقيها أو إحراقها أو إغراقها للانتقام والثأر بما أهينت به البحرية البريطانية. فصعد اللورد «نيلسون» إذن مع أسطوله حتَّى مدخل بحر البلطيق، فقاومته الحاميتان اللتان في الحصنين اللذين يحميان ساحل الدانمارك وساحل النرويج، والسفن الكبيرة الَّتي كانت قريبة من الساحل مقاومة عنيفة ولكن الإنكليز اعتنفوا أخيراً المرور، وساقوا سفنهم إلى مقابل «كوبنهاك» عاصمة الدانمارك وهناك أرسوها. وإذ ذاك أخذوا في رمي المدينة والميناء بالمدافع، فلم يذعن لهم رجال المكس، ولم تنكل مهارتهم ولا شجاعتهم، وكان الظفر وقتاً طويلاً مشكوكاً فيه وفقد الإنكليز «ستة آلاف رجل» وأصيبت عدَّة سفن من سفنهم بأضرار شديدة، ولكنَّه مع ذلك كانت عاقبة

---

(1) القلوس جمع القلس وهو حبل السفينة الغليظ. (المترجم).

خصومهم الاستسلام والاعتراف ببريطانيا ملكة البحار، وأعيدت إلى الإنكليز جميع سفنهم التجارية، وكان قد مات إمبراطور روسيا في أثناء هذه الأحداث والملوك الآخرون أذعنوا للشروط الَّتي أملاها الغالبون عليهم، ومنذ هذا العصر، بدأ الإنكليز ينظرون باحتقار إلى جميع بحرية البلاد الأجنبية.

وفي سنة «1801» كانت للبحرية الملكية (البريطانية) «ثمانمائة سفينة وثلاث سفن حربية، تحمل الواحدة منها من ستة عشر مدفعاً إلى مائة مدفع، لأنَّ عندهم كثيراً من الخشب والمواد والآلات في المملكة فيستطيعون أن يصنعوا بهما أيضاً عدداً مساوياً لما عندهم سابقاً، أمَّا السفن التجارية الإنكليزية فالله وحده يعلم عدتها.

وصناعة البحريّ لا تقتصر على إكسابه الشرف بل تُربح وتنجح جداً لأنَّ جميع السفن المعادية الَّتي يُستولى عليها تصبح ملكاً للغالب المستولي، وهذه القاعدة لا يستثنى منها إلَّا في حالة يكون الاستيلاء فيها حقيقاً بأن يقدم إلى جلالة الملك، وحينئذٍ يقدم المستولى عليه إلى الدولة مقابل ثمن معقول. وإنَّ السفينة «فيكتوريو» الَّتي ركبها «لكورن» في سفره إلى القسطنطينية كانت سفينة فرنسية استولى عليها أسطول اللورد «دنكان».

وفي إنكلترا عدَّة «دور صناعة» ملكية لصناعة السفن وإصلاحها وترميمها، والاثنتان العظيمتان هما «بورتسموث» و«ولويج»، والأولى مشهورة أيضاً جداً بكونها ميناءً يجتمع فيه الأسطول، عندما يستعد لبعث حربي، ولما كانت «دار الصناعة» هذه قائمة على مسافة كبيرة من لندن لم أستطع رؤيتها، ولكن صديقي الضابط «بيج» كان له فضل إراءتي بتفصيل «دار صناعة وولويج» وقد رأيت فيها عدَّة سفن كبار في أثناء صنعها، وكثيراً من الخشب والحديد والخيش «الكنفاص» وغيرها، بحيث لو استمرت الحرب عشر سنين لم يحتج الإنكليز أن يعملوا ذُخراً ومِيَراً جديدة. ورأيتهم يصبون كرات، وقد أدهشتني خاصة طريقة ثقب المدافع وصنعها، ويستخدمون دولاباً تحركه ماكينة يحرّكها البخار، والعمل جدّ يسير بحيث يستطيع صبي أن يقوم به.

والجيش الإنكليزي مؤلف من المُشاة والفرسان والمدفعية، وهو كثير العدد ومدرّب أحسن التدريب، وإن كان مفرقاً في جميع أصقاع الإمبراطورية فلما يُرى منه أكثر من عشرين ألفاً أو خمسة وعشرين ألفاً مجتمعين، وهذا أيضاً لا يكون إلّا في اليوم الّذي يستعرض فيه الملك وقائد القواد الجنود، ولما كنت في لندن كانت جميع الجنود الّذين في النواحي والأطراف في عدَّة خمسة وعشرين ألفاً قد صدر إليها الأمر بالاجتماع على مقربة من «ويندسور» ليستعرضوا الملك. والمستر «كليف» وقد ارتحلنا في فجر اليوم المعين للاستعراض فبلغنا «ويندسور» في مساء اليوم، وفي الغد بعد التصبّح ذهبنا راكبين فرسين إلى موضع العرض فوجدنا جمهوراً عظيماً من النظارة ونحواً من خمسة آلاف عربة ملأى من نساء جميلات أنيقات الملابس فاصطفت الفرق المختلفة على شكل دائرة وقعد الملك في الوسط ومعه الأمراء، وضباطه الجنارلة[1]، فسلمت الفرق على الملك، بإطلاقات مدفعية عدَّة وبندقيات مواصلة الإطلاق، ثمّ انتظموا فرقاً ومرّوا من اتجاه «دوق يورك» وكان من سعادتي أن كنت جالساً بالقرب من سموّه الملكي، وبإزاء جوقة من الموسيقيين تابعة للكتيبة الثالثة من الحرس، وقد عزفت قطعاً ساحرة، ولما انتهى العرض رجعنا إلى لندن.

وسباق الخيل يجتذب كل المسنين في «نيوماركت» جمهوراً عظيماً من الشعب، ولإمكان أن يرى الإنسان ما يشبهه في كلكتا، أغفلت تفصيل أمره.

و«البرج» هو في رأيي أحد المآثر المجسمة العجيبة جداً في لندن وقد طاف بي الضابط «براثويت» في جميع داخل الحصن هذا. وأدخلني أوّلاً الحير[2] الملكي وفيه رأيت أسُوداً وأنماراً وفهوداً وعدَّة حيوانات مفترسة أخرى لا أعرف أسماءها، وزرنا الكنز بعد ذلك، وفيه أرونا التاج والصولجان وجميع جواهر الملك وجواهر الملكة، وقد لحظت خاصة قطعة عقيق وزمردة، كان ثمنها «مائة وخمسين ألف ليرة استرلينية» ومقداراً كبيراً من الألماس، وحجارة أخرى ثمينة، وكل الوقت الّذي مكثنا فيه في هذا

---

(1) الجنارلة جمع جنرال، ومن الخطأ جمعه على جنرالات، كما هو شائع. (م).

(2) الحير على وزن الدهر هو ما يُسمّى اليوم «حديقة الحيوانات». (م).

البهو، كان الباب مغلقاً بالمغلاق، وإن كانت الأشياء جميعها في خزائن ذات شبابيك. ومن هنا أفضينا إلى «الارسنال = دار الصناعة» وفي وسطها حشد من المدافع من كل حجم، ومنها اثنان طولهما «خمسة وعشرون قدماً»، والبهو الّذي هو تحت دار الصناعة، يمتد ربع ميل، وفيه، كما قيل، لجُم وسروج وعدد خيل وما أشبه ذلك، لستين ألف فرس للفرسان والمدفعية.

ودار الصناعة تقدر طولها بسبع مائة قدم، وهي مملوءة بندقيات وحراباً ورماحاً وسيوفاً وفروداً «طبنجات» لجيش عدته مائة وعشرون ألفاً، والكل منظَّم على أبدع طريقة، وفي آخر البهو قسم من المبنى فيه تماثيل ثمانية عشر ملكاً من ملوك إنكلترا، كل منهم على فرسه، مع لأمة الحرب الّتي كان يحملها في حياته، ويظهر كأنّه متأهب للقتال، ويقود كل حصان سائس[1]. واللئام[2] الّتي ذكرتها عتيقة جداً، ولم تصنع من سلاسل كالّتي في الهند ولكنّها مؤلفة من قطع من الحديد، تغطي كل عضو من البدن، ومصنوعة على شكله، مثل ملبس من ملابسه، والوجه محفوظ بغطاء، واليدان محفوظتان بقفازين من الحديد، بمفاصل سهلة للثني والطيّ، تدع جميع الحركات حرة، ويستطيع الإنسان معها حتّى الكتابة، وزعموا أنّ الملوك قديماً لم يكونوا يتركون هذه اللئام إلا للمنام.

الميكانيك في إنكلترا

سهّل الإنكليز أكثر أعمالهم وأشغالهم تسهيلاً وافراً باستخدامهم «الميكانيك»، وخفضوا كثيراً أسعار البضاعات بتلك الصناعات والآلات، ولو استعمل أرباب المعامل الإنكليز في معاملهم، كما هو مستعمل في بلاد أخرى، خيلاً، وثيراناً صغاراً أو رجالاً، لكانت أثمان بضاعاتهم عالية بإفراط. وأمثلة خاصة تكفي في إيضاح ما أنا بسبيله، فالإنكليز جدُّ مهتمين برعاية ميكانيكهم بحيث يضحّون راغبين بمبالغ عظيمة لإنشاء مكاين.

(1) هذا يعني أنّ للسائس تمثالاً أيضاً. (م).

(2) اللئام جمع اللأمة. (المترجم).

والفرنسيون بالضد منهم[1] فهم وإن كانوا علماء في الرياضيات يجتزئون باستعمال اليد في العمل كلما أحدث لهم تطبيق الميكانيك صعوبات وأعسارا.

وأكثر هذه المكاين ساذجية الأرحاء مائيها وريحيّها، لطحن الحنطة، وكلا النوعين مستعمل في الهند، والأرحاء اليدوية الوحيدة في لندن مصنوعة من الحديد وتستعمل لطحن القهوة والفلفل، وأحسب أن أرحاءنا الحركية يمكن أن تكون مفيدة في الجيش، وفي الحقيقة أنّه قد يحدث غالباً أنّ كتائب جائعة، بعد أن تستولي من العدو على ذخائر من الحنطة، ليست لها البتة وسيلة لطحنها واستخراج دقيق للخبز.

ومذاوب[2] المعدنيات نوع آخر من الصناعات الميكانيكية. ففيها عدَّة دواليب بحجوم خارقة للعادة يحركها البخار، وهذه الطريقة تتبع لصنع المدافع وصنع الأناجر وعمل أعمال مهمة أخرى، لا يستطاع القيام بها بيد الإنسان.

وبميكانيك كهذا استطاع الإنكليز، أن يضربوا أوراقاً جد سخيفة من الصفر والرصاص اللذين يمدونهما ويبسطونهما كما يريدون، ثمَّ، إنَّ النَّاس من جهة أخرى يجهلون فنَّ إعداد السمنت الكظوم[3] ولذلك يغطون بأوراق[4] من الرصاص المنازل الَّتي سطوحها مفطحة ومستوية.

لم يثر إعجابي أشد الإثارة إلّا مصانع الإبر، فحفنة من الفولاذ تطرح تحت دولاب من جانب فيعيدها من الجانب الآخر إلى هذه الأشكال من الخيوط المحولة، كل خيط بطول مناسب للمراد، وهذه الأبر الناقصة، يجمعها في زنبيل صبيّ صغير وينقلها إلى شخص آخر شغله أن يثقبها ويؤلّل أطرافها، فهاتان العملتان يُقام بهما بسرعة لا تتصور.

---

(1) الرحالة كان مفتوناً بالإنكليز كما ذكرنا، وإن كان قد ذكر مساوئهم في رحلته هذه، وهي تأتي بعد هذا في أصل الترجمة. (المترجم).

(2) المذاوب جمع «المذابة» وهي المعمل الَّذي تذاب فيه المعدنيات. (م).

(3) الكظوم الَّذي يمنع نفوذ الرطوبة. (م).

(4) أراد صفائح. (المترجم).

ومكاين الغزل، أدهشتني هي أيضاً دهشاً ليس بأقل من ذاك، فبحركة دولاب كبير تتحرك مائة دولاب أصغر منه وتفتل في الوقت نفسه ألوفاً من الخيوط جدّ مفصولة ليستطاع حياكة نسيج موسولين «موصلي» جيّد منها، ويكفي عدد قليل من النّساء والأولاد لخدمة هذه المكينة، المقتصرة على تقديم القطن إليها وعقد الخيوط عند انقطاعها، ومع هذا يجب الاعتراف بأنَّ النسيج الَّذي ينسج من هذه الخيوط لا يوازي النسيج الَّذي يؤتى به من الهند، ولا يبيّض كإبيضاضه ولا يدوم كدوامه، وتلك محذورات ناشئة، كما أحسب، من أنَّ الخيط مفتول بإبرام.

وقد صحبت صديقي المستر «كيلبي» إلى معمله للبيرة المُسمَّاة «بورتر» الَّذي يحتوي على عدَّة ألوف براميل، وأنبوب النَّار في معمله هو في أكبر حجم معروف، وقال لي: لو لم تكن لي هذه المكينة لكنت مضطراً لأن أستعمل دائماً للاستبدال، خمسين فرساً، فترفع النفقة عليها والرواتب المالية للسواس سعرَ هذه البيرة إلى مقدار فاحش في الزيادة يمكن أن يحدث هيجاناً في النَّاس.

ومعامل الكاغد في إنكلترا مشهورة بصناعة كل نوع من الكاغد، وقد أكدوا لي جهاراً أنَّهم يستطيعون أن يصنعوا ورقاً مساحته عشرون قدماً مربعة، وفي أثناء إقامتي هناك اخترعوا آلات لصنع كاغد جيد من التبن العام.

والمكينة المائية الَّتي تستعمل لإجراء[1] الماء إلى لندن هي عمل يورث منظره الإعجاب والدهش معاً، فبهذه الآلة البديعة يضخون من نهر التاميز كمية من الماء كافية في أن تجعل حوضاً عالياً جداً ملآن دائماً، ومنه يمر الماء في حشد من القنوات والأنابيب الرصاص إلى جميع محلات المدينة، والماء على مبتغى الشعب، موزع بين المنازل، حتَّى الطبقة الرابعة[2]. وفي المدينة غير هذا الحوض الحوض المخصص بمدّ المدينة،

---

(1) سموا الإجراء «إسالة» والإجراء هو الصحيح ولعلَّ صدوفهم عن الإجراء، كان بسبب مديرية الإجراء الَّذي هو «التنفيذ». (م).

(2) ذكر الرحالة آنفاً أنَّ دور لندن ذات أربع طبقات في الغالب. (المترجم).

ففي كل ميدان وكل مربعة أنبوب يمكن أن يكبس كبساً خفيفاً باليد فيجري منه الماء، وهذا الاختراع ساذج جداً، ومفضل على استعمال الآبار.

ثمّ إنّ الإنكليز يتقدّمون بميكانيكهم حتّى الاستعانة به في خدمة مطابخهم، فقد اخترعت في الزمن الأقرب آلة لتقطيع اللحم وتفرية البصل، وعلى العموم ليس الصبر بفضيلة عند الإنكليز، فهم لا يحبون البتة الاشتغال بالأشياء التافهة، نضيف إلى ذلك أيضاً، أنّ التزام خادم واحد في الخدمة بإنكلترا يكلف في العادة ثماني مرّات ما يكلفه مثله في الهند.

النقش والرسم

لما كان فن الطباعة الآلية معروفاً جداً في كلكتا لم أرَ من الواجب الكلام على موضوعها، وفي إنكلترا فن آخر، شاع استعماله في أوروبا فأنا محاول وصفه، أريد الكلام على فن النقش، النقش على كونه تحت رئاسة المصور إنّه يكثر كما يشاء نسخ الألواح التصويرية، بتحويلها في الغالب إلى ألواح لطيفة[1]، وعلى ذلك يستطيع الإنسان أن يُعدّ صفيحة من النحاس ويطلي وجهها بطبقة خفيفة سخيفة من الشمع أو غيره من المواد المشابهة له ويبدأ باختطاط خطوط خارجية فوق هذا الرسم بقلم من معدن الموليبدين ثمّ يرسم بآلات مؤثرة جداً، في النحاس أوّل صورة مرسومة في الشمع[2]، ويمكن أن يؤتى هذا العمل باستعمال ماء الفضة: فبُعيد رسم الخطوط بقلم ممدود بهذا المائع تنطبع في النحاس، ويرسم الراسم ما يريد، فإذا تمّ الرسم على الصفيحة استطاع الراسم أن يرسم نسخاً على نحو إخراج النسخ من الكتب، وإن أراد الراسم أن تكون الرسوم ملونة لكي تزيد مشابهتها للألواح الّتي تمثلها، فما أرخص ذلك! إنّه يكفي في ذلك عمل عدّة نساء وعدّة صبيان، وبذلك وعلى هذه الطريقة يستطيع الإنسان أن يحصل بكنيه واحد على نسخة لوح تبلغ قيمة أصله ضعف هذه النفقة مائة مرّة.

(1) لطيفة أي صغيرة عند فصحاء الأئمة. (م).
(2) هذا العمل الفني غامض في الترجمة الفرنسية لأنّ ترجمة الأصل تستوجب علماً حقيقياً بهذا الضرب من الرسم. (المترجم).

إنَّ المعامل الّتي فاق بها الإنكليز جميع البلاد الأوروبية الأخرى هي معامل السكاكين وكل نوع من مصنوعات الفولاذ، وكذلك ساعات الجدران وساعات الأيدي، والأجواخ والحرير الأملس والحرير من الأنواع الأخرى والزجاج والبندقيات والطبنجات «الفرود» وأدهان التزويق، فكل هذه الأشياء مطلوبة من أطراف الأرض المختلفة وتباع بربح وفير.

وإنَّ دكاكين أهل «البنادق العتيقة» بلندن يستأهلون التفاتاً خاصاً من السائح، لأنها حاوية على العموم أشياء كثيرة جدّ معجبة، فقد رأيت فيها بلاتيناً قريباً زمن اختراعه، حافظاً من كل رطوبة، البارود الّذي في سبطانة البندقية المغمورة بالماء، مدة أسبوع واحد، وقيل أيضاً إنَّ البندقية يمكن معه أن تشتعل نارها وهي في الماء.

إضاءة الأفراح وعيد السلام

وقد اعتاد الإنكليز إضاءة لندن في ذكرى ميلاد الملك وذكرى ميلاد الملكة، وحين يصل إلى بلادهم خبر ظفر كبير لهم وفوز خطير على أعدائهم، ووقت إعلان السّلام، ومع أنّي كنت في الهند قادراً على أن أرى كثيراً من الإضاءة وأنّي كنت في لكنو يوم زواج الوزير «علي» الّذي تبنّاه النواب الأخير فرأيت حصناً من القنا محيطه خمسة أميال، أنشئ من أجل ذلك الزواج بجميع بدناته[1] وأبراجه، وهو بكليته قد علته، ليلاً، أعداد كبيرة جداً من المصابيح بحيث استوجب القيام عليها عناية عشرين ألف رجل، غير أنّي أعترف بأنَّ تلك الإضاءة كانت على نمط واحد فلا تشبه أضواء لندن فيما تحدثه بأنواعها من الابهاج والمسرّات.

وكل مصابيح إنكلترا الصغار[2] مصنوعة من الزجاج بسبب اضطراب المناخ، ومنها ما هو ملون بألوان مختلفة، وهم يعلقونها إمّا على مسامير مثبتة في الجدار وإمّا على مرافع من الخشب مزينة بنقوش رمزية، فإذا

---

(1) البدنات جمع بدنة وهي في اصطلاح التحكيمات القديمة نتوءات ضخمة في أسوار الحصون والقلاع والمدن تقوم عليها الأبراج. (م).

(2) أراد مصابيح الزينة والاحتفال. (م).

أوقدت تلك المصابيح، فاختلاف ألوانها يمثل شكلاً ما أو كتابة ما بحسب ما أريد، ورأيت على هذا النحو صورة الملك وصورة الملكة جالسين على العرش، وتيجانهما على رؤوسهما، وكل يضيء داره بنفقات منه، وهذا يؤدي إلى أنَّ الشعب يظهر عواطفه بهذه الأشياء الرمزيَّة الَّتي فيها أصالة في الغالب، وفي أثناء إعلان السّلم الأخير[1] الَّذي سبقه غلاء الأسعار الفاحش في كل ضروريات الحياة، صوّر أحد التجار خبزاً وسلة حمّال ممالة وعندها هذه الجملة «إنا ساقطون» يعني بذلك خفض السعر، فهذه الجملة الرمزية أحدثت أملاً وبهجة في نفوس العامَّة. وهذه الإضاءات ترى من وسط ميدان تلتقي فيه من اتجاهات مختلفة أربعة طرق أعاظم تفوق جميع ما رأيته من هذا الضرب، وازدحام المتفرجين ومنهم في العربات ومنهم مشاة جدُّ عظيم في هذه المواسم بحيث اضطررت إلى الوقوف ساعة في وسط شارع من أوسع الشوارع لطريق أوكسفورد وشارع سنت جيمس من غير أن أستطيع للتقدم غلوة سهم، وفي تلك الحال لم يكن رعبي قليلاً من إطلاقات البندقيات والنَّار الصناعية الَّتي تطلق من كل جهة من حولي.

وفي اليوم الثالث من أيَّام العيد والابتهاج اللذين وقعا من أجل السلم سمعت قائلاً يذكر أنَّ سفير فرنسا المسيو «أوتو» أنفق ألفي ليرة استرلينية على الاستعداد لإضاءة عظيمة تكون في مساء ذلك اليوم وقد صممت اتقاءً للزحام أن أذهب فأرى ذلك الاستعداد نهاراً مع إيقاني بأنَّ ذلك الاستعداد سيكون له منظر آخر مختلف جداً عند الإضاءة، واعتقدت أنِّي سأرى منه ما يكفيني في ارتئاء رأي حق في نتيجة هذا العيد مع اتقاء الدوس، فسلكت من أجل ذلك طريقاً نحو ميدان «بورتمان» وفيه يسكن السفير المقدم ذكره، ولكني عند اقترابي من هذا المكان رأيتُ أفواجاً من النَّاس يصبون الشتائم على السفير الفرنسي وعلمت في الحال أنَّ السبب في ذلك الغضب العظيم هو أنَّ السفير اختار جملة رمزية وعلقها هذا نصها «سلم واتفاق» وكان عدَّة جنود قد ركزُوا بالقرب من دار السفارة، غلبت شجاعتهم على عقولهم أو

---

(1) سيذكر الرحالة الحروب الأوروبية الواقعة قبل وصوله لندن وهذه السلم بعدها عند الكلام على الاحتفال بها بعد وصوله إلى لندن. (المترجم).

كانوا أمهر باستعمال السيف منهم باستعمال القلم اعتقدوا أنهم يجدون في هذه الجملة رمزاً إلى الطعن على الإنكليز لأنَّ معناه أنَّهم لم يرتضوا السلم إلّا لأنهم كانوا مغلوبين، وبسبب ذلك ابتدؤوا بتحطيم المصابيح، وفوجئ المسيو أورتو بهذه السيرة النكيرة من الإنكليز فخرج إليهم واجتهد في أن أسمعهم قوله: إنَّ كلمة «الاتفاق» لا ترمز أبداً إلى أحداث الحرب، وإنَّما هي مُرادفة حق الرادف «الاتحاد والصداقة» فلم يقنعهم هذا الإيضاح ولم يهدأوا إلّا بوعده إيّاهم أن يستبدل بعبارته المقدم ذكرها هذه العبارة «السلم والصداقة».

وإذ كنت مخفقاً في هذه الجولة الصباحيَّة عزمت على اقتحام الحظر والذهاب ليلاً إلى الميدان لأرى تلك الإضاءة المزمعة، وبين الساعة الحادية عشرة ومنتصف اللَّيل خرجت من مثواي وحاولت سلوك طريق أوكسفورد ثانية، ولكن محاولتي كانت من غير جدوى لكثرة ازدحام العربات والمشاة فيه، فرجعت أدراجي ثمَّ مرقت من درب عرضاني أفضى بي إلى طريق يؤدّي إلى الميدان المذكور آنفاً، وهناك اضطررت أن أتمسَّك بسياج من القضبان الحديد، فكنت من هناك أخطو خطوة أو خطوتين، على حسب سنوح الفرصة، حتَّى وصلت إلى الموضع المُراد ولكن الزحام كان جدّ عظيم بحيث مُزقت ملابسي وفقدت عصاي. وكانت النِّساء يصرخن صُراخاً مؤلماً، خوفاً من الاختناق، ولم يشفق عليهن أحد وأكثرهنَّ فقدن قبعاتهنَّ وأقراطهنَّ وقلائدهنَّ. وفي ملتقى الحوادث هذا رأيت من الصواب العود إلى مثواي ولكن يا للأسف فقد كان العود أعسر وأشق من التقدُّم، على أنّي بعد بذلي صادق مجهودي استطعت أن أنفذ إلى زاوية من الميدان، في حيث أكون أضمن للراحة فصمَّمت على الانتظار لأنسلَّ حتَّى يقلّ عدد المتفرجين، ثمَّ رجعت أخيراً بعد أن أعطيتَ نفسي سؤلها من رؤية إضاءة المسيو أورتو، تلك الإضاءة الَّتي ظهر لي بعد كل هذا أقل تألقاً وإشعاعاً من إضاءة المستر هوب في ميدان كافنديش.

إنَّ أصحاب دكاكين لندن وتجارها، في الأعم الأغلب، مؤدبون مهذبون، آدابهم جدُّ سامية، بحيث لا يتفق لهم أن يجيُبوا المبتاعين بخشُونة، وإن كانوا عسربن ومزعجين وقد حكي لي أنَّ رجلاً ظريفاً دخل

بعض الدكاكين يوماً ليختبر صبر التاجر أو ليمزح معه واستباعه[1] جوخاً، فنشر له التاجر عدّة قطع منه، فلم يختر منها شيئاً فأعادها التاجر إلى مواضعها وجاء بقطع أخرى، فقال له الظريف: إنّها ساذجة، ولغيرها قال له: إنّها غالية جداً ولم يعجبه لون من الألوان وبعد أن أشغل الدكان أكثر من ساعة واحدة، وقع اختياره على قطعة من المعروضات الأخيرة سعرها: كل ذراع بخمسة وعشرين شيليناً، وانتظر التاجر أن يكون المقدار الّذي يريد ابتياعه منه في الأقل ست أذرع أو خمساً، ولكنّه دهش حين رأى أنّ الرجل الظريف المبتاع الحصيف يخرج من جيبه شيليناً واحداً ويرجو منه أن يقطع من الجوخ ما قيمته شيلين واحد. فزمّ التارج ضجره وأخذ الشيلين فوضعه على قطعة الجوخ وقوّره بمقدار الشيلين فأعطاه الرجل الظريف وتم التبايع بينهما على هذه الصورة، وسلّم أحدهما على الآخر باحترام.

وقد اختلّت ساعتي فعزمت على ابتياع ساعة أُخرى، ثمنها أقل من الأولى، فدخلت دكان ساعاتي واستعرضته عدّة ساعات من ساعاته، فأعجبتني واحدة منها ذكرت اسمي للساعاتي ورجوت منه أن يترك الساعة معي حتّى الغد، فإن وافقت مأربي دفعت إليه ثمنها وإلّا أعدتها إليه، ومع أنّي غير معروف حقاً عنده[2] وافق على طلبي وأخذت الساعة، ليختبرها واحد أو اثنان من أصدقائي، فاتفقوا على أنّها ساعة رديئة ونصحوا لي بإلحاح أن أعيدها إلى التاجر، غير أنّ لطف الرجل أخذ بمجامع قلبي فدفعت إليه ثمنها على رداءتها.

وهذه الدكاكين قد اعتاد أصحابها أن يرسلوا بالشيء المبتاع إلى مثوى شاريه وإن كان ثمنه قليلاً[3]، وكانت دار الشاري في الطرف الآخر من لندن، إنّهم يجعلون الاعتماد في الغالب يمتد شهراً أو شهرين لناس لا يعرفون من عاداتهم شيئاً، ويجري عليهم كثير من سرقات الاحتيال لبيعهم على هذا المنوال. وكانت سيّدة ذات فضل مفضول تسكن في الشارع الّذي

---

(1) استباعه: طلب منه أن يبيعه. (المترجم).

(2) هذا لا يناقض قوله «فذكرت أسمي للساعاتي» فإنّ المعرفة بشخص معرفة حقة شيء آخر. (م).

(3) يعني: لا يستحق هذا الاهتمام. (المترجم).

أسكن فيه، قد احتملت ديوناً كثيرة من هذا الضرب وانتقلت منه من غير أن تؤدّيها، فأمكن بُعيد ذلك العثور على مأواها، واستدعيت إلى حضرة قاضٍ من القضاة، ولكن أصحاب الديون رأوا أنَّ ليس لها وسيلة مالية فارتأوا أنَّ العدول عن مطالباتهم خيرٌ من تخليدها السجن، لأنهم يكونون في حالة سجنها ملزمين بإعداد وسائل معيشتها.

سِيَرُ الإنكليز

إنّي مُصوّر هاهنا فكرة توضح طريقة الإنكليز في استعمالهم للوقت، فدونك مجرى حياة الطبقة المتوسطة، فالواحد منهم يستيقظ بين الساعة الثامنة والتاسعة صباحاً، ويقضي في العادة ساعة واحدة في اللبس وينزل للتصبُّح[1] ويستغرق هذا ساعة أخرى، ومن هذا الحين إلى الساعة الخامسة مساءً ينصرف إلى أعماله وشؤونه، ثمَّ يتنزه أو يمتطي فرساً ويقدَّم له الغداء[2] في الساعة السادسة، وإن كان دعا إلى المائدة مدعوين ولو كانوا على قلّة، لم يغادروا المائدة ولا سيّما الرّجال قبل الساعة التاسعة ثمَّ ينضم الرّجال إلى النّساء ويشربون معهنَّ الشاي أو القهوة ويلعبون بالورق أو يقيمون نوبة موسيقية حتَّى الساعة الحادية عشرة وهي الحين الّذي ينصرف فيه جميع الحاضرين إلى حيث ينعمون بلذّة النوم. والأشخاص الأعزاب جرت عادتهم أن يذهبوا بعد العشاء[3] إلى دور التمثيل أو الدور الشعبية الأخرى وفيها يبقون حتَّى ساعة متأخرة، ومنهم من يعودون إلى دور اللعب، حتَّى يسلخوا هزيعاً صالحاً من اللّيل. والعامّة يستيقظون الفجر وينامون في وقت متقدم، والأشراف والطبقات العليا يتغدون جميعاً في الغالب بالساعة الأولى أو الثانية بعد الظهر ولا ينامون البتة إلّا بنحو هذه الساعات ليلاً.

وهذا الّذي ذكرته آنفاً ويخص تقسيم الوقت، ينبغي أن يفهم على وجه عام، وطول اللّيل وطول النّهار في إنكلترا مختلفان جداً بحيث تكون هذه

---

(1) ذكرنا سابقاً أنَّ التصبُّح هو أكل طعام الصباح كالتغدي للغداء والتعشي للعشاء. (م).

(2) هكذا ورد في الترجمة الفرنسية والظاهر أنّه أراد «العشاء» فأسيئت الترجمة. (المترجم).

(3) كانت «بعد الغداء». (م).

العادات خاضعة لاختلافات كبيرة، مثال ذلك: أنَّ الشّمس لا تشرق في قلب الشتاء إلّا بعد الساعة الثامنة ولا تغيب إلّا بعد الساعة الثالثة ممَّا بعد الغداء على التقريب، وينتج من هذا الاختلاف أنّه باقتطاع ساعتين للفجر ومثلهما للمساء يكون أطول نهار في الغالب تسع ساعات، وهذا يعني كون اللّيل خمس عشرة ساعة، والأمر بالضد في قلب الصيف فالشّمس تشرق بالساعة الرابعة وتأفل بالساعة التاسعة، فإذا اقتطعنا ثلاث ساعات للشفق[1] ينحصر اللّيل في أربع ساعات، وقد قيل لي بتأكيد إنّه ليس في الأصقاع الشمالية من هذه الجزيرة في منتصف الصيف ليل على التقريب، بسبب الشفق الّذي يضيء إضاءة تكفي في أن يقرأ الإنسان عليها كما يقرأ في واضح النّهار وذلك في الساعات القلائل الّتي تكون الشّمس فيها راقبة في الأفق، مع أنَّ اللّيل بالشتاء يدوم ثماني عشرة ساعة. وفي العموم يكون أقصر نهار بإنكلترا باليوم الحادي والعشرين من كانون الأول،، ومنذ ذلك اليوم حتّى اليوم الحادي والعشربن من أيار تزيد ساعات النّهار بالتدريج حتّى يتساوى اللّيل والنّهار، ثمّ تزيد ساعات النّهار حتّى اليوم الحادي والعشرين من تموز ثمّ تتناقص حتّى اليوم الحادي والعشرين من أيلول، وإذ ذاك يتساوى اللّيل والنّهار ثانية، ثمّ تتناقص ساعات النّهار بالتدريج حتّى رجوع اليوم الحادي والعشرين من كانون الأوّل.

والإنكليز ليسوا بوجه عام بميّالين إلى ألوان الأطعمة المتوبلة توبلة بالغة وغداؤهم في الغالب من اللحم المُغلى في الماء إغلاءً يسيراً أو المشوي، والأغنياء وأهل الطبقات العليا تصلح لهم على موائدهم ألوان مختلفة، أوّلها من الحساء والسمك والثاني من المشويات، أو المغليات أو المقليات وغيرها والثالث من البدينك[2] أو الفطائر أو الصيد، ثمّ يبسطون مقداراً عظيماً من الفواكه الّتي تُسمّى «ديسيسرت[3]».

والوجبات المعتادة في إنكلترا هي التصبُّح والغداء والعشاء ومع ذلك

---

(1) الكلمة الّتي ذكرها المترجم الفرنسي تعني عند اطلاق «الشفق» وقد وردت هنا مطلقة. (المترجم).

(2) لون يصنع من الطحين وعنب كورنث اليوناني. (م).

(3) هي فاكهة المائدة أو الخوان. (المترجم).

فقد اعتاد اللندنيون أن يدخلوا دكاكين المعجنّات السكرية، الّتي يخدم فيها نساء فواتن ويأكلوا بعض الحلوى بين التصبُّح والغداء. وفي شرب الشاي أو القهوة ليلاً يأكل الإنكليز مطرّيات بالزبد، حتّى ليمكن أن يُقال إنّهم اعتادوا أن يصيبوا في اليوم الواحد خمس وجبات ولكنّهم لكونهم لا يأكلون في كل مرّة إلّا باعتدال لا يستطيع إنسان أن ينسبهم إلى النهم والشراهة.

إنّ مشترعي القوانين الإنكليز اعتقدوا على صواب أنّ خير وسيلة لمنع النّساء من الاسترسال إلى لذّات محرّمة هي تعويدهن حياةً عاملة، فكل الأعمال الّتي لا تستوجب قوّة جسمانية ولا مجهوداً عقلياً فهي من حق النّساء وهن الذين يتولين إدارة الأمور الداخلية للدار وغيرها، وأسندت إليهن حراسة المخازن التجارية والدكاكين، وفيها تجذب فتنتهن وظرافتهن، في العادة، كثيراً من الزُّبن والزبائن[1]، أقول ذلك عن علم فقلّما كنت أمرُّ على دكان معجنات سكرية في ركن شارع «نيومان ستريت» من غير أن أستجيب للرغبة في صرف شيء من الدراهم، في تلك الدكاكين، يبعثني على ذلك إرادتي الالتذاذ بمحادثة شابة جميلة من الشواب اللواتي يتولين أمور تلك الدكاكين، أمّا الخدم الذكور فهم موكلون بخدمة المائدة وبالعناية بالخيل والماشية والغرس في البستان وإصلاح الأرض المستأجرة للزراعة وما أشبه ذلك، وليس شيء أحكم من تقسيم العمل هذا، إنّه يحفظ من الأسواء الّتي تنتج من الخلط واختلال النظام.

وعدا ما ذكرنا من القوانين ضبط المشترعون الإنكليز النّساء بسلوك سبيل في المعيشة رشيد جداً، فأوّل ذلك أنّه لا يدخل إليهن في دورهن أجانب أو أشخاص ذوو أخلاق توجب الشُّبهة والثاني أنّه ليس مقبولاً أن تخرج امرأة فتزور رجلاً عزباً إلّا إذا كان من ذوي قرابتها القريبة، وآخرها أنّ المرأة الحييّة لا تُرى ماشية في الشوارع والطرق من غير أن تمد ذراعها الى زوجها أو قريب من أقربائها أو يمشي خادم وراءها. ولا يجوز للنّساء البتة الخروج ليلاً وهن لا يجرؤن، من غير صحبة أزواجهن، أن ينمن حتّى في دور آبائهن وأمّهاتهن، أضيف إلى ذلك أنّ الشرف عند الإنكليز جدّ رقيق

(1) الزبن جمع الزبون للرّجال والزبائن جمع الزبون للنّساء. (م).

حتّى ليرى الأب والأم وجميع الأسرة أنفسهم مدنسي الشرف بسوء سيرة ابنتهم أو أختهم ثمَّ إنَّ القوانين الإنكليزية أباحت للرجل أن يؤدب زوجه بالعصا، على شرط أن لا يحطم عضواً من أعضائها، وهذا الخوف المذكور مضافاً إلى حبسهن في مثاويهن أثّر تأثيراً عميقاً في النّساء الإنكليز بحيث لا يجرؤن أبداً أن يهبن لألسنتهن حرية مفرطة. ومع هذه الوسائل من وسائل الإصلاح فالمرأة المتزوجة إذا تدنس عرضها تبرّأ منها في الحال جميع ذوي قرباها واجتنبها النّاس، والزوج المهتوك العرض أوجب له القانون أن يستحوذ على الأملاك والمصوغات والزينات الّتي لزوجته المدنسة العرض، وله أن يمنعها من رؤية أولادهما من دار الزوجية، وإذا قدَّم البيّنة القضائية المثبتة جريمة خيانتها استطاع الحصول على الحكم بالطلاق وهو الّذي يفرق بينهما تفريقاً مبيناً، واستولى على بائنتها وحصتها في الشركة المالية، وفذلكة جميع ما ذكرت هي أنَّ الأنكليزيات مع الحرية الظاهرة الّتي يتمتعن بها، وبرغم المدائح الّتي يسكرهن بها المادحون ضيّق عليهن القضاء الحكم أشد التضييق، ورقبهُن أشد الرقابة، وهنَّ بالضد من المسلمات اللواتي لا يظهرن في المجتمعات، المقصورات في دورهن وراء الستور الكاتمة، فرجالهن يجيزون لهن الخروج متبرقعات والذهاب إلى الحمامات، كنساء الأتراك في الدولة العثمانية، ولزيارة آبائهن وأمّهاتهن وصديقاتهن والنوم خارج دار الزوج عدّة ليال متوالية، فهن أكثر حرية واستطاعة في أفعالهن من الإنكليزيات، وهذا ما يعرّضهن كثيراً للسقوط في الفتنة الملازمة لطبيعتهن السريعة الانكسار، والإنكليز يعدُّون الحرية كالمعبود فكل واحد من رعايا الجزر البريطانية لا يكون مسجوناً أو معاقباً على حسب هوى القاضي أو تحكمه ما لم يكن قد اجترح مخالفة القانون وفي كثير من الأحوال، من غير شك يفقد الواحد منهم حريته بتهمة يسيرة، ولكن حياته لا يمكن أحداً أن يفقده إيّاها إلّا بحكم البراهين القانونية الحقيقية المادية.

وقد حكي لي أنَّ أمير الغال كان يتنزه ذات يوم فدفعه رجل طائش بمرفقه فعاقبه الأمير على وقاحته بأن ضربه عدَّة ضربات بخيزرانته، فشكاه الرجل إلى القضاء واستصدر عليه حكماً بمبلغ من المال جليل على سبيل التعويض من ذلك الأذى.

إنَّ الحاكم «هاستينكز» جاءني زائراً في حين تزويق باب المدخل من داري، وكان المزوّق قد جمع أتوار التزويق الملونة و«فرشها» على مرقاة من درج الدار، لينصرف بعد إتمام العمل، فلم ينتبه الحاكم للتزويق اللمين ورفع مطرقة الباب ووسخ بالأصباغ قفازيه وكانا جديدين قشيبين، فالتفت إلى المزوق غاضباً بفظاظة وسأله بصوت عنيف لماذا لم يحذره ولم يعلمه أنَّ صفحة بابي قد زُوقت قُبيل إتيانه، فأجابه العامل بعنف ذلك الصوت قائلاً: فيم تستعمل عينيك إن لم ترَ ما هو بإزائك وتجاهك؟ فأضحك جوابه المستر «هاستينكز»، وفي دخوله إليَّ أخبرني بحادثه الغريب، فهذان الخبران الطريفان يكفيان في أن يصورا لقراء كتابي الحرية الَّتي يتمتع بها الشعب في إنكلترا، وتكون هذه الحرية أحياناً ممسوخة إلى إباحة وحشية وتحلل جاف، ولكن المقننين الإنكليز يرون أنَّ هذه الحرية المفرطة لا تؤدّي إلَّا إلى شجاعة الأمَّة.

وفي إنكلترا أيضاً ليس للسيد أن يعاقب هو نفسه عبده مهما كانت جريمته، ولا يستطيع إلَّا طرده، ثمَّ محاكمته إلى القاضي باسطاً له شكواه، والخدم الإنكليز يأخذون جرايات جليلة جداً، ويطعمون طعاماً حسناً، وينامون على فرش وسرر جيدة، لا على أرضيات الحجر كما ينام الخدم في بلاد الهند، ويكون لباسهم في الغالب أجود من ملابس سادتهم الَّذين يفضلون في الأعم الأغلب الجوخ الساذج، على حين أنَّ خدمهم تلمع ضفائرهم، ولا يوجب عليهم الحفد على أرجلهم وراء سادتهم كما هو العادة عندنا نحن الهنود، حين يتنزه السادة فرساناً، وإنَّما يمتطي الخادم فرساً إذا كان سيِّده ممتطياً ويسير وراءه، فإن كان السيِّد في عربة فالخادم معه في موضع منها أمامُ أو خلف، وفي الصحف اليومية يسخر ناس بجراءة الطبقة المنحطة من الَّذين يعلونهم في مراتب المجتمع أو يطعنون عليهم، وفي اجتماعاتهم الشعبية حتَّى مواضع التفرج يحدث أن يصفروا عليهم ويسبّوا كل شريف أو ظريف لا يعجبهم أو لم ينل مودَّتهم والصور المسخيَّة[1] «الكاريكاتورية» هي متعة أخرى للعوام، فإنَّهم يوجهونها في

(1) أي السخرية. (المترجم).

الغالب على الوزراء ويمثلونهم في أحوال مضحكة قائلين عليهم ذماً أو موجهين الكلام إلى «جون بول» الَّذي يكون له الفوز دائماً بالأجوبة البديهية الدالة على حمق أو الرمزية الَّتي ينحله إيَّاها مصورو الصور المسخيَّة «الكاريكاتور». والوزير في هذه الصور يصور دائماً بحالة مضحكة لا يستطيع أن لا يضحك منها هو نفسه إن نظر إليها.

ومع ما ذكرت فالمساواة لها وجود في الظاهر بإنكلترا أصدق من وجودها في الحقيقة، فالبون فيها بين الغني والفقير أبعد منه في بلاد الهند فالخدم لا يستطيعون أن يتركوا خدمة سادتهم قبل أن ينذروهم بذلك وهم مكرمون في سيرهم إكرام العبيد عندنا في هندستان، والأغنياء والمتميزون بأوروبا لهم الفضل الَّذي لا يقدر في استطاعتهم التنزه في أي موضع يستحسنونه، من غير أن تحف بهم الجواسيس أعني من غير أن يحف بهم الخدم، كما هو مألوف في الشرق، ولا أستطيع أن أوضح السرور الَّذي دخل على نفسي عند وصولي إلى أوروبا، وشعوري بكوني حراً في أن أتنزه ولا يتعقبني متعقب وأن أدخل الدكاكين وأتحدث مع من أشاء، بالضد والعكس ممَّا هو العادة في الشرق، ويجب أن لا يذهب الظن مع ذلك استنتاجاً ممَّا قلت، إلى أنَّه من الأمور المباحة في أوروبا لكل إنسان أن يتبع أهواءه ويشبع جميع شهواته، فالمجتمع مضبوط بقوانين وآيين[1]، قد تؤدِّي مخالفتها إلى نتائج سيِّئة، مثال ذلك أن يرى رجل من الفضلاء الظرفاء في موضع عام يشرب شراباً مع ناس من عامَّة الشعب، أو يُرى في الطرق متنزهاً مع فتاة لا ترديد لامس، فإذا رآه أحد من معارفه تجنَّبه باحتقار، وكذلك الحال إذا استجاز لنفسه أقل مخالفة للقوانين، فإنَّه يعتقل في الحال ويودع السجن فإن ثبت عليه ارتكابه الشغب أو تدنيس المقدس أو الكفر عوقب أشد عقاب، والوزراء أنفسهم كثيرو الاحترام للقوانين بحيث إذا وجدوا فيها خطأ أو استحالة تطبيق أو مخالفة للشعور العام لا يستطيعون المجاهرة بطلب إلغائها في مجلس الأمَّة «البرلمان» وإنَّما يجتهدون في الدعوة إلى تبديل في الأسلوب بأن يقترحوا عدَّة تعديلات.

---

(1) الآيين هو العادات الاجتماعية. (المترجم).

المبارزة والملاكمة

وأستطيع أن أضع في عداد العادات الإنكليزية الخاصّة «المبارزة الفردية» أي الدويل والملاكمة، فالمبارزة الفردية تكون بين الطبقة الرفيعة من الشعب، فيتضاربون بالسيف أو يترامون بالطبنجات «الفرود[1]»، بحضور شهود، والعراك بالملاكمة يحدث بين العوام حين يريدون أن يزيلوا الخصام أو يبرهنوا على مهارتهم، وفي هذا الضرب من العراك يحظر على الملاكم أن يمسك بخصمه، ولولا ذلك لكانت الغلبة دائماً للأقوى منهما، فالمهارة والنشاط هما اللذان يقرران الغلبة كما هو الحال بين المتحاربين، فإن سقط أحد البطلين فلا يجوز للآخر ضربه ما دام مطروحاً على الأرض، فإذا علم بأنّه تكلف السقوط احتيالاً فإنّ النظارة يوسعونه شتماً له وعطعطة به، وهذا العراك يحدث بينهم بشدّة وقسوة بحيث ينتهي غالباً بموت أحد المتبارزين، أمّا فقد أحدهما إحدى عينيه أو كسر أنفه أو أسنانه فمن الأمور المعتادة جداً، ومع ذلك فللعوام كثير من التوق إلى الملاكمة، وهم موقنون بفائدتها، حتّى لقد تعلم طرائقها كثير منهم، والأشراف يشجعون على تعلّمها، بحجّة أنّهم يزيدون شجاعة الشعب ويرعونها، وأنّهم يقوون على تحمل النصب فيه. وفي أثناء إقامتي في إنكلترا رأيت زهاء مائة «مبارزة بالملاكمة» في الأقل، يرعى كل مبارز فيها القواعد مراعاة تامة ومعنى ذلك أنّ المتبارزين يحملان من المعترك مقطوعة شفاههما، مكسورة أسنانهما، متضرجة بالدم أبدانهما، من غير أن يغلب أحدهما الآخر.

وطرائق تربية الإنكليز لأطفالهم الذكور، كفيلة جداً بجعلهم ذوي حياء وشجعاناً، وقادرين على تحمل الخصومة بصبر وثبات، أمّا تعليم الصبايا عندهم فيرمي إلى جعلهن متحببات وعاقلات معاً، وهم يعلمونهن الغناء والرقص والعزف ببعض المعازف وان يكن فطنات في المجتمع، والأطفال من

---

(1) الفرود جمع الفرد وهو الطبنجة عند العوام العراقيين وهي سلاح بارودي ناري قصير السبطانة يمكن تعليقه بالحزام استعداداً للصدام. ويغلط بعض المترجمين للرحل الأجنبية بتسميته «المسدس» مع أنّ المسدس أخذ من حقيقة المُسمّى ففيه غالباً ست رصاصات بست خلايا. (المترجم).

النوعين يتعلمون احترام والديهم ومودّة إخوانهم وأخواتهم وذوي قرباهم الآخرين، ولا شيء أكثر مساعدة لاجتماع العائلات هذا من قوانين النصارى ألّتي تمنع تعدد الزوجة[1]، لأنَّ جميع الأطفال وهم من سلالة أصل واحد لا يحملون باعثاً من هذه البواعث ألّتي تحمل على الكراهية، والتعدد يفرق بين العائلات المسلمة. والوالدان عندهم يجتهدان، بسيرة غير متميزة، أن يحفظا الانسجام بين أطفالهما، فإن شعرا بجنف منهما لبعضهما اجتهدا كل الاجتهاد في إخفائه، وهما لا يؤدبان بالضرب ولا السب ويحكمان العقل والحكمة في معاملتهم ويحثانهم على التعقل باللطف أكثر من التخويف، فبفضل هذه التربية رأيت في الغالب صبياناً من الإنكليز في عمر خمس سنوات أعقل من غلمان من الهنود في عمر خمس عشرة سنة، واللعب ألّتي يعطيانهم إيَّاها تستعمل لتثقيفهم أيضاً، فهم يتعلمون حروف الهجاء معتقدين أنّهم يلعبون بورق المراهنة.

وليس عند الأوروبيين، على حسب ما أيقنت بتأمُّله، من النزاع العائلي ما يوازي ما عندنا في الكثرة، وهذا نتيجة ما عند ذوي القرابات القُربى من مراعاة بعضهم لبعض، فإذا أولى رئيس عائلة أفراداً من أقربائه فضلاً فإنَّهم يتقبلونه شاكرين، ولا وجود لمثل هذا في بلاد الهند، حيث تعتقد كل عائلة أنَّ رئيسها ملزم أن يزوّدها جميع حاجاتها[2].

نظام الحكم في إنكلترا ورسوم البلاط

لنحاول أن نصف طبيعة حكم الدولة البريطانية: إنَّ دستورها ذو صبغة مشوبة أعني أنّه ذو أخلاط من الدول الملوكية والإترافية «الارستقراطية» والشعبيَّة «الديمقراطية» ممثلةٌ في الملك وفي مجلس الأعيان ومجلس الشعب اللّذين أسندت إليهما السلطة، لحسن حظ البلاد، تمثيلاً لا تجد العقلية البشرية نظاماً أكمل منه البتة.

والملك هو رئيس الدولة بنصّ الدستور على ذلك وهو منبع كل شرف

(1) قلت: ونحن قد شهدنا في أثناء إقامتنا بأوروبا في فرنسا ما يكون تعدد الزوجة هيناً بالإضافة إليه من كثرة الخليلات والخدينات والفسق والفجور السريين حتَّى ليعدون الخليلة مفضلة على الزوجة ويسمونها «السيِّدة». فالظاهر أنَّ أبا طالب اغتر بالظواهر والمظاهر. (م).

(2) قلت: هذا هو الحق فإنّه هو الّذي كان سبباً في وجودهم الإجباري. (المترجم).

وتشريف ومصدر كل عفو وتلطيف، وكل قانون لا يكون مشروعاً متبوعاً إلّا بوفاقه ويستطيع أن يعفو ذنوب المجرمين الّذين جرَّمهم القانون.

وأنا ذاكر برهاناً على سلطة الملك بأن أثبت في كتابي حادثاً حدث في أثناء إقامتي بإنكلترا، فقد كان زمام الحكم موكولاً مدة سبع عشرة سنة إلى يد الشهم المتيقظ «بيت»[1] الّذي يجله صاحب الجلالة، ولكن هذا الوزير الّذي يعتمد كثيراً على نفوذ كلمته عند الملك اجتهد افتياتاً على إرادة الملك أن يبطل قانوناً من القوانين، فعزله الملك، مع أنَّ الوزراء الخمسة الآخرين كانوا مؤيديه فيما حاول، وأعلنوا أنّهم يستقيلون إن لم يعد رئيسهم إلى الحكم فأقالهم الملك في اليوم نفسه. جرى هذا الحادث حينما كانت إنكلترا تحارب فرنسا وكان الملك في حال حرجة بحيث لا يستطيع أن يدبِّر أمر تأليف وزارة جديدة، وبقيت شؤون الدولة على هذه الحال شهرين.

وقد حاول ملوك بريطانيون قدامى أن يحكموا في المملكة من غير استشارة لمجلسهم بقسميه وأحياناً على الرغم منه، ولكنَّهم أخفقُوا في محاولتهم.

وفي أثناء إقامتي في إنكلترا، طالما استدعاني الملك والملكة وفي كل دعوة كانت كان هاذان الشخيصان يشرفانني بالتحدث إليَّ ومع استصحابي دائماً مترجماً، كانا يرجوان منّي أن أجيبهما أنا بنفسي، وكان يسّرهما أن يقولا لي: إنّهما يفهمان حق الفهم الإنكليزية الضعيفة الّتي أتكلّم بها، ولما استأذنت جلالته في السفر أمرت وزيره أن يزوّدني كتباً إلى سفرائها أي الجلالة يوصيهم بي ويأمرهم برعايتي في مختلف النواحي الّتي كان ينبغي لي أن أزورها.

إنَّ الملك لا يحب الأبّهة ولا الفخامة ولكن الملكة حينما تستقبل زوارها وزائراتها، تبهر بما عليها من الألماس واللؤلؤ والزينة الأخرى

---

(1) هو «وليام بيت» الصغير ابن وليام بيت الكبير، كان أبوه يلقب بلورد «شاتهام» وترأس الدولة البريطانية. أمّا ابنه فقد ولد في هايز وتوفي في بويني «1759 - 1806»، بلغ منصب أبيه في الدولة البريطانية، وقد أصلح بعد الحرب الأمريكية شؤون الدولة المالية والصناعية ونظم حكومة الهند وكان خصماً عنيفاً للثورة الفرنسية، فأثار عليها ثلاث ثورات بالاحتيال إلّا أنّ يهود فرنسا قاوموه، ولم يستطع وقف ظفر نابليون ولا التردي الوقتي للتجارة الإنكليزية. (المترجم).

الثمينة جداً ألّتي تزدان بها السيِّدات. ووصائف البلاط يلبسن «تنورات»[1] على العادة القديمة، تساعدُهنَّ على إظهار التطاريز والتحازيز ألّتي في ثيابهنَّ، ولكن قسماً منها جد فضفاض بحيث لا تستطيع السيِّدة أن تدخل من الباب إلّا بعد مشقة وعسر، والرِّجال في البلاط عليهم ملابس فاخرة من الطرز القديم، إمَّا مطرزة وإمَّا مزينة بضفائر.

ويأتي بعد الملك والملكة في المقام والرتبة وليّ عهد المملكة أمير الغال، ففي أثناء حياة أبيه لا ينظر في شؤون الدولة إلّا نادراً فإن مات قبل الملك انتقلت وراثة التاج إلى ابنه فإن لم يكن له ابن، فإلى ابنته فإن لم يكن له ولد، انصرف ملك التاج إلى ابن الملك الثاني ألّذي هو في جاري العادة رئيس الأشراف وقائد الجيوش.

وهذا النظام الوراثي المتبع ببالغ الحكمة يمنع كلّ نزاع بين أبناء الملك ويحقن دماء الشعب، فما من أحد يدعي لنفسه حقاً في التاج لم يخوّله إيّاه القانون، وقد حدث في هذا الموضوع جدال محتدم بيني وبين أحد الإنكليز لأنَّه زعم أنَّ سكان هندستان متوحشون وغدّارون وقُساة، وضرب مثلاً لتأييد زعمه الإمبراطور «أورتكزيب» ألّذي سجن أباه وقتل إخوته الثلاثة، والحرب بين «رهادرشاه» وإخوته، فقلت له: إنَّ الملوك ينبغي أن لا نحكم في أمرهم على حسب القواعد ألّتي يلتزم بها الرِّجال الآخرون، فإن لم يكن قط في إنكلترا غير اختيار تاج أو قبر فإنَّ مشاهد أمثال ما ذكرت ستضرِّج تاريخكم بالدماء.

ويظهر وليّ العهد الحالي كأنَّه سيِّد يتحلّى بأظرف السِّير وهو يسكن دائباً في شارع «بال مال» في عمارة فخمة وقد زرتها كثيراً يحدوني على زيارتها المثوى المُسمّى «جانيت هال» المحتوي على مجموعة من الطرف والأشياء العجيبة المجلوبة من بكين وهذا القسم من القصر مزيَّن بالزجاج من أكبر الحجوم والثريات ألّتي هي أزهر ما رأيت من نوعها، ومن الطُرف النفيسة فيه ساعة دقاقة تمثل امرأة حبشية تعلن مقدار الساعات بعينيها، وفي أوّل زورة زرتها

(1) لم نجد بدّاً من استعمال الكلمة العامية. (المترجم).

«كارلتون هاوس» وكان الأمير قد علم بعزمي عليها، أمر متفضلاً بأن تعدّ لي لهُنة[1] وفي كل مرّة ألقاه فيها كان يعاملني بلُطف كثير.

والأشخاص المتميزون الّذين هم بعد ولي العهد في المراتب هم وزراء الدولة وهم تسعة وإليهم إدارة جميع شؤون الدولة، ورئيس الوزراء هو صاحب خاتم بيت المال، والمنصوب في هذا المنصب اليوم المستر أدينكتون[2] فهو يجمع خراج الدولة ويوزع الضرائب والمكوس ويرعى وجوه صرف الأموال المهمّة وهومعدود ممثلاً للملك في مجلس الشعب، وأصعب شؤون وظيفته أن يصطنع ذوي الأكثرية من الأعضاء، ولبلوغ ذلك يعطي بعضهم مناصب ويعطي بعضاً ألقاباً فبمساعدة الأشخاص التابعين له، إمّا بالمبادئ وإمّا بالقرابة يستطيع أن يصد هجمات خصومه عليه، أعني هجمات الوزراء الخارجين من الوزارة أو الّذين يودون أن يكونوا وزراء وكان يرأسهم في أثناء إقامتي في إنكلترا الدوق «نورفولك[3]» والمستر فوكس[4] وكل شيء من اختصاص المجلس يجري عليه النقاش ظاهراً وجهاراً ثمّ يحسم أمره بأكثرية الأصوات ولذلك يكون مستحيلاً على الوزير الكبير أن يدبّر شؤون وزارته إن لم يضمن أكبر عدد من الأصوات فيُضطر إلى تقديم استقالته، إنَّ المستر «بيت» استطاع بمواهبه العظيمة أن يحصل دائماً على أكثرية الأصوات في جانبه، ويمكننا أن نقول إنّه حكم سبع عشرة سنة بنفوذ كلمة استبدادية.

---

(1) اللهنة على وزن اللقمة ما يتعلل به قبل الغداء أو ما يقدّم للقادم من هذا النوع. (م).

(2) هو سيّد ماوث هنري أدينكتون الفيكونت الإنكليزي السياسي «1757 ـ 1844» ولي رئاسة الوزارة من سنة 1801 إلى سنة 1804 ثمّ سنة 1806 وسنة 1812. (المترجم).

(3) هو شارل هوارد دوق نورفولك بإنكلترا، وكان رجلاً سياسياً «1746 ـ 1815» توفي بلندن، اشتهر بمظهره الدال على تهاونه بنفسه، وإدمانه السكر وكراهته للماء بحثاه على أن يترك الاغتسال البتة، انتخب في المجلس البريطاني وأيد بحماسة سياسته «فوكس» الآتي ذكره. (م).

(4) هو شارل جيمس فوكس من أرباب الدولة البريطانية، ولد في ويستمنستر وتوفي في شيسويك «1759 ـ 1806» وكان رئيس حزب «الواي» الإنكليزي وخصيماً بليغاً للمستر «بيت» المذكور آنفاً، بقي طوال حياته مؤيداً لاتحاد إنكلترا مع فرنسا وأمريكا وكان مفتوناً بالثورة الفرنسية، وهذا الّذي أفسد ما بينه وبين صديقه «بورك» وشذوذ حياته أفسد عليه مواهبه وأضعف نفوذ كلمته السياسية. (م).

وقد حضرت في الغالب، بوساطة أصدقاء لي، جلسات مجلس الشعب، ولما وجدت نفسي بين هؤلاء الملأ المجتمعين أوّل مرّة أحسست كأنّي أرى سرباً من الببغاوات الصغيرة الهندية واقعة على عدّة أشجار من الأنبج[1]، ومتقابلة بعضها بإزاء بعض، وهي في تنازع واعتراك، وكان المستر «بيت» والمستر «فوكس» أشد المزعجين المعربدين، وفي أيّام حكومة المستر بيت كانت جميع أعمال المجلس خدعةً، لأنه بضمانه الأكثرية لنفسه كان يستطيع أن يتخذ جميع المقاييس الّتي يرتئيها، ولكن هذا ينبغي أن لا يحملنا على القول بأنَّ لا فائدة في المجلس، فإنّه بالضد من هذا القول يقوم بأعظم الخدمات، لأنّه ينظم الضرائب والمكوس لكل سنة ويزم الطمع والجشع اللذين يكونان عند الوكلاء الشعبيين، وفي كل فرصة يجعل الوزراء داخل حدود معقولة مقبولة. وهكذا رأينا أنَّ المجلس قد قرر استمرار الوزراء والموظفين العاملين على القيام بوظائفهم المختلفة، أيّام كان الملك مريضاً، ورأى فريق من النّاس أنَّ من الضروري أن يعلن إسناد الحكم الملكي إلى ولي العهد في الحال مع سلطة واسعة، على حين رأى آخرون أن تُعيَّن نيابة ملكية مؤلفة من رجال هم أمثل الأماثل وفيهم ولي العهد، قرر المجلس ذلك لتقديره الحسن لفضائل الملك، وإمكان شفائه، إلى أن يصدر الأطباء تقريراً بإمكان شفاء الملك أو عدم إمكانه، فهذا البت المجلسي كان له الأثر الحسن في تهدئة نفوس الشعب، وسارت أمور الدولة مسيرتها من قبل، والأمراء على سمو منزلتهم لم يستعمل أحد منهم فكرته في أثناء النقاش لقضية صعبة كهذه، بل كان كل منهم بالعكس قد ترك رأيه الخاص واطمأن إلى حكمة المجلس وحصافته.

ويأتي بعد منصب صاحب الخاتم لبيت المال الوزير الّذي تكون شؤون وزارته أهم الشؤون وهو «صاحب سر الدولة» للشؤون الخارجية، فهو الّذي يرعى الصلات مع الدول الأجنبية. وفي أثناء إقامتي بلندن كانت هذه الوظيفة مسندة إلى اللورد «بلهام» وقد لقيت من سيادته عناية مصادقة ورعاية، والوزير الثالث في الرتبة هو «صاحب سر الدولة» في شعبة الأمور

---

(1) أي أشجار العنبة عند عامّة العراقيين. (المترجم).

الداخلية وهذه الوظيفة مسندة في هذه الأيام إلى اللورد «هاوكسبوري».
والوزير الرابع هو الموكولة إليه شعبة الأمور الحربية وقد كان قبل هذه الأيام المستر «ديونداس[1]» هو اليوم اللورد «هوبارت». فهؤلاء الوزراء الأربعة رتبهم فوق رتب كل الوزراء الآخرين، ويمكن أن يُقال إنَّ في أيديهم زمام إدارة الدولة جمعاء أو المشارفة على كل شؤون الدولة.

والوزير الخامس هو رئيس شعبة الأمور البحرية ويدعى لورد «إمارة البحر» الأوّل وسلطته أوسع جداً من سلطة مقدم الجيوش البرية الأكبر، وهذا المنصب مسند إلى اللورد «سنت فنسنت»[2] اليوم ولم أتشرَّف بمعرفته، ولكني أعترف كثيراً بألطاف لورد «سبنسر[3]» الَّذي كان قبله، ففي أوَّل مرَّة مشرفة لقيته فيها عند سيادة المستر «جوزف بانكس» أولاني دعوات مُواصلة غير ممنونة، وزوجه السيِّدة «سبنسر» تعد من أحب النِّساء في إنكلترا وأكثرهن تعلُّماً وتثقفاً، وطالما شرَّفتني بمحادثتها إيَّاي، وكانت تستمع بعطف ورأفة إلى ترجمتي أشعاراً فارسية إلى اللغة الإنكليزية ترجمة ضعيفة وقد وعدتني سيادتها خاصة بنشر قصة رحلتي. والوزير السادس هو القائد الأكبر للمدفعية البارودية، الَّذي له المشارفة على جميع التحصينات في المملكة البريطانية، وهذا المنصب مسند اليوم إلى اللورد «كورنواليس[4]» الَّذي ذكرته سالفاً وغالباً.

ورئيس مكتب التحقيق والتدقيق هو الوزير السابع وهو الَّذي يدير أمور

---

(1) هو السير جيمس رابتلي دينز ديونداس أمير البحر الإنكليزي «1785 ـ 1862» انخرط في سلك البحرية البريطانية سنة 1799 وصحب غزوة مصر البريطانية الَّتي قام بها «أبركرومبي» ثمَّ خدم منذ سنة 1815 في عدَّة اصطدامات بحرية مع الفرنسيين تميز بها تميزاً مبيناً، ومنذ سنة 1852 قاد أسطول إنكلترا في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود. (المترجم).

(2) هو جون جيرفيس كونت سنت فنسنت أمير البحر ووزير البحرية البريطانية، ولد في ميفورد بإنكلترا سنة 1735 وتوفي بها سنة 1823 وقد اشتهر في محاربته الفرنسيين وتميز بتحطيم الأسطول الإسباني حليف الأسطول الفرنسي سنة 1797 وكان قائداً بحرياً ماهراً إلَّا أنَّه كان عنيداً شديداً. (م).

(3) هو جون شارل سبنسر «1782 ـ 1845» تولى عدَّة وظائف. (م).

(4) هو شارل مان مركيز دي كورنواليس قائد إنكليزي بلغ رتبة جنرال «1738 ـ 1805» ومن سيرته الحربية أنَّه استسلم في يورك تاون في الحرب الأمريكية 1781 وأخضع «تيبو صاحب» بالهند 1792 وأخمد الثورة الإيرلندية سنة 1798. (المترجم).

شركة البلاد الشرقية من الهند ويدبّرها، وحينما بلغت إنكلترا في رحلتي هذه كانت هذه الوظيفة موكولة إلى المستر «ديونداس» (المقدم ذكره) ثمّ عُهد بها بعد مُديدة إلى اللورد «دارتماوث»، من أسرة جدّ شريفة جدّ قديمة. وقد تعرفت إلى سيادته بوساطة صديقي اللورد «بلهام» ولقيت منه دلائل احترام بالغة، وقد لقيت عند سيادته في الغالب عدّة مديرين لشركة البلاد الشرقية بالهند، وعلى كونهم رؤساء حكّام الهند كانوا يجلسون إلى المائدة دون مجلسي، وقد أرادت سيادته أن تبعثني سفيراً إلى ملك الفرس وإلى زمان شاه واقترحت عليّ السفر في طريق القسطنطينية فالبحر الأسود إلى خوارزم ومن هناك اتجه إلى طهران فإذا نظمت الأمور في بلاط ملك الفرس فيها أواصل السفر إلى كابل ومنها أجتاز البنجاب إلى كلكتا ويجب عليّ أن أعترف بأنّي ارتعتُ أوّلاً من طول هذا الطريق وأخطاره، فرجوت من سيادته أن تأذن لي في الرجوع إلى الهند أوّلاً. فمن هناك أستطيع، بعد أن أمكن لعائلتي تمكيناً حسناً، أن أذهب إلى كابل، ومن هناك، إن كان ذلك ضرورياً، أسافر إلى بلاد الفرس، فوافقت سيادته على هذه الخطة، ولما عزمت أن أغادر إنكلترا زودتني سيادته كتباً إلى الحاكم العام في الهند راجية منه، في أوّل فرصة أن يعيد إليّ مبلغ راتبي المالي الّذي كان جارياً عليّ، وحُرِمته منذ عدّة سنين بسبب وشايات أعدائي ومكايدهم ثمّ إرسالي إلى كابل مع تمكين لي بالبقاء فيها، إن وافق الشاه، بصفة ممثل في بلاطه لشركة البلاد الشرقية الهندية.

والوزير الثامن هو اللورد ذو الخاتم الكبير وهو الرئيس الأعلى للتشريع والتقنين وسلطته واسعة جداً. وهؤلاء الوزراء الثمانية يحضرون في كل يوم عند الملك ويقفونه على حال شؤون المملكة فيبسط كل منهم شؤون شعبته فيتداولون الآراء مجتمعين مع جلالته في كل شأن يجب أن يعرض على المجلس وبعد أن يثبتوا خطتهم ومقصدهم ينهونها إلى صاحب خاتم بيت المال، فيعرضه هذا على المجلس ليناقشوه.

والوزير التاسع هو مطران كانتور بري، فرتبته تلي رتبة الأمراء، وهو الّذي يطلع على جميع ما له صلة بالدّين وهو مستشار الملك في جميع الأمور الروحانية، والأساقفة أي أحبار الكنيسة هم تبع للمطران دون غيره،

ويتمتع كل منهم بسلطة خاصة على رستاق من الرساتيق ويرقب سير الكهنوتيين ومن المهم أنْ أعلم المسلمين أنَّ القوانين في إنكلترا والدِّين هما فرعان مختلفان متميزان وأنَّ واجبات الكهنوتي تنحصر في رقابة السيرة الخلقية والسيرة الروحانية للرعية الكنيسية وتكفين الموتى وعيادة المحتضرين والجمع بين الأشخاص بالزواج وتعميد الأطفال، فبحسب العقائد الموروثة يولد الأطفال بغير دين فإن لم ينالوا التعميد لم يستطيعوا أن يكونوا مقبولين في حضن الكنيسة، ولتعويض أرباب الكهنوت من مشاق عنايتهم جعل لهم عشر ما تغله الأرض، وبهذا الأمر انقسمت إنكلترا أقساماً لا حد لها من الخوريات، في كل خورية كنيسة مشيدة بنفقات الشعب فالقسّ وخادم الكنيسة تابعان لتلك الكنيسة. ففي الآحاد وأيّام الأعياد الأخرى يقرئان الصلوات ويبشران ويقومان بمختلف الوظائف الَّتي ذكرتها آنفاً. إنَّ عدَّة من هذه الخوريات تكون أسقفية واحدة هي مرجع الأسقف وله سلطة تعيين الكهنوتيين وعزلهم، وللأساقفة ألقاب «لوردات» ويقيمون في حجرة الأعيان ولكنَّهم قلما يناقشون إلَّا إذا كانت الأمور المعروضة عليهم روحانية، وإذا مات أسقف اختار الملك بعد استشارة الوزراء من يقوم مقامه من أحق من يستأهلون من رجال الكنيسة.

وقد كان من الخير لي أن أكون خليلاً لأسقف لندن، إنَّه رجل عاقل وفيلسوف وكان يسرني ويبهجني كثيراً أن أجادله في أمور دينية، وحدث بيننا ذات يوم جدال في سيرة محمَّد ﷺ، وقد أصررت على أنَّ مبعثه كان مُنبأً به قبل حدوثه، في العهد الجديد «الإنجيل» للسيِّد المسيح ﷺ، فأنكر ذلك أشد الإنكار واستدل على ذلك بالعهد الجديد وأراني آية قديمة من الإنجيل باللغة اليونانية وبعد بحث كثير وجهد وفير، اعترف لي بأنّه وجد حقاً الفقرة الَّتي أشرت إليها في جدالي ولكنَّه ادعى إنَّها أضيفت إلى الكتاب المذكور والمضيف لها بعض المرتدين عن النصرانية من أهل القسطنطينية وقد أضافها بعد إعلان الرسول ﷺ دعوته ودينه بزمن طويل. فأجبته قائلاً: وكيف يصح هذا القول وكانت نسخ من الإنجيل موجودة في ذلك العصر في أيدي كثير من النَّاس، فقد كان من المستحيل أن تحدث إضافة إليه فلا يشير إليها كتاب معاصرون لها، وإذا تركنا هذا العارض جانباً وجدنا من الأمور

المؤكدة المحققة أنَّ محمَّداً ﷺ أعلن للنصارى أنه «أحمد» أي الفارقليط الَّذي وعدهم به عيسى ﵇ في فقرة الإنجيل الَّذي كان النصارى يومئذٍ لا يجادلون البتة في صحته وإنَّما أنكروا أن يكون «المعزّي» الموعود به كثيراً وأدعوا أنَّهم يجب عليهم أن ينتظروا معزياً آخر[1]. فضحك الأسقف وقال: أحسَب أنَّك جئت إنكلترا لإدانة الشعب البريطاني بالدِّين الإسلامي وحملهم على ترك دين آبائهم[2].

وتشرَّفت بمعرفة قس «درهام» وهو رجل ذو إحسان نادر المثال وعنايته بي بلغت به أن أرسل إليَّ يدعو لي رجلاً يحسن الفارسية، وكان قد أطعم في أيّام مجاعة هائلة حدثت بإنكلترا ألف فقير كل يوم طوال سنة كاملة، من ماله، وعلى حسب ما ذكرت من حاله يستطيع الإنسان أن يقدِّر دخله ويتصور صدقات القسوس الإنكليز.

وبعرضي مختلف أعمال الوزراء لصاحب الجلالة الملك ذكرت كلاماً موجزاً على المجلس «البرلمان» وأنا أرى من اللائق أن أوضح المعنى المراد بكلمة «البرلمان»، فالبرلمان يعني على التحقيق اجتماع ثلاثة عناصر حاكمة وهي الملك واللواردة[3] ونواب الشعب، ولكنَّه ينطبق في الأعم الأغلب على العنصرين الأخيرين فاللواردة لهم بهو خاص باجتماعهم وهو بيت اللواردة، وفي بيت اللواردة يكون اجتماع البرلمان أوَّل يوم وآخر يوم من كل دورة مجلسية، وفي هذين اليومين يحضر الملك بيت اللواردة

---

(1) ورد في سورة الصف ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝﴾ (الآية: 6). قال مصطفى جواد مترجم هذه الرحلة: لو كانت الأذهان تتبع بتحكيم العقول وكانت المذاهب بصحة المنقول لاتبع النَّاس جميعاً ديناً واحداً ومذهباً واحداً. (المترجم).

(2) قلت: لو كان الأسقف عاقلاً وفيلسوفاً كما زعم أبو طالب خان لم يقل هذا القول الَّذي يدلُّ على استحجار عقله، وفي سورة الأعراف: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (الآية: 7) وفي سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝﴾ (الآية: 170). (المترجم).

(3) اللواردة: جمع «اللورد» والتاء في جمعه المعجمة كالأكاسرة والقياصرة والأساورة والأساتذة. (م).

باحتفال فخم كبير وخلفه كافة الموظفين العموميين وعليهم علامات مناصبهم، وقد أتيحت لي فرصة الحضور في هذا المشهد المهم، فقد دخلت البهو المذكور بوساطة المستر «ديبريت[1]» ولكني لولا فضل دوق «كلوستر ابن الملك» ما استطعت أن أرى كثيراً من مجريات الاحتفال، فقد لمحني سموّه حين دخولي في البهو فأمر أحد رجال حاشيته بأن يحتجز لي مقعداً قريباً من العرش، ولاستقراري في ذلك المقعد سمعت واضح السمع كل كلام للملك كلّم به القسوس واللواردة ونواب الشعب فضلاً عن استطاعتي رؤية الملك في دخوله وخروجه، وكان عرش الملك رفيعاً وسماوته مِظلة نفيسة، وكان جالساً إلى يمينه ولي العهد، وإلى يساره الأمراء الآخرون على حسب أعمارهم على مقاعد من القطيفة الصفراء مطرزة بخيوط الذهب، وكان بالقرب من الأمراء صُفف كثيرة مغطاة بقماش نفيس من الحرير وهي للمقربين وذوي القربى البعيدة جداً للملك ولنساء الأشراف. وكان إلى يمين العرش وفي أخفض من مقعد ولي العهد الأمراء الأجانب والسفراء الأجانب، وكان اللورد سبنسر يحمل «سيف الإمبراطورية»، ويحمل «قلنسوة الحربية» اللورد وينشلسي وهذان السيدان أحدهما بجانب الآخر، وهما بإزاء صاحب الجلالة. والسير «ب. بيوريت» بصفته «كبير الحجاب» كانت إليه الكلمة في شؤون الاحتفال وكان اللواردة جالسين عن يمين وعن شمال في صف الأمراء أنفسهم. وكان نواب الشعب مرتبين ترتيباً حسناً قبالة العرش، وقد أنصت الحاضرون لخطبة الملك كأنَّ على رؤسهم الطير، مع الإكبار والاحترام وما لبث الملك بعد ذلك أن غادر المجلس.

إنَّ بين الأشخاص الوارثين للشرف في إنكلترا ذوي مراتب مختلفة كالأدواق والمراكزة والكوانتة والبراونة والفكامتة[2] وهم مع تيمزات شرفهم الخاصة بهم، يظهرون متساوين في الحقيقة عند اجتماعهم في بيت

---

(1) هو جون ديبريت بياع الكتب الأشهر في لندن والناشر الأصلي لكتاب بيربج الذي عليه اسمه، توفي بلندن سنة 1822. (المترجم).

(2) الأدواق جمع الدوق والمراكزة جمع المركيز أو الماركيز والكوانتة جمع الكونت والبراونة جمع البارون والفكانتة جمع الفيكونت. (المترجم).

اللواردة، ولقب «الدوق» هو الأوَّل ثمَّ الأمير وكثير من الأدواق هم أبناء الملك، وقد استنت جلالته سنة أن لا ترفع إلى هذا المقام إلَّا أشخاصاً من أسرتها وهؤلاء الأدواق يأخذون ألقابهم في الأصل من أرضيهم والمدن الَّتي في حكمهم، وأملاكهم وافرة جداً، وعدَّة أدواق منهم يرتفع إليهم دخل من أملاكهم يساوي المبالغ المخصصة بالملك لنفقاته، وأملاكهم بعكس ما جرت به العادة في إنكلترا ليست مقسمة بين الأولاد بل تكون للابن الكبير وبهذه الوسيلة تبقى ثروة العائلات المالية ونفوذ كلمتها قارين غير منتقلين، ولما كان هؤلاء الأدواق دائماً أسخياء على أتباعهم في الاقطاع اجتذبوا إلى حيزهم عدداً غير قليل من الأشباع وذلك ممَّا بعث الحكومة أن تجد في الغالب ما يحملها على الغيرة منهم والحسد لهم على سلطتهم.

كان لي شرف التعرف إلى عدَّة أدواق من هؤلاء ولقيت ألف علامة صداقة من الراحل الدوق «بدفورد» فقد كان رجلاً متحبباً. والدوق «دي ديفو نشير» الَّذي تزوج أخت سبنسر راعاني أرأف مراعاة ممكنة في الدُّنيا وكذلك الدوقة الَّتي أذكرها عرضاً فإنَّها من أجمل نساء إنكلترا. والليدي «جورجيانا» ابنتها تفوق في الجمال والسير إلاهات المياه اللواتي حُزن أجلَّ الحمد في الصين أو بلاد التتار، إنَّ صوتها يمرُّ في الأذن حتَّى يبلغ الرُّوح نكأنَّه إكسير الحياة، ومن لطفها أنَّها اعتادت منذ زمن بعيد أن تقيم عيداً سنوياً لمعارفها في «شيزويك هاوس» وقد حضرت آخر هذه الأعياد وحسبت الدوقة أنّي يجوز أن أكون مهملاً في هذا الجمع الغفير بين النَّاس المتميزين الَّذين كنت أجنبياً بالنسبة إلى أكثرهم، فجعلت لي متفضلة إحدى السيدات وهي الليدي «إيليزابث فوستر» إحدى خليلاتها مهما ندارة في ذلك اليوم، فمدت إليَّ السيِّدة فوستر ذراعها في الحال، على جاري العادة الإنكليزية ومشت بي خلال حديقة الورد والياسمين، ثمَّ أفضت بي إلى أبهاء الرقص والموسيقى، وفي ثني دخولنا لاقينا أمير الغال فرجعت القهقري لأدع لسموه ممراً، ولأجل ذلك جعلت صاحبتي الدليلة ورائي ولكن الأمير تراجع بكل أدب نشأ عليه خلقه وأشار إليَّ بالتقدُّم، فتملكني العجب والإعجاب، فقالت لي السيِّدة إيليزابث ضاحكة: إنَّ سموه لا يود البتة مهما كان الأمر، أن يتقدَّم على امرأة، وإذ كنت منيلتك ذراعي لم يتحمل أن تفترق لنجعل له

ممراً، يستطيع الإنسان بهذه الحكاية وحدها أن يتصور الظرف الَّذي يلقى به الإنكليز للنِّساء، ولما جلس المدعوون إلى المائدة أجلسوني إلى مائدة الأمير، وقُبيل التفرُّق قدمت لي الدوقة بطاقة أوبرا لمساء الدعوة نفسه، فرفضتها أوّلاً معتلاً باستحالة أن أصل إلى الأوبرا قبل بدء العرض إذا رجعت إلى مثواي لبعده، فقال دوق كلوستر ابن الملك وكان جالساً إلى المائدة بعينها: إنَّ اعتذاري لم يكن مقبولاً وإنَّه عازم على مشاهدة العرض ويبهجه أن يراني في الأوبرا، وقالت السيِّدة فوستر والسيِّدة هارفي والسيِّدة جورجيانا إنَّهنَّ سيكنَّ في الأوبرا بالساعة الثامنة، فإن لم يجدنني هناك يؤنبنني أشد التأنيب. فرجعت إلى مثواي لكي أغير ملابسي بسرعة وذهبت إلى الأوبرا، وكان الدوق قد سبقني إليها وانتظر السيِّدات بصبر معيل، وجلس إلى جانبي ساعة، ولما رأى أنَّهنَّ لم يحضرن انصرف وأوصاني مؤكداً بأن ألومهن إن حضرن بعد ذلك وكان عرض الأوبرا مشرفاً على نهايته حينما وصلن إليها، فوجهت عليهن لوماً عن الأمير، ولأجلِ أنا نفسي بما أخلفن وعدهنَّ، فاعتذرنَّ بعذر من الأعذار الواهية المعدَّة في الفم المترنِّم للجمال الإنكليزي النسوي، وهو أنَّ ازدحام العربات كان في أبواب «شيزويك هاوس» جدّ كثير وكبير بحيث كان الخروج مستحيلاً قبل ما خرجن، فتذكرت أبياتاً من قصيدة فارسية غنائية جدّ مناسبة لهذا الحادث قدمتها إليهن ارتجالاً[1]. فطلبن إليَّ ترجمتها فأجبتهن إلى طلبهن وسارت الأبيات من يد إلى يد أخرى بين معارفهن والقصيدة المرتجلة هي:

إنَّ إخلافكن وعداً بوصلٍ	لم يكن في ظنوننا منساقا[2]
خدعتنا شفاهكن البليغا	ت المضيئات كالعقيق ائتلاقا
فحلال إهانتي للواتي	لا أودُّ اعتذارهن متاقا
أنا عبد لكنَّ أفعل ما تأ	مرنني لا أريد يوماً إباقا
لاتخفن الحساب أجل حجاب	كان للوجه طرحه إشراقا
فضحايا جمالكن إذا ما	طلبوا الاقتصاص والإحقاقا

(1) يظهر لي بعض التناقض في الترجمة الفرنسية فالتذكر يكون لشيء متقدم الوجود والارتجال إبداع شيء لم يكن له وجود. (م).

(2) ترجمتها أنا شعراً ولقيت من ذلك نصباً عظيماً كسائر نظمي لأشعاره المتقدمة. (المترجم).

مَلَكَ الجنَّةَ الوكلَ بالبا ... ب ستسحرنه فيأبى المعاقا
طالباً من إلْهكن اغتفاراً ... للذي من عيونكن استذاقا
لم يكن ممكناً زحام «بشزويك» ... ممنوعاً لنا بأن نتلاقى
إنَّما عاقكنَّ جمع غفير ... وجدوا في جمالكن رباقا
كنت أشتاق أن أراكن حولي ... تاركاً عرض الأوبرا ورفاقا
فبغام منكن شتَّت حزني ... مُذ وصلتن والفؤاد استفاقا
وأبو طالب سيبقى فتيناً[1] ... بجمال لكنَّ يبغي اعتناقا
ليس يهوى جنَّات عدن ولا ... الأزهار فيها ولا يريد فراقا

وقيل إنَّ الدوق «دي نورثمبر لاند» له في المملكة أملاك كثيرة. والأدواق «ما ربوروغ» و«بورتلاند» و«نورفولك» و«ريجموند[2]» و«كوردون» وغيرهم متحدرون من أسر قديمة، كانت لها هذه الألقاب زمناً طويلاً، ذلك لأنَّه من أوّل عهد الملك الحالي إلى الآن لم يرفع رجل إلى هذه الرتبة من غير ذوي القرابة للأسرة المالكة.

وأبناء الملك في أثناء طفولتهم يلقبون بلقب «الأمراء»، فإذا بلغوا سن الرجولة فهم أدواق، وعدَّتهم سبعة وكلهم رجال طيبون، يخالطون الأشراف ويساهمون برغبة وتوق في جميع اللعب واللهو، ودوق كلوستر المتحلي بعقل ثاقب وجدتُه يحب التفكه بحضوري ويذكر تعلق السيِّدات الشابات بي والغيرة الَّتي تهيمن عليهن من أجلي، فكان هذا المزاح يُضحك المجتمعين في الدعوة.

ويأتي بعد اللوارده في المراتب أعضاء مجلس الشعب وعدتهم نحو من ثلاثمائة وخمسين عضواً، ولكل مدينة في المملكة عضوان يكونان موكليها أي ممثليها في البرلمان، وهؤلاء في الأعم الأغلب رجال ذوو مواهب وذوو ثروات عظيمة، ويقيمون بلندن سبعة أشهر من كل سنة ويجتمعون خمس مرّات في الأسبوع في بيت البرلمان.

---

(1) الفتين هو المفتون وأبو طالب يعني به نفسه. (م).

(2) هذان تقدَّمت أسماؤهما في الكتاب ويعسر علينا تعريف جميع الَّذين ذكروا في الرحلة. (المترجم).

شركة البلاد الشرقية من الهند

شركة الهند لها المقام الأوّل بعد بيت مجلس الشعب، لأهميتها السياسية وهي في الأصل شركة تجار، دفع كل منهم مبلغاً من المال للقيام بأعمال تجارية لا يستطيع الفرد بوسائله أن ينهض بها. ولم يمر على الشركة أكثر من مائة سنة حين حصلت على شرط قانوني في احتكار تجارة الهند احتكاراً مانعاً لكل إتجار لغيرها، وقبل ذلك الزمن كان رأس مالها نحواً من ثلاثة ملايين ليرة استرلينية، مقسّمة على سهام قيمة كل سهم ألف ليرة استرلينية، ولكن رأس المال قد تضاعف اليوم لكثرة الفتوح الّتي فتحها الإنكليز في الهند وقد أسندت إدارة شؤونها إلى أربعة وعشرين مديراً، ستة منهم يتخلون عن وظائفهم في كل سنة، وإنّ أولئك المديرين ينتخبهم مالكو السهام الّذين رأس مال كل منهم ألف ليرة استرلينية، والمديرون يختارون في كل سنة مديراً ونائباً له من زملائهم المجرَّبين الحاذقين، وهذان الأخيران يمثلان، والحالة هذه، كل الشركة، وفي الحق أنّهما يستشيران المديرين أحياناً، ولكنّهما يعينان في الأعم الأغلب المقاييس والتدابير قبل عرضها على المستشار. ويدرك الإنسان أنّه ينبغي للإنسان وسائل كبيرة جداً للقيام بهذه الوظيفة ولذلك يندر المديرون الّذين يطمحون إلى هذا المنصب الجليل، فمنهم من لا يصل إليه أبداً، على حين نرى آخرين انتُخبوا له عدّة سنين متوالية.

والمساهمون في الشركة الهندية هم من كل الطبقات ومن أهل كل الحرف والأعمال، ويحضرون مرتين حسبُ في السنة في مركز الشركة لتسلم أرباح سهامهم، وإعطاء صوتهم الانتخابي حينما يستجد انتخاب مدير جديد.

ومركز شركة الهند عمارة فخمة، فيها أبهاء كثيرة جداً لجميع المكاتب العامّة، وتشغل من لندن هي ومخازنها مساحة أكثر من ميل مربع، وهناك تباشر جميع شؤون الشركة، فالرئيس ومساعده يحضران مركز الشركة كل يوم ما عدا الأحد، والمديرون الآخرون يجتمعون فيه مرتين أو ثلاثاً في كل أسبوع على مقدار الشؤون وطبيعتها ممّا يجب عليهم معالجته.

وقد رأى الوزراء قبل سنوات أنّ من المناسب تأليف مجلس تحقيق

وتدقيق لتوجيه شؤون الشركة وهذا المجلس الّذي له سلطة واسعة يعارض غالباً ما يتخذه المديرون من تدابير ويدققون النظر في الحسابات ويرقبون مراسلات الشركة فالشركة الآن لا تستطيع أن ترسل، بأوامر ولا أن تكتب، إلى وكلائها من غير استئذان مجلس التحقيق المذكور آنفاً، ولما كان رئيس المجلس دائماً وزيراً، لم يمكن أحداً أن يتصرف تصرفاً مهماً كائناً ما كان ولا أن يتخذ تدبيراً وإن كان صغيراً، ما لم يخبر به الحكومة، إلّا أنّه يحدث في الأحيان أنّ البرلمان يرفض التدابير الّتي يتخذها مجلس المديرين ويقررها، ومجلس التحقيق مثلاً حين حرم اللورد «كليف[1]» الحقوق الموروثة من النباب «دي كارينت» واستولى اللورد «ويلليسلي[2]» على جزء من أرض «ارده» وجذبُ مجلس اللواردة ومجلس نواب الشعب هذه السيرة جهاراً وما أدري إلام آل أمر هذه القضية؟ «192».

وحينما ظهرتُ في إنكلترا حسب عدّة مديرين من مديري الشركة أنّي من ملوك الهند، فأرسلوا إليّ بشكاواهم من وكلائهم، ولذلك كانوا ينظرون إليّ في أوّل أزمان إقامتي في إنكلترا نظر المرتاب ولما علموا خطأهم أوسعوني لطفاً وأدباً.

نظام المدينة العتيقة

وقد قلت سالفاً إنّ لندن في حقيقتها ثلاث مدن المدينة العتيقة وريستمينستر والفوبورك أي الربض فالمدينة العتيقة مسورة قديماً ومحصنة وهي اليوم محلة مشهوري التجار وكبارهم ولها قضاء خاص بها ويحكم

---

(1) كان قائداً إنكليزياً برتبة جنرال واسمه «روبرت». ولد في ستاريج وتوفي بلندن «1725 ـ 1774» استفاد من عجز ورثة «دبوبليكس» فاستولى على البنغال من أقطار الهند في وقعة «بلاسي» سنة 1757 وأسس ببراعته السياسة المجرمة السلطة الإنكليزية في الهند، ولكنّه احتجن أموال الدولة البريطانية، فيما حكم وما ظلم. حكم عليه بالتجريم ثمّ عفي عنه لخدمته الجليلة للاستعباد الإنكليزي بالهند ولكنّه قتل نفسه.

(2) هو ريشارد كوللي مركيز ويللسلي من رجال الدولة الإنكليزية، ولد في حصن دانكان ومات في «برمبيتن 1760 ـ 1842» عين حاكماً عاماً لبلاد الهند سنة 1797 ثمّ استبدل به حاكم آخر سنة 1805 بعد فوز «مهاراتس الهندي» وفي سنة 1832 عين نائباً عن الملك في إيرلندا.

فيها قاض يلقب بلقب «اللورد المير» أي اللورد شيخ البلد، وهو ضرب من ضروب الحكّام الأكابر، ودونك المجلس التأسيسي للمدينة العتيقة على التقريب: كل أرباب الفنون الّذين نالوا الأستاذية والملاك الّذين نالوا لقب «البورجواز» أي أهل الحضارة، وكان في بعض العصور اختيار رؤساء الأسر في كل محلة لتأييد آرائهم ممثلين يدعون «مستشاري المدينة» ويُسمَّى ستة وعشرون منهم باسم «الديرمان» أي موظف كبير في البلدية، فكل الديرمان هو قاضي محلة من المحال أو رستاق خاص من المدينة، وهو الضامن للتنظيم السليم، وله أن يدعو البلديين في محلته إلى إعانته دعوة رسمية إمّا لاستشارتهم وإمّا لتهوين الاضطراب، وجميع الخصومات أي الدعاوي الموجزة، ترفع إليه ليقضي فيها، ومنصبه يدوم طوال حياته.

وهذه طريقة انتخاب اللورد شيخ البلد، ففي بعض أيام السنة يجتمع كل أهل الحضارة أي البورجواز في عمارة واسعة تدعى «كومون هول» أي البهو العام وبعد أن يختبروا المواهب المشتركة لجميع الألديرمانين يختارون اسمين ويبعثون بهما إلى مجلس الألديرمانين وهم ملزمون أن يختاروا اللورد شيخ البلد للسنة القابلة، ويقدم اسم أحد الرجلين المختارين أهل الحضارة المذكورون.

إنّ اللورد شيخ البلد هو القاضي الأوّل للمدينة العتيقة، ويرأس في كل يوم مجلس قضاء، وله نائبان يدعى كل منهما باسم «الشريف» وعدد كبير من الموظفين يتصرفون على وفق أوامره، ويخصص به قصر فخم ليقيم فيه، وكل خدمه مع خيله يعيشون وتعيش بنفقات الشعب، واحد تميزاته هو أنّ كل جماعة من الجند أو الرّجال المسلحين لا يستطيعون المرور في المدينة العتيقة بغير إذن منه ومع أنّ باباً عتيقاً يفصلها عن ويستمينستر أي مدينة الملك فصاحب الجلالة لا يستطيع البتة دخولها من غير أن يشعر اللورد شيخ البلد بذلك فيحضر إذ ذاك بين يدي الملك لدى الباب ويقدم إليه مفاتيح المدينة هدية ويصحبه حيثما سار وأينما دار.

وانتخاب اللورد شيخ البلد السنوي يحتفل له أهل المدينة العتيقة بكل فخامة ومسرة ممكنتين، وفي ويستمينستر يجري احتفال بمولد الملك. وبعد

وصولي إلى إنكلترا انتخب الألديرمان «كومب» لورداً شيخاً للبلد وقد شرّفني بأن دعاني للغداء في قصره، وما كدت أظهر حبال الباب إلّا تبادر إليّ خمسون من خدم سيادته مسلحون بحراب ودبابيس لاستقبالي وفي الحين بدأت جوقة موسيقية تعزف بألحانها وأنغامها، وأدخلتُ باحتفال كبير في البهو الّذي كانت سيادته جالسةً فيه مع عدّة من وزراء الملك، فلما دخلت أخذ اللورد شيخ البلد بيدي وعرّفني لامرأته الّتي كانت لابسة كملابس ملكة، وجالسة على صفة فاخرة، ومع أنّ العادة لم تجر في أمثال هذه المناسبات بأنّ زوج اللورد شيخ البلد تقدم التحية، فلكوني أجنبياً قامت سيادتها، وفي الحال أعلن حلول وقت التغدي، فأخذ اللورد شيخ البلد بيدي ثانيةً وأدّاني إلى مائدة تبعد قدمين على التقريب، وهي أعلى من الموائد الأخرى، وأقعدني بإزائه بتمام المؤازاة، وقعدت سيادته في يمنة امرأته وإلى يمينه كان جالساً اللورد «كولوموندلي» واللورد «سبنسر» واللورد «نلسون[1]» وأشراف آخرون، وإلى يسار السيّدة «مايليدي» كان جالساً شيخ البلد الأخير الّذي قبل كومب، هو وأسرته، وبقية المدعوين كانوا من القضاة والألديرمانين وغيرهم، وكان على مائدتنا كثير من اللحم والفواكه والأنبذة اللذّة وغير ذلك، وكانت كل الصحون والأواني من الفضة، وأكثر الأقداح والأكواب والشمعدانات من الذهب المصقول، ورأيت الموائد الأخرى حافلة أيضاً على نحو مائدتنا من حيث الترف، ويظهر من أمارات السرور البادية على وجوه المدعوين أنّهم لم يكونوا أقل رضاً منّي للطريقة الّتي عاملوهم بها.

وبعد الغداء شرب المدعوون نخب صحة اللورد شيخ البلد وصحة زوجه ثمّ صحة الملك والملكة ثمّ أعلنوا سبب الشرب الآتي بقولهم: «نشرب لسعادة اللورد نلسون، وليكن ظفره في وقعة النيل غير منسي أبداً». ولما قام الجمع وعدتهم عدّة آلاف، وقد ملؤوا أقداحهم، لإعلان

(1) هو هوراس نتكونت نلسون أمير بحر إنكليزي مشهور «1758 ـ 1805» اشتهر بمقاومة الفرنسيين في أثناء الحرب الأمريكية ثمّ الإسبان وفقد إحدى عينيه في إحدى الحروب وذراعه الأيمن في حرب أخرى ودمر الأسطول الفرنسي في أبي قير سنة 1798 والأسطول الفرنسي مع الإسباني في الطرف الأغر سنة 1805 وفي تلك الوقعة الحربية قتل.

السبب بأصوات فرح حسيَّة تذكرت في الحال قول شاعر إيران حافظ الشيرازي[1]:

املـؤوا ذي أقـداحـكـم مـن نـبـيـذ
ثـمَّ هـزوا عـقـد الـسَّـمـا بـابـتـهـالِ
وازيـلُـوا نـظـامَ دنـيـا عـتـيـقـاً
واسـتـجـدُّوا مـن ذاتـنـا خـيـر حـال

وإذ كان عدد كبير من المدعوين الَّذين في الطرف الآخر من البهو غير مستطيعين أن يروا المائدة الَّتي نحن جالسون إليها أنهي إلى اللورد شيخ البلد طلب محرر حاوٍ رجاء السيِّدات أن يتمشين حول مائدتنا قبل أن تغادر أولئك السيِّدات قصر الدعوة وبعد أن رجت سيادته موافقتي على ذلك أذنت لهن في ذلك، فتمشى ذلك الجمع النسويّ برجاله إذن حولنا، ولما صاروا قبالة اللورد «نلسون» وقبالتي انحنى الرِّجال احتراماً لنا، وثنت النِّساء ركبهن ظانات وجوب هذه الحركة الاحترامية لأمير البحر، لظفره في موقعة النيل ووجوبها لي لمقامي المتميز. وقد دام هذ التكريم نحواً من ساعة، قدَّم بعدها اللورد شيخ البلد إلى اللورد نلسون باسم المدينة العتيقة سيفاً مطعمة قبيعته بالألماس اعترافاً بخدمته الفائقة، وبعد أن تقلَّد أمير البحر السيف قام فقال للورد شيخ البلد ومدعوّيه ما معناه أنَّه سيخضع جميع أعداء إنكلترا بهذا السيف الَّذي تسلح به وبحماية الله تعالى[2] ولما تمَّ هذا المشهد المهم رأيت أنَّ الزمان قد حسن الانصراف، وإذ كنت مستعداً لاستئذان اللورد شيخ البلد في الانكفاء إلى مثواي أخذَتْ سيادته بيدي وقادتني إلى مثوى فخم من مثاوي القصر، وفيه وجدنا السيِّدة «مايليدي» وزهاء خمسمائة امرأة عليهن أفخر الملابس، وكان جمال طائفة منهن كجمال الحور العين[3] في جنَّة الصالحين، وكُنَّ ينتظرن قدومنا للابتداء بالرقص، ولم يمض على

---

(1) نظمت هذين البيتين لترجمة الشعر بالشعر أولى وأبدع. (المترجم).

(2) قال مصطفى جواد: أكثر طواغيت العالم وطغاتها قالوا هذا القول مع إنَّ أعمالهم كانت عدواناً وغزواً وسلباً لا دفع الأعداء ولا ذب البلاء، والعجيب في أقوالهم طلبهم عون الله لهم عليها.

(3) يكثر أبو طالب في نثره وشعره من ذكر الحور العين كأنَّه عاش بينهن سنين، وهذا ضرب من خيال الشعراء.

جلوسنا أكثر من هنيهة حتَّى أذن لاثني عشراً أو ثلاثة عشر شاباً من المتميزين، في دخول دائرة الرقص، واختيار سيدات يُراقصنهم، حتَّى إذا أتموا رقصهم دخل عدد كعدَّتهم من المراقصين، ويُدعون بالفرسان، الدائرة، بدلاً منهم، وعلى هذه الطريقة دام الرقص حتَّى الصباح، وكانت الشَّمس شارقة لما أبت إلى مسكني، وكانت هذه الليلة من أمتع اللَّيالي الَّتي قضيتها في حياتي السابقة، فقد كانت فرصة تأمُّلي، كما أشاء، للجمال الساحر الملائكي للسيِّدة «كومب» زوج اللورد شيخ البلد الَّتي كانت تظهر بين هذا السرب الجميل من النِّساء ظهور القمر بين الكواكب، وإنَّه ليكفيني من القول أنَّ هذه السيِّدة الشابةَ ذات جمال هو من أكمل جمال في لندن، وقد لقيتها في بعض الليالي، اتفاقاً، في دار رقص تنكريّ، وإذ كان الجوّ حاراً جداً لم تطق فيه التنكر الكامل بل تبرقعت ببرقع قصير «هو نصف برقع» لا ينسدل إلى أدنى من شفتها العليا، ولم يكن لقاؤنا منتظراً في الحقيقة، وظنت أنَّها تستطيع محادثتي من غير أن أعرفها، ولكني في جوابي عن أوَّل سؤال لها قلت لها: «ليس في لندن إلَّا امرأة واحدة لها هذا الجمال في الأسنان، وهاتان الشفتان الورديتان، فالسيِّدة كومب لم لا تدخر وسعاً في محاولة اختداع المعجبين بها؟» فسمع هذا الجواب أشخاص كانوا هناك وأصبح في الغد حديث الدوائر والمجالس.

مجالس القضاء والمحلفون والوكلاء[1]

في لندن عدَّة مجالس للقضاء، ولكل منها مقاطعة خاصَّة، وقضاة معلومون، والمجلس الَّذي يحاكم فيه المجرمون يُسمَّى «أولدبيلي» ولعرفاني عدَّة من قضاة هذا المجلس كنت أحضر جلساته القضائية بغير انقطاع.

وكل إنسان من الرعية الإنكليزية له الحق في أن يحاكمه «جوري» أي

---

(1) الوكلاء جمع الوكيل وقد سموا في النصف الأخير من القرن العشرين بالمحامين جمع المحامي، اقتداءً بالمصطلح الغربي كما زعموا مع أنَّ المحامي لا يستأجر لأنَّ المحاماة اندفاع ذاتي غير مأجور من المحامي لذب المعتدي أو الاعتداء عن إنسان أو شيء معتدى عليه. (المترجم).

محككَمُون، وكل من هذه الجماعات القضائية مؤلفة من اثني عشر ساكناً محترماً من سكان المدينة الَّتي هم فيها، وهم يُدعون إلى حضور مجلس القضاء من غير علم سابق لهم بالأمر المتنازع فيه، فإذا حضروا مجلس القضاء من غير انتفاع ولا اغتراض سابق حلفُوا بأنَّهم سيقضون على حسب ما تأمرهم به ضمائرهم، ومن الواجب عليهم أن يهتموا أكبر اهتمام بجميع أمور الدعوى ولا سيَّما امتحان شهود الاتهام وشهود الدفاع، فيقررون تجريم المتهم أو براءته فإن أصفقت آراؤهم على حكم أصدر القاضي حكمه في القضية، وإن اختلفُوا، انتقلُوا إلى ردهة أخرى ولبثُوا فيها حتَّى يصدرُوا عن قرار. وهذه المؤسسة القضائية هي كما قيل «باللا يوم الحرية» أي حرز أمان الحرية الَّذي يفتخر به الإنكليز، ولكنَّها لاتظهر لي خليَّة من النواقص. فالقاضي وهو رجل من الأماثلِ يُحدث في نفوس المحلَّفين. في الغالب، احتراماً لنفسه بحيث إذا كان مائلاً إلى إصدار حكم جائر فإنَّه يستطيع بتأويل خادع للقانون أن يوجه آراءهم كما يشاء. وقد رأيت القاضي كثيراً ما يدقق النظر في أقضية المحلَّفين ويُعيدها مرَّتين أو ثلاثاً إليهم لتعديلها. ويستطيع من جهة أخرى أن يرعبهم بتهديده إيَّاهم وذلك بحجزهم بلا طعام، على حين أنَّ الوكلاء ينصرفون إلى دورهم، ويظهر لي على حسب ما ذكرت أنَّ الحكم تابع في كل الأحوال للقاضي أكثر من تباعته للمحلَّفين.

وللقضاء الإنكليز إعفاء جداً، لا شك في ذلك، وإذ كان غناهم يجعلهم مستقلين كان أغلب الظن أنَّهم لا يتجرون بضمائرهم، ولكن القوانين الإنكليزية غامضة، ولذلك يجتهد الوكلاء في فُرص كثيرة جدّ متناقضة (ودخلهم يأتيهم بخصيصي من الأجور الَّتي يتسلمونها من أصحاب الدعاوي) أن يغيِّروا في دعاواهم الأقضية، ويحصلوا من القاضي على تأخير لا نهاية له للأحكام، وعلى هذا لا يكون مستغرباً أن تدوم دعاوى في القضاء خمس عشرة سنة أو عشرين، فتُفنى أموال المتحاكمين معاً، وفي أحوال أخرى يجيز القضاة للوكلاء أن يفتنوا الشهود أو يخوفوهم حتَّى ليكونوا متعذراً على كل شخص منهم غير خبير بالخصومات أن يصرِّح بقول على حسب ما في ضميره. وفي هذه المجالس القضائية كثيراً ما يُضحى بالعدل باسم القانون، وبالرجل المستقيم للمحتال البارع في الاحتيال، وهاهنا موضع تصريحي بحرية برأيي

في موضوع مجالس القضاء الإنكليزية المؤسسة في الهند، فقلما تمضي أشهر أقلّ من القليلة لا نرى في كلكتا أشخاصاً محترمين قد اتهمهم ألوف العلق[1] المحاصرين لمجلس القضاء، فهؤلاء اللصوص لهم خدائع كثيرة لابتزاز المال، وأشهر طرائقهم المعتادة في الابتزاز هي أنّهم يتصلون بالمدعين العامين بإحدى وسائل الاتصال ثمَّ يبتاعون، على سبيل الاعتماد، من أحد التجار، باسم موهوم، مقداراً كبيراً من البضاعة، فإذا ما حل أوان الدفع أعدُّوا شاهدي تزوير يشهدان بأنَّ البضاعة اشتريت بطريقة دفع نصف الثمن المتفق عليه، ومن طرائقهم المعتادة أيضاً أنّهم يطالبون بدفع مبلغ كبير من المال شخصاً من الأشخاص، مُدعين أنَّ المبلغ وجب لهم من والد المدَّعى عليه[2] وهم قد جهدُوا من قبل في اختلاق اعتراف بذلك محرّر وإعداده. فإن ارتعب ذلك الشخص ووافق على تراض بينهم فذلك مبتغاهم، وإن عارض ما يدعونه من الحقوق فإنّهم يوصلون الدعوى إلى مجلس القضاء ويرتكبون أدنأ الوسائل وذلك بالقسم بل بعشرين قسماً عند الضرورة: أنَّ ذلك الشخص مدين لهم خمسين ألف ربية. وعند استنجاز أمر هذا الإجمال الحسابي لا يبقى للمدعى عليه وقد دُعي إلى مجلس القضاء إلّا اختيار أحد حلّين. إمَّا أن يقدم في الحال كفالة بمائة ألف ربية وإمَّا أن يذهب إلى السجن، فإن كان له أصدقاء أثرياء يأتون إليه لمعونته ويكفلون به نجا من التعس الَّذي يصيبه بزجه في السجن هذا مع اشتراط حضوره يوم المحاكمة، فإن حضر يوم المحاكمة متأخراً ولو ساعة واحدة حكم عليه بغرامة مائة ليرة إنكليزية استرلينية أو مائتين، وإن سها عن الحضور ذلك اليوم، بسبب من الأسباب، ألزم كفيله أن يدفع مبلغ لك من الربيات. وما أكثر الإعنات الفظيع الَّذي يصيب الهندي بأقل مسّ منه للقوانين والأخلاق الإنكليزية، ولهذا يستعجل كثير من أهل الهند في دفع مبلغ من المال لكيلا يعذَّبُوا بطريقة تحكميَّة كهذه، ولنحسب الآن أنَّ الرجل المدَّعى عليه حازم قوي القلب، يصمم على استعمال جميع حظوظ القضية، فإنَّه مُجبر

(1) العلق اسم جنس للعلقة الَّتي تمتص الدم من الأجسام الحيَّة وقد شبه الرحالة الوكلاء بهم لما يرتكبون من التزوير. (المترجم).

(2) قال مصطفى جواد مترجم هذه الرحلة: «شهادة التزوير موت الضمير، وموت الضمير على كل شر قدير».

على توكيلَ جريّ[1] لا يفهم من لغته كلمةً ولا يفهم عنه شيئاً إلّا بترجمان، وهذا الجريّ، لعدم قبضه أجرة المجاراة مسانهةً ولا مشاهرة ولا مياومة يُعقِّد القضية كما يريد وبعد بُرهةٍ عدَّة شهور أو عدَّة سنين تفتح المخاصمة القضائية، ويكون المدافع سعيداً إن أثبت أنَّ المدعي وشهوده المزوّرين قد ارتكبُوا تزويراً، فيحصل على حكم يلزم الطرف الثاني في الدعوى دفع نفقات القضية، غير أنّه ليس من النادر أن يستتر المدعي يوم المحاكمة إن علم نتيجة الحكم سابقاً، أو يبقى، وقد خشي أن يُسجن، فيدَّعي أنَّه فقير، ولهذا الهوان القضائي يجب على خصيمه في الدعوى أن يدفع إليه في كل أسبوع ما يعيش به وإلّا يُطلق القاضي اللص ويتركه يعاود تزويراته الاختلاسية الابتزازية.

وأنا لم أعرض المسألة، حتَّى الآن، إلّا بوجهها المناسب للصحَّة ولنحسب أنَّ المدافع كان عاجزاً عن تقديم كفالة بمثل هذا المبلغ الجسيم فإنَّه يُعتقل[2] في قصر العدالة في أوَّل يوم بحراسة ضباط الشرطة، فإن كان هندوكياً مُنع من الطعام وإن كان مسلماً منع من القيام بالفروض الدِّينيّة[3]، وفي اليوم الثاني، مع استخزاء أهله، يُنقل إلى سجن يجمع بينه وبين المجرمين، وباللَّيل يدخل في حبس مظلم، وألوف من الأشخاص المحترمين يقعون في هذا الشقاء قبل أن تستقصى أحوال القضية، وإن عاش بائع التفاريق المزعوم حتَّى يوم المحاكمة، فإنَّه يحضر إلى مجلس القضاء تحت الاستظهار تحفُّ به الحراس، وهناك قد يستعمل المدعي خدائعه السابقة بأعيانها. والسلوى الوحيدة الَّتي ينالها ذلك المتهم المسكين المدعى عليه هي أن يسمع من يقول في مجلس القضاء «إنَّ هذا قد قاسى ما قاسى ممَّا يغيظ الإنسان ويسخطه».

وإنَّ المكاره الَّتي يكابدها الشهود في شهادتهم ويقاسونها عندما يؤمرون رسمياً بموافاة كلكُتا جد كبيرة بحيث لا تجد اليوم في الهند شخصاً

---

(1) جاء في مختار الصحاح «والجري: الوكيل والرسول» وقد جرى جرياً واستجرى أيضاً أي وكل وكيلاً وأرسل رسولاً. وفي الحديث: قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان» أي لا ينطقكم عن لسانه بزور القول.

(2) في أصل الرحلة الفرنسي «فإنَّه يسرح ويطلق» وهذا من سوء الترجمة.(م).

(3) قال مصطفى جواد: هذا تاريخ مخازي القضاء الإنكليزي فيتأمَّله المتأمّل ويعتبره المعتبر.

يؤدّي شهادة في دعوى برغبة منه فيها، وهؤلاء الشهود يقاسون أحياناً سفر شهر واحد، فضلاً عن أنّهم يُستبقون في كلكتا خمسة أشهر أو ستة، فإذا أحضروا بين يدي القضاة ظلّوا قائمين ساعتين أو ثلاث ساعات، فإن ظهر عليهم أقل دوار أو نصب بسبب مختلف الأسئلة الخادعة الّتي يسألها الأجرياء والقضاة اتهمُوا بالتزوير والكذب، ويرون أنفسهم مجبرين على العودة إلى مواطنهم بنفقتهم من غير تعويض لهم كائناً ما يكون ذلك التعويض من الزمان الّذي أضاعوه والنفقات الّتي أنفقوها.

ويحكى أنّ امرأة لبقة دعيت إلى مجلس القضاء للشهادة في كلكتا فشهدت أنّ الأمر المتخاصم فيه قد جرى بحضورها. فقال لها القاضي: في أي موضع جرى؟ فقالت: في كُنّ بعض المنازل ـ وذكرته ـ. فقال لها القاضي: ويا أيّتها المرأة الطيبة كم عموداً كان في ذلك الكُنّ؟ فلما أحسّت المرأة بالفخ الّذي نصب لإيقاعها فيه قالت من غير مبالاة: كان للكن معموداً بأربعة أعمدة. فقام الطرف الثاني في الدعوى فذكر أنّ الكُنّ قائم على خمسة أعمدة، قائلاً: يجب أن لا يوثق بشهادتها بعد ظهور عدم علمها. فلما لحظت المرأة خطأها قالت للقاضي: «يا سيّدي القاضي إنّ سيادتك ترأس هذا المجلس منذ عدّة سنين، وفي كلّ يوم تصعد الدرج للحضور هاهنا، فهل أستطيع أن أعلم منك مرقاة في الدرج المذكور؟ فاعترف القاضي بأنّه ما يعلم من ذلك شيئاً البتّة. فقالت له المرأة: فإن كانت سيادتك لا تعلم عدد المراقي الّتي ترقى فيها كل يوم فليس بمستغرب أن أنسى عدد أعمدة روشن لم أطلعه إلّا مرّة أو مرّتين طول ما مضى من حياتي. فأعجب القاضي بقولها وقبل شهادتها[1].

وآخر القول أنّ استبهام القوانين الإنكليزية وتعقّدها كما قرأت وأنّ

---

(1) قال مصطفى جواد: في تاريخ القضاء الإسلامي العربي قصة لحادث جرى قبل هذا الحادث بأكثر من عشرة قرون وذلك في أيّام قضاء عبد الله بن شبرمة القاضي بالكوفة، فقد أتاه ذات يوم قوم يشهدون على قراح نخل فشهدوا وكانوا شهوداً عدولاً، فامتحنهم قال لهم: كم في القراح من نخلة؟ قالوا: لا نعلم. فرد شهادتهم. فقال أحدهم: أنت أيّها القاضي تقضي في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة فأعلمنا كم فيه من أسطوانة؟ فسكت. وأجاز شهادتهم (شرح نهج البلاغة: ج4، ص132 طبعة البابي الحلبي الأولى).

مكايد الوكلاء جدّ متوافرة بحيث أصبحت مصدر شقاء وتعس للذين يضطرهم سوء حظهم إلى مخاصمة غيرهم لحلّ مشكلة وقعت بينهما. وبعد أن بحثت بتصريح وتحرُّر نظام عدالة فاسد على النحو الّذي وصفت ينبغي لي أن اجتهد في ذكر علاج لإصلاح هذا الفساد، فأقول: كان كل إنسان بعد تأسيس الدِّين الإسلامي، بعدة سنين، يدافع من أجل دعواه، وكان القضاة وهم متحرّون في العلم يقضون بين النَّاس مجاناً ولا يأخذون على قضائهم أجراً. ولكون القضاة الإنكليز في الوقت الحاضر تجري عليهم رواتبهم المالية من بيت مال الأمّة وليست لهم منفعة في إطالة زمن الدعوى، كائنة ما كانت، أرتئي أن يُجري أولو الأمر على المدعين العامين والوكلاء كما يجرى على القضاة من بيت المال أيضاً، ويمنعُوهم منعاً مؤيداً بالعقاب الشديد، أن يقبلُوا هدية أو يأخذوا أجرة من الطرفين المتخاصمين، وللقيام بنفقات هذه المؤسسة القضائية يمكن الدولة إمّا أن تضيف ضريبة إضافية في جميع وارداتها وإمّا أن تعين أخذ مبلغ بنسبة مئوية يُستوفى من الملك المتنازع فيه. وأنا موقن أنَّ عدد الدعاوى وتأخيراتها ومماطلاتها ستقلّ قلّة لا حدّ لها، ويعوض من زمان شهادة الشهود، وتطهّر القوانين من النقائص الّتي تُعاب عليها اليوم، ثمَّ يُنظف مجلس القضاء من هذا الحشد من المدعين العامين الطامعين الّذين هم عار صناعتهم وخزيها.

الشؤون المالية الإنكليزية

لعلَّ القارئ يأمل أن يجد في هذا المبحث تفصيلات واسعة في الشؤون المالية الإنكليزية، ولكني اجتزأت بعرض تلك الشؤون في معرض رأي واحد هو أنَّ واردات هذه المملكة لا ترد من الضرائب والخراج اللذين يستوفيان من الأرضين ومختلف التجارات، فالنَّاس يدفعون مكساً عن كل شيء يُباع[1]، والمجلس ـ أعني البرلمان ـ هو الّذي يقرر الضرائب ويقدِّرها ويجتهد في تخفيفها عن الفقراء على حسب إمكانه. والخبز واللحم

---

(1) قال مصطفى جواد: ذكرني هذا القول قول جابر بن حني التغلبي الشاعر الجاهلي في وصف العراق أيّام الساسانيين:

وفي كل أسواق العراق إتاوة ... وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم.

والفحم وهي من أوجب الضروريات لمعيشة الشعب ليس عليها ضريبة، ولكن النّاس يدفعون ضرائب كبيرة للمائعات من المسكرات والأنبذة وغير ذلك، والملاكون يدفعون إلى الدولة خمس دخلهم من أملاكهم والعشر من غلات أراضيهم لأرباب الدّين، والأغنياء يدفعون عن اقتنائهم الكلاب والخيل واستخدامهم الخدم، وعن كثير من الأشياء حتّى حق وضع الطحين على رؤوسهم[1] أو صبغ الأسلحة الّتي في سفنهم الخاصة، ومنذ ابتداء الحرب الأخيرة قننوا قانوناً يوجب على كل فرد أن يقدّم إلى الدولة عشر دخله، وأكثر هذه الضرائب دائمة الأداء، ومنها ما يختلف عن هذا الأكثر بحسب رأي المجلس، وحينما يرى صاحب «بيت المال»أنّ الخراج لا يفي بنفقات السنة القابلة لا يزيد في ضرب الضرائب ولكنّه بمكيدة مالية يستدين باسم الحكومة، المبلغ الضروري لسدّ العجز المالي ويزيد في رسم البضائع. عشراً أو ثمناً، وبهذه الوسيلة يستطيع أن يدفع فائض المبلغ المستقرض إلى أصحابه، ويظهر أوّل وهلة أنّ هذه الرسوم الإضافية تُضر بالتجار، والأمر بالعكس فالتاجر يستجيز بالرسم الجديد إغلاء بضاعته إغلاءً غير قليل، فالضريبة تكون معقبة خيراً له، وجميع ثقله يقع على المستهلك. وهذا النظام متبع منذ قرن واحد في إنكلترا على التقريب، ولما كانت بقايا واردات الضرائب في أوقات السلم غير وافية بالديون المستقرضة في أثناء الحرب كانت هذه الديون الوطنية تزداد رويداً رويداً، وقد بلغت اليوم مقداراً عظيماً وهو عدّة مئات ملايين ليرة استرلينية، وأولو الأمر لا يهتمون بتوفيتها، ولذلك أصبح من الشذوذ بمكان أن ترى الواحد من الشعب يريد ثانية أن يقرض من أمواله على حسب هذه الحال وهذه الشروط، وخاصة أنّ الفائض السنوي للقرض لا يتجاوز خمسة أو ستة في المئة، ومع هذا أحسب أنّ السبب هو ما أنا ذاكره: ذلك أنّ رأس مال الدولة الإنكليزية يزيد على وقاية التجارة وإدامتها، ولكون القانون قد حدّد الفائض بخمسة في المئة لنقود المعاملات فضّل الجهابذة[2] والصيارفة إقراض الدولة على

---

(1) يظهر أنّ لهم موسماً أو ذكرى يضعون فيها دقيقاً على رؤوسهم وهي ذكرى الثالث من كانون الثاني سنة 1591 ذكرى حصار باريس. (المترجم).

(2) الجهابذة جمع الجهبذ وهو متولي أمور المال والكلمة فارسية، والمترجم الفرنسي قد سماهم ـ

إقراض أفراد الشعب الَّذين اعتمادهم الماليّ أقل من اعتماد الدولة، ومع أنّهم لا يرجون البتة استعادة أصول الديون فالطريقة المطردة الَّتي تدفع الدولة الأرباح على حسبها في كل ستة أشهر توحي إليهم الاعتماد والثقة بحيث يجدون دائماً ناساً معتمدين لشراء سهام الدولة نقداً، ومع ذلك فالديون الشعبية أصبحت جد عظيمة حتَّى لتقاسي البلاد منها عسراً، وهذا النظام لن يدوم إذن زمناً طويلاً، والفقير الَّذي هو معفى من أكثر الضرائب لا يحس بها إلّا من الارتفاع في أسعار البضاعة والغلات والملابس، والغني يستطيع تفادي جزء منها بالاستغناء عن الكماليات أي «اللاضروريات». ولكن الطبقات الوسطى من الشعب المتعوّدة أن تتمتع بضرب من الرفاهة تكابد منها ضنكاً وشدَّة، فقد أقلُّوا سالفاً نفقاتهم جداً ولن يستطيعُوا أن يقلّصُوا مباءاتهم الاجتماعية أكثر ممَّا فعلوا بغير الانحطاط إلى طبقة أخفض من الطبقة الَّتي كان فيها آباؤهم يعيشون.

ولقد شعر عدَّة رجال من أبرع السياسيين في إنكلترا بسوء الحال وتحققُوا، بحسباناتهم أنّه لو غُطي وجه أرض الجزيرتين: بريطانيا العظمى وإيرلندا بالذهب ما أستطيع تسديد الديون الشعبية إلّا أنَّ هؤلاء السادة لم يذكرُوا وسائل علاج الضرر الماليّ ولذلك استجزت لنفسي أن أذكر للقراء اقتراح علاج لعلَّ تنفيذه يكون احتياطاً وقائياً من كارثة يمكن أن تُحدث في مستقبل الأيّام إفلاس إنكلترا: فأنا أقترح أن يدعى إلى البرلمان دائنو الدولة ويقول لهم الوزراء: «قد بلغت حال الأمّة من الرداءة حداً لا تستطيع معه الاستمرار على دفع الضرائب الجسيمة الفادحة لها مدة طويلة. وحق لنا أن نخشى قيام ثورة في البلاد وسيبدأ رؤساء هذه الثورة حقيقة بإلغاء الديون الشعبية، وسيعُد الأغنياء أنفسهم جدّ سُعداء إن حُفظت عليهم أملاكهم على اختلاف أنواعها، فإذا ألغيت الديون على النحو الَّذي ذكرناه فقد الدائنون جميع أصول ديونهم ولذلك نرى من الحكمة وحسن التدبير دخولكم في مفاوضة تسوية، وعدو لكم عن تقاضي جزء واحد من أصول ديونكم،

* «البنكيين» أي المصرفيين ويجوز أن يسموا «البنوكيين والمصارفيين» على مذهب أهل الكوفة في النسب وهو مذهب الحضارة العربية في نسبة أهل الحرف والصناعات كالابري والخرائطي والمحاملي والساعاتي. (المترجم).

فالذين ـ مثلاً ـ قبضوا أرباحاً من الدولة منذ عدَّة كثيرة من السنين، سيتخلون عن نصف أصول الديون والَّذين لم يقبضوا إلَّا منذ سنوات خلون، يُضحون بثلثها، والَّذين لا تزال سهامهم جديدة غير مستربحة، يتركون ربعها. ولما كان جميع دائني الدولة ومُقرضيها أغنياء ويملكون، فوق دخلهم، نقوداً وبضاعات ودوراً وأرضين لم يكن شك في أنَّهم، إن أيقنُوا بوقوع خطر ثورة، يوافقُون في الحال على التضحية، وبهذه الوسيلة، تصيِّر الدولة في يوم واحد ديون الشعب إلى نصفها، ثمَّ يقطع المجلس كل صرف غير مفيد، ويستعمل ما يفضل من خراج الدولة في تسديد ما بقي من الديون عليها، وسيسدِّد الباقي في مدة عشرين سنة أو ثلاثين، وستكون الدولة قادرة على إلغاء قسم من الضرائب الباهظة، وسترخص البضاعات والغلات ويستسعد الشعب ويشكر لدولته فضلها.

مساوئ الإنكليز

يجب عليَّ الآن أن أقوم بالأمر الَّذي كلفتنيه السيِّدة «سبنسر» فقد أمرتني هذه السيدة أن أعرض رذائل الإنكليز الَّتي صدمتني أكثر من غيرها من رذائلهم وخاصة ما شهدته منها في لندن، ففيها تهيأ لي من الفرص ما أعانني على دراسة أخلاق هذا الشعب.

فالعيب الأوَّل الَّذي لحظته من الإنكليز هو قلَّة دينهم وميلهم إلى الكفر[1] وهذا العيب في مبادئ سيرتهم الاجتماعية جدّ ظاهر متوافر بين أفراد الشعب، الخليين من كل شعور بالحياء ومن الصلاح. صحيح أنَّهم يتجنبون حاق التجنب خرق القوانين، خوفاً من أن يعاقبُوا ولكنَّهم إن يجدُوا فرصة ارتكاب شيء من غير أن يعرِّضوا أنفسهم لفضيحة يعرفُوا كيف يستفيدون من ذلك الارتكاب، فهم يحاولون دائماً أن يسلبُوا الأغنياء ما عندهم، فيضطرهم بسبب ذلك إلى إغلاق أبوابهم إغلاقاً مستداماً، وفي هذه الأيَّام يعود الفضل

---

(1) قال مصطفى جواد: هذا تطفل في النقد من أبي طالب الرحالة، فلو كان مبشراً بالنصرانية الإنكليزية لقلنا له الحق في ذلك، أمَّا أنَّهم لا يؤمنون بدينهم فذلك ناشئ عن حقيقة دينهم أوَّلاً وعن أسباب كفرهم به ثانياً.

إلى القضاة وشدَّة القوانين في عدم الخوف عدماً بالغاً أقصى حدوده[1] فإن تكن لهؤلاء اللصوص الكرة يحدثوا أكبر النكبات في البلاد.

وعيب الإنكليز الثاني الكبرياء الوقاح، فهم لعتوهم بقوَّتهم لا يخشون الشدائد، ولا يجتهدون في الاحتياط قبل حلولها، أمَّا عوام لندن فقد هاجُوا قُبيل أيَّامنا هذه من أجل الزيادة الفاحشة في الضرائب، وغلاء أسعار البضائع، ولكن الحكَّام استطاعوا بتيقظهم أن يشتتوا هذه الجمهرات، من غير أن يتخذوا شيئاً يزيل جرثومة الضرر، فمن النَّاس من يقول: إنَّ ذلك لم يكن إلَّا فتنة أحدثها الصناع للحصول على أكثر من أجورهم، ومنهم من يقول إنَّ هذا الضرر لم يكن له علاج، ولم يقولوا غير ذلك، ومنشأ ذلك الثقة العمياء الَّتي وضعها الإنكليز في سعادتهم، تلكم الثقة الَّتي تختلف كثيراً عن كبرياء الهنود وكبرياء الفرس.

والعيب الثالث من عيوب الإنكليز هو إفراطهم في حبّ الثروات. والوضاعة الَّتي تصحب البخل في العادة كافية في جملها بغيضة كريهة، ويلام الإنكليز على حبهم الراحة ولكن هذا العيب لا يماثل البلادة الَّتي تصيب المدَّخنين[2] بالأفيون في بلاد الهند وفي القسطنطينية، فإنَّه وحده يجعل تقدُّم الإنكليز وترقيهم في العلوم، وتحليهم بمجاملة أصدقائهم من الأمور المتعذِّرة عليهم، وأنا أرى الفرنسيين في هذا الأمر أكثر تجنباً منهم كثرةً بالغة وقد ترى جماعة من الإنكليز (وهذا العيب الرابع) فتحسب أنَّ لهم أعمالاً متراكمة يجب عليهم القيام بها، مع أنَّ أكثر الَّذين أعرفهم في الجهة الغربية من لندن ليس لهم، على التقريب، من شغل. وبعد الغداء يشتغلون ساعة أو ساعتين، ولكن عامة اليوم يقضونها بالزيارات، وإذا سألت عن بعض هؤلاء السادة أجابك الخادم أنَّ سيِّده قد خرج من داره[3]،

---

(1) قلت: إذن لماذا أتعبت نفسك بذكر شيء قد مضى وانقضى؟ (المترجم).

(2) المدَّخنين على وزن المدَّخرين بتشديد الدال ومن وزن الافتعال الَّذي وضعته العرب لاتخاذ الفاعل الشيء أو استعماله لنفسه كالإدخار والاختباز والائتدام والاغتسال والامتشاط ويجوز غيره شذوذاً. وقد استعمل العلماء «التدخين» وهو عرض قسم من الأجسام للدخان وذلك شيء آخر للاستعمال أيضاً. (المترجم).

(3) نعلم من هذا القول أنَّ زيارة أبي طالب الرحالة كانت مستثقلة عند ناس من سكان لندن. (المترجم).

ولم يكن ذلك إلّا حجّة باطلة للتفادي من الزيارات المزعجة، وإذا رجوت من أحد أن يعينك على أمر وأجابك إلى رجائك ـ مثلاً ـ وعين لك أحد الأصبحة لحضور داره وإخباره بتفصيل الأمر، وحضرت أنت فإنّك لا تتمّ نصف واجب التحية حتّى يُقال لك: «إنّ السيّد يجب عليه الذهاب إلى المدينة العتيقة في الحال من أجل أمر مهم، فعُد إليه في وقت آخر». وتعود ويكون السيّد مجبراً على مغادرة داره، فإن ألححتَ طُردت كما يطرد الطفيلي ولن تستطيع بعد ذلك أن تضع قدميك في داره. إنّ الفرنسيين أكثر سهولة مقابلة وتواضعاً من الإنكليز، ونجدهم دائماً على حظ وافر من التهذيب ولا يظهرون أبداً هذه الأمارات من ضيق الصدر، وعدم الصبر، تلك الأمارات الكريهة الّتي يظهرها الإنكليز.

والعيب الخامس في أخلاق الإنكليز هو سرعة غضبهم واغتياظهم، وهذا الميل إلى الغضب يبعثهم في الغالب على مخاصمة أصدقائهم ومعارفهم بغير باعث ولا سبب، غير أنّ الأجانب قلّما يشكون منهم هذا الخلق، ولما كان المجتمع لا يستقيم وجوده إلّا على التعاطف والتسامح كان حب الخصام في الغالب مبعثةً على البغضاء والتنافر بين أقرب الأقرباء.

ومن عيوب الإنكليز (وهو العيب السادس) تضييعهم القسم الأكبر من أوقاتهم بالنوم والطُّعْم وارتداء الملابس، وهم يحتلقون في كل صباح ويرجلون شعرهم اتباعاً منهم للسبّر الجديد، ويرتدون مجموعة من الملابس الغريبة، وكل هذا التجمُّل المتكلف، يكرّر، ما عدا حلق اللحية، قبل الغداء، بحيث لا يستغرق ازديانهم وحده أقل من ساعتين طويلتين، ويقضون ساعة في الغداء وثلاثاً في العشاء ومثلها للاشتياء[1] ومحادثة النّساء، ويخصصون تسع ساعات بالنوم ويبقى إذن ست ساعات عداً لزيارتهم وقضاء شؤونهم، وعندما يلومهم لائم على تضييعهم الوقت يقولون: «كيف تعمل؟» فأقول لهم: «أقلوا عدّة ملابسكم والبسوا ملبساً

(1) الاشتياء هو شرب الشاي واتخاذه، والاقتهاء شرب القهوة أعني نقيضهما، وهذا هو القياس الّذي ذكرناه من قبل في «الإدخان» لاستعمال التبغ بالطريقة المعروفة ص154. (المترجم).

ساذجاً، وحافظوا على لحاكم واعفوها واقصروا ساعات الطعم والشرب والنوم».

ومن عيوبهم (وهو العيب السابع) ولعهم بالتجمُّل العام فانظر إلى أدوات مطابخهم وأثاث مثوياتهم الغالي الأثمان، وخزانات أدوات طعمهم مملوءة من مصوغات الفضة، وموائدهم تنوء بالغضار والبلور الصناعي الثمين، وسراديبهم مشحونة أنبذةً مجلوبة من كل جزء من أجزاء الأرض، وحدائقهم العامَّة وافرة وحياض الأسماك في دورهم وقصورهم، فهذا كله لا يستعمل إلّا لإثارة أولاعهم، وما أكثر ابتعادهم عن فهم ما قال بعض شعرائهم[1]:

يريد بنو الإنسان أكثر ما رأوا

من المال والدُّنيا كثير قليلها

فلا تطلبن المزعجات فإنَّما

لك الخير في دُنيا قصير مقيلها

إنَّ الشهوات مصدر عامَّة الأمراض الاجتماعية، فهذا تاريخ العرب وتاريخ التتار فيهما عبرة لمن اعتبر، إنَّ هاتين الأمَّتين لم تكونا قد بلغتا فتوحهما الواسعة بكثرة رجالهما ولا بوافق أسلحتهما على أعدائهما، فلم تكن الأسلحة إلّا قسياً وسهاماً وسيوفاً، ولكنَّهما بلغتا ذلك بمعرفتهما تحديد مآربهما وحاجاتهما، فإنَّ رجالهما لما كانوا مستعدين دائماً للقتال اجتزؤوا بأجشب طعام وكان طعام الجند كطعام القائد، وكل نفقاتهم كانت مقصورة على أشياء قليلة، فأمير المؤمنين علي بن أبي طالب صهر النبيّ، كان قبل أن يخرج إلى الحرب يأمر بأن يخبز له من الشعير ما يكفيه عشرين يوماً، ويحمل هذه الرغفان على جمله ويأكل منها كل يوم رغيفاً بعد أن يبلّه بالماء، وهذا كل طعامه، وقد لامه أصحابه على هذه القناعة المتناهية، وحرضوه على اتخاذ طعام آخر فقال لهم وهو المخلص لربه: «إنَّ وقتي

(1) ممّا ترجمته من الإنكليزية إلى العربية، لأنَّ المترجم الفرنسي لم ينقله إلى الفرنسية نثراً. (المترجم).

مقسوم بين عبادتي ربّي والعناية بأمور الجيش ولم يبق لي منه ما أرضي به مذاقي»[1].

والعيب الثامن من عيوب الإنكليز هو «الغرور» فلا يكاد الواحد منهم يُلم إلماماً قصيراً بلغة أجنبية أو علم من العلوم حتّى يلقب نفسه بالمؤلف، ويدفن الشعب بتآليف مخدجات[2]، تتلهى بها الجهالة وحدها، كما يتلهى الطفل بلعبة لا يعلم ثمنها ولا استعمالها، هذا هو الزهو العديم المثال في هذه الأمّة، الَّذي يجعل أمثال تلك المؤلفات تنتشر، ويحصل بها مؤلفها على شهرة رجل عالم متبحر مع أنه عديم اللبّ والقريحة[3].

والعيب التاسع من عيوبهم هو الأثرة وإن أضرّت بغيرهم كائناً ما يكون ذلك الاضرار، فهم يتخطون كل أمر ويقتحمونه لبلوغ مآربهم: كالخضوع والوضاعة، ولا يمنعهم شيء، ولا يكادون يبلغون مآربهم حتّى يستشيطون[4] غيظاً من ضعف نفوسهم فتحل فيها الغطرسة محل الحقارة الآنية[5]، فهم يومئذٍ متشامخون حتّى على حماتهم، غير أنّك مع ذلك تجد فيهم، ممّن هم أقلّ تخطياً للآداب، من يعلم كيف يتكلف بعض المداراة مستعيناً بالتلويحات المغرية، ويغطي بغطاء من الأدب المتكلف، الإضرار الَّذي أوقعه على معامليه أو إخلافه الوعد الَّذي وعدهم إيّاه. وقد جرّبت أنا نفسي برهان هذه الأثرة المشؤومة مراراً لا تُحصى. وهل من حاجة إلى ذكر أفعال بأعيانها بعد ثبوت القضية عندي ثبوتاً إيجابياً؟! فهذه الرذيلة من رذائل الإنكليز معروفة جداً ومتعالمة حقاً.

---

(1) ليت شعري ماذا أراد أبو طالب بضرب هذا المثل أأراد أن يحمل الإنكليز على الاقتداء بسيرة الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وهو نفسه لم يقتد بها حين طاب له العيش في لندن وشرب أنبذتها، بل لم يستطع اتباعها وهو في الهند!! (المترجم).

(2) يُقال: «أخدجت الناقة إذا جاءت بولدها ناقص الخلق وإن كانت أيامه تامة فهي مخدج والولد مخدج «مختار الصحاح».

(3) ناقض الرحالة نفسه بذكر هذا العيب بعد ذكره العيب الثالث الَّذي هو حب الإنكليز للراحلة الَّتي منعت تقدُّمهم. (المترجم).

(4) حقّ هذه الحال فلا تقدر «أن» بعدها للحال.

(5) هذا خلق اليهود ولم يكن الرحالة يعرفهم أو يميزهم. (المترجم).

والعيب العاشر من عيوب الإنكليز هو الفجور والدعارة والفسق البالغة أقصى حدودها، ولا أتكلّم بادئ ذي بدء وآثر ذي أثير على هذا الجمهور من النّساء الفاركات أزواجَهنَّ، التابعات أخدانهُنَّ، ولا هذه الألوف من الفتيات اللواتي يزدرين كل شعور بالحياء ويَعِشن مع الرّجال عيشة المخادنة والمسافحة بل أتكلّم على هذا العدد الهائل من الدور العامَّة للخواطئ القحاب: الدور الّتي لوَّثت كل محال لندن، حيث يذهب النوعان من الرّجال والنّساء، جماعات، فينغمسون في الفجور والعهارة، ففي خورية «ماري لابون» وحدها، الّتي لا تكاد تكون سدس هذه المدينة العظيمة مَن تجاوز عدَّتهنَّ ستين ألف خاطئة، وليس فيها، على ما يظهر، شارع خال من دار عامة للخواطئ وممَّا يزيد هذا العار فضيحة الشوارع الّتي اختارتها أولاء الزواني للسكن يظهر من أسمائها أنّها مخصصة بالدين أو الفضيلة لا غير مثال ذلك شارع «سنت جاك» وشارع «سنت مارتن» لكنيسة «القديس بطرس» اللذان سمّي كلٌ منهما باسم واحد من القدّيسين من رسل السيِّد المسيح وشارع الفردوس و«كورمو ديست». وشارع «سنت آن» وشارع «شارلوت» اللذان سُمّي أحدهما لإحياء ذكرى كبرى الملكات الإنكليزيات، والآخر لإبقاء ذكرى فُضلاهن، فأصبحا ملتقى الفساق والفاسقات، وأوّل الأسباب لهذه الدعارة هو طمع الملاكين، فهم أشدّ إجراماً مائة مرّة من هؤلاء التاعسات الشقيات اللواتي يحملهن الشقاء في الغالب على أن يكنَّ عاراً لنوعهن من النّساء.

والعيب الحادي عشر من عيوب الإنكليز ورذائلهم هو الإفراط في التبذير والافتخار بإنفاق المال فيما لا فائدة فيه، فَزَهْوُهم الكاذب يستديم، من غير ضرورة، أشياء تستنفد دخل أملاكهم وتتجاوزه، كالعربات والخيل والخدم ودور الرقص، ودور السماجات[1] والمساخر والاجتماعات وغيرها، فهذه كلّها أسباب التبذير والإنفاق، وليس من النادر أن تكون نفقات ملذّات ليلة واحدة ألف ليرة استرلينية أو ألفين، ولقد عرفت غير قليل من الإنكليز يتمتعون بدخل مقداره ستة آلاف ليرة إنكليزية أو سبعة. وليس لهم مع ذلك عشر ليرات حاضرة لإنقاذ أحاسن أصدقائهم من إضاقة أصابتهم. فسخافة العقل هذه تتزايد

---

(1) السماجات عند العرب هي التمثيل الهازئ أي المحاكاة الهازلة مع ارتداء المحاكين لملابس مضحكة. (المترجم).

كل يوم، فالتاجر بياع الجمل، وبياع التفاريق يسرعان إلى تقليدها. وعلى هذا لن تكفي أرباح التجارة أبداً في سدّ نفقاتها الجنونية، وينبغي لهما البحث عن وسائل مالية لسدّ العجز، فيستعينان بالغش والخداع، ويتعودان الإجرام، وينتهي الأمر إلى أن لا يخجل الواحد من السرقة في الطرق العامّة. إن أحط طبقات الشعب، على حسب ذوْرهم، تُدغورِهُم هذه القدوة السيّئة فيحل من نفوسهم الإسراف والفجور محلّ المهارة والعمل، وبهذا ترتكس النظم وتنتكس الحكومات. وإن تصل العقلية المشؤومة إلى الوزارة فإنَّ بيت المال سيُبتلع، والطرائق المحرَّمة ستتبع عند الوزراء، ولا شيء أسرع من هذا لخراب الدولة جمعاء.

وقد أنفقت الدولة الفرنسية مبالغ عظيمة، قبل الثورة[1]، على العمارات العامّة والحدائق والإضاءة وغيرها، وكان الجيش البري والجيش البحري، موضوعين لرقابة اقتصادية شديدة في الإنفاق، وكان الأشراف يتباهون بالتجمُّل الشامخ، والطبقات الدُّنيا، بالعكس، تقاسي جميع أنواع الضيق وشدائد الشقاء، فأدّتهم موازنتهم لحالهم بحال الأشراف إلى نفاد صبرهم، فانضمُّوا إلى العصاة، هذا هو تاريخ الثورة الفرنسية بكلمات وجيزة، فليُوقن الإنكليز أنَّ التجمُّل والتبذير قد دمَّر من الممالك العظيمة أكثر ممَّا دمَّرته الحروب، وهذه الرذائل إذا استشرَتْ تُحدث الحسد والاضطراب والبغضاء، وإنَّها تهيج الشعوب وقد أسقطت الإمبراطورية الرومية والدولة المغولية في الهند.

والعيب الثاني عشر هو الاحتقار الَّذي يتظاهرون به لعادات الأمم الأخرى والتفضيل التام لعاداتهم عليها، فالإنكليز الَّذين رافقتهم في السفينة «بريتانية» أثبتوا أنَّهم ملاءة من ذلك الحكم البمتسر[2] على أخلاق الأمم، فسراويلي الفضفاضة وفِضالي[3] للنوم لم يكونا في نظرهم ـ مهزأين ـ أقلَّ منهما ـ عديمي الفائدة،

---

(1) قلت: أوّل هجمة هجمتها الطيارات الألمانية على باريس في الحرب العامّة الأخيرة لم تلق فيها أي قنبلة من القنابل بل ألقت ألوف نسخ من كتاب يثبت أنَّ الثورة الفرنسية قامت بتحريض اليهود وأموالهم لإثبات حقوقهم وتمكينهم في البلاد. (المترجم).

(2) المبتسر هو المأتي قبل وقته ونضجه.

(3) الفضال بوزن كتاب والمفضل والمفضلة: الثوب الَّذي يستعمله الإنسان للنوم وأحياناً لغيره وهو يقابل ما يعرف في عصرنا بالبيجاما: الكلمة الهندية.

وقد ادَّعَوا أنَّ الإنسان إذا نام متجرداً. في التقريب، كان ذلك أدعى إلى راحته. فاحتججت أنا قائلاً لا بل أن يفجأني حادث أستطع في الحال أن أعدو لو كنت في سفينة إلى سطحها أو أقفز إلى قارب، على حين أنهم يكونون في مثل تلك اللحظة مهتمين بارتداء ملابسهم، أضيف إلى ذلك أنَّ هذا سِبري[1] الَّذي هو أقرب إلى الأدب. فقالوا: إنَّ الحوادث الفاجئة نادرة، فإن وقعت فهم لا يترددون في أن يخرجُوا إلى قنطرة السفينة ما عليهم إلَّا قمصانهم، فهذا ضرب من عنادهم الغريب. وقد عيب عليَّ بلندن تفرّد عادات من عادات المسلمين، مثال ذلك أنَّهم استهزؤوا بالاحتفال الَّذي يأتيه الحجاج عند وصولهم إلى مكَّة، فقلت لهم: ما السبب في أنَّ الطفل في أوروبا تعتمد سلامته بالضرورة على التعميد الَّذي يقوم به القسّ؟. ونعَوا عليَّ إنَّنا نأكل بأيدينا المجرَّدة، فقلت لهم: إنَّا نفعل ذلك لكيلا نجرح أنفسنا أو من يجلس إلى جانبنا وقد جاء في الأمثال القديمة «كلَّما قرب الإنسان من العظم ازداد قرباً من اللحم الجيّد» ثمَّ إنَّ هذه الأيدي أنظف من رجلي شاب خبَّاز، فمن المتعالم المتعارف أن نصف ما يأكله اللندنيون من الخبز يُعْجنُ بالأرجل، وهذه الطريقة في الدفاع عن نفسي الجأت خصُومي إلى السكوت وجعلتهم في الغالب ضُحْكة الضاحكين[2].

وليس بين الأمم، إن صح قولي، أمَّة لا يزنها الإنكليز بالمعاب سوى الأُمَّة الفرنسية، وهو الَّذي نعيته عليهم فقد رأينا في أثناء الحرب الضروس كل الضراسة عدداً لا حدَّ له من الإنكليز يقلدون سبر الفرنسيين وترُّهاتهم حتَّى رذائلهم، وكان ذلك بأحمق الطرائق وأغربها.

وليس بين الإنكليز إلَّا ناس قليلون صارحون يسلِّمون وجود جميع هذه العيوب وتفاقمها فأكثرهم بالعكس يُشبهون المدُخنين ببزر القنب في تركيا، فإذا ذكرهم مذكر بفضائل أجدادهم الَّذين اصبح أبناؤهم هؤلاء سُبة عليهم اغتاظوا واعتصمُوا بهذه الحقيقة المبتذلة «ليس بين الأمم أمَّة خليَّة من

---

(1) السبر بكسر السين: الهيأة، يُقال: فلان حسن الخبر والسبر إذا كان جميلاً حسن الهيأة (مختار الصحاح) وقد استعملنا السبر للمودَّة.

(2) سيذكر أبا طالب للإنكليزيات عيب استخدام الخدم الصباح الوجوه، مع أنَّ ذلك الاستخدام يحدث الفساد في الأسر، ولم يعلم أبو طالب أنَّ ذلك من مآرب الإنكليزيات. (المترجم).

الرذائل». وهذا هو منطقهم ـ أعني ذلك الفريق من الإنكليز ـ إنّهم يقولون: إنّ الأمم الّتي يذكرها لنا الذاكرون مثلاً للفضائل ليست بأرفع قدراً منّا ـ نحن الإنكليز ـ، ومهما يطُل علينا الزمن فلن نكون أسوأ من جيراننا، فما الّذي نخشاه؟ إنّ هذا الاستدلال باطل، فكما أنّ النّار الخامدة لحظة بكثرة ما ألقي عليها من الوقود تلتهب فتنتشر بشدّة فكذلك عواقب هذه الرذائل المتكاثفة، ستحدث عاجلاً أو آجلاً سقوط من يستديمها برضا غير خال من الإجرام.

محاسن الإنكليز

بعد أن أمتعت قراء كتابي بإحصاء عيوب الإنكليز ورذائلهم عزمت على ذكر محاسنهم وفضائلهم، فالإنكليز قد تميزوا أوّلاً بلطافة النّفس ورقة الحس وهما ثمرة التأديب والتهذيب، وهذا الشعور الشريف فيهم جدُّ عميق بحيث نرى ناساً أغنياء لا يعوزهم شيء على الأرض يضحُّون بأنفسهم وأموالهم، لأقلّ البواعث، ليرحضُوا أنفسهم من تهمة، مفتراة.

والصفة الحسنة الثانية في الإنكليز احترامهم لرؤسائهم احتراماً يحدو الرؤساء على نيل احترام العالم لهم انتزاعاً لا استتباعاً. وهم يخشون في كل الأمور (وهذه الصفة الحسنة الثالثة) أن يخالفُوا القوانين ويفضلون، في الأعم الأغلب، الحالة المتوسطة على العظمة، المكتسبة بالذلة والدناءة والدسائس، وفي ذلك خير كبير للدِّين والدولة والمجتمع، ذلك لأنّ الوطنيين[1] إذا كانوا طامحين طامعين حاولوا الوصول، مقتحمين كل الموانع، وإن ينجح أفراد منهم يخفق أكثرهم، ويصبحُوا أشقياء دائماً.

والصفة الحسنة الرابعة من صفاتهم هي توقانهم إلى إصلاح حال الشعب، وإن كان لهم في ذلك بعض المنافع، لأنّهم يستريحون في الغالب من حذاقتهم أرباحاً جسيمة، وفي أثناء إقامتي بإنكلترا قل الفحم قلّة بالغة أقصى حدودها، فاخترع أحد العلماء مِرْجلاً وفرناً صغيراً بشكل خاصّ لا

---

(1) الوطنيون سكان الوطن كائنين من كانوا.

يحتاج إلّا إلى وقود قليل بحيث إذا أشعلت قطعة ورق وألقيت في موقده أحمت الماء الّذي في المرّجل مدة غير قصيرة، لطبخ اللحم[1]، وهذه الاختراعات المختلفة توفر كثيراً من الوقت والعمل على النّاس، فخادمان في إنكلترا يعملان ما يعمله خمسة عشر مملوكاً في الهند.

والصفة الحسنة الخامسة من صفاتهم، ويراها ناسٌ ضعفاً نفسياً هي احترامهم الوفير للسبر الجديد «المودّة» فهذا القانون الاختياري يلزم الأغنياء أن يغيّروا في كل سنة أثاث مساكنهم فضلاً عن أشكال ملابسهم، فصاحب الذوق فيهم يرى أنّ ضرباً من العار يصيبه إن بقي مجلسه مزخرفاً بنفس الطريقة، سنتين متواليتين، فهذا البذخ من فوائده التشجيع على ترقية الصناعة، وتستطيع الطبقات الدُّنا من الشعب بذلك أن تحصل بأسعار خفيضة جداً على الأشياء الّتي يتخلى الأغنياء عن استعمالها.

ويجب عليّ أن لا أنسى البتّة الكلام على ساذجية[2] الإنكليز، فملابسهم غير مزخرفة وهي في الغالب ذات لون أدكن. وضيافتهم تستوجب أحسن الثناء، فليس في الأمم من هم أرعى منهم للأجانب، ومع هذا فقد قيل إنّ الإنكليز كانوا متمسكين بجميع هذه الفضائل أقوى تمسّك، وإنّ الجيل الحاضر مدين في كثير من حسن سمعته لأوائلهم.

معايب لندن

وبعد أن صرّحت بحريّة برأيي في مساوئ الإنكليز ومحاسنهم أرى من الواجب عليّ، أن أذكر بالحريّة نفسها جميع ما يستوجب إعادة القول ممّا في لندن، فالحواجز الّتي يراها الإنسان في جوار لندن متعبة جداً ومزعجة حقاً بحيث يجب على المجتاز لها أن يستبدل بنقوده الفضة نقوداً

(1) نحسب أنّ في قول الرحالة هذا مبالغة من حيث كون الوقود قطعة ورق وكون الإحماء لطبخ اللحم. وقد ناقض الرحالة نفسه أيضاً باتهام الإنكليز بالكسل سابقاً وعدم الاختراع. (المترجم).

(2) الساذجية اسم صناعي مشتق من الوصف «ساذج» الفارسي المعرب، وهو اصطلاح الكتاب الشرقيين، وقد استعمل ابن خلدون «السذاجة» ولا وجه لاستعمالها والقياس «السذوجة» كالأبوة والأخوة والأمومة وغيرهما. (المترجم).

رديئة من النحاس فضلاً عن وجوب وقوفه بعد كل خطوة يخطوها، وهو يلقى أيضاً ويسمع في الغالب شتائم زيادة على ما ذكرنا من النصب والخسران في الانتقال والاستبدال.

وعادة سيّئة رأيتها هي أدعى إلى الاشمئزاز ممّا ذكرت، وهي أنَّ الأجنبي إذا أراد زيارة بيت الله ـ يعني (الكنيسة) ـ أو مقبرة الملوك، وأعني بذلك بيعة القديس بطرس ودير «ويستمنيستر» ينبغي له أن يُخرج في كل لحظة كيس دراهم ليتصدق على كل خادم يفتح له الباب، فهذه العادة المخزية معتادة أيضاً في البرج وفي أكثر المباني العامّة الأثرية.

والحريق في لندن كثير الحدوث والتدمير، ويكون أشد إرهاباً وفظاعة بكونه يصيب كثيراً من الخشب المستعمل في بناء العمارات، وقلما تجد في لندن داراً أقل من أربع طبقات متصل بعضها ببعض، والسقوف والدرج والسطوح والأبواب كلها من الخشب، والإنكليز كثيراً ما يستعملون الخشب المركّب سناداً للجدران، ويُبطّنون أحياناً مثاويهم بأخشاب مزوقة، وفي كل مأوى من المسكن موقد فإذا التهبت النّار في دار بإهمال من الخادم أو خبثه تعدت في الحال إلى المنازل الأخرى فتحرق نصف مباني الشارع قبل التمكن من إطفائها. وأنا أكون مجانباً للحق إن لم أذكر المهارة الّتي يطفئ الإنكليز بها النيران، فعندهم مكاين مركبة على عجلات، تنقلها الخيل بأقصر وقت إلى أي محلّة تراد الصيرورة إليها، فهذه الآلات المتحركة تدفق الماء بالضخ صعُداً إلى علو خمسين ذراعاً، ولما كان في كل شارع مسيل معدني للماء فما على المستميه[1] إلّا أن يرفع عنه عِفاصه[2] ودسامه[3] فيدفق منه الماء ويملأ أنابيب الاطفاء الّتي يمكن أن تجذب الماء أربعاً وعشرين ساعة وأكثر منها عند الضرورة، ويدبر أمور هذه المكاين أجراء يأخذون جرايتهم من أهل الخورية، ويُعرفون باسم «المضخّاتية[4]»، وقد

(1) المستميه: طالب الماء.

(2) العفاص في الأصل جلد يغطى به رأس القارورة.

(3) والدسام ما تسد به القارورة وغيرها.

(4) نسبة إلى المضخات كما قالت العرب «الساعاتي» لمدبر الساعات المائية كالّتي كانت بإزاء باب المدرسة المستنصرية ببغداد. (المترجم).

تميزوا بشجاعتهم واستقامتهم، وقد رأى الراؤون منهم من يدخل الدار المحترقة فيخرج أشياء ثمينة منها ليؤدّيها إلى أصحابها، والشيء الوحيد الّذي لم أستحسنه في هذا هو أنّه يجب أن يُدفع مبلغ غير قليل لأوّل أنبوب إطفائي يصل إلى الحريق، وأقلُّ منه للثاني وهكذا دفع أجر المضخات الإطفائية، على نحو لو كانت فيه المضخات خمسين مضخة لوجب أن يُؤدّى عن الحريق، وقد أتلف ما أصابه، مبلغ جسيم إلى المضخاتية، وهذا يضاعف الخسران. ومع العون الّذي يُدرك بهذه المكاين لا يمرُّ يوم لا تصيب فيه النّار جهة من جهات المدينة.

إنَّ سرر الإنكليز لم تعجبني البتة، وهي مؤلفة في العادة، من حشيتين أو ثلاث حشيات فالتحتانية من الريش فإذا اضطجع الإنسان عليها كان كالغّاطس فيها، ولكنّها تطاق في الشتاء، فإذا بدأت حرارة الجوّ أحسّ الإنسان باختناق عند النوم عليها. والسرير مغطّى بقرام[1]، ولحافين ذواتي طرف ضيق فيندحس الإنسان تحتهما من جهة المخدة اندحاساً، وقد كان يذكرني ذلك دائماً بدُبّ رأيته يوماً يدحس نفسه في نقب دوحة[2]، وتلك السُرر عريضة جداً بحيث يحتاج النائم إلى وقت طويل حتّى يدفأ، وإذا انقلب الإنسان من جانب إلى جانب بغير حيطة فاللحافان ينفصل أحدهما عن الآخر ويسقطان أرضاً، وقد تركت في إنكلترا بسهولة عاداتي الأخرى إلّا أنّني كابدت ضروباً من العذاب بنومي على الطريقة الإنكليزية[3]. إن لُحفُنا على كونها محشاة بالقطن ومضاعفة بالنسيج القطن الموصلي خفيفة وهي مفضلة جداً في كل الأحوال.

هذا وأنّنا في الشرق نرتدي باللّيل دائماً ملابس نوم تمنع اللحاف أن يمسّ جلودنا مع أنَّ الإنكليز ينامون متجردين على التقريب، ويستعملون اللحاف الواحد خمسة عشر يوماً متوالية، ويرى السائح في إنكلترا بالفنادق سرراً ذوات قُرُم[4] مبلولة وذلك من أشد ما يضر بالصحة.

---

(1) القرام بوزن الكتاب هو ما يُسمّى اليوم الشرشف والجرجف.

(2) الدوحة: الشجرة العظيمة.

(3) كلام لا يخلو من مبالغة. (المترجم).

(4) القرم جمع القرام وقد تقدّم أنّه «الشرشف والجرجف» على اللغتين العامتين المصرية والعراقية. (المترجم).

وأنا لا أستطيع استحسان عادة الإشراف الإنكليز الّتي هي استخدام خدم صباح الوجوه لنسائهم[1]، وخدمتهم قائمة على الركوب على مآخير عرباتهنّ، ومصاحبتهنّ في أثناء خروجهن من قصورهن، فهؤلاء الفجار يُخفون تحت ملابسهم الخدميّة في الغالب براعة في التمتع الجسديّ، ويجب على الإنسان أن يتذكر أنّ «كوبيدون[2]» لا يرى فرقاً بين الغني والفقير ولا بين الشريف والعامي ولا بين الإمبراطور والسائل.

وأحسبني قد قمت بالواجب عليّ من وعدي بوصف أخلاق الإنكليز، وإنّي متكلّم الآن على الحرب الّتي أوقدتها بريطانيا العظمى في أثناء مقدار من السنين على فرنسا والسلطات الأوروبية الأخرى، وبعد ذلك أواصل الكلام على رحلتي.

جغرافية أوروبا ونظم الحكم فيها

لما كانت جميع حوادث الدُنيا متعلقاً بعضها ببعض تعلقاً وثيقاً وجب عليّ قبل أن أتكلّم على الإنكليز أن أقول شيئاً في حال أوروبا الآن، فأوروبا حدّها الشماليّ ذراع من البحر المحيط، وتُسمّى هذه الذراع بحر البلطيك ويحتوي على أربع ممالك هي مملكة روسيا ومملكة بروسيا ومملكة الدانمارك ومملكة السويد، وهذه السلطات الأربع متحدة في أغلب الأحيان، وروسيا لها المقام الأوّل، والبحر الّذي يحدّ أوروبا من الجنوب يُسمّى «ميديتيرّانه[3]» وهو يحتضن أربع ممالك كذلك: إسبانيا والبرتغال وإيطاليا وسويسرا وبين هذه الدول الثماني أربع دول أخرى: فرنسا وألمانيا وبولونيا وهولندا. وجزيرة بريطانيا وجزيرة إيرلندا واقعتان في الجهة الغربية على مسافة طويلة من برّ القارّة، ويجب أن أشير إلى أنّ ألمانيا وإيطاليا مقسومتان على عدّة دول ليست بقليلة، ولكل دولة ملك وقوانين. ودول

(1) ليت شعري من أدرى أبا طالب أنّ اختيار الخدم واستخدامهم هناك من شؤون الرّجال، وقد ذكر سالفاً من أحوال نسائهم ما ذكره. (المترجم).

(2) كوبيدون هو إله الحب عند الروم أي الرومان والعجب من أبي طالب كيف كان يغار على نساء الإنكليز وهو يعلم استقلالهن. (المترجم).

(3) أي البحر المتوسط وسمته العرب بحر الروم. (المترجم).

أوروبا خاضعة لحكومات مختلفة، ففي قسم منها للملك سلطة استبدادية وفي قسم آخر يحكم الأشراف حكماً استبدادياً، وفي الأحيان يشارك الشعب في الحكم، أو تجتمع النظم الثلاثة على مباشرة السلطة، ومن الدول من لا تعترف بالملوك أبداً، وقد فصلت هذا الموضوع تفصيلاً بسيطاً في كتاب لي اسمه «لب التواريخ» أي قلب التاريخ استخلصته قبل عدّة سنين من كتاب ألفه المستر «يوناثان سكوت».

وملوك أوروبا العظام خمسة: إمبراطور روسيا وإمبراطور ألمانيا وملك إسبانيا وملك فرنسا وملك إنكلترا، والأربعة الأولون ذوو سلطة مطلقة، وقد عرّفنا آنفاً سلطة الملك الأخير، فإن كانت الحكومة الملكية[1] تقدم بعض الخير ففيها أيضاً أضرار كبيرة، فقد يكون الملك شريراً أو ضعيف النَّفس.

وفي سنة 1789 الميلادية رجا الشعب الفرنسي من ملكهم بعد أن سئموا الحكم، أن يطوّر نظام سياسة البلاد وأعربُوا عن رغبتهم في أن يكون الحكم فيهم كحكم الإنكليز، فلم يلتفت إليهم ولا اهتمَّ أحد بشكواهم، وبعد سنتين من التربص رأوا أنَّ تنبيههم ذهب سدى فثارُوا وطردُوا كثيراً من أولي أمرهم، فحينئذٍ استيقظ البلاط من سُباته الَّذي كان غريقاً فيه، ولتخفيف حدَّة الشعب استدعى إلى باريس مجلساً يشبه مجلس إنكلترا في التقريب، وسرعان ما رأى المستاؤون تفاقم قوّتهم فأصبحُوا أشد تحكماً وتطلباً، وأمعنوا في الطلب إلى أن طلبُوا أن تُغير الحكومة الفرنسية وتُجعل جمهورية، فلم تسع الملك الإجابة إلى طلب غير قريب من الرشاد، فأمر بسجن الَّذين فعلوه، فقاوم المشاغبون ذلك وأريقت دماء كثيرة من الحزبين ولكن الغلبة كانت للعُصاة ورفع سكان المملكة علم الثورة فالتجأ الأشراف مع أسرهم، حاملين أغلى ما عندهم وقد رعبهم الخطر، إلى الأقطار المجاورة لفرنسا، فكثير منهم جاؤوا إلى إنكلترا، وبقي الملك وحده، فاعتصم في قصره، ولكن معظم الجيش، كان قد اعتنق مذهب العصاة فرأى الملك نفسه مجبراً على الخضوع، وبعد قليل حُوكم فحكم عليه بالإعدام وأعدم، وكذلك كانت عاقبة زوجه.

---

(1) الملكية بكسر اللام نسبة إلى الملك، ولا يجوز فتح اللام في النسبة لأنَّ الملك اسم جنس والفتح للإعلام كالنمرين قاسط. (المترجم).

ومن ذلك الحين بدأت ثورة كاملة تسيطر على شؤون الدولة وفقد الكبراء كل قوّتهم على حين بلغ أوباش من الشعب أعلى المناصب والمراتب، وقد اختير لتمثيل الدولة أرذل الرذلاء[1]، واختار الشعب الضباط الّذين يحمون بلادهم، وفي هذا العصر، نال «بونابارت[2]» وهو الّذي يحكم في فرنسا اليوم درجة «كولونيل[3] في الجيش الإيطالي، إنَّ هذا الرجل لم يكن فرنسياً فقد ولد في جزيرة كورس إحدى مستعمرات روما القديمة، الّتي اشتهر سكانها بتنهابهم وتسلابهم، وقد قدَّم بادئ ذي بدء خدمته إلى الإنكليز، فرفضوها فانخرط في سلك جيش الثورة الفرنسية، وبشجاعته وسعادة جدّه سما إلى السلطة العليا فنالها، وعلى جلبة الغلبة الفرنسية المتكررة أظهرت جميع الدول الأوروبية أمارات الهيجان، وإنكلترا نفسها أصابتها العدوى، فرجت الأسرة المالكة فيها من جميع ملوك أوروبا أن يصونوا لهم مصالحهم، وظنت الوزارة البريطانية أنّها تعمل لها خيراً بأن أرسلت جيشاً عظيماً تحت قيادة «الدوك دي يورك» ابن الملك الثاني لاجتياح فرنسا، وعقدت عدَّة ملوك (يذهبون مذهب الوزارة الإنكليزية) تحالفاً بينهم وأعاظمهم ملك إسبانيا وملك هولندا وإمبراطور ألمانيا، وقد وعد إمراطور روسيا وملك بروسيا بالانضمام إلى الحلف، وتسلم الملك الأخير من الإنكلترا مبلغاً من المال يزيد على عدَّة ملايين[4] لتجييش جيش ولكنَّه لم يبعث إلى إنكلترا رجلاً واحداً لمعونتها.

وقد استفاد الروس والبروسيون من الوقت الّذي كانت فيه القوى المتحالفة مشغولة بمحاربة فرنسا فاستولت على مملكة بولونيا مؤلفة من أربع عشرة كورة جميلة، فاقتسموها بينهم، وكانت هذه أوّل خيانة تلبَّست بها

---

(1) ذكر بعض المؤرخين الغربيين أنَّ وراء كل من هؤلاء عصابة يهودية تدفعه وتستخدمه في مصالح اليهود. (المترجم).

(2) أراد «نابوليون بونابارت».

(3) الكولونيل عندهم غير محدود الرتبة وقد يكون قائداً عاماً للجيش وأخفض منه رتبة. (المترجم).

(4) لم يذكر أبو طالب اسم النقد المحدود أهو نقد إنكلترا أي الليرة الاسترلينية أم نقد بروسيا؟. (المترجم).

القوى الأوروبية، ولكن هذا المثل السيء سرعان ما وجد من يقتدي به فإنَّ الروس والبروسيين والألمان تقسموا «هانوفر[1]» الَّتي كانت قديماً تابعة لإنكلترا، فجدُّ جدِّ جورج الثالث ملك إنكلترا كان ملكاً في هانوفر وكان له جيش مؤلف من عشرين ألف جنديّ وضرب نقوداً بصورته[2] غير أنَّه مع ما كان عليه من القوَّة كان تابعاً لإمبراطور ألمانيا، فحدثت ثورة أسمته بغتة إلى عرش إنكلترا فاستمر على الحكم فيها بالنيابة[3]. فاستولى هؤلاء الَّذين ذكرناهم عليها غدراً كما قلت آنفاً، وكان الملك جورج يستطيع استرجاعها بسهولة إلَّا أنَّ وزراءه والمجلس أيقنُوا أنَّ امتلاك هذه المملكة كلَّف دائماً إنكلترا، أكثر ممَّا يستحق فأبوا أن يرسلوا جيوشاً لإعادة افتتاحها.

إنَّ الجيش الَّذي استطاعت إنكلترا حشده لمعونة أشياع لويس السادس عشر استولى عاجلاً على حصن طولون وميناتها، وفي تلك الأيَّام اشتق المتحالفون هولندا فأوغلُوا في فرنسا وأمعنُوا فيها واستولوا على عدَّة مدن باسم الأمير الشاب الَّذي اعتقله الثوار، واجتمع مع الحلفاء الملكيون وهم في عدد كبير، وإذا ذاك وجد الجمهوريون أنفسهم في حال حرجة حق الحرج، وكل إنسان كان يتوقع أنَّ الحلفاء سيستحوذون على باريس بعد أيَّام قليلة، ولكن الفرنسيين عزموا أن يخاطروا بجميع حظهم في وقعة عامَّة، فحشدوا جميع قواهم العسكرية وأحرزُوا فلجاً كاملاً على أعدائهم، فأرادت إنكلترا بحماسة شديدة أن تثأر لنفسها بعد هذه الهزيمة إلَّا أنَّ الإسبانيين والهولنديين تخلَّوا عن الحلف، فرأى الإنكليز أنفسهم مجبرين على التخلي عن طولون فأعادوا جيوشهم إلى بلادهم بعد أن أحرقوا ست عشرة بارجة حربية فرنسية كانت في ميناء طولون، واقتادوا معهم السفن الباقية: خمس سفن حربية اصطفافية، وعدَّة سفن حربية أخرى من نوع «الفريكات».

ولما طرد الفرنسيون جميع أعدائهم على النحو الَّذي ذكرته دخلوا في هولندا واستولوا عليها، ووجهوا بعد ذلك أسلحتهم نحو الألمان والروس. وفي أثناء

---

(1) هانوفر مملكة قديمة وهي كورة من بروسية، سكانها ثلاثة ملايين قبل عدَّة سنين. (المترجم).

(2) وكان لدولته شعار خاص بها. (المترجم).

(3) أراد أبو طالب أن يوضح السبب في تباعتها في الحكم لإنكلترا إلى أن استولى عليها الغزاة الَّذين ذكرهم. (المترجم).

تلك الأيّام كانوا ينقلون الأمير ابن الملك الراحل لويس السادس عشر من سجن إلى سجن حتّى هلك هلاكاً لم تعرف كيفيته.

وكان نابوليون بونابارت أيّامئذٍ ينال سُمعة حسنة جديدة يوماً بعد يوم، فأسند إليه (بول فيكونت) دي براس[1] قيادة جيش إيطالية وبعد أن استولى على هذه المملكة توغل في سويسرا ولم يقتصر نجاحه على إزالة الموانع التي لا تحصر بسبب المناخ بل غلب الألمان غلباً تاماً واستولى على جميع البلاد.

وكان الجمهوريون سادة القارة الأوروبية ولكنّهم مع ذلك لم يجرؤوا على اجتياح إنكلترا لفواق القوى البحرية البريطانية على قواهم، غير أنّهم صمموا على مهاجمة أغصان الشجرة، وقد علموا أنّهم لا يستطيعون قلع جذورها ولذلك أرسلوا جيشاً للعيث في هانوفر، وآخر لمعونة المقيمين الكثير من الإيرلنديين، الّذين بعثتهم الخلافات الدينية في الغالب عن أن يثوروا على ملكهم الشرعي[2].

الحملة على مصر

وبينما كانت هذه الحوادث والأحداث تثير اهتمام الأوروبيين أجمعين سافر بونابارت مع جيش عدّته خمسون ألف جندي وكتيبة مدفعية كاملة العتاد والأدوات ليستولي على مصر، وكان ينوي بعد الاستيلاء عليها أن يسير إلى الهند ويتصل بالزعيم «تيبوصايب»[3] لطرد الإنكليز من إقليم الدكن

---

(1) ضابط وسياسي فرنسي، ولد سنة 1755م وتوفي سنة 1829م، وكان من جماعة «الكونفيسونيل أي الاتفاقيين» وألف مذكرات مفيدة جداً. (المترجم).

(2) استغربت دعوى أبي طالب أنّ ملك إنكلترا هو ملك الإيرلنديين الشرعي، ولكنّه أراد أن يرضيهم. (المترجم).

(3) تقدّم ذكره. وفي المعجمات الإنكليزية التاريخية صاحب لاصايب وهي الكلمة الّتي أطلقها الإنكليز على أنفسهم حتّى الجندي منهم للكبرياء وكان تيبو صاحب بن حيدر علي ملك «ميسوري» في الهند، ولد سنة 1749م وخلف ولده في الحكم سنة 1782م ولقب نفسه بالسلطان وحارب الإنكليز على فترات حتّى سنة 1792م حين أجبره اللورد كرنواليس أن يلوذ بالمسالمة ويتخلى عن جزء من بلاده. توفي سنة 1799م في أثناء دفاعه عن عاصمته. (المترجم).

وإقليم البنغال في الهند، وسرعان ما كشف الإنكليز عن خُطته، ولوثوقهم التام بقواهم البحرية العسكرية لم يتداخلهم قلق ولا خوف، فهزموا أوّلاً الجيش الَّذي أبرّ في إيرلندا، وبعد أن أخضعوا العصاة أرسلوا أسطولاً من أساطيلهم لتعقب بونابارت.

وقبل أن اقتصّ تاريخ هذا البحث الحربيّ أرى من الواجب أن أقول شيئاً في الوقائع البحرية الَّتي جرت في أثناء الحرب، ولن أقف عند الوقعات الصغيرة الَّتي جرت بين السفن وحداناً وإنَّما أتكلَّم على الوقائع الَّتي جرت بين الأسطولين الإنكليزي والفرنسي، فقد جرت ست وقعات تستحق الذكرى، كانت فيها إنكلترا هي الظافرة ورأى الفرنسيون أنفسهم مضطرين إلى الاعتصام في حصونهم على حين تجوب البحرية البريطانية البحار وتحول دون استفادة الجنارلة[1] الفرنسيين من ظفرهم على الأرض.

وأوّل ظفر بحري للإنكليز أوقعوه على الفرنسيين كان بالقرب من ساحل فرنسا سنة 1794م، والوقعة البحرية الثانية جرت بالقرب من إسبانيا، والثالثة جرت بإزاء ساحل هولندا سنة 1798م والرابعة جرت بين البحرية البريطانية الحربية والأساطيل المجتمعة لفرنسا وإسبانيا سنة 1801م والسادسة وهي الَّتي ذكرناها من قبل، وهي هجوم اللورد نلسن على كوبنهاكن.

وأعود إلى البحث الَّذي قاده بونابارت فالإنكليز عندما علمُوا بالعُدد الَّتي استعدَّها الفرنسيون للاستيلاء على مصر حسبوا أنَّ هذا الجيش العرمرم قد حُشد إمَّا لاحتلال إنكلترا وإمَّا لمهاجمة الهند، وإذ كان التسلح قد جرى في موانئ البحر المتوسط ووجب على حسب الظنين المذكورين أن يمر الفرنسيون بإزاء جبل طارق سافر اللورد «سنت فنسنت[2]» في أسطول عدَّة بوارجه الحربية خمس وعشرون بارجة ليسد على نابليون طريق المضيق، ولكن سيادته[3] بعد أن طوَّفت في البحر زمناً علمت أنَّ الأسطول الفرنسي

---

(1) ذكرنا سالفاً أنَّ الجنارلة جمع الجنرال وأنَّه الجمع المكسر الصحيح، ومن الخطأ قولهم «جنرالات» كأنَّه جمع جنرالة. (المترجم).

(2) تقدَّم تعريفه في حواشي هذا الكتاب. (المترجم).

(3) ذكره أبو طالب بالسيادة والتعظيم لأنه كان حياً وفي منصبه. (المترجم).

قد جرى مؤخراً في البحر نحو الشرق، وقبل عدّة سنين كان الإسبانيون قد انضموا إلى الفرنسيين، وكان لهم إذ ذاك أسطول من أربع وعشرين بارجة حربية مستعدة للإقلاع، ولذلك أيقن اللورد «سنت فنسنت» أنّه ليس من صواب الرأي أن يترك المضيق بمرة، فأرسل اللورد نلسن في ثلاث عشرة سفينة لتعقب الفرنسيين. وبقي هو لرقابة الإسبانيين في الاثنتي عشرة بارجة الأخرى. ولكن الإسبانيين لم يخرجوا من موانئهم. إمّا لأنّهم لم يروا لأنفسهم منفعة في الحرب وإمّا لأنّهم كانوا لا يزالون يخشون الإنكليز مع فوق قوتهم البحرية والحربية.

وبلغ اللورد نلسن أنّ الأسطول الفرنسي كان قاصداً إلى مصر، فتوجه في أسطوله إلى الإسكندرية غير متلبث، إلّا أنّه لم يقع إليه في خبر الفرنسيين شيء، فاتخذ طريقاً نحو جزيرة صقلية، وقد علم في أثناء اتجاهه إليها أنّ الفرنسيين أرسوا سفنهم وقتياً على ساحل جزيرة مالطة، وأنّهم في غالب الظن بلغُوا مصر، فسرَّ هذا الخبر اللورد نلسن أيما سرور، فجمع ضباطه البحريين ليوعز إليهم بما يجب أن يعملوه بناءً على ما صار إليه من الأمر والنبأ.

ووصل الفرنسيون إلى مصر[1] مفلحين، وأنزلوا جيوشهم على أرضها وصفوا سفنهم في خليج أبي قير، وأقاموا على الساحل مضارب مدفعية،

---

(1) قال الشيخ ياسين بن خير الله العمري في حوادث سنة 1213هـ في كتابه «الدر المكنون»: وفيها ملكت الفرنج من الفرنسة مدينة إسكندرية بالمكر والخديعة ثمّ ملكوا مصر ثمّ الرملة ثمّ غزة ثمّ يافا وفلسطين، دخلوا إلى مصر رابع صفر وشرعوا في الفساد ونهبوا بيوت الأمراء وبيت شيخ البلد... والسلطان سليم لا يعلم حتّى مضى شهران... وعزم السلطان سليم على الغزاة فمنعه الوزير وخرج هو بالعساكر أوائل ذي الحجّة بمائة ألف وعشرين ألف فارس وخرجت السنة وقال اللواء محمّد مختار باشا المصري في كتابه «التوفيقات الإلهامية» ـ ص 607ـ في حوادث سنة 1213 الهجرية الموافقة لسنة 1798م الميلادية: في 17 من المحرّم وصل الجيش الفرنساوي إلى إسكندرية وفي 19 منه استولى عليها وفي 23 قام بقصد القاهرة وفي 26 وصل الرحمانية وفي 29 كانت وقعة شبرخيت وهي أوّل واقعة بين بونابرطة والمماليك، وفي 7 صفر كانت واقعة الأهرام بينهما، وفي 11 منه دخلت الفرنساوية المحروسة وهرب أبو بكر باشا...».

وفي أوّل آب سنة 1798م اختط نلسن خطة للهجوم على السفن الفرنسية مبتكرة تماماً، بعد أن تحقق مواضع السفن بالغ التحقق، فأمر ضباط ست سفن من أسطوله أن يرسوا سفنهم بين الأسطول الفرنسي والساحل، وقام بمثل هذه الحركة من الجهة الأخرى، فأصبح الفرنسيون بنتيجة هذا التدبير الحربي بين نارين من نيران المدفعية، وسرعان ما استسلم القسم الأوّل من الأسطول الفرنسي مجبراً على ذلك، وتمكن اللورد نلسن من تدمير بقية الأسطول، وقد فجأ الفرنسيين هذا الهجوم غير المتوقع فجاءة لا حدّ لها، فإنهم كانوا يحسبون أنهم في حفظ وسلامة من هذه الجهة، اعتماداً منهم على مضاربهم المدفعية الساحلية، وقد عبؤوا، مقابلة جميع مدفعيتهم[1]. بدأت هذه الوقعة مساءً وانتهت في قرابة منتصف اللّيل بانتساف سفينة أمير البحر الفرنسي، وقد رأيت هذه الوقعة ممثلة في ممثلٍ من المماثل الّتي ذكرتها، إنَّ منظرها رهيب حقاً.

الفتوح الإنكليزية

لم يكتف الإنكليز في الحروب الأخيرة بغلباتهم في البحر بل مدوا فتوحهم إلى البرّ، وأعظمها اعتباراً وافتخاراً استيلاؤهم على رأس «بون ايسبيرانس» أي رأس الأمل الحسن[2]، وجميع ملحقاته الواسعة وذلك وبانتزاعهم إيّاه من الهولنديين سنة 1795م ولو أتيح هذا الفتح المهم للفرنسيين واستطاعوا الثبات فيه بأسطول قويّ وافي القوّة لقطعُوا على الإنكليز طريق الهند على ما يظهر، وكان ذلك قريباً من الصحة، وانتزع الإنكليز جزيرة مالطة من الفرنسيين والمارتينيك وسوريتام، ومن الإسبانيين جزيرة مينورقة وجزيرة ترينيته، واستحوذُوا على الجزيرة الثمينة الزاهية «سيلان» ووجدُوا فيها أنابير من الدارصيني وعقاقير أُخرى قيمتها مليونا ليرة استرلينية، واستولوا كذلك على كل المؤسسات الفرنسيَّة والهولندية والدانية في بلاد الهند.

---

(1) في وصف هذه الوقعة البحرية غموض سببه: إمّا سوء فهم أبي طالب وإمّا سوء الترجمة. (المترجم).

(2) تقدّم أنَّ بعض المصريين ترجمه في الخارطة العربية الحديثة برأس الرجاء الصالح. (المترجم).

فتحهم مملكة تيبو صاحب

إنَّ الاستيلاء على «سيرينكا باتام» وموت السلطان «تيبو[1] (صاحب)» حادثان جدّ مشهورين بحيث أجدُني في غنى عن الكلام عليها هنا، عسى ولعلَّ، ومع ذلك أقول قولاً وجيزاً، ذلك أنَّ بونابارت لمَّا استولى على مصر راسل مراسلة خاصة للسلطان «تيبو» ووعده أن يرسل إليه قوى عسكرية قادرة على أن تجعله في حال يستطيع معها طرد الإنكليز من بلاد الهند، وقد وقعت عدَّة من هذه الكتب إلى أيدي الإنكليز أيّام كانوا مُسالمين للسلطان، فرعبتهم أشد الرعب، فطلبوا من السلطان بسبب ذلك أن يسلم إليهم، في أثناء استعار الحرب بينهم وبين الفرنسيين في مستقبل الدَّهر، عدَّة حصون كانت تحمي بلاده، ووعدوه بتسليمها إليه إذا انتهت الحرب، وهي في حالها الأولى، وأعلموه في الوقت نفسه أنَّه إن يُرِدْ أن لا يكون عُرضة للشقاء يجب عليه أن يقطع كل اتفاق ومراسلة بينه وبين فرنسا، فلم يُصغِ «تيبو» إلى أقوالهم ونصائحهم[2] إمَّا لأنَّه لم يعلم عظم قوَّة الدولة الإنكليزية وإمَّا لأنَّه اعتمد في رفضه على وسائله في الحروب الَّتي استدامها في قتالهم سالفاً، في عصور كان الاضطراب مهيمناً على مجالسهم، ولعلَّه نسب الاعتدال الَّذي أتاه الإنكليز في فرصة سابقة إلى شعور بالضعف، وصمم على القتال، ولكنَّه لم يتبع الفن الحربي الَّذي طبقه أبوه (حيدر علي) وهو تخريب البلاد وإلغاب الإنكليز بفرسانه شلاً وتعقباً، بل خاطر بقواته العسكرية بلا تبصر في محاربتهم في وقعة عامَّة، قياساً منه لها بالمناوشات المكرَّرة الَّتي كان يناوشهم إيَّاها، فلما هزموه اعتصم في حصن «سيرينكاباتام[3]» وأخذ يدافع من غير جدوى رجالاً أقدارهم وتجاربهم اعتقلت لهم الظفر اعتقالاً.

---

(1) تقدَّم ذكره وقد قتل في الدفاع عن عاصمته هذه سنة 1799م وسيفصل المؤلف ذلك أحسن تفصيل. (المترجم).

(2) أنا أعجب من أبي طالب وحسبانه أنَّ الأنكليز كانوا بطلبهم ناصحين والظاهر أنَّه كان إنكليزي الهوى والسياسة، ومتى أؤتمن الإنكليز ووفوا بوعودهم حتَّى يثق تيبو صاحب بهم؟. (المترجم).

(3) تقدَّم ذكر هذه المدينة وأنَّها كانت عاصمة سلطنته. (المترجم).

وأحاط الجيش الإنكليزي بالعاصمة المذكورة بقيادة الجنرال «هريس» وأحدث من فوره ثقباً في السور دخلت منه المدينة فرقة كبيرة من الجيش فحمس السلطان جنوده بشجاعته هو نفسه، وما انفك يقاتل في مقدّمتهم، فلما جرح ثلاث جراحات سقط من ظهر فرسه تحت الباب المؤدّي إلى الحصن الداخل ومات بعد وقت قليل، ولما استولى الإنكليز على الحصن المذكور بحثوا عن جثة السلطان فلم يعثروا عليها إلّا بعد ساعات تحت تل من الجثث، وبالاستيلاء على هذا الحصن استولوا على ثروة الأسرة ومال أقاليم السلطان. وقلما كان فتح في سرعة هذا الفتح، فقد أجزأت فيه أربعة أشهر للاستعداد وتنفيذ هذا الحادث المستحق الذكر، ولو استمع «تيبو» لنصائح التبصُّر والتدبُّر لوكل الدفاع عن «سيرينكاباتام» إلى أحد قواده، وواصل الحرب بجيشه، قاطعاً على أعدائه مراكب المؤن والذخائر، مُلغباً لهم باستمرار، فيطيل الحصار، ومع كل ما يحدث كان يستطيع الالتجاء إلى بعض أصقاع أقاليمه ومواصلة الحرب، ولكنَّه كان له من الإفراط في الكبرياء ما منعه من مغادرة حصن فيه ثروته وأسرته، فاستبسل في الدفاع إذن عن أمواله الّتي وضع في امتلاكها عزَّته، ولقد أصاب الحقيقة بعض شعرائنا بقوله:

إذا الســعــادة يــومــاً فــارقــت رجــلاً
أتــى مــن الأمــر ضــدَّ الــواجــب الــعــمَــلُ[1]

الفرنسيون في مصر وفلسطين

ويفتخر الإنكليز بأنَّهم طردُوا الفرنسيين من مصر واستولوا عليها بعض الزمن، ولإيضاح ذلك أرى من الضروري أن أتكلَّم بإيجاز على غزو بونابارت لمصر فإنَّ هذا الجنرال أنزل جيوشه في موضع مجاور للإسكندرية ولم يكن الأتراك في حال تمكنهم من المقاومة، فاستولى بأيَّام قليلة على حصن الإسكندرية، ومن هناك زحف إلى القاهرة الكبيرة[2]، وهذه المدينة على كونها

(1) ترجمناه نظماً كما فعلنا بأشعار المؤلف واستشهاداته السالفة. (م).

(2) هكذا ورد الاسم في النسخة الفرنسية ولم نعرف بمصر قاهرة صغيرة حتّى يصح هذا التمييز. (المترجم).

عاصمة هذه المملكة، كانت حاميتها عدداً قليلاً من المماليك والأتراك والأقباط مسلحين بالدبابيس المقاليع[1]، وسرعان ما شتتت الجيوش الفرنسية الظافرة هذه والعصابات غير المدرَّبة، وكان كثير من المماليك مشمئزين من الحكومة التركية فانضموا في الوقت نفسه إلى الظافرين، ولاذ البقية بالفرار إلى الصحارى، وهرب الأتراك إلى القسطنطينية تاركين هكذا للفرنسيين استيلاءهم على هذا القطر بلا مقاوم لهم ولا منازع.

وعقد نابليون بونابارت العزم على الاستيلاء على سواحل البحر في شرقي البحر المتوسط بدلاً من أن يبعث جيشه إلى الهند، فعل ذلك إمَّا للخوف الَّذي أصابه بعد تدمير أسطوله في أبي قير وإمَّا تظنياً للمجد الَّذي كان ينتظره في باريس، وقد حسب أنَّه إذا سيطر على هذه النواحي البحرية يسهُل عليه جداً أن يُبطل السفن البريطانية المطوِّقة في البحر، ولذلك العزم توغَّل في فلسطين وسوريا بجيش كبير العدد وزحف نحو عكا فحاصرها، وكانت مُقاماً لأحد البواشية الأتراك ويعرف بجزَّار باشا، وهو الحاكم، وكان ذا شجاعة، ثبتت على كل ابتلاء، ولكنَّه كان قليل العلم بالتعبئة الحربية الأوروبية، وليس تحت أمره إلَّا حامية غير مدرَّبة، فأصابه قلق شديد عند اقتراب الفرنسيين المظفرين، يقودهم قائد راعب.

وإذ كان السير «سدني سميث» ضابط البحرية البريطانية يطوف في أسطول مؤلف من ثلاث بوارج حربية في البحر المتوسط بلغه ما عزم عليه بونابارت، فعرض خدمته تبرعاً لتأييد الدفاع عن عكا، وقبِلَ ذلك جزَّار باشا، فورَّى الضابط الإنكليزي بوارجه في موضع تكون فيه تحصيناً لحصن عكا، وأبرَّ في طائفة من نُوتيته، وعين للأتراك أضعف التحصينات في الحصن المذكور، وأعانهم على ترميمها ثمَّ وزع جنوده بين المواضع المحتمل الهجوم عليها، وفي أثناء ذلك كان بونابارت يعد العُدد الضرورية لتدمير حصن عكا وفتحه وقد ملأت نفسه الثقة بشجاعة الفرنسيين المعتادة، فهجمت جنوده على الحصن إحدى عشرة هجمة، في كل منها كانت ترد على أعقابها بدفاع المدافعين من

---

(1) جمع المقلاع وهو مؤلف من حبلين دقيقين وثيقين يلتقيان في حاضن من النسيج عريض يوضع فيه الحجر أوالحصاة فترمى، وقد صحفه العوام العراقيون أوَّلاً إلى «المعقال» ثمَّ أبدلوا من القاف جيماً فارسية فصار «المعجال» كما هو شائع الآن. (المترجم).

الجنود المتَّحدين الأتراك والبحريين الإنكليز، ففقد نحواً من خمسة آلاف جندي، من جيشه واضطر إلى النكوص إلى مصر.

إنَّ أعداء بونابارت الَّذين هم بباريس أيَّامئذٍ اهتبلوا هذا الحادث لإساءة القول فيه إلى حدِّ البهتان، فتركته الجمهورية عدَّة أشهر من غير أن تبعث إليه بعتاد حربيّ ولا أن ترسل إليه مدداً من الجند والمال، وهو الأمر الَّذي يجب أن يعزى إلى دسائس الوزارة الإنكليزية.

وفي أثناء تلك الأيَّام وقع تحالف ثان بين الدول العدوّة على ضرب فرنسا، وأخذت روسيا وألمانيا تعللان أنفسهما بالاستيلاء عليها، ومع قيام الأحزاب فيها واصطدامها في وسط تلك الجمهورية لم يشك الفرنسيون لحظة في أنَّهم هم الظافرون ولكنَّما يجب قمع الفتن وقطع الفساد. وأرسل حزب قوي من الأحزاب إلى بونابارت يستجعله في الرجوع إلى فرنسا، وفيها يُسند إليه محبو النظام منصب «القنصل الأوَّل». واستجابة لهذه الدعوة بالمراسلة أسند بونابارت قيادة الجيش الفرنسي في الشرق إلى الجنرال «منو»[1] وهو امرؤ ضعيف النَّفس خوَّارها. وأبحر بونابارت سراً ومع التيقظ الَّذي كانت عليه السفن البريطانية المطوفة في البحر وصل إلى فرنسا سالماً، وفي غد يوم وصوله إلى باريس اجتمع ممثلو الأمَّة، على حسب عادتهم، من غير أسلحة ولا حراس، وما كادُوا يبدؤون نقاشهم حتَّى دخل بونابارت يحف به أشياعه وعشرون جندياً مسلحون، فاعتقل جماعة من الأعضاء كانوا أشدّ المتعصبين عليه في الحزب المضاد له، وصرف الآخرين مُعلماً لهم أنَّه ليس من حاجة إلى خدمتهم بعد ذلك اليوم، ثمَّ وزع جميع الوظائف والمناصب بين أتباعه وأتباعهم[2]، وصار بانتخابهم على طريقة التصويت

---

(1) جاء في معجم لاروس الأوسط وهو مرجعنا في أغلب التراجم الأجنبية أنَّ اسمه «جاك فرانسودي منو» وأنَّه جنرال فرنسي، ولد في بوساي سنة 1750م وتوفي في منتبز سنة 1810م وقاد الجيش الفرنسي بمصر بعد قتل كليبر، ولكن الإنكليز حاصروه واستسلم لهم بالإسكندرية. وجاء في معجم كامل الجغرافي الإنكليزي أنَّه أيد الثورة الفرنسية ودافع عن تسليح الحرس الوطني وصحب نابوليون إلى مصر وأسلم هناك وتسمَّى بعبد الله. وهذا لم يعجب لاروس أعني إسلامه فلم يذكره لأنَّ القائمين على لاروس يهود. (المترجم).

(2) أي أتباع الأتباع. (م).

«قنصل الجمهورية الفرنسية الأوَّل» وتسلَّم بعد ذلك عاجلاً قيادة الجيش وزحف نحو المتحالفين، وبظفر ذي بال ظَفِرهُ سوَّغ لفرنسا التحكم والاختيار، وإذ كان أعداؤه يتضرعون في طلب السلم دخل هنا القائد الظافر في العاصمة وكان في انتظاره مجد استقبال الغازي والاحتفال به.

وبعد أشهر من منحه السلم للروس والألمان تلقب بلقب «رئيس جمهورية إيطاليا» وجعل تسميته بالقنصل الأوَّل دائمة مدى الحياة، وتعالت سلطته على هذا النحو يوماً بعد يوم، وبالتدرج استلب كل سلطة الحكومة. وفي أثناء إقامتي في مرسيليا ضرب نقداً بصورته، مع أنَّه لم يكن يومئذٍ متقلداً رتبة «الرئيس الأعظم».

وبعد مغادرة بونابارت لمصر أرسل السيِّد الأعظم[1] جيشاً عرمرماً تحت قيادة الوزير الأعظم يوسف باشا لطرد الفرنسيين من مصر، ولكن الأتراك على كثرة جنودهم هزمهم الفرنسيون هزيمة منكرة، وقدَّموا للعالمين برهاناً جديداً على عدم تجاربهم وعلى شجاعة الفرنسيين، وإنَّ هذا الحادث قد كان كشف الغطاء الَّذي كان مُرسلاً سنين طويلة على القوَّة التركية الخيالية للأتراك[2]، فقد فتحوا قديماً فتوحاً واسعة في أوروبا، ونتائج حربهم الأخيرة للقوى النصرانية الَّتي تجاورهم، ظهرت بأتم الظهور فتأهب الألمان والروس للاستفادة من أقل النكبات الَّتي تصيب الأتراك في منازعتهم للفرنسيين[3].

---

(1) هذا لقب السلطان العثماني عند الأوروبيين أيّامئذٍ وقد تقدَّم أنَّ السلطان أيّامئذٍ هو سليم الثالث. (المترجم).

(2) كان أبو طالب يعلم أنَّ الحروب تطورت بآلاتها وتعبئتها ووسائلها كسائر شؤون الدُّنيا، ولم يبلغ الأتراك في التطور أو التطوير ما بلغه الفرنسيون أيّامئذٍ، فهذا سبب الهزيمة لا ما ذكره أبو طالب من الغطاء وغيره من كلام التشفي. (المترجم).

(3) قال الشيخ ياسين العمري في حوادث سنة 1216هـ وهو من كتاب الدر المكنون: «وفيها نزل على مصر الوزير الأعظم يوسف باشا. فحاصرها يومان (كذا) وفي الثالث أرسلت الفرنسية يطلبون الأمان فأمنهم وخرجوا من مصر وقد بقي منهم ستة آلاف علج وقبل عشرة آلاف ونزلوا بالمراكب وكان قد هرب قبلهم مقدمهم برنه بول (بونابارت) في مركب خفيف وفيه أموال المسلمين والانكروس (الإنكليز) ونجا منهم...». (المترجم).

وإذا كانت الأمور بالغة هذه الحال أرسل الإنكليز «خمسة عشر ألف» جندي بقيادة الجنرال «أبركرومبي[1]» لإعانة الأتراك على طرد الفرنسيين من مصر، وأرسلوا جيشاً ثانياً من الهند في طريق البحر الأحمر والسويس ليشارك الأوّل في هذه الحرب، فأنزل الجنرال «أبركرومبي» جيشه في أبي قير، ولم يمنعه مجهود الفرنسيين في تحصيناتهم للساحل بمضارب مدفعية كثيرة، وألجأهم إلى الاعتصام في حصن الإسكندرية. وبعد أيّام من هذا الحادث أمدَّ الجنرال «منو» الفرنسيين بمدد من الجنود الّذين وصلوا حديثاً من القاهرة، وآل الأمر إلى ملحمة عامّة بين الإنكليز والفرنسيين، أسفرت عن هزيمة الفرنسيين، وإن سقط الجنرال «رالف أبركرومبي» وأربعة آلاف إنكليزي من جنوده قتلى.

وطُحنت في هذه الوقعة فرقة فرنسية شهيرة كانت مع بونابارت في جميع فتوحه ونالت لقب «الفرقة الظافرة القاهرة»، وأرز الفرنسيون بعد هذه الصدمة إلى الإسكندرية ولم يلق الإنكليز في هذه الوقعات الأخيرة أقل عون من الأتراك، ولم يكن ظفرهم إلّا بأسلحتهم هم أنفسهم.

وفي نحو هذا الوقت نزل جيش الإنكليز الآتي من الهند، في «القصير» على البحر الأحمر واستعدّ لاجتياز الصحراء ابتغاء الوصول إلى شواطئ النيل، وقد جمع الوزير الأعظم التركي، عوداً على بدء، جيشاً كبيراً، بعد أن نعشَ نفسه ظفر حُلفائه، وزحف فيهم نحو القاهرة، وبرجائه زحفت معه كتيبة من الجيش الإنكليزي، فحاصروا المدينة المذكورة، وكان الخلاف قائماً أيّامئذٍ بين القواعد الفرنسيين، وكانوا قد يئسُوا من أن يأتيهم مدد من فرنسا كل اليأس، فارتأوا أن يستسلموا فيسلموا القاهرة إلى الوزير الأعظم على شرط أن يرجع جيشهم إلى فرنسا من غير عائق يعوقهم، ودخل الإنكليز الإسكندرية على الشرط نفسه، وهكذا ترك الفرنسيون مصر واضطروا إلى العدول عن أمل الوصول إلى الهند في هذا الطريق.

ولما رأى بونابارت أنّ جزيرة مالطة ومصر وقعتا في أيدي أعدائه أراد خفية أن يعقد سلماً إلّا أنّه للتغطية على إرادته هذه إزاء أعداء فرنسا تظاهر

(1) ولد سنة 1734م وخاض حروباً وجرح في وقعة الإسكندرية فمات سنة 1801م. (المترجم).

بأنه مصمم حاق التصميم على مواصلة محاربته للإنكليز بشدة مستأنفة، وعلى هذه الخطة حشد جيشاً هائلاً في «كاليه» الميناء المجاور للإنكلترا، والمؤازي لدوفر وجمع في الموضع نفسه كثيراً من السفن المسطحة القعر والقوارب المسلحة بالمدافع ليعبر جيشه المضيق، ولا يزيد عرضه في ذلك الموضع على واحد وعشرين ميلاً.

وأقام الإنكليز في جوار «دونر» جيشاً عظيماً بقيادة اللورد «كورنواليس»[1] لمقاومة هذا الغزو، وأرسلُوا اللورد نلسن مع عدَّة سفن حربيَّة صغيرة لتدمير تلك القوارب الركيكة، ففي الهجمة الأولى خسَف أمير البحر هذا عدَّة زوارق، ولكنَّها لكونها مسلسلة معاً بسلاسل لم ينل النجاح الَّذي كان يأمله، وفي الهجمة الثانية، كان الفرنسيون قد علمُوا بها قبل وقوعها فوضعُوا على قناطر الزوارق جنوداً مسلحين بالسيوف والخناجر حَسْبُ، وإذ كانوا على هذا الوضع انتظروا بسكون أن يقدم الإنكليز على الزوارق هاجمين ويحاولوا قطع السلاسل فينقضُوا عليهم ويجبرُوا اللورد نلسن على النكوص بعد أن يدمِّرُوا من بحريته سبع مائة رجل، ولكن سرعان ما أظهر الفيلقان إصفاقهما على عقد سلم بينهما، فأرسل الإنكليز اللورد كورنواليس إلى فرنسا مطلق التصرف في المفاوضة لإصلاح ذات بين الدولتين في جميع الخلافات، وبعد نقاش بين المتفاوضين دام ثلاثة أشهر عقدت مُعاهدة هذه موادها:

1 ـ تبقى كل الفتوح الَّتي فتحتها فرنسا في إيطاليا وسويسرا وألمانيا وهولندا محفوظة عليها أبداً.

2 ـ تبقى جزيرة سيلان وجزيرة «ترينيته» تحت حكم الإنكليز.

3 ـ يُعاد رأس الأمل الحسن إلى الهولنديين، ومصر إلى الأتراك ومالطة إلى مالكيها الأولين. وقد أشاع هذا الحادث السرور بين سكان لندن، وقَضيت ثلاثة أيَّام كاملة بالأفراح الشعبية، وكانت الأضواء في كل ليلة بكثرتها وشعاعها تفوق نور القمر.

---

(1) تقدَّم ذكره غير مرَّة في هذا الكتاب وكذلك تعريفه. (المترجم).

مغادرة أبي طالب لندن

قد كنت أنتظر فرصة سلام عام لأستفيد منها، تحقيقاً لرغبتي منذ مدّة في الرجوع إلى الهند وزيارة عدّة أقطار استثارت شهرتها في نفسي ميل التعرُّف وارتأيتُ أن ألتحب طريق فرنسا فألمانيا فهنغاريا إلى القسطنطينية وأعبر منها إلى آسيا وأشتق بلاد العرب وأصير إلى الخليج العربي، فتكون المسافة في البحر قصيرة جداً لدخولي بلاد الهند.

وبعد إقامتي في لندن سنتين وخمسة أشهر ودَّعت أصدقائي، وبالعاشر من صفر سنة 1217 الهجرية الموافق اليوم السابع من حزيران سنة 1802 الميلادية[1]، سافرت إلى دوفر وكانت المسافة الّتي قطعتها إليها سبعين ميلاً، وقد وصلنا[2] إليها مساءً، وإذ علمت أنّنا لن نقف في أثناء تلك المسافة لنتغذّىٰ، عزمت أن أطعم من طعام جيّد نفيس، قبل أن أغادر هذه البلاد الحبيبة[3]، ولكن أهل دوفر كانُوا جدّ متمسّكين بالعادات الفرنسية، بحيث كانت عاقبة انتظاري أنّ جميع الألوان المعدَّة كانت على ذوق الفرنسيين في مطابخهم، والّذين كانُوا في الفندق الّذي نزلناه لما رأوني أجنبياً، لم يتخاطبُوا إلّا باللغة الفرنسية، وأمرٌ واحد أكّد لي أنّهم لم يعدلُوا عن عاداتهم بمرّة هو أنّهم ضخّموا قائمة النفقات تضخيماً مبايناً للمعقول فكل شيء قد رفعُوا سعره إلى سبعة أمثاله في العاصمة لندن، وموظفُوا الكمرك عُرِفُوا أيضاً بجشعهم حتّى لقد عاشروني من أجل أشياء ليست خاضعة للمكس للبتّة. وقد رافقني لحسن حظي في السفر من لندن إلى دوفر تاجر إنكليزي أمريكي ذو خلق لطيف جداً. وكانت طيّته القصد إلى باريس لاسترجاع سفينة استولت عليها ظلماً بارجة فرنسية حربية من قبل، ولما

---

(1) ذكر محمّد مختار باشا في التوفيقات الإلهامية ـ ص 609ـ أنّ أوّل صفر لسنة 1217هـ هو الخميس وأنّه يوافق اليوم الثالث من حزيران، وعلى هذا التقويم يجب أن يكون اليوم العاشر من صفر مساوياً للثالث عشر من حزيران. (م).

(2) أراد أن يشعر القارئ بقوله «وصلنا» أنّه لم يكن وحيداً في السفر. (م).

(3) سرعان ما صارت عنده حبيبة. (المترجم).

رأى الغِش الَّذي أصابني من أهل دوفر، وعلم أنِّي أجهل اللغة الفرنسية أفحش الجهل، تفضَّل عليَّ بأن كان لي ترجماناً يُفهمهم ما أقول وما أريد.

وباليوم الثاني من وصولنا إلى دوفر أبحرنا وبعد ستّ ساعات أبررنا في «كاليه» ميناء فرنسا المشهور، فتعشينا في «كاليه» وركبنا عربة سميت «السريعة» واسمها مباين لحقيقتها، فهي في هُوَيني سَيْرها قد ذكَّرتني بعربات هندستان الَّتي تجرُّها الثيران، وبعد ثلاث ليال ونهارين من السياحة المواصلة وصَلنا إلى باريس.

أبو طالب في فرنسا وباريس

وفي جميع الطريق بين كاليه وباريس رأيت ما أبهجني وحَليَ في عيني من هذه البلاد الجميلة المزروعة أحسن زراعة، ومررت بمزارع حنطة مأمولةٍ وفارةٌ غلأتها، ومفصولٍ بينها بكروم، وببساتين تكلّل أشجارها ثمار لذيذة، وبسواقٍ رائقة المياه تجري من تحت الطريق في عدَّة مواضع وتنسل بين مسافة وأخرى من تحت قناطر من الحجر بديعة البناء محكمته وقويته. وبالاعتماد على نقاط الارتشاء هذه على اختلافها أرى أنَّ فرنسا تفوق إنكلترا، ومع ذلك رأيت قطعان الماشية في فرنسا هزيلة وذات مظهر كئيب، وهي في هذه الحال من الهزال تشبه ماشية بلاد الهند، والخيل في فرنسا يظهر أنَّها موصولة الأرس[1] بخيل الفرس والعرب، وأنا أفضلها على خيل الإنكليز، ولكن بعضهم أكَّد لي أنَّها ليست في أكثر صفاتها تشبه تلك في الجودة والفراهة. وفي فرنسا نوع من الكلاب جد صغار بحيث تحملها السيدات تحت أذرعهن، خشية فقدانها أو إتعابها.

والطرق في فرنسا طويلة جداً ومستقيمة كل الاستقامة، وجِفافاً كل طريق مغروس فيهما صفان من أشجار وارفة الظلال[2]، فتكون بالصيف ملاذاً جدّ صحيّ للسائح يقيه من المطر ومن أشعة الشَّمس الحارَّة، وكثير من المدن مسوَّرة بأسوار حتَّى لتظهر كأنَّها حصون.

---

(1) الأرس: الأصل والعامَّة تسميه «الرس».

(2) تقدَّم ذكر المؤلف أنَّ ابتداء سفره كان في حزيران وهو شهر تطيب فيه الظلال. (المترجم).

وقرى فرنسا تظهر عليها أمارات الفقر المدقع، ونساء الريف لا نرى عليهن العيونُ المستعجبة إلّا ملابس الشقاء فتصرُّفهن وأرديتهن تظهرهن كأنهنّ غريبات عن بلادهن، وإن نُقايس بين ملابس فتيات القرى ببلاد الهند وملابس الفلاحات الفرنسيات نجد ملابس الأوليات تفضل ملابس الأخريات، والفنادق ألّتي في الطرق تشمئز النُّفوس من قذارتها، ولا يود الإنسان أن يتناول من أطعمتها إلّا إذا اضطرته الحاجة إليها. وإذ كنت مصمماً على أن لا أقيم بباريس إلّا قليلاً لم أفرّط في وقتي لكي أطلع على جميع أقسامها، وهأنذا أصف باريس وأذكر نظرة قصيرة في أخلاق أهليها.

إنَّ باريس عاصمة فرنسا مدينة واسعة جليلة، وتفوق كثيراً لندن بجمال ظاهرها، وجميع عماراتها العامَّة مبنية بالحجارة المهندمة، ولا تقل طبقاتها في الغالب عن الثماني، وفيها طائفة من الدور ذات تسع طبقات، ويشتقها من الشرق إلى الغرب نهر عريض يُسمَّى «سين» وعليه عدَّة جسور، ثلاثة منها جميلة وهي تقارب جسور لندن في الطول. وفي باريس كثير من الحمامات الحارة والحمامات الباردة، وقد أعجبتني ألّتي أنشئت على السفن المربوطة على النهر، وأرى من الواجب أن أذكر ذرواً من كيفية إنشائها، فأوّل شيء في ذلك إعداد سفينة عريضة مسطحة القعر، وإنشاء غرف فوقها مزوقة تزويقاً لائقاً، وفيها أثاث يسير، وفي كل من هذه الغرف «أبزن» من النحاس يُستحم فيه، والقسم الأعلى من السفينة يحتوي على مراجل ماء حار، ومآجل[1] ماء بارد، وأنابيب ذاتَ حنفيات تصب الماء في الأبازن[2] ألّتي هي تحتها بحيث يستطيع المستحم أن يغير درجة الحرارة ودرجة البرودة بحسب ما يوائمه، والمآجل تمتلئ والأبازن تُفرغ بمضخات، تحركها جريةُ ماء النهر، وهذا المضاخ تمد بماء غزير معتدل البرودة ولا تكلف نفقة سوى أجرة رجلين أو ثلاثة رجال موكلين بجعلها نظيفة جداً وفي حال جيدة.

---

(1) ورد في قاموس الفيروز أبادي «الأبزن مثلثة الأوّل: حوض يغتسل فيه وقد يتخذ من نحاس، معرب آب زن» وجاء في سيرة إبراهيم الموصلي من حديث علوية الأعسر «دخلت على إبراهيم الموصلي في علته ألّتي توفي فيها وهو في الأبزن وبه القولنج ألّذي مات فيه وهو يترنم...» ج5، ص221. (م).

(2) المآجل جمع المأجل وهو حوض الماء. (المترجم).

وفي باريس حمامات للنِّساء خاصة من النوع الَّذي ذكرته آنفاً، ولا يخدمهن فيها إلَّا نساء أيضاً، ولعدَّة من هذه السفن درجات مُغطاة تؤدِّي إلى النهر، وهي خاصة بالأشخاص الَّذين يريدون أن يسبحوا ويعوموا، وعدَّة أخرى منها لها قناطر قريبة من مُؤخر السفينة، عليها منضدة وضعت عليها مرطبات للذين يحسون باشتهاء بعد الاستحمام أو يريدون أن يقعدوا ليتمتعُوا بالمناخ المعتدل البرودة أو بالمنظر الرائق للكلاءات الَّتي على شاطئ النهر.

ومقاهي باريس تفوت الإحصاء كثرة وتتميز جميعها على التقريب بالنظافة والأناقة والرونق، ولا يلتقي الإنسان فيها كما يلتقي عند الألمان والهولنديين جمهرات من المدَّخنين المستعشين الَّذين كأنَّهم لا يُرون من كثرة الدخان المتكاثف الثخين المخدر، ويختلف إلى هذه في الأعم الأغلب، ألوف من رجال الجيش وأهل الأدب، وينجذب إليها الشبان العاطلون والشابات العاطلات إمَّا للعب بالبليارد وإمَّا للاطلاع على جريدة الأسبار الجديدة «المودات».

وقد كنت تعوَّدت ما تُصلحه المطابخ الإنكليزية من الطعام[1] حتَّى لقد حُرمت لذاذة المائدة دائماً في أثناء إقامتي بفرنسا وإيطاليا، فاللحوم في المطابخ الفرنسية مُحرقة مبسة، واللحوم المسلوقةُ يبالغ في طبخها حتَّى تصبح صليبة[2] يعسر مضغها، والفرنسيون يحبون اللحم المطبوخ مع الخضراوات حباً جماً، ويحبون الثوم والتوابل[3] وغيرها، وهذه الطريقة في الطبخ بعثتني غير مرَّة على ترك موائداً عِدّ لي عليها ثلاثون أو أربعون لوناً، وقد نُصب بالغُ النصب في إعدادها، وكنت في الغالب التجئ إلى دور الإنكليز أو دور الأميركيين، لأطعم فيها، وكان منظر دكاكين الحلاوى والكعك في فرنسا كافياً في إثارة الكراهية في نفسي.

ولما كنت في لندن كنت أسمع كثيراً من النَّاس يقيمون النكير على ارتفاع أسعار البضاعة المختلفة، ويذكرون باستحسان رخصها في البلاد

---

(1) من أحب قوماً أحب عاداتهم. (المترجم).

(2) المعروف في إنضاج اللحم بالطبخ أنَّه يجعله يتهرأ لا يتصلب. (المترجم).

(3) ونحن نعجب من أبي طالب كيف لم يشبههم بالهنود في حب التوابل. (م).

الأخرى ثمَّ وقفتني التجارب على أنَّ المعيشة في فرنسا وفي إيطاليا أغلى منها في إنكلترا بكثير. وقد أنعمت نظري آنفاً وبينت أنَّ مظهر باريس يفوق مظهر لندن، وكذلك الأمر في الدور فهي عالية جداً ومُزينة بتزيينات نادرة ذات فوق وروق ولكن دواخلها ليس فيها ما بظواهرها من مواءمة الذوق والروق، ومن نظافة كما هو الحال في دور لندن.

ولذَّات الحياة تكون من امتلاك شيئين في العموم، أحدهما مسكن نظيف وموائم ملائم وهذا ما يبحث عنه الأجنبي في باريس من غير جدوى، والآخر مائدة عليها أطايب الألوان[1]، وألاذ[2] الأنبذة، وقد حُرِمتُ هذه المتعة وهذه اللذاذة، بأساليب الطبخ الفرنسية المضادة لذوقي كل الضِّداد.

فالفندق المعتنى به ذو الثماني الطبقات المحتوي على خمسين أو ستين ساكناً وساكنة ليس له إلّا مدخل واحد وصحن واحد، وبهذا يستطيع الإنسان أن يذكر رأيه بسهولة في الجلبة والوساخة اللتين تحدثان من اجتماع كاجتماع هؤلاء الكثيرة عدتهم في موضع مقصور محصور كهذا الفندق. وليس لهم عادة بتعليق جُريسٍ بكل مثوىً من مثاوي الفندق، ولقلَّة الخدام فيه بالنسبة إلى من يسكنون، لا يأتي الخادم الغرفة إلّا مرَّة واحدة في اليوم أعني أنَّه يأتيها عندما يصلح فراش السرير، ولذلك ينبغي للإنسان الَّذي يُريد أن يخدم خدمة حسنة أن يستأجر خادماً لنفسه خاصة. والمواقد في فرنسا وسخة في الغالب ومهملة، وهي بالعكس ممَّا في إنكلترا، فالموقد عند الإنكليز يُعد بحسب العادة زينة للبهو، وأنا أرى أنَّ ناراً مُدفئة من فحم حجريّ خير من طاقات جميلة من اللورد.

إنَّ باريس مُنارة بفوانيس تعكس النُّور، ولكن المسافات الَّتي تفصل بينها تجعل نورها ضئيلاً جداً، بالنسبة للمشاة القصار النظر، الَّذين يحتاجون إلى نور يُقدرهم على المشي بلا أذىً يصيبهم من الطريق، وليس للشوارع أرصفة ولا أطورة، وحجارة التبليط مفروشة عليها كلها بحيث تُضطر العربات الَّتي لا ينقطع تلاقيها أن تماس الدور في سيرها، فالمشاة

---

(1) يظهر لنا أنَّ أبا طالب كان نهماً أكولاً فقد أكثر من ذكر الطعام والطبخ والمطابخ. (المترجم).
(2) ألاذ جمع ألذ وقد جمعناه ليوازن «أطايب». (المترجم).

معرضون في كل هُنيهة لخطر الدوس والدعس ولذلك لا يود أحد البتة أن يتمشى متفرجاً في شوارع باريس لا نهاراً ولا ليلاً.

وبإزاء ما ذكرت من المصاعب في باريس نجد فيها مخارف[1] جميلة للتنزه يسمونها «بولفارد»، وهي تحف بالمدينة بدورة طولها عدَّة أميال، وهذه المنازه تنقسم ثلاثة أقسام: الوسط وعرضه خمس وعشرون ذراعاً، وهو خاص بالخيل والعربات والجانبان للمشاة وأربعة صفوف من الشجر تحاذُها من أولها إلى آخرها، وتحافظ على اعتدال المناخ بظلالها، وقد نُصبت تحت الصفين الخارجين منها مناضد كثيرة، وضعت عليها مرطبات وفواكه ولُعب أطفال وأشياء أخرى لطيفة[2]، وفيما ذكرت يجد التاجر الصغير رزقه على النحو الَّذي ذكرت فلا يترك هذا الموضع إلَّا باللَّيل، ويرى الرائي دكاكينهم الخشب تحف بها دائماً جمهرة من المبتاعين والمتفحصين لأنهم يبيعون بأرخص ممَّا يبيع تجار الدكاكين داخل باريس.

وفي باريس موضع يجتذب ذوق الفرنسيين أكثر من غيره هو القصر المليكي «الباليه رويال» وكان هذا الموضع قبل الثورة مستقر «دوق دورليان» وفيه حديقة مربعة[3] طولها خمسمائة ذراع، وعرضها مائتا ذراع، ومقسمة على ممرات مُرملة[4] تُظللها أشجار كثيفة وفي وسطها بستان قد زانته الأزهار والأشجار، وهذا البستان يفتن الإحساس بألطف طريقة، وفي نهايتي الحديقة عمارتان فخمتان شامختان طول كل منهما ستون قدماً وعرضها ثلاثون وهما مفتوحتان من الوسط ومسندتان إلى أساطين من الحجارة المهندمة، والداخل يحتوي على خمس وعشرين مقهاة[5] جميلة،

---

(1) جاء في القاموس «خرف الثمار... وكمرحلة: البستان وسكة بين صفين من نخل يخترف المخترف من أيهما شاء والطريق اللاحب». وقد استعرنا المخرفة وجمعها لهذه الشوارع الواسعة المشجرة. (المترجم).

(2) أي صغيرة. (المترجم).

(3) في الأصل «مربعة» مع أنَّ وصفها يدلُّ على أنَّها من شكل المستطيل. (م).

(4) مفروشة بالرمل. (المترجم).

(5) المقهاة موضع القهوة، قياسية لأنَّ العرب صاغت للموضع الَّذي يكثر فيه الشيء اسم «مفعلة». (المترجم).

تُفضي جميعها إلى الحديقة، فالأروقة ألتي تمتد وأوجه القصر الأربعة مكتظة بجمهور من النّاس رجالهم ونسائهم. وهي متحفة حقيقة، فالأجنبي يرى فيها بعينيه فجأة كل ما تستطيع عمله الصناعة من أحكم عملها من الجواهر ومصوغات الفضة والبلور الصناعي، والساعات الدقاقة، وأشياء تخصُّ الطبيعيات وغير ذلك، والنّساء يجدن كل ما يغري أذواقهن من الطُرف المستحدثة، والحديقة ملتقى يوميّ لعدّة ألوف من النّاس، وفيها كراسي موضوعة في أماكن متفرقة للاستراحة من سير للتنزه، وفي المقاهي نبيذ لذيذ جداً و«شربات» وفواكه وثلج وغير ذلك، ويجب عليَّ أن أعترف بأنَّ الفرنسيين يفوقون كثيراً بما لا حد له الفرس والهنود والإنكليز في إعداد هذه الأشياء المختلفة.

وبباريس موضع يختلف إليه النّاس مزدحمين ولا سيّما الشباب العاطل، وظاهره يوجب أن يكون ملجأ المومسات المفضَّل، ويلاقيهن السائر أيضاً هناك، بمئات في كل تنزهة واحدة، والمنازل المجاورة لذلك الموضع مكتظة بهنّ، إنَّه لأمر شاق على النَّفس أن ترى على نحو ما ذكرتُ هؤلاء الشقيات اللواتي ينهمكن في هذا البغاء الدنيء[1] بلا استحياء، يمشين إلى جانب النّساء الحييَّات اللواتي يستولي عليهن الخجل، حين يرين هذا المنظر المقزز للنَّفس: منظر الحياء المبتذل.

وبالقرب من رتاج[2] «للباليه رويال» المذكور آنفاً عمارة واسعة فيها كثير من الدكاكين وقد بُسط فيها للنظارة أثمن المصنوعات في البلاد، وقد أعجبتني مخازن الغَضار خاصة، فالفرنسيون قد فاقُوا جميع الأمم الأوروبية في صناعته وما يدري الرائي إلى أيّ ينسب فيها البراعة والبداعة إلى جمال الرسم أم للتذهيب الوافر، وإلى نضارة التلوين أم شفوف المادة؟ وهذا الغَضار الفرنسي مستطرف جداً بحيث يعدّ في إنكلترا وفي كل البلاد

(1) وصف أبو طالب هذا البغاء بالدناءة لأنَّ ذكر بغاء المخادنة الشائع بين الإنكليزيات وهو أهون من هذا البغاء، والعجب من أنَّه لم يترث للمومسات الإنكليزيات هذا الترثي. (المترجم).

(2) في مختار الصحاح «الرتج بفتحتين: الباب العظيم وكذا الرتاج بالكسر ومنه رتاج الكعبة وقيل الرتاج الباب المغلق وعليه باب صغير».

الأخرى من الأشياء العجيبة ولا يستعملونه إلا للضيف السامي المقام، ويصنع الفرنسيون مرائي من الزجاج لا يمكن أحداً أن يصنع مثلها بجمالها.

وموضع ثالث للهو في باريس يقصد إليه الباريسيون أفواجاً أفواجاً وهو «قصر التويلري» وهو قسمان أحدهما يُسمَّى الميدان وفيه تُعرض فرق الجيش ويتسع لخمسة آلاف فرس أو ستة، والآخر حديقة، عليها من هذه الجهة سياج من الحديد جدُّ عالٍ وفيه بابان كالبابين اللذين يُسميان في بلاد الهند «فاتيك» فإذا عبر الزائر الميدان دخل في الحديقة وهي متصلة بالمدينة بعدَّة مخارج، وهذه الحديقة مربعة[1] (الأضلاع) طول دورها نحو من ميلين، وتُسقى من حياض فيها جميلة يندفق منها الماء إلى علو غير قليل وفيها ممرَّات تنزه مُرملة، قد ظللتها أشجار كثيفة، أقيمت تحتها تماثيل معجبة، تحتها كبار أساتذة النحت الفرنسيين والأجانب، وفي الخارج بستان واسع جداً ذو أشجار كثيفة أيضاً، ويُسمَّى «شامب ايليزة» وإلى يمين البستان يرى الرائي على بعد منظراً رائعاً للعمارات الرئيسة بالمدينة، وإلى اليسار منظر النهر الفخم وجسوره.

وفي هذا البستان خِيَم يرقص تحتها النَّاس على أنغام موسيقى منسجمة الألحان. وهذه المَنزَهة في رأيي هي أحبُّ موضع في باريس، سواء في ذلك مناظرها الفائقة الرائقة الَّتي تورث العجب والإعجاب، وملاذها ولطائفها المجتمعة فيها. وإنَّ هذه المواضع الَّتي وصفتها حتَّى الآن هي مع ذلك أكثر موافقة لعادات العامَّة منها الأذواق الخاصَّة، ففي الـ«لوفر» يجد كلُّ هوٍ[2] للفنون مَعيناً لا ينضب من اللهو وللتثقف والتعلم، فاللوفر مستودع لكل الصور التزويقية وجميع التماثيل والمآثر المشيدة الَّتي سَلَبها نابوليون بونابارت والجنارلة الآخرون من البلاد المفتوحة، وأنفسُها مانُقل من مدينة روما بإيطاليا.

(1) هذه هي المرَّة الثانية الَّتي يذكرها فيها أبو طالب التربيع لغير المربع، فالتربيع لا يناسب الدور الَّذي يدلُّ على دائرة: ولعلَّ الخطأ ناشئ من الترجمة الأصلية ولعلَّ الأصل ما يُسمَّى «المحيط». (المترجم).

(2) الهوي صفة مشبهة من هوي الشيء يهواه هوى أي أحبه إحباباً. (م).

واللوفر عمارة واسعة جداً وهو غاية في الارتفاع، وأرضيته مملوءة تماثيل وأشياء أخرى، لا أستطيع أن أذكر رأيي في جمالها الفائق، وفي الطبقة الأولى منه يدخل الزائر بهواً رائقاً مساحته ثلاثمائة قدم مربعة وسمكه[1] مائة وخمسون قدماً، وهو منار أعظم إنارة بالمرائي الموضوعة مواربة[2]، وهذه الطريقة تضاعف إشعاع الضوء وتحمي من الثلج والمطر كما يحمي السطح المغطى بالأردواز[3].

وجدران هذا البهو قد عُلق عليها، بكمال طولها، عدَّة مئات من الألواح المصورة الرائقة، وهذه المجموعة عظيمة، ولا تقدَّر قيمتها نفاسة، ومن هذه الألواح المصورة ما طولها سبعون قدماً وسمكها ثلاثون، وبعد أن تأمَّلت العمارة والكنوز الَّتي تحويها تذكرت ما رأيته في لندن ودبلن، وأيقنت أنَّ هاتين المدينتين لا تحتويان إلَّا على لُعَب أطفال ساذجة بالنسبة إلى هذه البدائع، وهذه المتحفة مصونة مرعية بنفقات الشعب، والشعب قد أبيح الدخول فيها مجاناً، والغاية منها نشر ذوق الفنون الرفيعة وتثبيت مزاره في العاصمة باريس وصبغ الحكومة بصبغة شعبية.

وليس في باريس محلة لا يستطيع الإنسان أن يستمتع فيها بعدَّة حدائق عامَّة أو أشياء أخرى عجيبة فضلاً عمَّا ذكرت من مواضع الأنس واللهو آنفاً، وأعظمها حدائق «فراسكاتي» وحدائق «تيفولي» حيث يرى الرائي في كل مساء نيراناً صناعية، ورقصاً وغير ذلك، ومرطبات مختلفة الأنواع. وقد تلهيتُ كثيراً في باريس باختراع يُسمَّى «فانتاسما كوري» أي صناعة رسم الأشباح، ولا أستطيع إيضاح أصول هذا النوع من المشاهد، وذلك لأنَّ المتلهي به لا يستطيع التلهي إلَّا في حُجرة مظلمة، فيظهر فيها شكل يحسبه الإنسان على مسافة بعيدة جداً، ويحسب أنَّه ينزل من السقف، فهو صغير جداً في أوَّل بُدوّه ويشبه نجماً بعيداً ثمَّ يكبر شيئاً فشيئاً كلَّما قرب.

---

(1) السمك: الارتفاع.

(2) المواربة هي اتجاه الخط كاتجاه قطر المربع. (م).

(3) لم نجد صلة لهذه الجملة بوصف الضوء ولعلَّها من صفات البهو ولذلك غيَّرت ضميرها من التأنيث إلى التذكير، والأردواز حجر أسود ذو صفائح تغطى به سطوحهم وقد مرَّ ذكره. (المترجم).

ومن هذه الأشكال ما يمثل إنساناً ميّتاً ومكفّناً يقترب بالتدريج فإذا كان قريباً من المشاهد خلع عن نفسه كفنه وظهر منه هيكل عظام ذو منظر رهيب يجعل النّساء والصبايا والصبيان يَصْرخنَ ويصرخون بهلع وفزع، وحينئذٍ ينكص شيئاً فشيئاً، ويظهر للعين كأنّه يضمحلّ في السقف، وإذ ذاك يُسمع بغتة صوت يشبه صوت الصاعقة، ويجدُد الرعب في نفوس النّساء، وبهذا العلم يستطاع إظهار الشبه الكامل، على المحكاة[1]، لبطل قديم أو صديق غائب، لأنّ هذا الفنّ من اختراع السَّحَرة لاختداع الشعب، وجعله يعتقد أنّ لهم قوّة فوق الطبيعية.

وفي باريس ثلاث عشرة ردهة للحكاية والتمثيل وقد رأيتها كلها بالتقريب، وفي العموم يظهر لي أنّها تفوق ردهات لندن لهذه الفنون، وبخاصة إجراء الغناء والرقص. وفيها عدّة ميادين للتدرب على الفروسية، والمراقص فيها لا تحصى كثرة.

دار كتب باريس

ودار كتب شارع ريشيليو[2] فيها قرابة مليون كتاب بمختلف اللغات وفي جميع الموضوعات، وهذه أكمل مؤسسة في العالمين وأكثرها فائدة، والنّاس الّذين يدخلونها بحرية يستطيعون أن يتزودُوا معارف كل يوم مجاناً، ولهم القدرة على استخلاص ما يريدون من العلوم، وأجيز لهم انتساخ كتب منها بأجمعها.

أخلاق الفرنسيين

الفرنسيون، في الأغلب، ولا سيّما الباريسيين منهم على غاية من أدب النّفس، فهم لا يستعملون البتة كلمة «نعم» ولا كلمة «لا» بل يستعينون

---

(1) المحكاة: موضع الحكاية أي التمثيل والتشبيه.

(2) هي دار الكتب الوطنية ومنهم من يترجمها بالأهلية ولا تزال قائمة في الشارع نفسه، ومطبوعاتها كثيرة جداً وفيها من الكتب الخطية العربية زهاء عشرة آلاف كتاب وهي موكولة إلى موظفين من اليهود في جميع فروعها ولذلك يضعون عراقيل دون تصوير الكتب الخطية العربية. (المترجم).

على تأدية ذلك بالتعريض، وهم لا يملّون من دلالتك على طريقك، ولا من إيضاح أمر لك ولا يتعبون، ويعُدُّون هذه المجاملة علامة التهذيب الحسن. إنَّك تستطيع أن تزور فرنسياً في أيّ وقت تشاء، وتحكي له مرَّتين متواليتين حكاية واحدة بعينها فيصغي إليك، من غير أن يظهر لك أي أمارة للسآمة، فما أكثر فواق الفرنسيين في هذا الأمر على الإنكليز العابسين المكتئبين! وحينما كنت أتغدَّىٰ في فرنسا بأيّ فندق كان يستحوذُ عليَّ العجب غالباً من السُرعة الَّتي تظهر في تسامح الأكلاء في رداءة الألوان، وأردأ أنواع النبيذ الَّتي تُقدَّم لهم، فإذا شكوت فإنَّ الخدم ينَصَبون أعظم النصَب لإقناعي بأن يجب أن لا يُلام قيّم الفندق على ذلك (كذا).

ويظهر السرور على وجوه الفرنسيين دائماً، فإذا تغذَّوا خرجُوا يتنزهون حتَّى منتصف اللَّيل في الحدائق، وفي المواضع العامَّة الأخرى، ولهم أن يدخلُوا في أكثر هذه المواضع الَّتي يجتزئ أصحابها بربح يسير يستربحونه من مقاهيهم أو ثلجهم أو غير ذلك، أمَّا الأوبرا ودور المشاهدة الأخرى فأجرة الدخول فيها أقل منها في لندن بأربع مرَّات، وقد لاحظت في الفرنسيين أحياناً بلادة خاصَّة، أذكر منها مثالين أو ثلاثة، ففي لندن إذا أردت التصبُّح[1] في مقهاة فالخادم يأتيك بما تحتاج إليه بمرَّة واحدة، ولكن الفرنسيين في باريس يقدمون إليك القهوة أوَّلاً فالسكَّر فالزُّبْد، وقبل أن يتهيأ التصبُّح ينبغي أن يدور الخادم زهاء ست دورات حول منضدة المتصبِّح. والمثال الثاني أنَّ الحلاق الَّذي كان يحلق لي بباريس كان يأتي معه اعتياداً بمِركن[2] واسع من الصفر ومنديل من الكتَّان يُشبه مناديل الأكياس الَّتي تأكل فيها الخيل[3] في بلاد الهند ويعلق هذا المنديل تحت ذقني فيصب ماءً في المركن وبعد أن يجعله يُزْبِدُ مع الصابون، يلطخ به وجهي وعنقي وصدري، ويبل عضدي حتَّى المرفقين، ولا يبدأ بالحلق إلَّا بعد هذه الحفلة، وقد استولت عليَّ السآمة من هذه الطريقة الَّتي كان فيها ما ذكرت

---

(1) التصبُّح هو أكل طعام الصبح وقد تقدَّم. والمصبِّح هو الَّذي بعده.

(2) المركن بوزن المنبر ما يعرف عند العامَّة ببغداد باللكن وهو من النحاس في عصرنا. (المترجم).

(3) أراد المخالي جمع المخلاة. (م).

من الازعاج فسألته ذات يوم: هل لبثت في إنكلترا بعض اللبث؟ فأجابني بالتأكيد، فقلت له: إن كان الأمر على ما ذكرت كان ينبغي لك أن تعلم أنّ الحلاقين فيها عندهم علبة صغيرة فقط تحتوي على «الفرشاة» والصابون وزوجين من المواسي يستطيع أن يصلح بهما اللحية عشرين مرّة بصبيحة واحدة من غير أن يلطّخها ويوسّخها كما تفعل أنت، فلماذا لا تتبعون هذه الطريقة؟ فقال لي: «إنّ ملاحظتك صحيحة وعندي بداري «الفرشاة» والعُلبة، ولكن هذه الطريقة لا يُستطاع إدخالها في فرنسا ولا استعمالها أبداً. ومع هذا سآتي بهما من أجل وجهك في مستقبل الأيام».

وبعد ذكر هذين المثالين يمكن أن يوقن القارئ بأنّ الفرنسيين مع كل شجاعتهم وبراعتهم لن يفوقُوا جيرانهم، وقد عجبت من أنّهم نالُوا هذا الصيت البعيد بهذا القليل من الحماسة والمواظبة. والرّجال الفرنسيون فيما أرى أجمل من الرّجال الإنكليز وعليهم ملابس أحسن تفصيلاً وتكميلاً، ولونها ألطف من لون ملابس أولئك. والفرنسيّات طويلات وأكثر بدانة من الإنكليزيات، على أنّه لا يمكن الموازنة بينهن في الجمال، فالإنكليزيات أجمل منهن، فليس للفرنسيات ساذجية الإنكليزيات ولا تواضعهنّ ولا مِشيتهن المليحة، وقد صَدَمتني كسوة رؤوسهن، إنّها تشبه على التحقيق كسوة الرقّاصات الهنديات، إنّها جَديلٌ منحدر إلى خدودهن مع إهمال متكلّف، وقد جرَت عادتهن أن يتغشّيْن بالأحمر والأبيض والأزرق، وهُن نشيطات وبارعات في الكلام جداً، وجلابيبهن غاية في القصر، تظهرهُن كأنهنّ حُدْب[1]، وجد مفتوحات الجيوب بحيث يرى الرائي نصف نحورهن، وإنّي شبق بالطبيعة، وسهل الإثارة، ولقد طُفت جميع مواطن البغايا في باريس فلم أجد فرنسيّة واحدة تُثيرني[2].

وقد رأيت بباريس عدّة أشخاص من معارفي منهم «المستر كرَاند» رفيقي في سفري فقد جاء باريس ليجمع لنفسه ثروة، وقد تشرّف بتزوج السيّدة «تاليراند» الّتي ألحقته، كما علمت بعدئذٍ، بحكومة الكاب دي بون

---

(1) الحدب بضم الحاء وتسكين الدال جميع حدباء هنا. (المترجم).
(2) الظاهر أنّ أبا طالب كان مفتوناً أيضاً بحب الإنكليزيات. (المترجم).

اسبيرانس أي رأس الرجاء الحسن. وقدَّمت كتاب توصية إلى المبعوث «المستر ميري» كان قد زوَّدينه اللورد «بيلهام» فقدَّم إليَّ أجوزة[1]، وعاملني بكثير من الأدب، ثمَّ ظهر لي أنَّه قليل الإخلاص في القيام بحق الصداقة[2]، وسيرته ذكرتني حكايةً لأهل مازندران، فقد أهملوا ذات مرَّة القيام بالفريضة الدينية يوم سبت، فبلغ ذلك المحتسب فتوعدهم بالعقوبة ولكنَّهم اعتذرُوا من التقصير قائلين له: إنَّهم إن يقضُوا سحابة اليوم كله بالصلاة ينم أطفالهم جياعاً غير متعشين، فكلم المحتسب الملك في ذلك، وكان الملك عادلاً رؤوفاً بالرعية، فأمر صاحب بيت المال إن يُعوِّض هؤلاء الفقراء من تركهم العمل ذلك اليوم أي في كل جمعة، ليستطيعُوا القيام بالفريضة الدينية من غير أن يخدُّوا بأمورهم وشؤونهم الدنيوية، فأجبر النَّاس على حضور المسجد، فكانوا يحضرون بغير وضوء، والصلاة لا تصح بإهماله، فغضب المحتسب من سيرتهم هذه، واستدعى مشايخهم رسمياً للحضور في دار قضائه، فحضروا فقال لهم: «إنَّ جلالته تفضلت بإعطائكم تعويضاً كافياً[3] في إعاشة عيالكم يوم السبت، فلماذا لم تتوضؤوا عند حضوركم المسجد للصلاة؟» فقالُوا له: «إنَّ التعويض الَّذي أعطاناه الملك هو تعويض وقت الصلاة، فإن تُرد جلالته أن نتوضأ فإنَّا نريد تعويضاً من وقت الوضوء». وكذلك فعل المستر «ميري» فهو قد اتبع الوصية الَّتي احتواها كتاب المستر بيلهام إلَّا أنَّه لم يتبع ما وراء ظاهرها، مع ذلك فأنا جدُّ شاكر له نصيحته إيَّاي الَّتي حملتني على العدول عن السفر إلى القسطنطينية بطريق ألمانيا وهنغاريا، لأنَّه كان ينبغي لي أن أقضي أربعة أشهر ونصف شهر في هذا السفر الَّذي لم يسلخ فيه الكولونيل «هاركورت» إلَّا واحداً وعشرين يوماً، في العصر نفسه على التقريب.

وبعد وصولي إلى باريس بزمن قليل زارني رجل متقن للغة الفارسية فذكر أنَّه نصراني، وإن كان متزيياً بزي الأتراك، واسمه «فرتكولين» ولما

---

(1) أجوزة جمع جواز لإباحة المرور وإجازته. (المترجم).

(2) هذا تجن من أبي طالب على هذا الرجل فمتى صادقه؟ (المترجم).

(3) «كفى هذا الشيء في الإعاشة» والتقدير «كفى الحاجة في الإعاشة» ومن الخطأ قولهم «للإعاشة».

توطد التعارف بيننا رجوت منه أن يذكر لي بصدق من يكون؟ فقال لي بصوت خفيض: «اسمي الحقيقي سيِّد محمَّد وقد ولدت في بلاد العجم، ولكني استوطنت القسطنطينية مدة طويلة، وقد طوَّفت في جزء كبير من الأرض، وأنا أستطيع الكلام بإحدى عشرة لغة، ولكني لا أكترث أن يعلم أحد أني مسلم[1]». فلما كنت في القسطنطينية بعد ذلك فحصت عن حال هذا الرجل، فعلمت أنَّه لص من تلك المدينة، له أقرباء من اليونانيين الَّذين هم طبقة أدنأ الأدنياء.

وقد سُررت في باريس بالتعرف إلى عدَّة أدباء ومنهم من يُتقن اللغات الشرقية وأذكر خاصة المسيو ماتيو لانكليه[2] و«دي ساسي[3]» وكان هذان العالمان يزوراني كل يوم، وكلاهما يتكلَّم بالفارسية على قدر الضرورة والحاجة، ولكونهما قد درسا اللغة العربية فقد ترجما من قصائدي ذوات الأدوار إلى اللغة الفرنسية شعراً بسهولة كثيرة، وألفيتهما متحليين بإدراك واسع، وذهن وقاد لم أر له مثيلاً عند أحد من الإنكليز الَّذين عرفتهم. ولعلَّ اللغة الفرنسية أقرب إلى اللغة الفارسية من اللغة الإنكليزية، ومن الجائز أن يكون شعرنا أكثر مواءمة لقرائح الفرنسيين منه لقرائح شعوب مناخها أبرد من مناخ فرنسا[4]، وقد وعدني هذان السيدان أن ينشرا أشعاري في مجلاتهما، وما أعلم أوفيا بوعدهما أم لا؟

وفي نحو من خمسة عشر يوماً من مغادرتي باريس استزارني المستر «تاليرند» وبَلغني بوساطة المسيو «جوبرت» ترجمان الحكومة الفرنسية للغات

(1) هكذا ورد في أصل الترجمة الفرنسية، ولعلَّ الأصل الفارسي بالضد، بدلالة أنَّه غير اسمه ودينه خداعاً للنَّاس. (المترجم).

(2) هو لويس ماتيو لانكليه مستشرق فرنسي ولد سنة 1767م وتوفي سنة 1824م. (المترجم).

(3) هو أنطوان إسحاق بارون سلفيستردي سامي مستشرق فرنسي ومن رجال الدولة. ولد بباريس سنة 1758م وتوفي بها سنة 1838م وهو المؤسس الحقيقي للدراسات العربية في فرنسا وكتابه «النحو العربي» بقي عمدة كتب هذا الفن دهراً في فرنسا، وكتابه الثاني «مختارات من أدب العرب» من أحسن الكتب في موضوعه وأوسعها. (المترجم).

(4) لعلَّ القارئ يستغرب تصفيد أبي طالب أسباب التسويغ لإهمال الإنكليز شؤون غيرهم من الأمم استكباراً. (المترجم).

الشرقية دعوة من «نابليون بونابارت» لي لحضور الاحتفال بترقيته، ولسوء الحظ كنت مختل المزاج وقت وصول الدعوة ثمَّ استحال عليَّ قضاء ما يجب عليَّ لهذين الرجلين العظيمين بعد فوات الوقت وانصرامه.

أبو طالب في ليون

ولإرادتي مواصلة الارتحال لم أقم في باريس طويلاً، وباليوم الأوّل من شهر[1] ربيع الأوّل (سنة 1217هـ) الموافق لأوّل تموز (سنة 1802م) سافرت مع البريد قاصداً إلى ليون ولم تكن أجرة العربة إلّا ثلاثة لويسات[2] ذهباً، وعللتُ نفسي بأنّي مسافر أسرع من سفري في نوع العربات المُسمّاة «السُرعة» الَّتي حملتني من كاليه إلى باريس وأكثر سهولة، ولكنّني سرعان ما صرت دهشاً حينما دخلت في العربة فألقيتُ فيها رجلين فرنسيين وامرأة فرنسية وامرأة إيطالية، وسائحاً غير هؤلاء، وقد ملؤوا العربة، فتحركت بنا العربة عند شروق الشّمس ولم نقف إلّا بالساعة التاسعة مساءً لننام، ولم يكن في رفقائي في هذه السفرة من يفهم كلمةً إنكليزية واحدة، وكان أشدّ ذوي أثرة وأنانية رأيتهم فيما مضى من حياتي، فقد كانوا يستحوذون على أحسن المقاعد، ولقد رجوت منهم أن أبادلهم بمقعدي بحسب العادة الإنكليزية فأبوا وضحكوا من تألمي ونصبي، ولما عَرَّسنا[3] مساءً تبادروا إلى السرر فاختاروا أحاسنها، ولما رآني الفُندقي لا أعرف الفرنسية لأذود عن نفسي جعلني في غرفة مظلمة وسخة، غير أنَّ المرأة الإيطالية المسافرة معنا أشفقت عليَّ باليوم الثالث فأعلمتني بالإشارة أنَّه يجب أن أتهددهم بأن أنام في العربة إن لم يهيئوا لي سريراً صالحاً، وأن لا أدفع أجرة سكني، فاتبعت نصيحتها، واعتدلت حالي بها، وقد سلخنا خمسة أيّام في قطع المسافة الَّتي مقدارها مائتان وعشرون ميلاً، وهذه الإزعاجات الَّتي ذكرتها آنفاً أقلّت المسرة الَّتي كنت آملها بسياحتي في هذه البلاد الجميلة.

وليون من أجمل مدن فرنسا ونهر الصون العريض الَّذي تكتنفه

---

(1) تقدَّم ذكره تركه للندن في صفر سنة 1217هـ الموافق لحزيران سنة 1802م. (م).

(2) اللويس الذهب يساوي عشرين فرنكاً فرنسياً بالسعر القديم. (المترجم).

(3) أي نزلنا من مراكبنا لنستريح في السفر. (المترجم).

الكلاءات الجميلة يشتقها من منتصفها، وقد غُرست على ضفتيه أشجار، يسحر للتنزه تحتها النُّفوس، وفي خارج المدينة نهر آخر واسع وسريع الجرية يصب فيه نهر الصون وعليه جسور جميلة، وتزين هذه المدينة مآثر من الحجارة المهندمة، وأبوابها فخمة، وتحتوي على مساكن واسعة للحراس أو البوابين. وفي المدينة الجديدة كثير من المنازل مبنية بطين الفخار، والطريقة المتبعة في بنائها حقاً تستحق الاعتبار، فهم يُعدون أوَّلاً نوعاً من القوالب من الخشب المنشور ألواحاً على طول الجدار المراد بناؤه، وارتفاع اللوح زهاء قدمين، فيوضع القالب على الأسس ويملأ من الطين الفخار المحسن العجن ويُترك يومين أو ثلاثة أيّام حتَّى يجف وبعد ذلك يجر القالب المطبق على الجدار قطعةً قطعة، ويُصب فيه الطين ثانية، فيلتصق في الحال بالطين الأوَّل، وتكرر هذه الصبة حتَّى يبلغ الجدار السمك المُراد، فتزين أركانه بالآجر، والجدران المنشأة بهذه الطريقة جدّ عمودية، وهم بعد ذلك يملُطونها بمِلاط الجصّ والرمل، فيكسبها مظهراً كمظهر جدران الآجر، وبصيانة أعلى الجدران من الأمطار يكتسب الطين صلابةً شديدة، وهذه الجدران تفوق جدران الطين في بلاد الهند، وهي ألطف في النظر، مع سهولة إنشائها.

وليون مشهورة بأصباغها وقد أردت ذات يوم أن أجرب ذلك في إحدى عمائمي: فجيء إليَّ بها في الغد مصبوغة باللون الأرجواني الفائق، وكان هذا اللون جدّ ثابت، بحيث لم يفقد شيئاً من لمعته بعد تعريضه لسقرة الشَّمس عدَّة شهور ولم تتجاوز أجرة صبغها ستة وثلاثين سُولاً[1]، مع أنّي كنت أدفع في لندن دائماً أجرة صبغها أربعة شيلينات، بله أنَّ الألوان اللندنية كانت تنصل في آخر عشرة أيّام أو اثني عشر يوماً.

والنواحي المحيطة بليون تجنى منها فواكه كثيرة ونفيسة ولا سيَّما ثمر القراصيا[2]، وأشجاره فيها تثمر بأكبر أنواعها وأشهاها بحسب ما رأيت،

---

(1) السول جزء من عشرين جزءاً من الفرنك الفرنسي. (المترجم).

(2) ويعرف بالكرز أيضاً تعريباً من الفرنسية سريز «ولعلَّ القراصيا تعريب ثان للسريز من لغة لاتينية أخرى. (المترجم).

ولكن كل قطر فيه منفرّات، ففي ليون تجتذب حرارة الجوّ والمياه الثرة المحيطة بها ملايين من البعوض وحشرات أخرى تجبر السكان على أن يحوطوا سررهم بستور من نسيج شفاف يعرف باسم «الكاز» (أي الكريشة)، وقد قضيت ثلاثة أيّام في ليون.

سفره إلى مرسيليا

وإذا كنت متعباً بسفري السريع عزمت على ركوب الماء إلى مرسيليا، فركبت إحدى سفن «الرون» الكبيرة بأجرة مقدارها لويس واحد من الذهب، وهذه السفن تشبه بالتقريب سفن البنغال المُسمّاة «بودكرو[1]» ولكنّهم يملؤون الغرف من الرزم والبضائع بحيث يضطر الركاب إلى اللجوء إلى سطح السفينة ولم تعوزني الرفقة في هذه السفرة، فقد كان معي في السفينة خمسة وعشرون إنساناً من النوعين النّساء والرّجال، ولسوء الحظ كنّا في قيظ، فلم ترَ سحابة في الأفق، وكانت الحرارة شديدة والتجأ كثير من الركاب إلى ما وراء الرزم فلاذوا بها ومنهم من ناموا على قنطرة السفينة وتغطّوا بأغطية، مفضلين حرارة الصوف على أشعة الشّمس، وآخرون شكلوا ضرباً من الخيام باستعمالهم السجاجيد الصغيرة، أمّا أنا فقد كان عندي شمسية من الحرير، وإذ كنت متعوداً تحمل أشعة شمس الهند حسبت أنّي أقاوم شمس فرنسا بلا غرر ولا ضرر، غير أنّ وجهي تقشر جلده كله منذ اليوم الأوّل، وكابدت كثيراً من الأذى بحيث تمنيت كثيراً لو كنت (أو لو أكون) مسافراً في عربات السرعة، ولسعادة لجدّ كانت جرية النهر سريعة جداً، وقطعَت السفينة تارة سبعين ميلاً، وتارة أخرى ثمانين في اليوم الواحد.

وفي الغد مررنا تحت قنطرة بل جسر عظيم البناء كان أنشأه أحد القياصرة وهو مشهور في كل أوروبا باسم «بونت دوسنت ايسبريت» ومع أنّه قد شيد منذ أكثر من ألفي سنة، يظهر للناظر كأنّه حديث تام الحداثة، وليس هذا الجسر كسائر الجسور المشيدة المحنية، وله تسعة وعشرون طاقاً،

---

(1) ذكرها الرحالة في أوّل رحلته وقد عربناها هناك بصورة «بدكرو». (م).

والأوسط منها على سعة خارقة للعادة، وفي هذا الموضع يكون نهر الصون أوسع وأسرع من نهر التاميز في لندن وليس في إنكلترا جسر يقارب هذا الجسر في جماله ولا قنطرة توازيه في بداعته.

وفي الثلاثة الأيّام الّتي قضيتها في السفينة استنفدت وسعي في أن أنسى حرارة المناخ بما يعجبني من جمال مناظر المواضع الّتي مررنا بها، وكنت أتلهى أيضاً بالنظر إلى شاب وشابة كانا معنا، ولكنّهما كما ظهر لي من حاليهما لم يفكرا إلّا في حبهما، وقد تنحيا عن الركاب إلى ناحية، ولم يكلّما أحداً منهم، وكلّما بان لهما أنّنا نائمون أو مشغولون طلب الشاب إلى جميلته قُبلةً، فكانت بحجّة أن تسارّه تنيله قبلةً على خجل منها واستحياء وكان هذان يحسبان، ولا يشكان، أنّ ركاب السفينة لا يلحظونهما، لأنّ أكثرهم قد وَلّوهما ظهورهم، ولأنّي لم أرد أن أنغّص عليهما سعادتهما كنت ألحظهما بمآخير[1] عينيّ حسب.

وإن كنت كابدت مكاره في سفرتي هذه فقد نلت نعمة الاجتماع مع المسيو «بارنو» أحد أحرار الصَرح[2] والمتحبّبين ومن أشهرهم، ممَّن عرفتهم من الفرنج، وهو ابن أخي حاكم مرسيليا وضابط في المدفعية، وكان ذا مواهب كثيرة ويجيد التكلّم بالإنكليزية، ولما رآني في حَرَج من أمري تفضل عليّ بأن يكون ترجماناً لي، وراعى مصلحتي في سفرتي دائماً حتّى افترقنا.

وفي مساء اليوم الثالث وصلنا إلى «أفينيون» وعلمت هناك أنّه ينبغي لي أن أواصل ارتحالي في البَرّ لا في الماء فنزلت من السفينة حامداً لله على نجاتي، غير أنّه أبطأ عليّ كثيراً وقتُ وصولي إلى مرسيليا بحيث ما كدت أنزل حتّى استأجرت مقعداً في عربة السُرْعة، وكانت على عزم السفر صباح غد ذلك اليوم، وأويت إلى الفندق ناوياً أن أتعشى عشاءً طيّباً، وأستريح ساعات قبل أن أسلك الطريق، على أنّه ما كان عشائي ينتهي حتّى

---

(1) المآخير جميع المؤخر على وزن المسلم وهو طرف العين ممّا يلي الصدغ.
(2) صرح الأمر صرحاً: بينه. (المترجم).

جاءنا حُوذي العربة يدعو صارخاً ركاب العربة، فوجب عليَّ استئذان المسيو «بارنو» فقد كانت شؤونه تلزمه البقاء ثلاثة أيّام أو أربعة في أفينيون.

وقد وجدت في عربة السرعة ثلاثة رجال، وإذ كان الوقت ليلاً لم أستطع تمييزهم، وسرعان ما ناموا وتركوني وادعاً وداعةً تامّة، ولما انبلج الصبح وجدت أنّهم فرنسيون قباحُ السِّيما، وأحدهم قصير القامة غير قصير العمر، ومنحني الظهر، وقد أرادُوا أن يحادثوني ولكني لم أستطع إجابتهم، لأنّي لم أفهم لغتهم، ثم جاءت فركبت العربة امرأة شابة تجتذب الألحاظ بعينيها الجميلتين، وشعرها الأسود الطويل، وكانت مصرية ومع أنّها مولودة نصارى كانت تتكلّم بالعربية بطلاقة تامَّة، وما كانت تجلس في العربة حتَّى أخذ الشيخ الفرنسي القصير الّذي ذكرته آنفاً يمازحها ويتحرش بها بأوسع انبساط أو حرية، فتشجع الآخر بما فعل واقتديا به، وأشاروا إليَّ بأن أشاركهم[1] في ذلك فأبيت مغتاظاً منهم، ومع هذا فالفتاة قاومتهم بشجاعة ولم تصرُخ كما تفعل المرأة في بلاد الهند لمثل هذه الحال، بل أوسعتهم سبّاً، فكأنَّ ذلك ألهاهم غاية الإلهاء، وإن لم يفهمُوا اللغة العربية، وحاولُوا أن تعيد الألفاظ بأعيانها ورجُوا منها أن تبينها لهم باللغة الفرنسية، والحُوذي الخبيث الّذي يجب عليه الدفاع عن المرأة ظهر أنّه بالضد من ذلك، فقد أعجب بهذه الفظاظة. وثُرت أنا على هذه السيرة السيِّئة فبادرت إلى إقعاد الفتاة في زاوية العربة، وقعدت بينها وبين أقوى خصومها حتَّى تستطيع أن تقاوم بسهولة الخليعَ الصغير القاعد بإزائها، ولما أجبر الآخران على الاقتصار على الكلام واصلا ممازحتها إلى حين وصولنا إلى مرسيليا وإذ ذاك وجب تفرّقنا، وفي غد ذلك اليوم لقيت الشابة المصرية في الشارع، فأعربت لي عن شكرها لي وأفادتني جداً في أثناء إقامتي بمرسيليا.

أبو طالب في مرسيليا

مرسيليا مدينة كبيرة وجميلة ومن أشهر موانئ فرنسا البحرية وهي أيضاً ملتقى تجار جميع البلاد الّتي على سواحل البحر الأبيض المتوسط ولا

---

(1) الضمير يعود إلى الثلاثة. (المترجم).

سيّما إيطاليا وتركيا وبلاد البربر ومصر، وهذه المدينة مشهورة أيضاً بمنسوجاتها الحرير والأطلسي «الستن» وقماش الذهب، وبسعة تجارتها، والعمارات العامّة فيها مبنية بالحجارة، وللدور الخاصّة أروقة مجنحة جميلة، في الأغلب، وشوارعها حسنة التنظيم والتبليط وجدُّ عريضة، ومكنوفة بأطورة ورصُفٍ كشوارع لندن، وأعجبتني البِرك والشاذروانات الّتي تزين المواضع العامّة والشوارع الرئيسة في المدينة، وبالقرب من كل بركة حوض يستقي الشعب منه ماءً للاستعمال، ولرش الطرق، وهي عادة جدُّ صحية وضرورية في مناخ حار كهذا المناخ، وكثير من الطرق في النواحي المحيطة بالمدينة مغروس فيها دَوح، كمخارف باريس، والحدائق المحيطة بالمدينة تثمر بكل نوع من الثمار النفيسة، وبطيخها المسكيّ نفيس وفائق على البطيخ الّذي يجلبه الإنكليز من بُيوت استنباتهم[1].

وكنت قد تزودت من باريس كتاباً بالتوصية إلى المسيو «ساماديت» أحد أكابر تجار مرسيليا، فذهبت إليه أزوره في غد يوم وصولي، فاستقبلني أحب استقبال واستأجر لي مثوىً جميلاً في أحد الفنادق، وكان قريباً من داره. وإذ كنت متعوداً التصبّح بالصبوح الإنكليزي، ولا يوجد في جنوب فرنسا زُبد جيدَ ولا قشطة «قيمر» أحبَّ المسيو ساماديت أن أطعَم ذلك في داره كل يوم، ثمّ إنّي كنت أتغدّىٰ على مائدته إن لم تصل إليّ دعوة من داع. وهذا التاجر وُلد في سويسرا وربُيَّ في فرنسا، وهو مع ما اعتاده من حرفة التجارة سخيّ جداً، ويغشى مجلسه كثير من أعيان مرسيليا، ومن العادة عندهم الذهاب لمشاهدة حكايات «القوموذيا[2]» أو الذهاب إلى الأوبرا، وكان المسيو «ساماديت» يدفع عنّي أجرة مطّلعي[3] ويمنعني من دفعها، وفي أثناء إقامتي بمرسيليا اهتمّ بلا توان بأن بحث لي عن سفينة صالحة تُبحر إلى القسطنطينية إبحاراً قاصداً، فلما لم يجد رجا منّي أن

---

(1) هي بيوت يزرعون فيها البطيخ وأمثاله مكيفة المناخ بالحرارة اللازمة لنمائها وحياتها. (المترجم).

(2) جاء في مختصر الدول لابن العبري ص34 «ومايندروس استنبط نوعاً من الشعر يُسمّى قوموذيا وفيه يذكر الرذائل والأهاجي والقبائح المشتركة بين النّاس والبهائم» يعني الكوميدي.

(3) اسم مكان من اطلع على الشيء.

أنتظر في داره فرصةً موائمة لمُرادي. وبعد قليل من الزمن جاءني صديقي المسيو «بارنو» زائراً، وفي اليوم نفسه استصحبني إلى دار عمه الحاكم المسيو «ويلكراف» وهو رجل مهذب قد جمع الشرف الوافر إلى التحبب الباهر. وفي هذا الوقت ضرب بونابارت نقوداً فرنسية بصورته، وأقيمت الأفراح والمسرات والملاهي في جميع فرنسا، وأضيئت منازل مرسيليا، وأقام هو احتفالاً لأهل مرسيليا وتوابعها ودُعيت إليه، وهكذا تهيأت لي فرصة لأن أرى جميع النِّساء الجميلات غير أنّي لم أعجب بجمال واحدة منهن، ومن الحق أن أقول، مع ذلك، إنَّ الريفيات جد جميلات وذوات ذوق فائق في ملابسهن، ويمكن أن يكن أجمل نساء العالم لو كان لهنَّ رواء الإنكليزيات الرائع، ومع ذلك فلا يمكن أن يُقابلن، كما هُنَّ عليه، بالإنكليزيات.

لم أكن آمل هذه الاجتماعات السارة، فقد أمضيت زمن إقامتي فيها باستلطاف واف، وقد عرَّفني الحاكم إلى زوجه وهي أكثر النِّساء تحبباً وتأدباً، وكان له ابن يدرس الإنكليزية، فكان يأتيني كل يوم فنتحادث باللغة المذكورة أو يستصحبني ليريني عجائب المدينة وما حولها.

وفي مرسيليا ناس جاؤوها من جميع البلاد، فعدد كبير منهم من اليونانيين والمصريين، قد أقاموا فيها، وقد اهتم بأمري أعضاء الجمعية الإنكليزية الأمريكية ويدعوني إلى وليمة فائقة رائقة، وحضوني على العدول عن الخطة الَّتي اختططتها: أن أرجع إلى بلاد الهند براً، وأرادوا أن أبحر في أوَّل سفينة تسافر إلى أمريكا مؤكدين لي أنّي ساجد دائماً في موانئهم سفناً مستعدة أن تقلع إلى كلكتا، فلم أغيرّ ما عزمت عليه، ومع ذلك وعدتهم أنّي إن أعد إلى أوروبا أقصد منها إلى أمريكا، ولما قنعُوا بهذا الوعد أعطوني رُقعاً بأسمائهم وأسماء أماكنهم ورجوا منّي ان أسأل عنهم حين وصولي إلى بلادهم.

وبعد إقامة دامت خمسة عشر يوماً في مرسيليا رأيت أنّي لا أستطيع سفراً قاصداً إلى مدينة القسطنطينية فأبحرت منها قاصداً إلى جنوة، ففيها كما قيل سأجد كثيراً من السفن.

إبحار أبي طالب إلى جنوة

وباليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الأوّل (سنة 1217هـ) الموافق لليوم الخامس والعشرين من تموز (سنة 1802م[1]) استأذنت حاكم مرسيليا والمسيو بارنو وأصدقائي الآخرين في السفر وركبت السفينة فأبحرت بنا بلا تلبث، وقد تكلّمت سالفاً على البحر المتوسط الّذي يمتد زهاء ثمانمائة فرسخ، وأضيق جزء منه يُسمَّى «مضيق جبر النّار» وهو من الكلمة العربية «جبل طور[2]» ومعنى ذلك «رأس طور» وهذا البحر ينقسم على شعبتين إحداهما ممتدة نحو الشمال إلى تريستة ويُسمَّى بحر البندقية والأخرى تبلّ سواحل اليونان وتُسمَّى «البحر الأيوني» وله شعبة ثالثة ضيقة جداً تُسمَّى «بحر مرمرة» وهو ممتد إلى القسطنطينية ومتصل بالبحر الأسود، والبحر الأبيض هذا الّذي هو حوض من البحر المحيط الأعظم تحده من الشمال إسبانيا والبلاد الأوروبية الأخرى، ومن الشرق سوريا وفلسطين ومن الجنوب فاس وبلاد البربر وغيرها، وفي غربيه المضيق الّذي ذكرته آنفاً، وللإنكليز فيه قلعة لا ترام، تخولهم السيطرة على هذا البحر الّذي خُيِّل إليَّ أنَّ طبيعته أرادت طردهم[3].

ولم أجد ما يستحق الاعتبار في هذه السفرة، وإذ كان البحر هائجاً جداً بقيت يومين لا أستطيع أن أطعم شيئاً ثُمَّ استعدت اشتهائي فطلبت الزاد الّذي حملته معي إلى السفينة فلم يُوجد، لأنَّ نوتيّة السفينة سرقوه، ولا شك لي في ذلك، فاضطررت أن أقتات فيما بقي من الوقت كعكاً جشباً مبلولاً بالخل والماء. وباليوم الخامس من السفر وصلنا إلى جنوة.

---

(1) كان أبو طالب قد ذكر في الصفحة 272 من الرحلة أنَّ أوّل شهر ربيع الأوّل من هذه السنة الهجرية وافق أوّل تموز من هذه السنة الميلادية على حين ورد في تقويم محمَّد مختار باشا أنَّ أوّل الشهر المذكور وافق اليوم الثاني من تموز.

(2) المشهور المتعالم المتعارف عند الجغرافيين أنَّ أصل الاسم «جبل طارق» لقائد المعروف السيرة. (المترجم).

(3) هذه العبارة غير واضحة ولعلَّها من سوء الترجمة. (المترجم).

أبو طالب في جنوة

وما كادت السفينة ترسو بنا حتّى جاء إليها طبيب في قارب ليفحص عن حالنا، فالطاعون يعبث ويُفني في هذه البلاد غالباً، فلذلك هم يمنعون كل أحد من الأبرار بغير إجازة من الطبيب الّذي يجب أن يتحقق صحة المُبرّ قبل نزوله، فإذا أحس بأنّ أحد ركاب السفينة مات في أثناء السفرة البحرية أو بان في السفينة مرض ألزم السفينة أن ترسو أربعين يوماً في موضع خاص. ومن يُرد أن ينزل من الركاب أو نوتية السفينة فإنّهم يُربثون[1] مدّة الأيّام المذكورة في نوع من المارستانات اسمه «لازاريت» وإن يُحاول أحد منهم الهرب يَرمه الحراس برصاص البنادق كما يُرمى الكلب المسعور. والطبيب الّذي زارنا للفحص كان نحيفاً أصفر الوجه كأنّه أبلّ من مَرض أصابه مع أنّنا كلنا كنّا ضخاماً وسمانا، وبعد أن لاحظنا ولاحظ نفسه استحيا من الموازنة بيننا وبينه، فأجاز لنا النزول من غير أن يفحص عن شهاداتنا ووثائقنا المحررة.

وقد صحبت المستر «سكولبريد» والمستر «جالي» رفيقي في السفر، في الذهاب إلى فندن «ليون روج[2]» ثمّ ذهبنا نقضي ما يجب علينا للقنصل الأمريكي المستر «ويلسون» وقدمتُ إليه كتاب توصية من المسيو ساماديت، فاستقبلني أحسن استقبال ودعانا إلى التغدّي في داره فتغدينا ثلاثتنا، بالثلاثة الأيّام الّتي قضيناها في هذا الموضع.

وجنوة مدينة فخمة قائمة في بلاد فاتنة المناظر، تُحاذ الخليج وهو مستدير، ولو لم أشاهد خليج كورك ورأيت هذا لعددته أجمل خلجان أوروبا، والمباني العامّة والقسم الأعظم من المنازل المبنية بالحجارة المهندمة شامخة جداً بالعمد المربّعة، والأروقة المجنّحة وغير ذلك، وقليل من الشوارع عريضة وجدّ منظمة، ولكن الشوارع الأخرى ضيقة لا تنفذ فيها أشعة الشّمس البتّة، غير أنّ المدينة مقامة على منحدر فلا يرى الناظر فيها طيناً ولا قاذورات.

---

(1) نقل الجواب من الأفراد إلى الجمع هو من أساليب القرآن الكريم لأنّ «من» الشرطية مبهمة في قدمها فكانت للمفرد وغيره ويربثون أي يحبسون ويمنعون من الخروج. (المترجم).

(2) أي الأسد الأحمر. (المترجم).

وشكل المدينة هلالي وتُحيط بها تحصينات جيدة، من جهة البرّ كما من جهة البحر، وتستطيع أن تقاوم أقوى الهجمات، ومنازلها مزخرفة زخرفةً فاخرة في الداخل، ولم تُعجبني ولا راقتني الزينة الّتي زُيِّنت بها مثاوي الدور، وأنا أعترف مع ذلك أنَّ جنوة في مجموعها أجمل مدينة عرفتها.

وللجنويِّين مواهب جزيلة في الموسيقى، وعندهم من آلاتها جملة لم أرها في بلاد أخرى، وكنت ذات ليلة نائماً فسمعت بغتة أعذب الألحان، فلم أتمالك أن قفزت من السرير وعلوت إلى الباب المؤدِّي إلى الشارع، فوجدته مقفلاً وقد أخذ مفتاحه فعدت إلى غرفتي، وفي أثناء طربي كدت من الشوق أتسرَّح من الشبَّاك إلى الشارع، ولكن النوبة الموسيقية انتهت لحسن الحظ. وكنت أسمع كثيراً في لندن أنَّ الإيطاليِّين موسيقيون بارعون، وتختلف موسيقى الهنود وموسيقى الفرس في الحقيقة عن موسيقاهم اختلاف صوت طاحونة عن صوت منسجم لآلة موسيقية محكمة.

إنَّ قانون جنوة الخاصّ بالمومسات عديم المثال جداً، فهؤلاء النِّساء لا يظهرن في الشوارع أبداً، لا ليلاً ولا نهاراً ولكن خدَماً لهُنَّ عليهم ملابس فاخرة، يصطفون في مفترق الطرقات يدعون الرِّجال إليهن لمسافحتهن في مساكنهنَّ.

تعدد الزوج في جنوة

وفي هذه البلاد عادة رأيتها أغرب ممَّا ذكرت، هي أنَّ المرأة الظريفة ينبغي لها زوجان تقسم بينهما وقتها وحبّها[1]، فأحدهما يقوم بالاتفاق عليها، ويأتي بما تحتاج إليه الدار من أزواد وعتاد، وله حق التميُّز بأن ينام معها، وأن يُدعى أباً لجميع أطفالها، والآخر يظل معها نهاراً، ويصحبها الزوج الأوَّل عند الخروج من الدار ويطيع أمرها إطاعة عمياء ويخضع لأهوائها. فإذا جاء الزوج الثاني، بالاتفاق[2] وطرق الباب وكان الزوج

(1) لا نحسب ذلك جائزاً في قوانينهم إذ ذاك وإنَّما هو نوع من المخادنة تغلب عليه صفة الزواج ظاهراً. (المترجم).

(2) أي كما يُسمَّى اليوم «الصدفة» لا كما يدلُّ عليه ظاهر اللفظ لأنَّ المراد اتفاق الفعل مع القدر. (المترجم).

الأوّل مع زوجته فإن الأوّل ينصرف في الحال ويتركها للثاني وهم يسمّون هؤلاء الأزواج العواريّ «سيكيسبه[1]»، وهم شبان صباح الوجوه وليس لهم نساء شرعيّات، ومع هذا يرى الرائي أحياناً رجلاً متزوجاً يصير خِدناً «سيكيسباً» لإحدى نساء أصدقائه.

والنواحي المحيطة بجنوة تغل بطيخاً لذيذاً وكثيراً من الخوخ والأجاص والعنب والفواكه الأخرى. وفي غد يوم وصولي أعلمني المستر «ويلسون» إنّ سفينة قد أعدت للسفر إلى «ليفورن» وحثني على افتراص هذه الفرصة، وزاد على ذلك أنّي إن أرد أولى عجائب الدّنيا يجب عليَّ أن أذهب إلى روما بطريق «فلورنسا» ثمّ أصير منها إلى «نابل» وهناك يسهّل عليَّ الإبحار إلى «مالطة» فاستحسنت جداً هذه النصيحة وانطلقت في الحال فاستأجرت موضعاً للسفر في سفينة إنكليزية قاصدة إلى ليفورن يقودها الاشتيام[2] «بويستون».

أبو طالب في ليفورن

وفي غد ذلك اليوم أبحرنا مبكّرين، وفي أثناء جميع هذه السفرة كان اشتيام السفينة يرعاني ويراعيني، وبلغ من رعايته إيّاي أن تخلى لي عن غرفته وسريره، ووصلنا في اليوم الثالث إلى ليفورن، وحين إظهارنا شهاداتنا الصحية أجيز لنا الأبرار، فذهبت للقاء القنصل الإنكليزي المستر «كرانت» فتلقاني بأدب وقال لي إنّهم ينتظرون يوماً بعد يوم بارجة حربية إنكليزية تأتي من جزيرة مالطة وأستطيع أن أحصل على موضع فيها، فسألته هل يمكنني أن أمر بفلورسنا لأنّي كنت ناوياً أن أزور روما وأصير منها إلى نابل؟ فقال لي: «إنّ سفرك بحسب نيتك الّتي ذكرت في مثل هذا الفصل الحار سيكون خطراً جداً بسبب حُمى وبائيةُ معدية تحدث في الداخل من إيطاليا هلاكاً

---

(1) كلمة إيطالية مفرنسة أصلها «سيسيزبأو» وهي تعني رجلاً يختلف إلى دار بمثابرة ويتظاهر بأنه عجلان بين يدي سيِّدة المنزل (معجم بواتفن) وجاء في معجم براوست أنّها تطلق على الرجل الظريف المتعلق بحب امرأة، وذكر قول دوباتي إنّ السيكيسبه في جنوة يشبه صديق الدار في باريس. فهو إذن خدن الزوجة. (المترجم).

(2) الاشتيام هو ربان السفينة كما ذكرنا. (المترجم).

فاحشاً فوجب عليَّ العدول عن خطتي في إرادتي أن أرى أشهر مدن أوروبا، وإن كانت معي كتُب توصية بي كان المستر ولسون زوَّدنيها وهي معنونة إلى أعيان فلورنسا وروما ونابل وأكابرها.

إنَّ مدينة ليفورن المشهورة جداً بمينائها وفيه يجتمع تجار جميع الدول الّتي تسكن سواحل البحر الأبيض[1] المتوسط هي في غاية الصغر، فإذا قعد الإنسان في وسطها استطاع بسهولة أن يرى أبوابها الأربعة، ولكنَّها محوطة بتحصينات، ومعظم المساكن فيها لها أربع طبقات أو خمس وسكناها مضجرة بسبب حر المدينة الّذي لا يطاق والبعوض والبق والحشرات الأخرى الّتي يطول ذكرها. والماء العذب نادر جداً في ليفورن، والمنابع الشعبية[2] فيها قليلة، ثمَّ إنَّ ماء هذه المنابع يجري بطيئاً يستغرقَ ملء إناء واحد نصف ساعة، وقد رأيت غالباً ناساً ينحنون ويمتصون الحنفية لإسراع نزول الماء، وفي أثناء ذلك نرى جمعاً من النَّاس ينتظرون نوبتهم، ولذلك حدث غير مرَّة خصام وشجار بينهم لكماً بجمع الكف. وإذ كان مستحيلاً الحصول على الماء العذب في الدور كنت أذهب غالباً إلى المنبع ولكني قلما كنت أروي عطشي وأنقع غلتي.

والحرارة في المثاوي هناك شديدة دائماً، وقد اعتدت أن أخرج بعيد الظهيرة فاقعد في ظل جدار أو أتنزه في مقهاة لتزجية الوقت، وبالمساء كنت أقعد تحت رتاج كنيسة كبيرة مقامة على رحبة من رحاب المدينة من أجل أن أستنشق بعض البرودة ـ أنزل الله لعنته على مدينة ليفورن وعلى أهلها الّذين هم على غناهم المشهور المذكور جداً أشحَّاء يبتزون من الأجنبي، إن استطاعُوا، كل ماله حتَّى آخر فلس ـ.

وكنت ذا مساء قاعداً، على عادتي هناك، على درج الكنيسة فاقترب منِّي من ورائي مازح سفيه فانتزع من رأسي عمامتي، وكان طرف من هذا النسيج الموصلي متدلياً اتفاقاً، فأمسكتُ به ونهضت بسرعة وحاولت أن أقبض على السفيه إلَّا أنه مزَّق العمامة وهرب بقطعة منها، وحكيتُ هذا

---

(1) ليس في الأصل كلمة «الأبيض» وقد نزيدها أحياناً زيادة منَّا للإيضاح. (المترجم).

(2) أراد أنابيب الحياض الّتي يستقي الشعب الماء منها للشرب والاستعمال. (م).

الحادث لجماعة من معارفي من الإنكليز، فنصحُوا لي أن لا أقعد بعد ذلك في ذلك الموضع، وأن لاأخرج بالليل وحدي، لأنَّ الإيطاليين يقتلون الأجانب غالباً تعصُّباً كاذباً للدِّين أو لسبب آخر، وينتقمون أيضاً بالخناجر ممَّن يفضحهم أو يسبّهم.

وفي ليفورن فواكه مختلفة الأنواع وبخاصة الرَّقي[1] اللذيذ، وحجم الواحدة منه أكبر ممَّا في «الله آباد» بمرتين، مع أنَّ رقي الله آباد أحسن ما في بلاد الهند، وذوو الأكثرية من سكان ليفورن يهود ويونانيون أو أرمن[2]، وكلهم معروفون بشحّ مُفرط، وقد استصحبني يوماً صديق لي إنكليزي، ظاناً أنّي أسَرُّ بلقاء من يفهم الفارسية، إلى دار تاجر أرمني مولود في جُلفا إحدى ضواحي أصفهان، فوصلنا إلى الدار حين كان التاجر يَطعَم طعامَه، فأمر ابنه أن يعلمنا أنَّه مريض فضلاً عن أنَّه نسي اللغة الفارسية كلها[3].

وكنت ألاقي في الغالب، بالمقهاة أرمنياً آخر اسمه «خواجه رافائيل» وكان مولوداً في جلفا أيضاً، وادَّعى أنَّه يجهل اللغة الفارسية، وكان شيخاً احترف بدلالة الطرق وطاف أكبر أقسام الكرة الأرضية، وقد كان ترك بلاد الفرس أيَّام شبيبته إلى «سوراة» ومن هناك صار إلى البنغال، فأقام فيها برهة ثمَّ ارتحل إلى إنكلترا فروسية حتَّى استقر تاجراً في ليفورن، وقد زارني مراراً ولكنَّه لم يقم لي بخدمة قَطُّ ولو صغيرة، وكان جدَّ متحرّز حتَّى لقد امتنع من أن يقول لي أيّ طريق يعتقد أنَّه واجب عليَّ سلوكه في سفري هذا.

وإن أساء الأرمن معاملتي فقد كان لي ابتهاج باتصالي بالمستر «داربي» وهو تاجر إنكليزي استوطن المدينة منذ زمن طويل، وكان

(1) هو الرقي عند العراقيين والحبحب عند الحجازيين والبطيخ الأحمر عموماً، والحبحب كلمة فصيحة. (المترجم).

(2) هكذا وردت الترجمة الفرنسية، ولا محل للحرف «أو» لأنه يدلُّ على شك القائل وحكاياته تدلُّ على كثرة الأرمن هناك. (المترجم).

(3) قلنا: أهل أصفهان الآن مشهورون في إيران بالدناءة والرداءة لغلبة الطباع اليهودية عليهم. (المترجم).

يستصحبني غالباً إلى داره الريفية الّتي هي على ستة أميال من المدينة، فكنتُ أتبرد فيها وأتمتع بالمُتع الممكنة، وقد حكيت له جميع قصّة آلامي وتعبي، وقلت: ما أكثر إبطائي عن مغادرتي ليفورن، وأخشى أن أكون قد أزعجته وأسأمته بشكاياتي. ومع هذا فقد استنفد الرجل وسعه في تسليتي والتسرية عنّي.

وبعد خمسة عشر يوماً وصلت السفينة الإنكليزية الحربية «أورورز» من مالطة مع قارب، فرجوت من القنصل الإنكليزي، وقد طرت فرحاً، أن يحصل لي على موضع فيها بحسب وعده ولكنّه لم يتكلّم مع الربان على رجائي بل اكتفى بدعوة نوتي القارب أن يحملني في قاربه، وكنت تواقاً إلى مغادرة ليفورن فلم أعترض على دعوته فاستأجرت زورقاً صغيراً ولحقت بالقارب، ولما حصلتُ فيه قال لي النّوتي إنّه لا يجرؤ أن يتكفل بأمري من غير إجازة من الرُّبان «ريشارد» ولا بدّ له من أن يستأمره في ذلك، وفعل ذلك وعاد عاجلاً قائلاً: إنَّ الربان منعَه منعاً باتاً أن يأخذني معه، فقلت له: لقد ساءتني هذه الطرائق الّتي يتبعونها وكان عليه أن يجنبني نَصب ركوبي الماء إليه بغير فائدة، وبعد أن فكرت هنيهة عزمت على لقاء الرُّبان ريشارد بنفسي، فتلقاني بأدب وطلبت إليه إجازة إبحاري إلى مالطة في القارب المذكور آنفاً. فقال لي: «ليس عندي إلّا أن أقول لك: إن استولَتْ على القارب سفينة حربية من سفن العدو فإنَّ ربانها يأخذ جميع ما فيه من الأزواد والذخائر ويضطره إلى العود إلى إنكلترا[1]، وحينئذٍ يتهيأ لك السرور بزيارة أصدقائك مرّة ثانية» فآذتني هذه الأقوال أذىً شديداً، ومع ذلك فقد تشجعت فقلت له: «أيُها السيِّد، إنَّ سفينتك في الأقل غير معرضة لمثل هذا الحادث المؤلِم، فإن يكن في نفسك عطف قليل على مُسافر تأذن لي في ركوب هذه السفينة». فتأثر الرُّبان ريشارد برجائي فقال لي حالاً: «اقعد وتغدّ مع ضباطي وارجع بعد ذلك إلى القارب فاحمل ثقلك ومتاعك إلى سفينتي» وفي أثناء[2] ذلك أدبر بعض الأمور في ليفورن».

---

(1) هكذا ورد نص الترجمة الفرنسية. (المترجم).

(2) هذه الجملة فصلتها الترجمة الفرنسية عن كلام الرُّبان ريشارد، فبقيت معلقة لأنها لا تصلح أن تكون من أقوال أبي طالب والسبب واضح جداً. (المترجم).

فرجعت إذن إلى القارب، ولكن النوتي صوَّر لي حال الرُّبان ريشارد بصورة رهيبة حتَّى لقد صَممت أن أطيل انتظاري في ليفورن حتَّى تحين فرصة أخرى للسفر، وأعدت ثقلي ومتاعي إلى مثواي في ليفورن، وسكنت فيه عوداً على بدء. ولما عاد الرُّبان إلى سفينته أرسل إلى نوتي القارب يستعمله ما صار إليه أمري، فلما علم أنِّي رجعت إلى ليفورن ركب زورقاً وجاء إليَّ، فلقي في طريقه صديقي «داربي» فصحبه إلى مثواي واستحثني على الإرسال بثقلي إلى سفينته «السعيدة» أورورز، فوافقت على ذلك. وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر (سنة 1217هـ) الموافق بالتقريب اليوم العشرين من آب (سنة 1802م) غادرنا ليفورن بالفجر.

إبحار أبي طالب إلى مالطة

وقد عرضت على الرُّبان «ريشارد» كتب التوصية الَّتي زوَّدنيها وزراء جلالة ملك إنكلترا إلى القناصلة والسفراء الإنكليز في مختلف دول أوروبا، فلما رآها لم يشك في تعلُّقي بالدولة البريطانية، وعاملني معاملة الأخ لأخيه، فكانت هذه السفرة من ألطف السفرات الَّتي سافرتها، وبعد أيَّام قليلة جاوزنا جزيرة «كورسة» وبُعيد ذلك جزيرة «سردينيا» ولها حاكم مستقلّ، ومررنا بإزاء صقلية أكبر جزء البحر المتوسط وهي في طاعة ملك نابل، وخصبها يجعلها الهُري[1] الوافر الغلة لجزيرة مالطة، ولم نر في سفرتنا هذه شيئاً يستحق الذكر. وفي اليوم الأوَّل من أيلول[2] (سنة 1802م) رست السفينة في ميناء مالطة.

وهذه الجزيرة المشهورة في التاريخ العربي وُلد فيها عدَّة فلاسفة قدامى، ولما طُرد النصارى من أورشليم «القدس» أعطى البابا وملوك أوروبا جزيرة مالطة مذهباً دينياً عسكرياً يُدعى رئيسه «السيِّد الأعظم». وهؤلاء المتدينون بالنصرانية أكثرهم أغنياء جداً ومن سلالة الأشراف فاستعملوا

---

(1) الهري بضم الهاء، وتسكين الهاء: البيت الكبير الَّذي يجمع فيه القمح ونحوه وجمعه أهراء وهو كالسايلو في عصرنا. (المترجم).

(2) يوافق أوَّل جمعة من جمادى الأخرة سنة 1217هـ. (المترجم).

«وارداتهم» في تشييد كنائس وتحصينات في الجزيرة، وكانوا في كل سنة يحبسون على هذا الشأن مبالغ من المال جسيمة، وصارت مالطة بعد قليل من الزمن من أحصن المواضع على الكرة الأرضية، قيل لي إنَّ كثيراً من هذه المنشآت مضى على إنشائها أكثر من ألف سنة[1]، ومع هذا فتظهر للرائي كأنها جديدة، وجدّ قوية بحيث لا يهدّها ولا يهدمها إلّا زلزال، وأنا لا أريد وصفها بل أجتزئ بأن أقول إنها من روائع منشآت الفن. وقد وقعت مالطة قبل سنوات قليلة في أيدي الفرنسيين، ولكن الإنكليز أخضعوها بالإجاعة بعد أن حاولوا من غير جدوى أن يستولوا عليها بقوّة السلاح، وتنصّ إحدى مواد السلام المعقود بين الدولتين على رجع هذه الجزيرة إلى السيِّد الأعظم للمذهب النصراني المذكور آنفاً، ومع ذلك فقد ارتكزت فيها حامية إنكليزية عدّة جنودها ستة آلاف جندي.

وفي أيّام سفري إلى مالطة كان رؤساء الحكّام فيها: حاكمها السير «الكسندر بول» وهو رجل ذو موهبة كبيرة، يحبّه جميع سكان الجزيرة ويعدونه كالأب لهم، والجنرال «فنديلير» قائد القوات العسكرية البريَّة والسير «بايكرتون» ذو المنصب المهم وهو أمير البحر في البحر المتوسط، والمستر «ماكولاي» مساعد الحاكم وآخرهم المستر «وايلكي» ضابط الأقوات والبحرية. ولما رست السفينة في الميناء نزل الربان ريشارد لإعلام الحاكم بوصولي، فوعدتني سيادته أن أبحر حينما أرى الإبحار موائماً لي، ودعتني إلى التغدِّي عنده، وجاءني الربان ريشارد بتفصيل رسالته[2] ونصحت لي بأن أقدِّم إلى الحاكم كتاب التوصية الّذي زوَّدنيه ملك إنكلترا إلى سفير «فينة» وقال لي: إنّه لا يشك في أنَّ سيادة الحاكم ستعمل بما في الكتاب كأنّه موجَّه به إليها هي نفسها، وتأمر بحملي إلى القسطنطينية على الباخرة «أوروز» فتجنبني نصب الإبحار في سفينة من سفن الشرق. وقد أتبعت هذه النصيحة وذهبت إلى الحاكم وكان عندها أي السيادة بالاتفاق أمير البحر المقدم ذكره، فعرَضت عليهما كتب التوصية بي وقلت لهما: إنَّ الوكيل

---

(1) قول مبالغ فيه إن صح أنَّ سكان مالطة من النصارى المطرودين من القدس أيّام الحروب الصليبية المعروفة التاريخ. (المترجم).

(2) هكذا جاء نصّ الترجمة الفرنسية. (المترجم).

الإنكليزي في باريس حضني على ترك خُطتي بإزماعي السفر على طريق «فينة» إلى القسطنطينية، فأبحرت إلى مالطة، وآمل أن يتقبلا كتُب التوصية الّتي تشرَّفت بعرضها عليهما كأنَّها معنونة إليهما ذاتياً، فقال لي هذان السيدان: إنَّهما سيهتمان بطلبي ورَجَوا منّي أن أزورهما بغير انقطاع ما دمت في مالطة، ودعاني الجنرال إلى التغدي معه غدّ ذلك اليوم، ودعا بعده أمير البحر «ماكولاي» والمستر «ويلكي» في الثلاثة الأيّام التالية لذلك اليوم.

وقد أقمت في مالطة في فندق «سوتر» في مثوىً جميل جداً، وفيه تقبلت زيارة جميع أعيان مالطة، ولما كان زُبد الفندق وشايُه رديئين جداً ألح عليَّ الحاكم والجنرال أن أتصبَّح معهما بالتوالي، فما أعظم الفرق بين سيرتهما وسيرة المستر «ميري»! فهذا الأخير قد عرضت عليه كتاباً أمرت بكتْبِهِ جلالة ملك إنكلترا وفيه هامش من اللورد «بلهام» فاستقبلني ببرودة ويلغ به خبثه أن حثني على سلوك طريق فيه كثير من الغَرر والخطر، مع أنّني في مالطة، وكنت مجهولاً فيها كل الجهل، لقيت من الرعاية والعناية كل ضرب[1].

وباليوم الثالث من وصولي أقام حاكم الجزيرة، بصفته نيابة السيِّد الأعظم لمالطة، حفلة رقص وأولم وليمة عشاء لأعيان سكان الجزيرة، وحضرت كل الجماعات الطّيبة الحفلة، ووجدت عدَّة نساء مالطياتٍ هُن غاية في الجمال، وكان الطعام نفيساً والموسيقى أخاذة بمجامع القلوب.

اللغة المالطية

وشيء عديم المثال جداً في هذه الجزيرة هو أنَّ لغة المالطيين فيها كثير من اللغة العربيَّة، فالتلفظ هو نفس التلفظ العربيّ على التقريب، والأحرف «س. ز. ط» تقابل «الزواد»[2]، الصاد، الطاء» وبقية لهجتهم خليط من اليونانية والإيطالية والفرنسيَّة، وكثير من المالطيين المتعلمين يتكلَّمون اللغة العربيَّة بطلاقة، وقد نسيت أن أذكر أنَّ في مرسيليا وجنوة

(1) كان ذلك بديهياً فقد رأى النّاس اهتمام حاكم مالطة به وأمير البحر والنّاس على دين ملوكهم. (المترجم).

(2) هكذا سمت الترجمة الفرنسية «الزاي» ولعلَّ المراد الضاد. (المترجم).

وليفورن كثيراً من البحريين يفهمون هذه اللغة، ومنشأ ذلك من غير شك من السلطة العظيمة التي بلغها قديماً رؤساء المغاربة من الدولة المروانية في إسبانيا، فقد أنشؤوا مستعمرات ومراكز تجارات في جميع سواحل البحر الأبيض المتوسط، ومن السهل أن يلحظ الملاحظ أنّ عدداً كبيراً من العمارات والمدن بكليتها كان المسلمون قد أنشؤوها. وقبل عدّة قرون أرسل أحد سلاطين القسطنطينية جيشاً إلى جزيرة مالطة، وإذ لم تكن التحصينات في ذلك العصر قد أكملت استطاع الأتراك أن يستولوا على نصف الجزيرة، وحاصرُوا بقيتها زمناً طويلاً ثمّ اضطرُوا إلى التخلي عنها بعد أن فقدوا جميع بعثهم على التقريب، والمالطيُّون، لإحياء ذكرى هذا الحادث السعيد لهم، يحتفلون بعيدِهِ السنويّ بإقامة أفراح وملاوٍ ومسرّات عظيمة.

والحرارة في مالطة شديدة، وفي الدور كثير من الحشرات، فهي لا تلائم السكنى ولا توائمها أبداً، فإنّي لم أكن أستطيع النوم فيها أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات في اللّيلة الواحدة، والخنازير الأهلية الّتي تطوف في الشوارع أزعجتني كثيراً أيضاً، والمالطيون يحبون هذه الحيوانات حتّى لقد ثاروا على أحد سادتهم الأعاظم لما أمرَ بارتباطها داخل زرائب، ومنذ ذلك الوقت أخذت هذه البهائم حرية الجوْس خلال جميع أقسام المدينة ما عدا رحبة القصر. وبعد خمسة عشر يوماً تفضّل عليّ الحاكم وأمير البحر بأن أمر الرُّبان أن يحملني في سفينته «أوروز» إلى «إزمير» الّتي هي على مسافة خمسة نُهُر[1] وزوّداني كتب توصية إلى القنصل الإنكليزي في هذا الميناء.

وركبت السفينة من مالطة في اليوم السادس عشر من أيلول (سنة 1802م) مع الرُّبان ريشارد، وفي الأيّام الثلاثة الأولى من سفرنا كانت الريح طيبة ثم هاج البحر وهبت عاصفة رهيبة دامت أربعاً وعشرين ساعة وقصفت أحد صواري السفينة، وعدَّة عوارض، ومزّقت جميع الأشرعة وأصاب ضررها أجهزة السفينة الأخرى إصابة بالغة، ولكن الرُّبان لم يبتئس ولا ارتاع وإنّما خشي أن تكون السفينة صَدمت صخراً بحرياً أو اجتالتها

(1) النهر جمع نهار. (المترجم).

الريح إلى بعض جزر البحر الأبيض المنتشرة فيه، فكان من حسن حظنا أنْ سلِمنا من كل هذه الأخطار، ثمَّ تحولت الريح في الغد صباحاً فقطعنا مائة وخمسين ميلاً في أربع وعشرين ساعة. وباليوم السادس رست السفينة في ميناء «ميلو» وعلمنا هناك أنَّ إحدى عشرة سفينة قد دمرتها العاصفة، وأصاب سفينتنا من الأضرار ما حمل الرُّبان أن يرى من اللازم ترميمها، وكنَّا في أثناء العاصفة قد مررنا بإزاء «كاندي» وعدَّة جزر أخرى عرفها الجغرافيون العرب باسم «الجزر الأيونيَّة».

وقد رأينا في مطارح البصر من الجوار عدَّة مدن كبيرة منشأة جميعها فوق الهضاب وهي خاضعة للأتراك وسكانها من اليونانيين الَّذين يئنون تحت استبداد الأتراك الفظيع[1]، وهم جدّ أشقياء وبائسون بحيث يُعد أدنى الهنود أميراً بالإضافة إليهم. والأتراك محافظون على الشريعة المحمَّديَّة متشدِّدون، ويضطهدون جميع من ليس على دينهم[2]، وهؤلاء اليونانيون يظهر أنَّهم مخذولون ومستسلمون اليأس، وعلى وجوههم أمارات الحزن والفقر، ولم أستطع أن لا أترثى لهم.

وفي اليوم الثالث من تشرين الأوَّل (سنة 1802م) أبحرت سفينتنا من ميلو وبعد يومين أو ثلاثة أيَّام لاحت لنا في مرورنا «أثينا» موطن أفلاطون وديوجين وعديد من عظماء الرِّجال الآخرين، وباستعمالنا المناظر استطعنا أن نرى بوضوح أطلال عدَّة معابد وهياكل وخرائبها، فسطوحها قد خربت منذ دهر طويل ولكن الأعمدة المرمر القائمة حتَّى اليوم تشهد على عظمتها القديمة. وفي اليوم الخامس من تشرين الأوَّل (سنة 1802م) بعد سفرة طيبة جداً رست سفينتنا في خليج أزمير.

أبو طالب في أزمير

وحينما أصدر الرُّبان أوامره إلى البحرية الَّذين في سفينته وأتم

---

(1) لم يكن مستغرباً قول أبي طالب هذا وقد كان داعية للإنكليز وأسيراً لحبهم، كما دلَّت عليه رحلته مراراً. (المترجم).

(2) اتهام ظاهر البطلان لأنَّ الإسلام يحرم ذلك. (المترجم).

الإصدار ذهبنا إلى دار القنصل البريطاني المستر «فيزي» فتلقانا بأدب وافر ورجا منّا أن نقيم عنده حتّى غد ذلك اليوم. وخرجنا بعد الغداء لزيارة «الحاج عثمان[1] أغا» مدير الكمرك والمكوس، وكانت داره منشأة في وسط بستان بهيج على مقربة من المدينة، فوصلنا إلى داره عند حلول تغدّيه، فاستقبلنا استقبالاً لطيفاً جداً، ومع أنّنا كنّا قد تغدينا ألزمنا أن نقبل هو كاسات[2] وشراب القهوة، ولما انصرفنا من عند الأغا طلب منّي وعداً بأن أجيئه ثانية نهار الغد. وقبل حلول الساعة المعينة أرسل أحد خدامه بفرس مُسرّج سرج عسجدي فاخر، فركبته إلى حديقته، فاحتضنني الأغا بذراعيه وجلسنا وقُدّم إلينا طعام نفيس[3]، وقد كنت حُرمت زمناً جدّ طويل طبيخ المطبخ الشرقي بحيث سرّني هذا الطعام ومَرآبي أعظم السرور والمَرْء. وبعد التغدي شربنا من «الشربت» وبقينا نتحادث حتّى منتصف اللّيل، وإذ كنت أفكر في تركي أزمير غد ذلك اليوم زوّدني الأغا كتاب توصية إلى سيد من أصدقائه مقيم في القسطنطينية، فشكرت ألطافه كثيراً واستأذنته في الانصراف، وحينئذٍ أمر بإعداد زورق وكلف أفراداً من موظفيه باستصحابي إلى مثواي.

واشتور القنصل والرُّبان ريشارد في وسائل نقلي إلى القسطنطينية، وبان لهما أنّي سأكابد كثيراً من الأذى إن سافرت بَرّاً، وعلى هذا يكون من الملائم أن أبحر في السفينة «أوروز» أيضاً، إلّا أنّ الرُّبان لم يكن قد استجاز أمير البحر في هذه السفرة، وإذ كانت السفينة محتاجة إلى صارٍ وعدّة أدوات لا يمكن الحصول عليها إلّا في القسطنطينية اعتقد أنّه لا يستطيع أن يأخذ على نفسه مسؤولية الصيرورة إلى ميناء القسطنطينية.

وأزمير مدينة كبيرة ولها موضع جليل ويسكنها اليونانيون والمسلمون، وفيها كثير من التجار النصارى، وفيها تجتمع السفن من كل موانئ البحر

---

(1) في الترجمة الفرنسية «عصمان» بحسب النطق التركي الّذي هو ارتضاخ لكنة. (المترجم).

(2) لم أجد هذه الكلمة في المعجمات التركية ولعلّها محرفة وسيذكرها بصورة «هوكاء» في موضع آخر. (المترجم).

(3) عجبنا من وصف أبي طالب لعشاء هذا التركي بالنفاسة ولم يكن من مطبخ إنكليزي ولا من الألوان الإنكليزية. (المترجم).

الأبيض المتوسط، وهذه المدينة فيها كثير من الفواكه على اختلاف أنواعها، وبطيخها جدّ مشهور ومبذول، بحيث يرى الرائي منه أكواماً عظيمة في كل أنحاء المدينة، ورأيت فيها كثيراً من العنب والرمان والسفرجل من نوع عديم النظير وقد تغديت مرّة ثانية عند الأغا مدير الكمرك والمكوس وبقينا معاً أيضاً حتّى منتصف اللّيل، ولما انصرفت أمر أحد خدّامه أن يحمل إليَّ في السفينة. زاداً لي مائة بطيخة وعنباً وخمسين كعكة وعنزين وعجلاً وأمر بعد ذلك بأن أوصل إلى باب داره، وأصحبني صاحب سرّه إلى مثواي في المدينة.

أبو طالب يبحر إلى القسطنطينية

وباليوم الثالث عشر من تشرين الأوّل (سنة 1802م) أقلعت بنا السفينة ميناء أزمير، وبعد قليل وصلنا إلى جزيرة «ميتيلين» مسقط رؤوس عدّة فلاسفة كبار، وإذ كان البحر هادئاً نزلنا إليها لنزور «كاسترو» ولكنّا خدعنا في انتظارنا، فالمدن في هذه البلاد مشيدة على مرتفعات ودُورها البيض[1] تحدث من بعيد كثيراً من التأثير في النُفوس، ولكن الإنسان إذا اقترب منها زالت منه الغرابة والعجب، والشوارع الّتي فيها الأسواق مغطاة بالكرم المعرش وهي جدّ ملائمة في الفصل الجميل ولكنّها في زمن الرطوبة تجعلها مظلمة وقذرة، والسكان يونانيون وهم في حكم الأتراك.

وفي اليوم الخامس وصلنا إلى مقابل «تينيدوس» وإذ كانت الريح نكباء كثيرة التحول في البحر الأيوني اضطررنا إلى إرساء السفينة، ونزلنا البرّ، للقيام بالواجب علينا للحاكم عمر أغا، وقد تلقانا بأدب كثير، ورجا منّا أن نتغدّى عنده، ولكن ارتحالنا تابع بكليته للريح، واعتقدنا أنَّ توقفنا مخالف للصواب، فلم نقبل قط دعوته، وفي الغد صارت الريح أكثر ملاءمة لنا فاندفعت بنا السفينة إلى بحر مرمرة الّذي يشتق القسطنطينية ويمتد فيتحد بالبحر الأسود، غير أنَّ مجرى الريح من البحر الأسود نحونا كان دائماً جد

---

(1) جمع البيضاء، والجمع واجب هنا قال تعالى «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود» وقال ـ عزّ وجلّ ـ: عليهم ثياب سندس خضر. (المترجم).

سريع بحيث لا يُستطاع دخول الميناء بغير غوث من ريح قوية تأتي من الغرب، وقد وجدنا هُناك خمسين سفينة تنتظر، ومنها ما كانت تنتظر منذ شهرين، الحين الموائم للإقلاع.

إنَّ بحر مرمرة يفصل بلاد العجم: الإمبراطورية الفارسية القديمة عن بلاد الفرنج أو يفصل آسيا عن أوروبا، وهذا البحر الَّذي طوله مائة وعشرون ميلاً هو في الوسط ذو عرض عريض ولكنَّه يتضايق في نهايته إلى مجريين عرضهما ميلان أو ثلاثة أميال ويُسمَّى أحدهما مضيق «كاليبولي» والآخر «مضيق القسطنطينية»، وكل الدول الَّتي في شمال شرقي هذا البحر هي في عداد أوروبا[1]، والدول الَّتي في الجنوب الشرقي في عداد آسيا.

إنَّ لهارسب المُسمَّى عند العرب «بختنصر» كان أوَّل ملك للفرس[2] أخضع شعوب حدود آسيا، وهذا الفتح أدام حرباً كثيرة الدماء مدة طويلة بين اليونانيين والفرس، ولما حل الرومان محل اليونانيين، وبسطوا سلطتهم على جميع أوروبا ناضلوا ملوك الفرس في الدولة الاشكانية والدولة الساسانية، ولكن هذه الحوادث لم ينقلها مؤرخونا لأنَّنا لم يكن لنا تواريخ على السنين صحيحة قبل محمَّد (عليه الصلاة والسلام). وبعد أن استولى السلاطين العثمانيون على القسطنطينية وعدَّة أصقاع وأقطار من أوروبا تلقَّبُوا بلقب «سلطان البرّين وخاقان البحرين» أي «إمبراطور والقارّتين وسيد البحرين» وقد حافظوا عليه حتَّى الآن[3]. وبالقرب من مصب «هيليسبونت» على ساحل الأناضول موضع معروف باسم «تروا»[4] والضفة مغطاة بجمهرة من التلال يحسبها الرائي قبوراً لمقاتلين سقطُوا صرعى في الحروب الَّتي وصفها أوميروس. وبعد أن قضينا يومين هناك دفعتنا الريح المؤاتية إلى مدخل «الداردانيل» ولكن مجرى الرياح كان جدّ سريع فاضطررنا إلى

---

(1) لعلَّ الأمر بالعكس فبلاد «روم أيلي» التركية هي في شمال البحر الغربي لا الشرقي وهي في عداد أوروبا. (المترجم).

(2) هذا من خرافات التاريخ فلم يكن بختنصر آرياً ولا صلة له بالفرس غير صلة الجوار، ولم يكن له اسم فارسي فهذا من أساطير الفرس.

(3) قلنا: وقد تقدَّم أنَّ السلطان العثماني كان يلقب بين ملوك أوروبا بالسيد الأعظم. (المترجم).

(4) يعني طروادة المشهورة بحروبها.

التوقف والمضيق محصَّن بحصنين أو قلعتين ذواتي مدافع عظيمة تستطيع بسهولة أن تغرق كل سفينة معادية تحاول أن تجتاز المضيق وإن ساعدتها ريح مؤاتية، وهذا هو الّذي جعل «الداردانيل» مشهوراً في جميع أوروبا، وحصنان آخران يحفظان ذراع البحر الّذي يتحد بالبحر الأسود فوق القسطنطينية، ويعدهما الأتراك مِترساً لسلطنتهم، وأنا لأؤيدهم في هذا الرأي، فإن يُحصر الأتراك في القسطنطينية ويَكِلُوا سلامتهم إلى أسوارهم فإنّي واثق بأنهم لن يقاوِمُوا جيشاً مظفراً خمسة عشر يوماً[1].

أبو طالب في القسطنطينية

أقمنا أربعة عشر يوماً في الداردانيل منتظرين ريحاً مؤاتية طيبة، ثمَّ تحققت آمالنا في اليوم الثاني من تشرين الثاني (سنة 1802م) فقد ارتفعت ريح عظيمة من الغرب فجأة فأقلعت معاً زهاء مائة سفينة، باختلاف حجومها وأوطانها، ولم أر قط في حياتي منظراً جليلاً كمنظر جميع هذه السفن وهي تستبق العبور، وسرعان ما تركنا الحصنين الداردانيلِيِّين وراءنا، وألفينا في كل من الجانبين للمضيق بلاداً رائعة المناظر، وفي اليوم الثالث رست السفينة بإزاء القسطنطينية، ولم أنشب أن أرسلت إلى السفير الإنكليزي اللورد «إيلكن» برجائي منه أن يحصل لي مثوى في فندق من الفنادق، وفي الغد أرسلت سيادته تعلمني أنَّها أمرت بإعداد منزل لي وأنَّها تنتظرني بفارغ صبر، فتركت السفينة «أورروز» بعد التصبُّح، ورافقني حتَّى الساحل مودعاً لي الرُّبان ريشارد، ليؤكد لي صداقته حتَّى النهاية، وأمر بإطلاق مدفع تكريماً لهذا الوداع عند ركوبي القارب، وأعلم سكان القسطنطينية جميعهم من آخر ينيجري[2] إلى السلطان (سليم خان الثالث ابن السلطان مصطفى). بوصولي إلى القسطنطينية.

---

(1) لم يكتف أبو طالب بأنواع الاقتراحات الدولية الّتي أدلى بها مجاناً في رحلته هذه حتَّى بلغ الاقتراحات الحربية، فمن قال له إنَّ الأتراك سيعتمدون في الدفاع على الأسوار حتَّى مجيء جيش مظفر كجيش بريطانيا ـ كما يتصور هو دائماً ـ فيغلبهم؟! (المترجم).

(2) كان نظام «الينيجرية» العسكرية قائماً في الدولة العثمانية إذ ذاك. (م).

والقسطنطينية كلندن تحتوي على ثلاث مدن متميزة أولاها الّتي يقيم فيها السفراء النصارى، وهي بإزاء الميناء وتُسمَّى «غلطة» وإلى هناك صرت عند نزولي من السفينة لتقديم احترامي إلى اللورد «إيلكن» وقد استقبلني استقبالاً بالغ المودَّة لأنّي خاللت أخاه المستر «بروس[1]» عدَّة سنين، وهو من سلالة مشهورة وقائم بحق منصبه «السفارة» ببراعة، وسلطته واسعة جداً. فالقناصلة والإنكليز على اختلاف حرفهم المقيمون في تركيا خاضعون لحكمه. والسيِّدة إيلكن زوجه متحلية بعادات لطيفة ولها وجه حسن، ورقة ساحرة وعقل حيّ جداً وآراء محكمة، قد كملتها بالدراسة العلمية والسياحية، وفي أثناء إقامتي بالقسطنطينية كنت أزجي أكثر أوقاتي في مجلس هؤلاء الإنكليز المتحببين.

إنَّ المنزل الَّذي أعدَّته سيادته لي كان قريباً من منزله، وهو منزل جليل بنظافته ونفاسة أثاثه، وقد وكِّل بخدمتي أربع نساء يونانيات مملوكات جميلات، فساعدنني كثيراً على نسيان ضجري وسآمتي من الرحلة.

وأكبر مدن القسطنطينية الثلاث هي الّتي يسكنها السلطان والأشراف والمسلمون الأغنياء وتُسمَّى «استانبول». والثانية مقامة بإزاء الميناء وتُسمَّى «غلطة» وأغلب سكانها نصارى، فإن سكن فيها مسلم غرس بإزاء داره سَروَة ليبين أنَّ الدار لمؤمن، وليس للنصارى حق في غرس هذا النوع من الأشجار، وإذا سار الإنسان حول الميناء استطاع الذهاب براً من غلطة إلى استانبول، ولكن الطريق رديء جداً. والمدينة الثالثة هي بالجانب الآخر من المضيق على ساحل آسيا وتُسمَّى «أسكدار» ولا يوصل إليها إلّا في الماء.

إنَّ القسطنطينية لوقوعها على أرض متعادية تظر للرائي من المضيق منظمة وجميلة، وقبل مغادرتي السفينة حسبتها على عِظم غير متناه، ولكن حُسباني كان وهماً منذ دخولي في شوارعها، والمناخ فيها بارد في الغالب،

---

(1) هو توماس بروس كونت ألكن سياسي وسائح إنكليزي ولد في نيقوسيا وتوفي بباريس 1766 - 1841م وقد هدم المأثرة اليونانية «الاكروبول» ليستخرج منها مجموعة نفيسة من المرمر وهي الّتي تشكل «البارثنون» في لندن الماثل في المتحفة البريطانية وتعرف بمرمر إيلكن، وجعل سفيراً لانكلترا في القسطنطينية من سنة 1799م إلى سنة 1802م. (المترجم).

ويسقط عليها في الشتاء كثير من الثلج والمطر، ومع أنَّ أكثر الأتراك لهم في مثاويهم مداخن للمواقد فهم لا يوقدون نهاراً ناراً أبداً، وباللَّيل حين يقرؤون صلواتهم يضعون بينهم وبين النَّار حاجزاً لئلا يعتقد أنَّهم يعبدون هذا العنصر، وهم مضطرون ليحموا أجسادهم إلى أن يضعُوا عليها ملابس كثيرة كثيفة تمنعهم من التصرف بشؤون الحياة، وتحدث في الصيف كثيراً من القمل، وذلك الَّذي يساعد على إبقاء الوباء حقاً. إنَّ هذه العادة السيِّئة عامَّة لجميع البلاد التركية حتَّى البلاد الَّتي هي أحر من القسطنطينية كحلب والقاهرة وبغداد وغيرهن.

وأنا أرى من المستحيل تقدير عدد سكان القسطنطينية تقديراً مُحرراً، وكذلك تعيين مساحتها لأنَّ البساتين والمزارع الَّتي تحيط بها تمتد من كل جانب من جانبي المضيق حتَّى البحر الأسود، فإن نحسبُها فإنَّ طول المدينة يكون في الأقل ثلاثين ميلاً، والأتراك يقولون: ينبغي للسائر ثلاثة أيَّام حتَّى يتمّ دورةً حول العاصمة.

وأهل القسطنطينية حتَّى فقراؤهم لا يمشون أبداً تقريباً، ولهم للتنزه ألوف زوارق طويلة، تغطي ماء المضيق بكثرتها، وهي مكشوفة ومزوَّقة بالأصباغ تزويقاً رائقاً ومزيَّنة بنحوت وتذهيبات، وفيها مقاعد محشاة، ويكفي في إجرائها والسيطرة عليها مُجذفان أو ثلاثة مجذفين، ويوجد على الكَلاءات وفي المحلات الَّتي لا تقربها السفن عدد كبير من الخيل مُسرجة يستطيع الإنسان أن يكتريها للتنزه في المدينة، وطرق القسطنطينية ضيِّقة، سيِّئة التبليط، وتمتلئ طيناً في الشتاء، ومع هذا فالازدحام فيها جدّ كثير بحيث ينصب الأجنبي كثيراً لفتح طريق لنفسه فيها. والمقاهي ودكاكين الحلاقين لا تحصى كثرة، فالأتراك على كونهم كُسُلا[1] لا يحبون الاعتزال فإذا تغدَّوا ذهبوا للقعود في أحد هذه المواضع فيقضون سحابة النَّهار بالأدخان وشرب القهوة أو «الشربت» وسماع قصص تافهة. وهم إذا تكلَّمُوا

(1) الكسل على وزن الرُّسل جمع الكسول وهو للذكر والمؤنث لا كما ظنَّ طائفة من اللغويين، قال الراعي:

طال التقلب والزمان ورابه كسل ويكره أن يكون كسولا.

رفعُوا أصواتهم، ويتكلَّم غالباً سبعة أو ثمانية منهم معاً، حتَّى ليكون مستحيلاً على أجنبي أن يفهم شيئاً من كلامهم، وأوجز القول بأنَّ هذه المقاهي تشبه اجتماعات بهائم، بَله أنَّهم قذرون ولا تجد عندهم إلَّا قهوة رديئة، وكذلك التبغ والسُّبُل. والفنادق أكثر بشاعةً فلا يستطيع السائح النوم الملائم له إلَّا في غلطة وفندق فرنسا أو فندق إنكلترا، ولا يعوز السائح هنا حمامات حارَّة، ولكنَّها عامَّة للنوعين: للرِّجال والنِّساء، ومُهملة، فالرِّجال يذهبون إلى الحمامات عند تبلج الصبح ويخرجون الساعة العاشرة، وتدخل بعدهم النِّساء من وقت خروجهم حتَّى ما بعد الظهيرة.

وقد رأيت في القسطنطينية ممَّا سرني الزوارق الطويلة وخيل الاكراء والأحواض العامَّة، ففي كل شارع حوض ذو حنفية معلَّق عليها طاس من الصفر يغترف به المارة الماء فيطفئون عطشهم، وأذكر أيضاً الأسواق فكل سوق لنوع من البضاعة، حتَّى ليستطيع المتسوّق الحصول بسهولة على ما يُريد ابتياعه. وأعظم التجارات في القسطنطينية تجارة السُّمُور والسمُّور الأبيض «القاقم» وأنواع الفراء الأخرى وكلها ذات نفاسة تستلفت النظر.

والأتراك ينفقون على ملابسهم أكثر من كل شعوب الدُّنيا، فهم يستجلبون من أوروبا الملاحف والحرير الأطلس، وتصدر الهند إليهم الشاش الموصلي وبلاد الفرس الشال الكشميري وأقمشة الحرير المطرز. فالأغنياء يلبسون سراويل من الشاش السخيف واسعةً فضفاضة جداً تستنفد من القماش ما يستنفده زهاء ستة أثواب[1]، وعمائمهم الَّتي يسمونها «كافوك[2]» هي من الملاحف أيضاً[3] ولا يقلُّ وزنها عن اثنتي عشرة ليفرة[4] أو أربع عشرة ويطارقون بين أربعة أثواب أو خمسة كثياب العرب، أعلاها مزيَّن بالفراء، ويُلقون على أنفسهم زيادة على ذلك عباءة كبيرة، وخلاصة القول أنَّ ملابسهم تكفي في أن تكون حمل حمار، وهم أيضاً يتفادون

---

(1) قلنا: المبالغة ظاهرة في هذا القول. (المترجم).

(2) هذا في اللفظ وهو في الكتابة «قاووق» وقد ماتت الآن القاف من اللغة التركية في استانبول ونواحيها. (المترجم).

(3) يعني من قماشها. (المترجم).

(4) الليفرة «500» غرام. (المترجم).

باعتناء من أن يحركوا أنفسهم أصغر حركة ولا يتدربون ولا يتمرنون، ولا يستنشقون الهواء الَّذي هو أشد موافقة لصحتهم أبداً.

أقمت في تركيا عند عدَّة بواشية ورأيتهم كلهم يحضرون بانتظام كل صباح بهو المقابلة من باب صغير متصل بدار الحُرم، ويبقون هناك حتَّى منتصف اللَّيل ثمّ يدخلون في دار الحرَم من ذلك الباب، وبالنَّهار لا يحدث أن يقفُوا عند الشباك، بَله أنّهم لا يخرجون للتنزه لاستنشاق الهواء الطيب. ومنذ لحظة استيقاظهم حتَّى حين نومهم لا يتركون السبيل من أيديهم، والعامَّة جدّ مستعبدين بهذه العادة بحيث يَدَّخنون وهم سائرون، ويحملون معهم دائماً مِقدحة، ويرى الرائي حتَّى الفرسان يشعلون سُبُلهم وخيولهم مُحضِرة، وإن اضطرهم حادث سيئ إلى ترك الإدّخان هُنيهة أدخلُوا سُبُلهم في كيس من الجلد يعلقونه بسروج أفراسهم كأنّه كنانة، ولذلك قال نادر شاه الَّذي ابتز الملك والعرش في بلاد الفرس للفرس يشجعهم على القتال ونضال الأتراك: «لا تخشوا أبداً هؤلاء النَّاس فلم يُعطهم الله إلّا يدين إحداهما لتثبيت عمائمهم والأخرى لإسناد سراويلهم، ولو كنت لهم يد ثالثة لاستعملوها لحمل سُبُلهم... فلا يستطيعون إذن استعمال السيف ولا الترس». والقلنسُوة الكبيرة أي القاووق خاصة بالأعيان، ففي تركيا يعرف مقام الرجل بعمامته، وعندهم ولهم قلانس أخرى كلها على التقريب ثقيلة كالقاووق، والسادة أي سلالة محمَّد ﷺ يلبسون عمائم خضرا[1] مكوَّرة، والمسلمون الآخرون يلبسون عمائم بيضاً، وهذان اللونان محرَّمان على النصارى.

والأتراك يحبون التجمُّل ويلبسون الجميل الجليل، ويرعون عدداً كبيراً

---

(1) خضرة العمائم للسادة العلويين أحدثها السيِّد محمَّد الشريف المتولي باشا مصر سنة «1004م» وذلك لما دار بكسوة الكعبة والمقام وأمر الأشراف أن يمشوا أمامه، وكل واحد منهم على رأسه عمامة خضراء «نور الأبصار للشبلنجي ص183 عن درر الأصداف». وأمَّا جعل الخضرة علامة لهم فقد كان في سلطنة الأشرف شعبان بمصر في الثلث الثالث من القرن الثامن للهجرة، وكانت قطعة خضراء تعلق على ملابسهم، وأمَّا استبدال المأمون الخضرة بالسواد فلأنَّ الخضرة لباس أهل الجنَّة كما في القرآن الكريم ولا صلة لها بالعلويين كما يفهم غير المحققين فشعار العلويين البياض ولما أسقط هولاكو الدولة العباسية جعل الخضرة للعلويين. (المترجم).

من المماليك والنّساء وينفقون مبالغ لا تحصى على ملاهيهم وملذّاتهم، وليس هذا الجنون مقصوراً على كبرائهم بل يمتدّ إلى أصغر مستخدم فيهم، ويفني الواردات العامة ويحدث اضطراباً رهيباً في الدولة، ولا يحصل الإنسان في تركية على شيء، إلّا بثمن نقديّ، وهذا النظام أخرب الدولة أيضاً لأنّ الجيش والمدفعية والإدارات الحكمية كلّها مهملة، والمجهّزون ورؤساء الوزارات لا يفكّرون إلّا في احتجان الأموال والأثراء.

البريد في تركيا ودوره

وإذ كان البريد في تركيا تباشر شؤونه بطريقة خاصّة كل الخصوص أود أن أعالج موضوعه بتفصيل، فالقانون ينصّ على أنّ كل طريق يجب أن يكون فيه «بام خانه» أي بريد، بين كل تسعة فراسخ وأخرى أي في كل ستة وثلاثين ميلاً، وفيه اصطبل ملائم للحاجة، وفي دار البريد فندق وطباخ وخادم، وقائد كبير تُجري عليه الحكومة في كلّ شهر ثلاثين ألف قرش، للعناية بهذه المؤسسات وصيانتها، ولإضافة كل الرّجال التابعين للدولة، والفندقي يجب عليه أن يُعد سُرُر النوم ويحفظ النظام التام في دار الضيافة، والطباخ مكلّف أن يُعد القهوة، وسائس الاصطبل يجب عليه أن يعد زوجين من الخيل الجياد. وفي الزمن القديم كان جميع الضباط الأكابر في الجيش يستعملون هذا البريد، فكانُوا يسافرون فجأة من غير أن يُنفقُوا شيئاً، فإن كابدُوا سُوءاً في المعاملة قدمُوا شكوى إلى المدير العام، وهكذا كانُوا ينقلون الكتُب من أحد طرفي السلطنة إلى الآخر، إلّا أنّ البريد اليوم أصبح ملجأ لأشقياء القُرى وتاعسيها الّذين لا يستطيعون الاصطلاء بنار في دُورهم ومثاويهم، فيؤذن لهم في دخول البريد بالنّهار، وأحياناً باللّيل أيضاً، والدار يكثر فيها القمل وسُررها جدّ مقزّزة للنفس بحيث يمتنع الإنسان من النوم عليها بسبب رداءتها، وإذا طلب سائح فرساً تركوه ينتظر ساعةً ويؤتى له بعد ذلك بفرس سيء التنعيل يجب الإرسال به إلى القائد الكبير على سبيل الشكوى، غير أنّ هذا الأمر يستغرق ساعتين، وإذا أراد أن يأكل شيئاً في أثناء الانتظار قُدّم إليه طعام رديء، وأخيراً يُحضر الفَرَس فيختبره السائح فيجده أعمى أو أعرج، فإن اغتاظ قيل له: إنّه قد حمل كثيراً من النّاس في

هذا الطريق، حتّى أصبحت الخيل كلها مُتعبة مُنضاة، بله أنّ البريد نفسه لم تُجر عليه الحكومة شيئاً منذ شهور. فإذا استعد السائح للسفر طُلب منه ثمن فاحش لما أكل في دار البريد، فيجب عليه الدفع وإلّا أوسعوه سباً وشتماً، وأحياناً يوسعونه ضرباً. ولتردّي البريد سببان أحداهما الجراية المالية غير المنظمة، والآخر سُوء نيات المديرين لشؤونه، وهو لم يخصص في أصله إلّا برسائلي[1] السلطان وبريديّة والضباط الملتحقين بالجيش، ثمّ أخذوا يقبلون فيه جميع الّذين يستطيعون أن يقدّموا هدية إلى المدير العام، وفي هذه الأيّام يقف الرسائليون والبريديون حيث يشاؤون ويُجبرون رؤساء القرى على أن يزوّدوهم مجاناً جميع ما يعوزهم.

ويأكل الأتراك ثلاث مرّات في كل يوم فتصبُحهم يكون خُبزاً مُحلّى بالمربيّات أو مع الفواكه، وبالظهر يأكلون قليلاً من الخبز والطباهج «الكباب» والخضراوات المطبوخة ولكن طعامهم الرئيس وهو الّذي يدعون إليه الأجانب يحضر بعد صلاة المساء «المغرب»[2].

ومطبوخات الترك تقليد سيء لمطبوخات الفرس والهنود، فهم يأكلون كثيراً «البلاو»[3] و«الكاري»[4] والكباب ولحم العجول «الثَرْم» واللحوم المطبوخة ببخارها[5] والمربيّات، ولكن طريقة إعداد الغداء عندهم جدّ خاصّة، ويظهر أنّها مستقذرة عند أكثر محبي الأطعمة من الهنود، فإذا كان المدعوون ستة عشر مدعواً مدُّوا على المائدة ثلاث سجّادات، على كلّ منهن خبز، فصاحب المنزل يقعد بإزاء الطنفسة الأولى مع خمسة من أماثل الجماعة، والطنفستان الأخريان تكون لمن دون أولئك من المرؤوسين،

---

(1) الرسائلي في تاريخ الإسلام هو حامل الرسائل، ومن الملقبين بذلك على سبيل النسبة الأمير سعادة الرسائلي. والرسائلي عند الأتراك يُسمّى «تاتار» ومنه قول العامّة ببغداد للاستهزاء «ترسل ططر» ومحلة الطاطران. (المترجم).

(2) كأنّ أبا طالب نسي الغداء النفيس الّذي غداه به الحاج عثمان أغا مدير كمرك أزمير «راجع ص300» من هذه الرحلة. (المترجم).

(3) الرز المطبوخ. (المترجم).

(4) الرز المتوبل بالفلفل. (المترجم).

(5) لم يذكر كيفية طبخها. (المترجم).

وحينئذٍ يُحضر صحن واسع مملوء لحماً، فيوضع على الطنفسة الأولى، فكل من القاعدين عندها يأخذ منه لقمتين أو ثلاث لقمات بأصابعه، ويُمَرُّ الصحن بعد ذلك على المائدتين الأخيرتين، ويُخفى بعد إمراره بها، بدقائق قليلة. وفي الغالب يُحضر أكثر من ثلاثين لوناً من ألوان الطعام بعضها بعد بعض، ولكن الخدم يرفعونها قبل أن يستطيع المدعو الاختيار، ليأتوا بغيرها مكانها، وإن كانت أحياناً دونها في الطعْم، وهم يستعملون ملاعق الخشب لأكل الحَساء والقيمر والرز واللبن وغيرها، وهي قليلة العمق فلا تستوعب شيئاً على التقريب، ولا تنفع اللُهمَّ إلّا توسيخها الخوان وملابس المدعوِّين. والأتراك أيضاً يأكلون بطريقة مقزِّزة للنَّفس جداً، ولم أجد قط اشتهاءً جيداً للتغذّي معهم[1]، فإناء الطعام يكون في وسط طبق واسع، فلبلوغه يجب مدّ الذراع بكلّ طوله، والخدم جدّ أفظاظ في حركاتهم، يرفعون الصحن غالباً في الهُنيهة الّتي يمدّ إليه يده الواحد من المدعوِّين، يُضاف إلى ذلك أنّهم يُحضرون جميع الألوان في بيت مجاور لموضع الدعوة، حتّى لتكون الألوان الّتي تقدّم أخيراً في الأغلب باردة. والأتراك الّذين لا يتمرنون ولا يتروضون البتَّة، بل يزجّون أوقاتهم بالأدخان والشرب. ليست لهم رغبة في الطعام غالباً عند التغذي، ويستعجلون في إتمامه ليعودوا إلى تمتعهم بالإدخان بالشُّبُل وقد تركت المائدة غير مرّة من غير أن أخفف جوعي.

ودور القسطنطينية من الخشب المغطّى بطلاء من المِلاط أو المزوّق بصور الأجر، وليست لها سعة دور الهند ولا لَيَقُ دور أوروبا، وهي معرضة يومياً لأكبر المزعجات وهو الحريق، فإذا علقت النَّار بإحدى الجهات فسرعان ما تحيل مئات دُور رماداً قبل أن يستطاع إطفاؤها، وليس في القسطنطينية طريق لم تشب فيه نار الحريق ثلاث مرّات أو أربعاً ولم يكن عرضةً للهب النَّار منذ خمسين سنة حتّى اليوم، ومع هذا فالأتراك مستمرون على إنشاء الدور من الخشب محتجين بأنّهم يحذرون الزلازل، وهذا اعتذار قبيح مردود، والسبب الحقيقي هو أنّهم لا يريدون أن ينفقُوا ما تستلزمه إنشاءات أقوى ممَّا ينشئون، وهم لا يفكّرون في الخسران الهائل الّذي

---

(1) راجع الحاشية رقم (2) من الصفحة السابقة.

ترقعه عليهم الحرائق الكثيرة الوقوع، ثمَّ إنَّ الزلازل الَّتي حدثت على هذه المدينة لم تهدم المساجد ولا العمارات العامَّة الأخرى ممَّا هو مبني بالآجر أو الحجارة.

ومنازل الأغنياء تحتوي دائماً على بهو واسع مخصَّص بالاستقبال، ومجلس صاحب المنزل يكون بإزاء الباب وفيها شبابيك سيِّئة الوضع في أصل البناء، لا تدع الضوء يمرُّ إلى المثاوي إلَّا قليلاً، وحول القسم من أقسام الدار صُفَّة سمكها قَدمٌ ونصف عليها مقاعد ثمينة ثخانتها ثلاث أصابع أو أربع، فإذا جلس الإنسان عليها على الطريقة الشرقية غار فيها حتَّى ليعسر عليه جداً أن يغير موضعه بعد قعوده، والبهو مغطّى الوسط ببساط كبير، وإذ جرت عادتهم بأنَّهم لا ينظفونه إلَّا مرَّتين في السنة وكذلك المقاعد والوسائد وَجد فيها البراغيث والفسافس[1] ملجأً آمناً، ويظهر أنَّ هذه الحشرات لا تزعج الأتراك أبداً ولكنَّها تقدِّم احترامها للأجانب الَّذين يزورونهم[2].

وفي القسطنطينية خمسة مساجد عامَّة[3]، ذات هندسة عمارية جميلة، ومزخرفة بزخرف رائع فاخر إلَّا أنَّ جامع (أيا) صوفيا (سنت صوفي) يفوق بالسَّعة والجمال والأناقة جميع ما رأيت من مآثر البنيان في رحلاتي، وإنَّ البيعة الكبرى الَّتي باسم القديس بولس «سنت بول» وقبب باريس وجنوة لا يمكن أن تدخل في موازنة بينها وبين هذا البنيان المقدَّس، فباطن القبَّة الكبرى فيه وهي الَّتي جُعلت وسطاً للعمارة ومساحتها مائة ذراع مربعة، وتحيط بهذه القبَّة عدَّة فروع من الأبنية قائمة على أعمدة جميلة من الرخام السُّماقي، والرواق المطيف بصحن الجامع من الداخل يتسع لعدد وفير جداً من المشاهدين. إنَّ هذا الجامع قد كان بني على عهد قسطنطين مؤسس القسطنطينية وأوَّل القياصرة الَّذين دانوا بالنصرانية. وقد تكامل بناؤه سنة 314 الميلادية، وقد اتخذ زمناً طويلاً معبداً للنصارى ثمَّ إنَّ السلطان محمَّداً جعله

---

(1) قلنا: الَّذي اشتهر من حشرات الدور في استانبول هو المعروف عندهم باسم «تخته كاله سي» كبنات وردان الصغار. (المترجم).

(2) هذا من الأسلوب التهكمي لأبي طالب. (المترجم).

(3) يعني جوامع تصلى فيها الجمعة.

للديانة الإسلامية بعد فتحه القسطنطينية، وقد بنى بناءً جدّ وثيق وأنيق بحيثُ يعد على قدمه عمارة جديدة، والمساجد الجليلة، بعد جامع أيا صوفيا هي الّتي بناها السلاطين: أحمد ومحمَّد الفاتح وبايزيد ومحمود، والجامع الّذي بناه محمود باشا، فالهندسة العمارية الظاهرة فيها وافرة الجمال، وقد زُيِّنت بالتحف والتذهيب، ولكل من هذه المساجد صحن فسيح مع حوض كبير وحنفية دافقة «فوارة» تستعمل مْيضأة للمتوضئين، وحول الصحن أحواض أخرى مخصصة بالاستعمال نفسه، ويُرى في الخارج صف طويل من البناء والدكاكين ومقهاة، وفي عدَّة من المساجد مدارس، وفيها يتعلَّم الشبان والصبيان مجاناً، وفي القسطنطينية جمهرة من المساجد الخاصَّة كبيرة، ولكنَّها غير محكمة البناء من وجهة عامَّة، وإذا استثني الباب والمنارة وعليها المؤذن يدعو النَّاس إلى الصلاة لم يبقِ فيها ما يستحق الإعجاب والاعتبار.

وفي هذه المدينة أسواق[1] ظاهرة الجمال أشهرها تقارب مساحته ميلاً مربعاً، ويوصل إليها من عدَّة أبواب، وداخلها مفروش بالرمل فرشاً حسناً، وسطوحها ذات شكل مقبَّب لها شبابيك عليها جامات من الزجاج، تفتح وتسدّ بحبال وبَكَرات، والدكاكين ملأى من كل نوع من البضاعات الثمينة، والأسواق على غرار دُروب، وكل منها مقصور على نوع خاص من البضاعة، والَّذي استغربته هو أنَّ الدكاكين كلها تغلق يوم الجمعة قبل الظهر، فلا يُرى فيها نسمة إنسان[2]، وسمعت كثيراً من الفرس يتكلمون بالفارسية بحماسة في هذه الأسواق، ولكن حكاياتهم كانت مُبالغاً فيها، والدكاكين جدُّ مظلمة بحيث لا يميز المبتاع ألوان الشيء المباع، ومع استعمالي مناظري اشتريت عمامةً زرقاء وأنا أحسبها خَضراء، والهواء فيها محصور جداً فلا يشم الداخل فيها من جميع جهاتها إلَّا رائحة كريهة، وفذلكة القول أنَّ الشَّمس ليس لأشعتها طريق للنفوذ إليها فهي رطبة كثيرة الرطوبة، ويتورط واردها في الشتاء في الطين إلى نصف ساقيه.

---

(1) المشهور في لغة العرب تأنيث السوق ولكنَّنا ذكرناها على الوجه الضعيف لشيوع التذكير في عصرنا وما قبله. (المترجم).

(2) نستغرب استغراب أبي طالب فكأنَّه لم يكن يدري أنَّ المسلم يجب عليه ترك البيع والشراء قبل صلاة الجمعة اتباعاً للقرآن الكريم ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا﴾. (المترجم).

وفي القسطنطينية بطيخ نفيس مسكيّ ورقيّ وتفاح وسفرجل وتوت ورمان وليمون حامض، وكذلك فواكه يابسة يبيعها الفاميُّون والمخلطيُّون كالزبيب والأجاص واللوز والفستق والتمر.

وقد لاقيت في بعض تنزهاتي بهذه المدينة في جامع السلطان بايزيد منها رجلاً أفغانياً من قندهار يجيد التكلُّم بالفارسية إجادة تامة ويذكر أنَّه درس في بعض كليات استانبول وأعلمني أنَّ عدداً كبيراً من الشبان المسلمين يأتون من قندهار وبنجاب وأقطار أخرى من بلاد الهند ليتعلموا في هذه المدينة، وأنَّ بالقرب من مثواه رباطاً يضم ثلاث مائة فقير من الهنود، وعرض عليَّ أن يذهب بي إليهم، ولكني لحسباني أنَّهم جهلاء أو متعاطون الإدّخان بالأفيون رفضت عرضه.

والدراويش محترمون جداً في المجتمع التركي، فالأتراك يعدونهم أولياء، ولهم عدَّة طرائق تتميَّز كل طريقة بقلنسوة خاصة بها، وهم يفتنون الجمهور بتعاطي أُمور من التنميس والشعبذة ويدعون فعل معجزات، ويرقصون دائرين على صوت الطبل إلى أن يصيبهم دوار ثمَّ يرمون أنفسهم في النَّار[1]، ويفعلون ترهات أخرى، والأتراك يحترمون دراويشهم ويتسامحون على دراويش الدول الأخرى.

أخلاق الأتراك وأحوالهم

والأتراك في الغالب ذوو عزّة قعساء وإقدام[2]، وأسخياء ومُضيفون، حريّون بالممالأة، ويتوجعون لآلام غيرهم، وفي دولتهم من العدل والإنصاف ما لا يوجد في دولة مسلمة أُخرى، ولم أستطع معرفة قضائهم، فأذكر رأيي فيهم في الأقل، ولكني أعلم أنَّ سلاطينهم ليس لهم الحق في قتل النَّفس ظلماً، ولا يستطيعون، من غير أن يُعرِّضوا أنفسهم للخطر،

---

(1) قلت: خلط أبو طالب بين الطريقة المولوية والطريقة الرفاعية المحدثة مع اعترافه آنفاً باختلاف الطرائق. (المترجم).

(2) إن كان هؤلاء في رأي أبي طالب كما قال فلماذا استشهد بقول نادرشاه؟ راجع «ص310» من الرحالة. (المترجم).

الإقبال على الرذائل والميل إلى الباطل، أو إشباع أهوائهم، وهم في كل الأمور المهمة ملزمون أن يستشيروا الأشراف[1] في البلاط التركي، الّذين أدخلوهم في طاعتهم مذعنين، وذلك صحيح، إمّا بمكافآتهم الحسنة الّتي أعدّوها وإمّا بالعقوبات الّتي يستطيعون أن يوقعوها عليهم بطريقة هي أنّهم، مع أنّ سلاطينهم قلما يسوغون لأنفسهم مخالفة القوانين أو نظم الدولة، لا يقل خوفهم الدائم فيما يسلخون من أيّام، ففي الغالب تكفي تهمة يسيرة لمحاكمتهم في مجلس الوزراء والحكم عليهم بالإعدام، من غير أن يعلمُوا بأيّ جريمة هم متهمون، ومن اتهمهم بها.

وسلطة الوزراء أيضاً استبدادية قهرية بحيث قلما يجرؤ ولاة الولايات أو قادة الجيش على أن تمرُّ بخواطرهم فكرة مقاومة أو عصيان إلّا أنّه في حالة الشغب والهياج إذا شعر الوزراء بأنّهم ليس لهم قوّة كافية في إخمادهما بُعيد ظهورهما عدلوا بحكمتهم إلى مصالحة العصاة، وانتظروا لإظهار شدتهم موت رئيس الثورة أو وقوعه في الفخ الّذي ينصبونه له. فبهذه الوسائل والمبادئ أنجحت[2] السلطنة العثمانية في أمورها في زهاء ستة قرون[3] من غير أن تقاوم ثورات خطرة عليها، وإن ظهرت أمارات عصيانية متواترة في أنحاء وأصقاع من أنحاء السلطنة وأصقاعها.

والقضاة أي حكّام القضاة على جهلهم، في الغالب، وميلهم إلى قبول ما يفسدهم ليسُوا بجدّ متحكمين في أقضيتهم[4] أبداً، سواء أكانت هذه الأقضية عادلة أم لا، إنّها ليست بأقل بتاً من غيرها وغير مستأنفة، والولاة والقواد ملزمون بالإذعان لها، والّذي يعيّن القضاة ويعزلهم هو الصدر الأعظم وهو كاللورد صاحب الخاتم في إنكلترا ويكون دائماً أحد كبار الوزراء. وحُدّدت مدة بقائهم في قضاء موضع واحد بسنة، فإذا انصرمت السنة عادوا إلى القسطنطينية، فإن كانت سيرتهم مستقيمة فإنّهم يعاد نصبُهم لموضع آخر، وإن

(1) يريد ذوي الشرف لا المصطلح بمعنى السادة. (المترجم).

(2) للإنسان «أنجح» وللأمور «نجح». (المترجم).

(3) كانت هذه الدولة إمارة في أوائل القرن الثامن وقويت بضعف الدولة الايلخانية، فأبو طالب قد بالغ في قوله. (المترجم).

(4) لعلّه يعرض بأقضية الإنكليز في بلاد الهند خصوصاً. (المترجم).

كان الأمر بالضد يعزلُوا ويُغضب عليهم ويُنفوا، وهذه الخشية تجعلهم متحرزين حتَّى أنَّهم مع تركهم الميل إلى مضادات الولاة واحتجان أموال الدولة وإلى جباة الخراج والمكوس المحتجنين يقبلون على القيام بوظائفهم الحكمية بعدالة وعدم تحيز أكثر ممَّا هو منتظر منهم.

النِّساء التركيَّات

والنِّساء التركيَّات يتمتعن في بلادهن بحرية أعظم من حرية نساء الفرس ونساء الهند، فأزواج الأشراف والطبقة العليا من المجتمع لهُن القدرة على الخروج والتزاور بينهن، سافرات كل السفور أو مغطيات الوجوه ببراقع شفافة، في الأقل ويستطعن التمشي في الطرقات والشوارع والأسواق والبساتين، والمماليك الذكور والشبان الَّذين أعمارهم بين الخامسة عشرة والعشرين سنة لهم رخصة، إن كان بينهم وبين هؤلاء النِّساء قرابة قريبة، أن يدخلوا في مثاويهن ويتحدثُوا إليهن، وبهذا استطاعت النِّساء التركيَّات أن يعرفن شيئاً من أمور العالم، وأينما كُنَّ مع الرِّجال يرينهم بعيون المساواة لهُن أكثر ممَّا تفعله نساء الهنود، بذلك جرت عادتهنَّ، ومع هذا النفع الاجتماعي لهن يرتكبن بعض الأخطاء فيسترن عليه بأسهل ممَّا تأتيه نساء الهنود، ويغطين على شرف أزواجهن. وفي بلاد الهند إذا تزوجت امرأة مرَّة ثانية ازدُريت ولكن المرأة التركية تستطيع أن تتزوج عوداً على بدء، ولا سيَّما بعد موت زوجها الأوَّل من غير أن تُليم، ولا أن تحدث فضيحة على نفسها. ومع أنَّ الأتراك أثرياء يستطيعون القيام على عدد كبير من النِّساء[1] ليس لهم أكثر من زوجة شرعية في وقت واحد، وفي سرايهم كُرجيات وشركسيات مواهبهن وجمالهن مشهورة في جميع العالمين، وهن يراعين كما تُراعى الزوج الشرعية، غير أنَّهنَّ خاضعات لسلطة الزوج الشرعية المذكورة. ويحتوى الحَرَم[2] ما عدا الكرجيات والشركسيات على حبشيات وجوار من أمم أخرى يقمن بوظائف الخدمة المنزلية، وهؤلاء المملوكات

---

(1) أراد أبو طالب بقوله الجواري المملوكات وإلَّا فالأتراك لم يستحلوا أكثر من أربع أزواج بحسب الشريعة. (المترجم).

(2) هو القسم الخاص بالنِّساء من الدار وأصله الضم. (المترجم).

يتمتعن أحياناً بفضل المحاصّة[1] في مضاجعة سيّدهن، وفي الغالب يزوّجهن سيّدهن مماليكه الرِّجال، أو أشخاصاً من قصره، وكذلك يفعل بحظاياه عند سآمته منهن وعزوفه عنهن. والعادة الَّتي تستلفت النظر أكثر من غيرها بالتحقيق، الَّتي هي أدعى إلى اللوم عند الأتراك تزويج الأشراف أخوات السلطان وبناته على شريطة واضحة مصروحة هي الإعدام في الحال لكل طفل ذكر يولد لهُن، إنَّ أصل هذه العادة مجهول ويظهر لي حقاً استحالة إيضاح أسبابها، فإن كانت هذه العادة الوحشية الخوف من الاضطرابات الَّتي يمكن أن تحدث في الدولة يوماً ما بطمع هؤلاء الأطفال الأشقياء في عرش السلطنة فلماذا لا يفعلون الفعل نفسه بالأمراء الَّذين هم من نسل السلطان نفسه، فإنَّهم بضد ذلك يجيزون لهم أن يكثروا ويغزرُوا في العدد. ومحتوم عليهم أبداً اعتقال ذرّيَّتهم داخل السراي: السراي العالي أي القصر السلطاني فقط إلى أن يدعوا إلى القعود على العرش. ومهما كان أصل هذه العادة المجانبة للصواب[2] فليس ببعيد من الصحة أنَّ قابلات السلطان لا يغبن البتة عن قبالة ولد أميرة مزوجة على النحو المشار إليه، فإن كان الولد الجديد ذكراً أرسله في الحال إلى أجداده الماضين[3].

من عادات الأتراك ورسومهم

إنَّ أعيان الأتراك كثيرو التدين، وهم يصلُّون صلواتهم الخمس كل يوم، ويتبعون أيضاً اتباعاً جدَّ مضبوط القواعد الدينية، ويصومون جميع أيَّام شهر رمضان، وهو صوم الأتراك الكبير «كاريم الترك» مقيمين أو مسافرين.

وفي غد يوم وصولي إلى القسطنطينية أعلم السفير البريطاني اللورد

---

(1) المحاصة: أخذ الحصة والنصيب. (المترجم).

(2) قال مصطفى جواد: ورد في كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام لقطب الدِّين النهروالي ثمَّ المكي ص123 ـ 124 في سيرة السلطان سليمان بن بايزيد الثاني العثماني أنَّه بعد توليه السلطنة سنة 918هـ خنق إخوانه وأبناء إخوانه منهم سبعة أطفال رضعاء في المهد في ليلة واحدة «ص124» وعادة خنق الطامعين في الملك والثائرين على السلطان كانت مألوفة عند سلاطين السلاجقة واستئصال الأطفال عادة ملوك المغول والتتار.

(3) وهذا من أسلوب أبي طالب التهكمي أراد الإعدام. (المترجم).

إيلكن «رئيس أفندي» أي وزير الشؤون الخارجية، فرجا منّي أن أسرّه بزيارتي له في اليوم الثالث، وبالساعة المعينة ذهبت إليه[1] فاستقبلني استقبالاً جميلاً جداً وأمر بتقديم القهوة والهوكاه[2] إليه، وإذ كان لا يعرف الفارسية، وبعيداً عن كل معرفة أدبية رجوت منه أن يدخلني على الوزير الأوّل «يوسف باشا» فوافق على ذلك وأرسل في الحال برسالة إلى السيِّد المذكور لإعلامه بما أريد.

وسُدد جميع الوزراء في قسم واحد من القصر السلطاني، يدخل فيه من رتاج يسميه الأتراك «باب همايون» أي الباب السلطاني وهو الّذي يترجم الأوروبيون اسمه بالباب السامي، وفي داخل هذا السور تُقرّر جميع شؤون السلطنة، ومن داخله يُبعث بجميع الكتب السياسية، وجميع الوزراء يجتمعون مبكرين في مثوى الوزير الأوّل، وبعد أن يستشيروه في حال شؤون السلطنة ينهضون إلى سُدد وزاراتهم الخاصّة بهم فيقضون كل النّهار. إنّ تجاور هذه الوزارات المختلفة يسهّل كثيراً إسراع قضاء الأمور، ويفيد فوائد يجب على الحكومات الأخرى الحصول عليها، وذلك باتباع هذا النظام نفسه في التجاور والالتئام. ورجع رسول «ريس أفندي» بعد قليل ومعه خادم يوسف باشا فأعلمني أنّ سيِّده يود تائقاً أن يحصل له السرور التام بمحادثتي، فاستأذنت ريس أفندي وذهبت في الحال إلى مقام الوزير الأوّل فألقيته جالساً في بهو رائع، يدخل فيه النّور من شبابيك ذات جامات زجاج، وفيه أثاث نفيس فاخر من أرائك وبُسُط جليلة، وكان يحف به أكثر من خمسين خادماً أو مملوكاً، وتلقاني يوسف باشا بكثير من الأدب، وتحادثنا حديثاً وافياً كافياً في الطول باللغة الفارسية، وإذ كانت لحيةُ سيادته طويلة جداً وكانت لحيتي حديثة العهد جداً بالمقصين وَجد في ذلك فرصة لأن يداعبني، وحملني على أن أكابد بعد ذلك اليوم تقريب الحلاق المقصين منها. وبعد استئذاني منه في الانصراف تلقيتُ رسالة من أحمد أفندي المدعو عموماً «كيجابك» وهو وزير الداخلية، يرجو فيها أن أزوره،

---

(1) في الأصل «ذهبت إلى سعادته» وقد مللنا من هذه التفخيمات. (م).

(2) ذكره في الصفحة 310 من الترجمة الفرنسية بصورة «الهوكاس» ولم نهتد إلى معناه كما ذكرنا هناك. (المترجم).

فأجبت دعوته في الحال، وكان لي كل مجال لأن أتمدح بهذا اللقاء، فلسيادته سيَّما روحانية لا مثيل لها، وله أجمل هيئة رأيتها وأقول: لا أسلوب أظرف من أسلوبه ولا أحيا ولا أبهى من محادثته، وحين حل وقت انصرافي أمر أحد رجال حاشيته بمصاحبتي إلى جامع أيا صوفيا وإراءتي جميع المواضع المقدَّسة المحجبة باسم الدِّين، وكذلك المباني العامَّة في القسطنطينية.

وبعد أيَّام حصل لي الشرف بالمثول بين يدي الإمبراطور: السلطان سليم ـ أدام الله سعادته أبد الآباد ـ فقدَّمت احترامي لجلالته بترجمة فارسية للقاموس، وهو معجم لغوي عربي مشهور، في مجلدين، وإذ كان هذا الكتاب نادراً جداً، ولقيت نصباً كثيراً بإصلاحه وكلَّفني الحصول عليه مبلغاً من المال غير قليل، ثمَّ إنَّ الأتراك قليلو التحصيل العلمي إلَّا أنَّهم معجبون باللغة الفارسية غاية الإعجاب طلبت إلى جلالته التفضل بطبعه بالطباعة الآلية، فيكون جدّ مفيد لرعاياه، ورجوت أيضاً من السلطان أن يأمر بالإشارة في مقدِّمة المطبوع إلى الطريقة الَّتي بلغ بها هذا الكتاب القسطنطينية، فأجابني السلطان إلى طلبي مُلطفاً متفضلاً، وأمر بأن يكتب أمرٌ بذلك وأمضاه بعلامته هو نفسه بخطه ثمَّ سلَّم الكتاب إلى خازن كتبه، وأمر بأن تخلع عليَّ خلعة وأن أقبل في الوقت نفسه هديةً جليلة جميلة، ولكني أعلمت جلالته أنِّي بحَملي هذا الكتاب إلى القسطنطينية لم أرد إلَّا مارباً إنسانياً بحتاً، وأوجز القول بأنَّ هذا العمل من جهتي أريد به خيراً أجزى به في الآخرة، ولن أطوِّح بآمالي من أجل هذه الدُّنيا، ابتغاء الزهو فيما فعلت[1]، فتبسَّم السلطان، وأعرب لي عن رغبته في أن يراني ثانية قبل مغادرتي عاصمته.

ولما كانت إقامتي في القسطنطينية لم تدم أكثر من شهر واحد في الأكثر لم يكن لي إلَّا اتصال قليل بأشراف الأتراك، بل لم تكن لي صلات بالوزراء والموظفين الكبار الآخرين في السلطنة إلَّا من حيث صفتهم وهي الوظيفة الشعبية، والسبب في ذلك أوَّلاً قرب حلول الشتاء وكون طريق

(1) هذا تحول فاجيء في سيرة أبي طالب لم نجد له أثراً فيما مر من رحلته، ولعلَّ سيرة الأتراك أثرت في نفسه. (المترجم).

بغداد في هذا الفصل مشدوداً دائماً بالثلج، فلم يكن همّي إلّا متابعة سفري في أقرب وقت، ثمّ إنّ الأتراك يحقدون على الفرس حقداً لا يرجى خموده بسبب حروبهم القديمة واختلاف مذاهبهما، حتّى ليعتقدون إباحة سفك دمائنا، وكنت ممقوتاً في أنظارهم ولربّما كان من الصواب أن أغيّر ملابسي، ولكنّي لم أنوِ التوقف في القسطنطينية، إلّا قليلاً بَلْهَ كراهتي الشديدة للثياب المرسلة المسدولة غير الملائمة الّتي يلبسهاالأتراك، فلذلك لم التفت إلى ذلك، ولم أتحرَّز قطُّ من سيرهم الرديئة، هذا وإنَّ الصفة الّتي أفتخر بها وهي أنّي من سلالة النبي محمَّد ﷺ[1] جعلتني أحسَب أنّ أشراف الأتراك يَبدؤونني بالزيارة ليقوموا بالواجب عليهم، على حين جعلهم غرورهم الّذي أوحاه إليهم ثراؤهم الفاحش ومناصبُهم الّتي بلغوها يحسبون الأمر بالضدّ ممّا كنت أحسب، أعني أنّ من الواجب عليَّ لهم أن أزورهم. ولكني أستعيض بعض الاستعاضة من قلّة احتفال العثمانيين بأمري بأنّي عقدت صلات اجتماعية مع كثير من الفرس والهنود والأرمن، فالفرس كانُوا في الغالب رجالاً مثقفين تثقيفاً علمياً أو أتقياء جلبهم حب الدراسة وارتباطهم في القسطنطينية، والأرمن كانُوا يقيمون في ربض غلطة من المدينة، وأكثرهم مقبلون على التجارة، وقد جاؤوا من حلب وتوقات وأماسية والمدن الأخرى التابعة للسلطان، ولغتهم خليط من التركية والأرمنية وكثير منهم قد جمع ثروات جسيمة، ولكن البخل إحدى رذائلهم المسيطرة على نفوسهم[2]، فليس عندي ما يحملني على شكر ضيافتهم البتة، ومع ذلك فقد دُعيت مرّة أو مرّتين إلى اجتماعاتهم المسائية، ووجدت فرصة لأن أرى فيها عدّة شابات أرمنيّات، ومنهن من ظهر لي أنّهنّ جميلات.

والمستر «توك» وكيل الشركة الهندية في القسطنطينية، أقام فيها منذ أربعين

---

(1) قلت: وهذا تحول ثان في سيرة أبي طالب فقد ذكرنا في ترجمته قوله في رحلته هذه: «كان والدي يُسمَّى الحاج محمَّد بك خان وكان تركي الأصل ولكنَّه ولد بأصبهان» فكيف صار أبو طالب من سلالة النبي ﷺ؛ ولعلَّ والدته كانت علوية ولكن ذلك لا يجعله من السلالة المذكورة وإن كان الابن يرث من أمّه أكثر صفاتها الجسدية كما نرى. (المترجم).

(2) جرب أبو طالب بخل الأرمن في مدينة «ليفورن» بإيطاليا، كما مر في رحلته. (المترجم).

سنة، وهذه الإقامة الطويلة في هذه البلاد لعلّها أفقدته ذكرى لطف الإنكليز وظرافتهم[1]، فإنّه عاملني برياء ومراوغة مفضوحة، مثال ذلك أنّي رجوت منه أن يجد لي «شوبور» أي دليلاً يدلني في رحلتي بأجر معلوم في هذه البلاد، وهو كما علمته إذ ذاك «مائة وخمسون قرشاً» أو مائتا قرش، غير أنّ المستر توك أكّد لي أنّه ما من دليل موثوق به يرضى القيام بالدلالة بأقل من أجرة مقدارها ألف وخمسمائة قرش وذلك أنّ نفقات السفر الضرورية ترتفع عدّتها إلى ألف قرش وإنّ هذه الزيادة وهي خمسمائة قرش ليست إلّا مكافأة عادلة لتعبه ومشقته، فهذه النصائح الصادرة عن طمعه بما فيه الكفاية من الوضوح بعثتني على أن أتوجه إلى وزراء الترك ليجدُوا لي دليلاً من العامّة، وهو الّذي فعلوه لي وسنرى بعد ذلك هل لي أن أهنئ نفسي بذلك؟

وقد تهيأت لي فرص متواترة لأن اتصل بالمستر «بوزاني» ترجمان السفارة الإنكليزية وهو يوناني، ويربح مالاً كثيراً من وظيفته فكل الإنكليز الّذين يسيحون في تركية هم تحت إدارته على الإطلاق[2] فجهلهم لغة البلاد يجبرهم على أن يستعينوا في جميع شؤونهم إمّا به وإمّا بوكلائه فتُسلخ جلودهم أحياءً[3]، وما أدري إلامَ أعزو سيماء بوزاني الحمقاء الّتي كان يلقاني بها أإلى الغم الّذي أصابه من خيبة آماله الّتي أملها منّي أم إلى سيرته الّتي هي النتيجة الطبيعية المجردة للحقد الّذي يحقده اليونانيون على جميع المسلمين؟ فقد صار هذا الرجل عدوّي الأزرق، وقبل سفري سارّ د ليلي بكلمات لم أشك في أنّها حثّتهُ إيّاه على الاستهانة بالوصايا الجزيلة والأوامر اللازمة الّتي أدّاها إليه اللورد «إيلكن» والوزير أحمد أفندي في رعايتي.

ولقد سرّني كثيراً وأحبرَني التعرُّف إلى المستر «هامر[4]» هو شاب

---

(1) نسي أبو طالب مساوئ الإنكليز الّتي عددها وذكرها في رحلته. (م).

(2) هذه الجملة غامضة المعنى بالنسبة إلى سياق الرحلة لا إليها هي نفسها فهل هؤلاء أدلاء؟ فقد أراد أنّهم منقادون له.

(3) وهذا أيضاً من الأسلوب التهكمي لأبي طالب، وهذا التعبير مألوف في اللغة العامية العراقية «يصلخ جلده». (المترجم).

(4) هو «هامر بوركستال» مستشرق ألماني ومؤرخ ولد في كراتز سنة 1774م وتوفي في فينة سنة 1856م، ألف كتاب «تاريخ الإمبراطورية العثمانية».

ألماني الأصل، ذو خلق سمح رائق وعقل مستنير، إنَّه كان يتكلَّم باللاتينية والفرنسية والإنكليزية واليونانية والتركيَّة والعربية والفارسية، وقد رتَّب قبل ذلك ترجماناً عند السير «سيدني سميث» ولم يتركه في أثناء حصار عكا، وهو الآن في خدمة إمبراطور ألمانية، ويقوم عند الباب (العالي[1]) بإدارة سفارة جليلة. وقد ترجم المستر هامر عدَّة من قصائدي إلى الإنكليزية والألمانيَّة والفرنسية وأرسل بالترجمة إلى لندن وباريس وفينة، ولا يمر يوم إلَّا جاءني فيه، وأدخلني على السفير الألماني، فأتاح لي فرصة لأن أرى في الاجتماعات الَّتي أقيمت في دار سيادته عدَّة كبيرة من النِّساء اليونانيات والأرمنيات فضلاً عن جميع نساء السفراء على اختلاف دولهم، والسفير الألماني وزوجه يتمتعان بإجلال وافر في القسطنطينية، وإذا بنيتُ رأيي على سِيَرهما وأساليبهما وسِيَر أفراد من وطنييهم الألمان لقيتُهم في أسفاري أستطيع أن أعد الشعب الألماني في مقام رفيع جداً بين الشعوب المتمدنة الأوروبية.

وبعد زيارتي جميع ما هو عجيب في القسطنطينية أردت مواصلة رحلتي قبل وصول الفرامين[2] أي الأجوزة، فقدَّمت رجائي أن يأذن لي السلطان بلقاء الاستئذان في السفر، فأجيب رجائي في الحال بالموافقة عليه، فأظهر لي السلطان في هذه الفرصة كسائر الفرص الأخرى لطفاً كثيراً، وبحسب أمره أوعز إلى مهمندار[3] واحد أن يصحبني من القسطنطينية إلى بغداد، وكان عليه أن يعد لي خيلاً ويراعيني في الطريق ويُمدني بكل ما أحتاج إليه فيه، وسُلمت إليَّ ثلاثة فرامين أولها معنون إلى كل البواشية والولاة وقواد المواضع، ومحتوم فيه عليهم أن يُعنوا بي في كل موضع سأمر فيه وأن يضيّفوني في منازلهم الخاصَّة، وهذه الوصايا تشمل مديري البريد فيجب عليهم أن يُمدوني

---

(1) كناية عن باب السلطان، وليس في الترجمة الفرنسية إلّا ذكر «الباب» ولا يصح ذكره وحده بهذا المعنى. (المترجم).

(2) الفرامين جمع الفرمان وهو أمر السلطان المحرر. (المترجم).

(3) المهمندار كلمة فارسية معناه حافظ الضيف وقد استعملها المماليك في مصر وكان في بلاطهم مهمندار خاص بالعرب ومن الملقبين بها المهمندار صاحب أنساب العرب المصري وسيذكر أبو طالب أنَّ اسم المهمندار «حاجي علي». (المترجم).

في كل مرحلة بَريدية بفرسين مسرجين وأربعة أخرى لخدامي وأثقالي، والفرمان الثاني معنون إلى «عبد الله أغا» والي ماردين، أمر فيه أن يبعث مقنباً لاستقبالي وحمايتي ودلالتي في الصحراء الّتي بين ماردين والموصل، الخطرة المرور جداً، والفرمان الثالث مُعنون إلى علي باشا[1] نائب السلطان ببغداد، يوصيه فيه السلطان أن يكون عوناً لي ومساعداً ويضيفني في قصره، ويسِّهل زيارتي لقبور الشُّهداء: الحسين بن علي من سلالة محمَّد ﷺ وأسرته المستشهدين في كربلاء، ومُوجز القول أن يوصلني صحيحاً سالماً إلى البصرة. وأذكر دليلاً جديداً على اللطف الّذي شرَّفني به السلطان وهو أمره صاحب بيت المال أن يسلم إلى مهمنداري حاجي علي ستمائة قرش للوفاء بحاجاتي في الطريق حيث لا أرى مدينة ولا وزيراً[2].

ولما ودَّعت صديقي «أحمد أفندي» أمر بإحضار المهمندار عنده وأوصاه بأن يتصرف على حسب إرادتي ويطيعني طاعة عمياء، كما يطيعه هو نفسه، وقال له بعد ذلك إنَّه إن سار بي سيرة حسنة ورجع بشهادة حسنة ممضاة بإمضائي فإنَّه يتكفل بترقيته، فهذا اللص لما سمع كلام الأفندي قبَّل ذيل جبَّته وحلف بعينيه ليرتضينَّ فقدان حياته إن لم يطعني في شيء من الأوامر الّتي أصدرت له. ومع ذلك فقد زار هذا الفاجر صباح غد ذلك اليوم اللورد إيلكَن فذكر له أنَّ مبلغ المال الّذي سلِّم إليه لا يكفي في الإنفاق على طريقي، وخلص من ذلك إلى أن سأل اللورد مبلغاً إكمالياً، فتفضلت سيادته بإعطائه مائة قرش أخرى وخلعة أي حلة تشريفية موصياً له، عوداً على بدء، بأن يرعاني كل الرعاية فوعده حاجي عليّ بذلك وعداً جدّ شرعي.

---

(1) كان والي بغداد أيامئذٍ سليمان باشا قال الشيخ ياسين العمري في حوادث سنة 1217هـ من كتابه الدر المكنون: «وفيها سابع ربيع الآخر يوم الجمعة وقبل يوم السبت توفي الوزير الكبير والشهم الخطير سليمان باشا، ملك بغداد نحو خمس وعشرين سنة، وكان له سعادة وإقبال، فلم تكسر له راية، وكان قبل مماته أحضر جميع الأمراء وأشار عليهم بأن يتولى بغداد كتخداء (علي باشا)فحلفوا له، ثمُ توفي في المعظم، وتسلم البلد بإشارة الوزير المرحوم والقاضي والمفتي والأمراء... علي باشا كتخداء الوزير المرحوم، وصهره». (نسخة دار الكتب الوطنية بباريس 4949 و332) وأعاد المؤلف ذكر الخبر بتغيير يسير في كتابه «غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ص199 بمطبعة دار البصري».

(2) يعني الوالي لأنه كان يلقب بالوزير. (المترجم).

ولا أحسبني أوفي على النهاية إن أردت أن أذكر تعداد المكايد المخزية الَّتي كادني بها هذا الإنسان التاعس الشقي في أثناء الطريق، وأجتزئ بأن أذكر هنا ذرواً من سيرته معي، وأوّل كيده أنَّه أظهر من الجراءة ما جرَّأه على أن استحوذ على مبلغ النفقات المذكورة آنفاً، وفي كل هذه السفرة لم يكد ينفق مائة قرش على شؤوني، وثانيه أنَّه لم يؤدني إلى دور البواشية ولا دور الولاة بل رأى من اللائق أن يحبسني منذ الأيَّام الأولى من السفر في دور البريد، فقاسيت فيها من أذى البراغيث والفسافس الشديد ما منعني الغمض طول اللَّيالي، ولما سألته لماذا لا يؤديني إلى دور الولاة بحسب ما تلقى من الأوامر؟ لجأ في الاعتذار من تقصيره إلى أفحش الأكاذيب، ومرَّت ثلاثة أيَّام أو أربعة على هذا النحو، وقد عرفت حقيقة هذا الشقي، فصمَّمت على أن أذهب أنا بنفسي إلى دور البواشية أو الولاة وكان يكفيني أن أعرض عليهم فرمان السلطان الَّذي كان معي، ليجيزوا لي الدخول في دورهم، ويعاملوني أجل المعاملة وألطفها، وفي الأخير أقول إنَّه كان يُجبرني بحسب هواه أو بحسب ما يناسبه أن أسير إمَّا مرحلةً بريدية واحدة وإمَّا ثلاثاً أو أربعاً طوالاً في يوم واحد، بخلاف التعليمات الَّتي معه والسبب في سيرته هذه سِرّي، وكان يتحرز من التوقف في المدن الَّتي يقيم فيها البواشية وذلك لإرغامي على قضاء اللَّيالي في دور البريد، حيث يتزوَّد كل ما يلائم ذوقه مجاناً بمجرد عرضه أجوزتي، وفي أثناء طريقنا لاقينا قافلة فأجبرني على أن أقيم عدَّة أيَّام مع هؤلاء المسافرين[1] بحجَّة أنَّ الطريق يقطعه اللصوص الشطار. وموجز القول إنَّ سيرته معي كانت جد شنيعة وجدَّ جافية بحيث كان نظري إليه وحده لا يطاق، ولما وصلت إلى ديار بكر[2] رجوت من حاكمها «أحمد أفندي» أن يُعدَّ لي دليلاً آخر، فوافق هذا السيِّد على رجائي برعاية وأمر أحد خدمه أن يصحبني إلى ماردين، ومن هناك سرت في حماية أحد اتباع «عبد الله أغا» حتَّى الموصل ومنها توجهت إلى بغداد، مُصحباً بخادم من خدم محمَّد باشا[3]. ومع إذني لدليلي الأوّل علي المهمندار اللص الخبيث

(1) قلت: الظاهر أنَّه كان يخاف على المال الَّذي احتجنه من النفقات من أن يسطو عليه الحرامية. (المترجم).

(2) يعني مدينة آمد العتيقة. (المترجم).

(3) هو محمَّد بن أمين باشا الجليلي الموصلي ذكر الشيخ ياسين العمري أنَّه ولد سنة 1170هـ، ـ

في الإنصراف وإعلامي له بأنّه يستطيع الرجوع إلى القسطنطينية لم يُرد مع ذلك تركي خوفاً من أن يرغم على ذلك تفصيل نفقات الرحلة عند رجوعه، ولما بلغت بغداد لم يستحِ أن يطلب إليَّ شهادة بأنّي كنت راضياً لكلّ الأحوال والأفعال الّتي أتاها.

أبو طالب يغادر القسطنطينية

وفي يوم الأحد الرابع من شعبان سنة 1218هـ الموافق اليوم الثاني من كانون الأوّل[1] سنة 1802م استأذنت أصدقائي اللورد والسيّد إيلگن، وعبرت الميناء من غلطة وقضيت اللّيل في فندق مُقام بالقرب من جامع محمَّد باشا بالقسطنطينية، وفي الغد عبرت المضيق واستأجرت مناماً في أسكدار وهي مدينة جميلة لها ميناء تتواتر إليه السفن كثيراً. وفي يوم الثلاثاء بعد التصبُّح ابتدأت سفري الّذي كان أشق سفر عليَّ وأخطره في حياتي،

ـ ولما قدم والده الموصل سنة 1189هـ وتوفي تسلّم هو الموصل وأنعم عليه السلطان سنة1190هـ برتبة (بكاربكي) وفي سنة 1198هـ كان مع أخيه في سيواس ثمّ قدم الموصل، وتوجه إلى بغداد واجتمع بواليها الوزير سليمان باشا الثاني فأكرمه وقدمه وعاد إلى الموصل ولما عزل واليها مصطفى باشا بازجي أو غلي تسلم هو البلد إلى أن قدم واليّ الموصل تيمور باشا، ولما ولي الموصل الحاج عبد الباقي باشا ابن عبيد أغا الجليلي سار هو إلى بغداد فأقام بها مكرماً إلى أن قتل الحاج عبد الباقي سنة 1200هـ فقدم المترجم الموصل. ولما استعفى أخوه سليمان باشا من الحكم أنعم عليه السلطان سليم بولاية الموصل بإشارة والي بغداد سليمان باشا المذكور آنفاً، وطلبه للجهاد فسار إلى ماردين وتشفع فيه والي بغداد لبعد الطريق، فأعاده السلطان إلى الموصل وذلك سنة 1204هـ واستمر على ولاية الحدباء إلى أن أرسل سليمان باشا إلى السلطان يطلب له الوزارة فأجيب إلى طلبه ونال الوزارة سنة 1212هـ وجاءه معها المنشور والخلعة السمور». وأنهى ياسين العمري كتابه ولم يذكر وفاته «غاية المرام ص327 ـ 329» وقال في حوادث سنة 1217هـ «وفيها قبل خروج هذا الوزير المعظم (سليمان باشا) أرسل والي الموصل محمَّد باشا الجليلي مائتين وخمسين رجلاً من أهل الموصل لمحافظة مشهد الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ فساروا من بغداد» ولما مر أبو طالب بالموصل سنة 1218هـ كان هو والياً فيها. وذكره ياسين العمري في كتابه غرائب الأثر وأنّه أصيب بالفالج سنة 1221هـ وفيها توفي «غرائب الأثر ص72». (المترجم).

(1) في التوفيقات الإلهامية أنّ أوّل شعبان من سنة 1218هـ يوافق اليوم 16 من تشرين الثاني سنة 1803م.

ولكني لتوقاني إلى معرفة هذا القسم من العالم فضلاً عن توجهي إلى وطني شرعت فيه بسرور وحبور. وباللّيلة الأولى بتنا في «كيزا» وهي على مسافة اثني عشر فرسخاً من أسكدار ولم تقطع القوافل هذه المسافة بأقل من اثنتي عشرة ساعة، فإنَّه يندر أن تسير أكثر من فرسخ واحد في الساعة الواحدة، والفرسخ يساوي «كوسين» هنديين أي أربعة أميال إنكليزية. وفي الغد وصلنا إلى «أزموت» الّتي يتلفظها الأوروبيون بصورة «أزموز» وهي مدينة قديمة الزمان جداً وواسعة وعلى مسافة ستة وثلاثين ميلاً من كيزا، وغالب سكانها نصارى، وفي أسواقها كل نوع من المأكولات وبضاعات أخرى.

وفي اليوم الثامن من شعبان (سنة 1218هـ) ركبنا الخيل فجراً وبعد أن قطعنا ثمانية وعشرين ميلاً توقفنا لتناول شيء من المبردات ولتبديل الخيل في قرية زرية المظهر جداً تُسمَّى «تبانجه» ومن هناك سرنا أربعين ميلاً أخرى قبل أن نصل إلى «خندك»: قرية جميلة يشتقها نهر سريع الجِرية، وقد بدا لي سكانها على قدر صالح من المدنيَّة، وقضيت فيها ليلة حسنة ولكن المناخ تحوَّل إلى برودة قارسة، وقد أصابتنا عدَّة شآبيب من البَرَد، وحدث جمود قليل، ومع هذا فقد واصلنا السفر في التاسع من مارت «آذار» فجراً، وبعد أن استبدلنا بخيلنا خيلاً مراحة في «دوزجه» وصلنا في نحو الزوال إلى «بيلي»، وكانت مسافة ذلك النَّهار ستة وتسعين ميلاً، وكان علينا في آخرها أن نتوقل في جبل طويل يبلغ طوله عشرين ميلاً، وكان الطريق فيه ضيّقاً ومتعرجاً ذكّرني المدراج الضيقة الّتي يسلكها النمل فوق تَلْعة من تلاع الأرض، وكان البرد قارساً يومذاك وقد تلفَّفت بالفراء حتَّى كنت لا أكاد أسير، فضلاً عن أنَّ الظلام كان شديداً، ولما انحدرنا من آخر الجبل استسلمت للقدر الإلهي، فلو كبت فرسي أو حادت ست أصابع فقط عن الثنيَّة الضيقة الّتي كنَّا سالكيها، لتقطَّعتُ من غير شك ألف قطعة، فدليلي إذن قد ارتكب تهوُّراً كبيراً باتخاذه هذه المسيرة الخطيرة في فصل غير ملائم جداً، وأنا أوصي بإلحاح المسافرين ممَّن يسلكون هذا الطريق أن يقضوا اللَّيل في «دوزجه» ولا يُعاودا السير إلّا فجر النَّهار، وينبغي لي أن أعلمهم بأن سكان هذه القرية هم في عداد اللصوص والقَتَلة.

وفي العاشر من آذار قرُبْنا من قرية «قره داغ» على مسافة أربعين ميلاً

من حيث كُنّا، وفي اليوم الحادي عشر بلغنا «بندر» فقره جيلة وبعد أن بدلنا الخيل واصلنا السير إلى «قره جوران» وقد قطعنا هكذا أربعة وثمانين ميلاً في يوم واحد، وكان الوقت حين وصلنا إلى المنزلة الأخيرة منتصف اللّيل، فاضطررت إلى النوم فيها، وآذتني حشراتها، أشد الأذى، وقره جوران مشهورة بعسلها وزبدها الّذي يُستبضع إلى مدن بعيدة.

وفي اليوم الثاني عشر من آذار (سنة 1802م) بلغنا مبكرين «قبة حصار» وهي قرية كثيرة القذارة، وموظفو البريد فيها هم لصوص كبار، وقد جعلونا ننتظر ساعتين بحجّة تنعيل الخيل وإعداد الغداء لأتباعي وبعد أطلاب[1] مكرّرة منّي أحضرُوا لنا الخيل، وكانت نتيجة هذا التأخير أنْ كان اللّيل قد أرخى سدوله حين وصلنا إلى «توزيه» وكانت مسيرتنا في هذا اليوم نحواً من ثمانين ميلاً وتوزيه مدينة كبيرة ولكن دار بريدها كانت أردأ مقام وأكرهه، والّذين يسكنونها هم أطمع الخلق الّذين لقيتهم في حياتي، ونزاعي لهؤلاء الأردياء كان سبباً في أنّي لم أستطع مواصلة السفر في اليوم الثالث عشر إلّا في نحو الساعة العاشرة فأوّل منزلة لنا كانت في «حاجي حمزة» على مسافة مقدارها نحو من ستة وثلاثين ميلاً، والثانية «عصمان[2] جق» على اثنين وثلاثين ميلاً منها، وسرنا كل ذلك النّهار في أطراف جبال ذوات منحدرات صعبة، وفي طرق وعرة بشيعة خطِرَة.

وفي اليوم الرابع عشر من آذار تغدّينا في «ميرسوان» على مسافة ستة وخمسين ميلاً، وفي نحو منتصف اللّيل وصلنا إلى «أماسيه» بعد مسيرة قدرها اثنان وأربعون ميلاً، فتكون المسيرتات ثمانية وثمانين ميلاً. وميرسوان قرية كبيرة قائمة في سهل فسيح جداً، وقد بان لنا من سكانها أنّهم كثيرو العناية بنا، وحَفدوا في إعداد خيل لنا. وفي أماسيه لم يكن الأمر كذلك، فمع أنَّ هذه المدينة عظيمة، وفيها كثير من الطواحين المائية والهوائية، طرقها ضيّقة وفيها كثير من الشقف[3]، ودار البريد غاية في القذارة وقيّمها محتال مكّار.

---

(1) الأطلاب جمع الطلب كالأطراب جمع الطرب. (المترجم).

(2) تصحيف «عثمان» من ارتضاخ اللكن. (المترجم).

(3) الشقف جمع الشقفة وهي القطعة من الخزف، وفي أصل الترجمة الفرنسية «مملوءة من الأواني» ولا معنى مناسباً له. (المترجم).

وفي اليوم الخامس عشر من آذار (سنة 1802م) عزمت على النزول في قرية «ترخال» ولكني اضطررت إلى علف خيلي بنفقة منّي، لأنَّ قواعد الأتراك لا تُجيز للمسافرين والرحالين التوقف فيما عدا المنازل المعينة، وهذه القرية ظاهرة الجمال، وسكانها كما يدلُّ عليه ظاهرهم مؤدبون متمدنون.

وفي اليوم السادس عشر وصلنا إلى توقات[1] بعد مسيرة ثمانية وثمانين ميلاً، وتوقات من أقدم المدن وأشهرها في أرمينيا، وأرضها تغلّ عنباً كثيراً كبار الحجم لم أرَ مثله، وقد اضطررنا إلى التوقف في توقات ثلاثة أيام إذ لم نجد فيها خيلاً (بريدية) حتّى لقد أجبر الحاكم أحد سواق العربات الأهليين أن يُعَد لنا فرسين وعدَّة بغال، وتهدد مدير البريد تهدداً حمله وأتباعه على الهرب. والأرض الّتي بين أماسيه وتوقات كلها جبليّة، والطرق فيها ملتوية، وفي هذه الجبال معادن ذهب ومعادن فضة تستخرجهما الحكومة، فالمعدنيات الّتي تستخرج منها تنقل إلى القسطنطينية لتضرب نقوداً. وقد أمضينا ليلة العشرين من آذار في قرية «كارخان».

وبالحادي والعشرين من آذار (سنة 1802م) بلغنا «سيواس» والمسافة بين توقات وبينها ستة وتسعون ميلاً، والعادة أن تُسار كلها بيوم واحد ولكن رداءة المناخ والخشية من أن يدفننا الثلج اضطرّتانا أن نقطعها بيومين، وفي هذين اليومين سقط ثلج كثير جداً، وكانت الريح تعصف بشدَّة حتّى لقد قذفت بغلين من بغالي محملين حملين ثقيلين في اللهوب[2] فتقطعا قطعاً.

وسيواس هي سيباست الرومية، مدينة قديمة وكبيرة، وذكرها مستفيض في التاريخ، ولم يمنع ذلك إن كانت شوارعها قذرة ومتوحلة جداً بحيث ساخت فَرساناً حتّى صدورهما، وقد تشرَّفت في هذه المدينة بالبيتوتة في دار الباشا. وكانت ـ وأذكرها عرضاً ـ مملوءة براغيث، وبها يُستطاع معرفة

---

(1) في معجم البلدان «توقات بالفتح ثمَّ السكون وقاف وتاء فوقها نقطتان: بلدة في أرض الروم بين توقية وسيواس ذات قلعة حصينة وأبنية مكينة بينها وبين سيواس يومان»، وهي غير طوقات من أعمال أرزن الروم».

(2) اللهوب جمع اللهب على وزن الشبر وهو المهواة بين جبلين. (المترجم).

أحوال الدور الأخرى. والأرض ألتي بين توقات وسيواس لم تكن إلّا سلسلة جبال قد غطاها الثلج في هذه الأيّام. وتوقات وسيواس وديار بكر وماردين هي مدن أرمينيا التركية الرئيسة، ومدينة «قارص» و«أرضروم» و«وان» و«أريفان» تقوم على يسار طريقنا على مسافة ما، وتعد من أرمينيا الفارسية.

وباليوم الثاني والعشرين من آذار توقفنا في «أولاش»، وفي الثالث والعشرين منه في «ديلكل طاش» وهي مدينة على مسافة ثمانية وأربعين ميلاً من سيواس، مشهورة كل الشهرة بعنبها وكشمشها وهي على قمة جبل قاسينا مشاق في تسلقه لأنه قد جلله الثلج. وفي اليوم الرابع والعشرين توقفنا في «آلجه خان»، وفي الخامس والعشرين في «حس جلبي» والمسافة بين هاتين المنزلتين أربعة وستون ميلاً. وباليوم السادس والعشرين من آذار المذكور قاربنا أن نقطع أربعة وأربعين ميلاً، وتوقفنا في «حسين بُدْري» والأرض الّتي بين هذه والأخيرة وتوقات بسبب موضعها العالي، باردة غاية البرودة وإذ كنّا متجهين نحو الجنوب كانت البرودة تخف بالتدريج.

وبلدة «حسين بُدْري» يسكنها أهل السنة أي المصدّقين بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان[1] (رضي الله عنهم) وأجدادهم هاجرُوا إليها من «داغستان» للنجاة من قسوة «نادر شاه» ولكنّهم من أروسٍ حمقى وهم متوحشون وجدّ طامعين بحيث لا يُعدون للمسافر طعاماً إلّا بعد أن يُدفع إليهم ثمنه مرّتين، مضافاً إلى أنّهم عندما يُعَدُّ الغَداء يحضرون إلى المائدة فيأكلون منها من غير أن يكونُوا مدعوين، ويمدون أيديهم إلى الصحون من غير ذكر اسم الله، ونساؤهم يَعرضن على المسافرين فواكه وأشياء أُخرى ممّا يباع، ويُوسعن شتماً من يأبى أن يشتري منهنَّ. ودار البريد في البلدة قد أحاط بها الشحاذون وقد اعتادوا اللغط والإزعاج والشطط، وهم متهمون بالسرقة في الطرق الكبيرة، وإذ خفت أن يسلبني هؤلاء الشجعاء أو أضيع في وسط الثلوج لم أسر في هذه البلاد إلّا مراحل قصيرة. ورتبت أمري على طريقة تجعل نزولي الآتي بالساعة الرابعة الزوالية، ومع أنّي بهذه الوسيلة أنجحت

---

(1) في الأصل الفرنسي على التلفظ التركي عصمان. (المترجم).

في تجنب الأخطار لم أسلم من أن أكون مع رُفقاء مُسئمين وبين ناس حبُّ التدخل في أمور غيرهم يدفعُهم إليَّ حيثما استرحتُ، فيأتونَ يدخنون بسبلهم بإزائي بهدوء وسكون.

وفي اليوم السابع والعشرين بكرةً وصلت إلى «ملَطية» بعد مسيرة مقدارها اثنان وثلاثون ميلاً، وفي حوالي هذه المدينة لحظنا أنَّ الفراسخ معينة بما يفي بالتعيين من الحجارة المتخذة صوى وهذه العادة تتيح بالتأكيد للمسافر تخفيفاً من مشقته، ومَلَطية مدينة كبيرة ولكنَّها قذرة ومستوحلة، ويجب أن تعزى هذه القذارة إلى عادة أهل البلاد من عدم تبليط الشوارع، وإذ كانت دار البريد مقززةً للنفس كل التقزيز فضلت أن أبيت في دار مُتسلم أي مدَّعي الإسلام[1]، وكان شيخاً كبيراً ظاهر العبوس طول الحيته قدم ونصف قدم في الأقل، وبينما كنَّا نتحادث معاً اجتمع حولي أطفاله، وأذكر عَرضاً، أنَّهم كانوا صباحاً جداً، وأخذوا يضحكون من هيأتي وطريقتي في الكلام، فغاظ فعلهم الشيخ وضرب منهم أفراداً وطرد الكلّ، ومثل هذه القسوة آلمتني لأنَّ الثرثرة البريئة لهؤلاء الأولاد الصغار أبهجتني أكثر من حديث المتسلم البارد الجاف. ولم ينقطع المطر طول ذلك النَّهار وقد علمت أنَّ قليلاً من الثلج يسقط في هذه النواحي، وإن لم يكن مثل ما على الجبال الَّتي بين هذه المدينة وماردين. أمَّا في بغداد والموصل فلم يرقط نزول ثلج[2].

وباليوم الثامن والعشرين غادرنا ملَطية وبعد أن قطعنا مسافة ثمانية وعشرين ميلاً وصلنا إلى ضفاف الفرات، وفي هذا الموضع ينبع هذا النهر من جبلين بجرية شديدة جداً، ومجراه عميق جداً أيضاً، وسايرنا مجراه قليلاً فوصلنا إلى قرية صغيرة من كردستان تُسمَّى «آيزأوغلي» وبان لي أنَّ رئيسها أفخر إنسان وأشد حمقاً ممَّن لاقيت من الحمقى، وإذ لم يكن في

---

(1) أخطأ أبو طالب ـ رح ـ في هذا الشرح وغره ظاهر اللفظ مع أنَّ «المتسلم» كلمة عربية استعارها الأتراك لمن يتسلم البلدة أو المدينة غالباً إلى أن يأتيها واليها وسيكرر أبو طالب هذا الوهم في كلامه على سفره إلى سامراء. (م).

(2) قال أبو طالب بما لم يعلم فالثلج يسقط ببغداد نادراً. (المترجم).

هذه القرية دار بريد كان هذا الرئيس يطعم المسافرين المتميزين ويسكنهم مجاناً، ولكنّه حسن التذرع في الوصول إلى الحصول على أجرة هذا السخاء، وذلك بالكراء الفاحش الّذي يستوفيه في إكراء خيله. وقرية «آيزأوغلي» قائمة على ضفة النهر، ومع هذا فقد لقيت مشقة في الحصول على الماء واضطررتُ إلى السفر بالصبيحة من غير أن أستطيع غسل وجهي ويدي.

وفي اليوم التاسع والعشرين ركبنا الخيل، وبعد مسيرة ستة عشر ميلاً دخلنا في أرض كثيرة الجبال، وكان الطريق في عدَّة مواضع جدّ متحدر بحيث كانت السُّروج تزحل مرةً أمام ومرةً خلفُ، وقد فقدت كساءً فوقانياً فاخراً كنت علقته بسرج فرسي. إنَّ فقداني ذلك الكساء أثر في جسمي لأنّي قاسيت شدَّةً عدَّة أيّام من البرد والمطر. ووصلنا ليلاً إلى «خربوط[1]» على مسافة نحو من ثمانية وثمانين ميلاً من «آيزأوغلي» فوجدنا فيها داراً فاخرة للبريد وقدم إلينا فيها غداء نفيس، وقد أردت التوقف في هذا الموضع لقضاء اللّيل، ولكن دليلي الفظ الغليظ القلب أصرَّ على ضرورة أن تبلغ منزلة أُخرى، فسافرنا تُحضر خيلنا حتّى منتصف اللّيل في طرق وعرة، حتّى توقفنا في خرائب خانٍ في وسط الجبال، وفي هذا القسم من مسيرتنا مررنا بالقرب من بحيرة ملحةٍ دورها ثمانية وأربعون ميلاً وهي عميقة في عدَّة مواضع منها، وإذ كان الطريق الّذي كنّا سالكيه ممهوداً بموازاة طول تلك البحيرة والصخور الّتي تطيف بها كنّا مضطرين غالباً أن نخيض خيلنا الماءَ غالباً حتّى بطونها، بحيث لو لم تكن لحسن حظنا، خيراً من الخيل الّتي يُعدونها لنا اعتياداً لكبت وسقطت من غير شك.

وفي آخر يوم من شعبان (سنة 1218هـ[2]) بلغنا «أركانه» بعد مسيرة مقدارها اثنان وثلاثون ميلاً والمسافة بين خرتبرت وبينها أربعة وستون ميلاً، وكان الطريق شاقاً جداً، لأنّه كان يجب علينا أن نمر دائماً بين الجبال، وكان أحدها يدعى الجبل المقبب لارتفاعه، وفيه عدَّة معادن للنحاس،

---

(1) هي خرتبرت في جغرافية العرب ولها اسم عربي هو حصن زياد. (م).
(2) يوافق آذار سنة 1802م. (المترجم).

عظيمة التقدير، ومنه ينبع نهر دجلة، وأخذنا طول الصباح والضحى لا نأتي إلّا عبور النهر وتكرار عبوره، وكانت مياهه ضحلة ولكنّها تجري جرية شديدة، وكمية الترنوق أي الطين الوحلي المشبعة به هذه المياه جعلت لونها مصفاراً، ونهر دجلة يكبر ويعرض كثيراً كلّما انحدر مجراه، ففي ديار بكر يكون عريضاً عرضاً غير قليل، وفي الموصل اضطر أولو الأمر إلى مدّ جسر عليه، ورأيته ببغداد أعرض من نهر الكانج في عدّة مواضع. ومدينة «أركانه» قائمة على صفح جبل والطريق هناك جدّ منحدرة ومتصلبة بحيث يصعب على الأجنبي كثيراً أن يصعّد فيها. وهذه المدينة هي أولى المدن التي يدخلها المسافر من الجزيرة، وهكذا تُسمّى البلاد الواقعة بين دجلة والفرات. إنّ ثورة سكان ديار بكر على الحكومة التركية جعلت الطريق خطراً فتوقفت في اليوم الأول من شهر رمضان (سنة 1218هـ) الموافق لليوم الثامن والعشرين من كانون الأوّل[1] (سنة 1802م) لكي ألتحق بقافلة عازمة على السفر في غد ذلك اليوم من «أركانه».

وفي التاسع والعشرين من كانون المذكور سافرنا مبكرين وبعد مسير أربع عشرة ساعة توقفنا في خرائب خانٍ، وإذ كان المطر مستمراً طوال النّهار والبرودة قارسة كان هذا الملجأ الرديء عظيم الفائدة لنا، وذلك أنّه جعلنا نستطيع أن نوقد ناراً عظيمة لتجفيف ملابسنا وأغطيتنا. وباليوم الثالث (من شهر رمضان) واصلنا مسيرنا وإن كان المطر لم يزل مستمراً، فوصلنا إلى ديار بكر[2] ظهراً وهي على مسافة نحو من ثمانية وستين ميلاً من «أركانه». وديار بكر من أجمل المدن وأكثرها سكاناً في ذلك الصقع، وهي على ضفة دجلة، وتحيط بها هضاب تغطيها الأعشاب، وفي أعالي الهضاب في الغالب مساكن صغيرة تحف بها الحدائق والبساتين والغياض، وأوجز القول بأنّ منظر هذا الموضع جذاب خلاب حقاً، وممّا زاد في روع جماله

---

(1) في تقويم «التوفيقات الإلهامية» ورد أنّ أوّل شهر رمضان سنة 1218هـ يوافق 15 من كانون الأوّل وأنّ أوّل شهر رمضان لسنة 1217هـ يوافق 26 كانون الأوّل، فكيف نوفق بين الأمرين وقد ذكر أبو طالب أنّه تحرك من القسطنطينية في الرابع من شعبان سنة 1218هـ الموافق الثاني من كانون الأوّل سنة 1802م؟ (المترجم).

(2) ذكرنا سالفاً أنّ اسمها القديم هو «آمد». (المترجم).

لنا أنّا كنّا اجتزنا بلاداً وعِرة وموحشة. إنَّ مدينة ديار بكر يُحيط بها خندق مملوء ماءً، ومحميَّة بسور حصين ذي بدنات من الحجر، وفي داخل هذا السور مساجد جميلة، كتُربة الشهير خالد بن الوليد[1] القائد الأكبر للخليفة الأوّل (الراشد) وفاتح سوريا، وفي أثناء ذلك كان المطر مستمر النزول بشدَّة، فذهبت إلى حاكمها واسمه أحمد أفندي أزوره، فتلقاني تلقياً ودياً جداً وألحَّ عليَّ في أن أبقى يومين أو ثلاثة أيّام عنده، وقد شكوت إليه دليلي أشد الشكوى، فأبان لي أنّه لا يستطيع أن يُعاقب هذا الرجل ولا أن يبدِّله، لأنَّ هذا المهمندار قد عيَّنته حكومة عظمة السلطة ولكنّه تفضَّل بأن أصحبني إلى ماردين أحد موظفيه، وزاد فضله بأن أهدى إليّ كساءً فضفاضاً مطارقاً من الفراء فكان لي مفيداً أعظم فائدة في بقية سفري.

وباليوم السادس من شهر رمضان استأذنت هذا الرجل المفضل المحسن في متابعة السفر، وبعد مسيرة ستة وخمسين ميلاً توقفت في خان مسافرين في وسط الجبال، وبينه وبين أركانه لحظنا عدَّة مرَّات خَيَّالةً يظهر أنَّهم حرامية وقطّاع طرق، وإذ كنّا على قوّة ومنعة رأوا من الصواب أن لا يهجمُوا علينا. وفي صباح اليوم السابع من الشهر المذكور رأينا أنَّ الثلج قد سقط كثيراً بالليل، وخشية أن تكون الطرق غير صالحة للسير، إن توقفنا أكثر ممّا فعلنا في ذلك الخان، ركبنا الخيل، وإن كان الثلج يسقط بغزارة واندفعنا في السير إلى ماردين وذلك يعني أنّنا اندفعنا ستة عشر ميلاً أكثر إلى أمام.

أبو طالب في ماردين

وماردين قائمة على صفح جبل ذي منحدر صعب، ويُحيط بها سور وثيق ذو بدنات، وفي قُنَّة الهضبة قلعة حصينة من آثار سليمان باشا والي بغداد، وإذ كان الوصول إليها يستلزم تسلُّق صخور وسلوك طرق ضيقة وعرة عُدَّت من أمنع القلاع المحصنة في هذا القسم من الأرض، ولغة العامَّة من أهل ماردين من العربية واللهجة الشائعة في كردستان. ولكن الخاصَّة

(1) دفن خالد بن الوليد بمدينة حمص فهذا مشهد مزور. (المترجم).

يعرفون فوق ذلك التركية والفارسية. والنَّاس ما بين القسطنطينية وملطية لا يفهمون إلّا التركيَّة، وما بين ملطية والجنوب فالَّذين يسكنون بين ديار بكر وماردين يتكلَّمون بالعربية في الغالب وقد وجدت أشخاصاً يستطيعون أن يتحدثوا بالفارسية وأمَّا بين ماردين وبغداد فيسمع المسافر اللغات الأربع[1].

وما كدت أصل إل ماردين حتّى قمت بالواجب عليَّ لعبد الله أغا حاكمها وقد دعاني إلى المكث في داره، وهذا القائد تركيّ ومن أكثر القواد ثقافة، ومع أنَّ السلطان يعرفه حقَّ المعرفة، وله صلة قوية بالوزراء لم تكن وظيفته إلّا قائم مقام لنائب السلطان الَّذي ببغداد، وكان قبلاً حاكم البصرة بصفة نائب لسليمان باشا، وهو متمتع بمودَّة النَّاس جميعاً أغنيائهم وفقرائهم، وإذ كان يجيد الكلام بالفارسية وذا مزاج فكِهٍ فضيتُ أوقاتاً جدّ لطيفة معه، وقد ألحَّ عليَّ كثيراً في أن أمكث بداره طول شهر رمضان ولكني شكرت له تفضله ودعوته لأنّي كنت مستعجلاً، كما قلت سالفاً، في مواصلة سفري والابتعاد عن ماردين، حيث المناخ قارس، فهذا الحاكم كحاكم ديار بكر أحمد أفندي تفضَّل بإصحابي أحد أتباعه، وأمره أمراً جازماً أن يقوم بجميع ما أحِبّ، والطريق إلى الموصل يشتق الصحراء، ويُعَدُّ خطِراً جداً، ولذلك أمر السلطان في الفرمان عبد الله أغا أن يُعِدَّ لي حمايةً كافية في هذا الجزء من سفري، ولذلك أشار عليَّ هذا السيِّد أن انضمَّ إلى قافلة كبيرة تسير في وجهة مسيري واستدعى رئيس القافلة وأوصاه بي وصية توجب عليه أن يُعني بأمري عناية خاصَّة.

أبو طالب في نصيبين

وفي اليوم الثاني عشر من شهر رمضان تركنا ماردين، وبلغنا نصيبين بعد مسيرة قدرها ثمانية وأربعون ميلاً، وفي مسيرة ذلك النَّهار ابتهجتُ بالتعرف إلى قاضي بغداد الجديد، وكان مسافراً إلى محلّ وظيفته في «تخت روان» أي محفَّة ومعه خمسون فارساً وعشرون جندياً مسلحين ببندقيات بارودية ذات الفتيلة، فكان ذلك يضفي عليه هيئة عظيمة، وقد رجا منّي أن

(1) أراد العربية والتركية والفارسية واللهجة البلدية. (المترجم).

أركب معه في الطريق الَّذي نحن سالكاه معاً، فقبلت دعوته شاكراً. وكانت نصيبين قبل عدَّة قرون واسعة جداً وبعيدة الشهرة في الشرق ثمَّ صارت مقاماً للإمبراطور الرومي ثمَّ صارت في العصور المتأخرة عاصمة الدولة الإسلامية[1]، وهي في هذه الأيَّام ظاهرة التخلف، ولا تُبين للناظر أثراً من رونقها القديم وأهم ما يستحق الذكر والاعتبار فيها قبور الأولياء المسلمين، وقد وجدت فيها دار بريد فاخرةً جداً وقد أعدَّ لنا القيمَ عليها خيلاً رائعة وهذا الفعل الجميل الإفضالي من جهته يستوجب منِّي بحقِّ شكري وثنائي فإنَّ بين نصيبين والموصل أعني مسافة مائتي ميل لا يُستطاع تبديل الخيل في موضع منها، وليست تلك البلاد بالتعبير الحقيقي إلَّا صحراء يعبث فيها اللصوص قُطَّاع الطريق، حتَّى لقد ألزمتنا الضرورة أن لا يبتعد بعضنا عن بعض في المسير فإنَّ المتأخرين قد سُلب ما معهم وقُتلوا.

أبو طالب في بلاد الأكراد

وفي اليوم الثالث عشر من شهر رمضان دخلنا في بلاد الَّتي يسكنها الأكراد وتوقفنا عن السير عند قرية قائمة على مسافة أربعة وعشرين ميلاً من نصيبين، وكان رئيس القبيلة يقيم في خارجها وقد أوعز إلى أبنائه أن يزورونا ولكنَّه قبل أن يأذن للقافلة أن تمر في البلاد الَّتي يَعُد نفسه ملكاً فيها مستقلاً حتَّى عن الباب العالي باب السلطان استأدى القافلة بإلزام ضريبة فاحشة، وقد صَحِبتُ القاضي حتَّى دار نجار كردي، وفيها تغدينا غداءً فاخراً ووجدنا مناماً جدَّ مريح.

وباليوم الرابع عشر من الشهر، وصلنا بعد مسيرة أربعة وعشرين ميلاً إلى قرية «أباره» وهي مقرّ حيدر أغا رئيس قبيلة، فاستقبلنا بكثير من الأدب، والسبب الَّذي حملنا على أن نسير هذا المسير القصير في هذين اليومين، هو أن نستطيع أن نجمع بسهولة من كل واحد من القافلة ما يجب عليه دفعه من النقد للإيفاء بالحقوق المقرَّرة في تلك البلاد ثمَّ إنَّنا بسبب إشرافنا على

---

(1) لم نجد في التاريخ الإسلامي أنَّ نصيبين كانت يوماً ما عاصمة للدولة الإسلامية على اختلاف عصورها وأربابها. (المترجم).

الدخول في صحراء غير مسكونة كان يجب علينا أن ندع لحوذيي العَرَبات والجمالين الوقت الضروري لتعبئة أثقالهم وأحمالهم. وكان على التقريب كل الكرد الَّذين أتيحت لي فرصة لقائهم يفهمون الفارسية، وقد اعتقدُوا أنِّي أحد وطنييهم[1] وقد عاملوني بلطف ورعاية، والمسافة الَّتي قطعناها في هذين اليومين تعد جزءاً من الصحراء، ومع هذا فمن القسطنطينية إلى هذا الموضع لا يجد المسافر موضعاً أكثر سكاناً وأغزر مياهاً منه، وكل البلاد الَّتي تمتد من نصيبين إلى الموصل وقد صورها لي تصويراً رهيباً، كانت بالعكس قد احتوت على كل ما يجعل السفر مستحباً مستحسناً. والأرض من القسطنطينية إلى نصيبين جبلية وكان علينا أن نصعد وأن ننزل بغير انقطاع، ولم نرَ سهلاً واحداً مساحته اثنا عشر ميلاً. فالصحراء بالضد من ذلك مبسوطة كل البسط وتشبه الأرضين الفارسية والهندية، والماء فيها قليل بلا شك، ومع هذا كنَّا نجد بعد مسيرة كل خمسة أميال إلى عشرة أميال جدولاً يجب عبوره، وينبغي أن يُعلم أنَّا كنَّا إذ ذاك في أكثر فصول السنة ملاءمة للمسافر ففي أوقات الحرارة تستنفد هذه الصحراء قوى السائح فيها الَّذي لا يأمُل وجود ملجأ من حرارة الشَّمس، ومع أنَّ هذه الأرض محاذة لسوريا وجزيرة العرب اللتين تكثر فيها الغابات، وأحياناً المراعي المربعة لا يجد الإنسان في كل هذه المساحة شجيرة ولو ضعيفة والسكان مضطرون أن يطبخوا طعامهم ويتدفؤوا في الشتاء بالسّرقين المجفَّف الَّذي تَروثه ماشيتُهم أو بخشب أو بفحم يجلبونه بأثمان غالية من البلاد المجاورة لهم، وهذا العُدْم يجعلهم جدَّ مقتصدين في خشب اصطلائهم، فلذلك يقاسون كثيراً من الأذى في الشتاء كالأذى الَّذي يكابدونه بالصيف من الحرارة الشديدة. وفي تلك الصحراء عدَّة قرى متفرقة هنا وهناك، والمنازل والمواضع الَّتي يقيم فيها الرؤساء مؤرفة[2] بخنادق أو تلال.

---

(1) الوطني من يسكن في الوطن كالبلدي من يسكن في البلد، ولا يؤدِّي المواطن هذا المعنى لأنَّه يدلُّ على أنَّه لم يكن من أهل الوطن. (المترجم).

(2) المؤرفة ذات الأرف بوزن الغرف والواحدة «أرفة» كغرفة وهي معلم الحد بين الأرضين. (المترجم).

وقد مكثنا يومين في «أباره» لانتظار الشيخ شلال أمير قبيلة طيّء فقد كان وعد حاكم ماردين أن يُبَذْرِقنا إلى ما وراء الصحراء، وإذ لم يصل في الوقت فأدلاء القافلة اتفقُوا مع علي أغا من قبيلة طيء أيضاً أن يُبذرق قافلتهم المؤلفة من زهاء ثلاثة آلاف رجل، منهم عدَّة مئات من الجنود والفرسان مسلحين بالبندقيَّات البارودية ذات الفتيلة. وهذا التدبير رُئي ضرورياً، لأنّنا قد نلاقي، كما قيل، قبيلة سنجار المُسمَّاة عموماً «كرد يزيد[1]». فهذا الشعب يُعد من الكفار، والأعداء الزرق للمؤمنين برسالة محمَّد ﷺ ولكنَّهم يدَّعون مؤكدين أنَّهم من القبيلة العربية «بني يزيد» أي بني أُميَّة الَّذي اضطروا بسبب مشاغبة بني العباس لهم والإغراء بهم أن يتركُوا جزيرة العرب ويلتجئوا في هذه الناحية من الصحراء، وقد عظمت هذه القبيلة بهجرات تترى، حتَّى صارت هائلة للدولة التركية وشؤماً عليها وذلك بغاراتها وقطعها الطريق على القوافل. وقد اقتبست في تلك المواضع بأعيانها، معلومات صحيحة جداً عنهم، ولذلك أرى واثقاً أنَّ هذه القبيلة من المسلمين الصحيحي الأيمان، وأنَّ سيرتهم غير مُليمة كما يدعى عليهم في القسطنطينية[2] ورئيسهم اسمه «حسين» ومفخرته في خلال هذه السنة اقتصرت على سلب قافلة أهملت أداء الضريبة إليه وحاولت اجتياز الصحراء بمواربة منها لحراسته. والَّذي جعل هذه القبيلة بغيضة ورهيبة هو أنَّ كثيراً من سُلابيها اندفعُوا بغاراتهم أحياناً إلى البلاد المتاخمة لمواضعهم، لارتكاب سرقاتٍ فيها وقتول[3] أيضاً.

وفي هضاب سنجارتين فائق الجودة، وهم يجففونه ويبيعونه في أسواق ماردين والموصل وبغداد، والإجاص فيها كثير جداً، ولم أر إجاصاً يساويه في كبر الحجم، ولذَّة الطعم، وإذ كنَّا نجتاز الصحراء اقترب عدَّة

---

(1) أراد أبو طالب «اليزيدية» المعروفي النحلة والملة في شمالي العراق الحديث. (المترجم).

(2) لعلَّ أبا طالب اعترف بصحة ديانتهم لرؤيته بل لوجدانه اسم «الحسين» في أسمائهم. (المترجم).

(3) القتول جمع القتل كالوعود جمع الوعد والأمور جمع الأمر. (م).

أفراد من هذه القبيلة من قافلتنا وقدّموا إلينا كمية كبيرة من التين والعنب والإجاص والجوز، مقابل نقود أو جوخ أو أشياء أخرى، إنّهم كانوا يشبهون العرب في ملابسهم ولغتهم.

وباليوم الخامس عشر من شهر رمضان قطعنا مسافة مقدارها اثنان وأربعون ميلاً، وإذ لم نجد في هذا الطريق ملجأ كائناً ما كان اضطررنا أن نقف في موضع يُسمَّى «تلال حواء» ولم يكن هذا الموضع بعيداً جداً من جبال سنجار فلم نخل من بعض القلق، ومن حسن الحظ أنَّ الشيخ شلالاً وزهاء مائة فارس من مختاري قبيلته معتمين بعمائم ومسلحين تسليحاً جيداً ومجهزين جهازاً حسناً، وممتطين حجوراً[1] رائعة جاؤوا فالتحقوا بنا، وإذ كنَّا عازمين على أن لا نتوقف إلّا سويعات، لم ننزل قط أو ساق جمالنا، وقعدنا على الأرض بغير وطاء ريثما تعتلف الخيل والجمال.

وفي اليوم السادس عشر منه بالساعة الأولى منه صباحاً تابعنا المسير، وبعد قطعنا مسافة قدرها اثنان وخمسون ميلاً وصلنا إلى هوقطة[2] مُقام الشيخ شلال، وما هوقطة إلّا قلعة منشأة على هضبة للحفاظ على الأولاد والنِّساء من خطر فاجئ. والأكراد يعيشون في خيام منسوجة كلها من الشعر، وقد وجدنا في هذا الموضع حِلَّةً من قبيلة طيء عدَّتها ماتنا أسرة على التقريب، وسائر القبيلة بحسب ما استعملناه يتألف من ستة عشر ألف أسرة أو خمسة عشر ألفاً متفرقين في الصحراء على مسافة يومين أو ثلاثة أيّام بالسير على الأقدام ويرأسهم أخ لدليلنا يُسمَّى الشيخ فارساً وهو يعترف مع قبيلته برئاسة أخيه الشيخ شلال. وهذا الرجل الّذي كان يتظاهر بكل عظمة الملك، كان يتميز بعادة الضيافة الّتي تميز في الأغلب الشعب العربي، وكان يمدُّ سماطاً لخمسين رجلاً ومن غير انقطاع وقد تغذَّيت مراراً معه، وإنَّ أقل من ذلك السخاء، وألواناً مختارة من الطعام كانت تكفي اشتهائي[3].

---

(1) جمع حجر بوزن شير وهي أنثى الخيل. (المترجم).

(2) هكذا ورد الاسم ولم نهتد إلى أصله أو حقيقة مسماه. (المترجم).

(3) لم يكتف أبو طالب بما قدَّمه له الأعراب وتذكر طعام الإنكليز النفيس عنده وقد صح المثل عليه «تسألني برامتين سلجما». (المترجم).

وفي اليوم السابع عشر من رمضان بأبكر بُكرةٍ واصلنا سفرنا، وبعد مسافة قدرها ستة وثلاثون ميلاً بلغنا «حميدة» مقام الشيخ فارس، وهذا الموضع على خمسة وثلاثين فرسخاً من أبارة. وهو المنزلة الأولى من الصحراء، وهناك بيوت سكنى متوسطة غير مخيمات طينٍ، ولوجوب أن يُبدل من دليلنا في هذا الموضع بأخيه طُلبتْ ضريبة جديدة من القافلة، فدفع كل إنسانٍ ما عليه، بحسب ملكيته أو عدد خيله أو جماله، وقد استفدت من الإبطاء الّذي يوجبه هذا الحادث للدخول في القرية فتلقاني عربي أميز تلقٍّ وقدم إليَّ خبزاً وزُبداً فاخراً وتمراً طرياً، ولم تكن غمضَت عيناي منذ ثلاث ليال، فاهتبلت هذه الفرصة، ونمت سويعات أعادت إليَّ قواي، ولم نكن إذ ذاك إلّا على مسافة اثني عشر ميلاً من الموصل، فخاطرت بنفسي بأن تركتُ القافلة، وبعد ساعتين من المسير كنتُ قد دخلت الموصل. وليس في الخيل ممَّا يماثل جلادة الخيل العربية وشجاعتها، وللفَرس الّتي كنت راكبها أغنتني قبل كل شيء عن النصَب في هذه السفرة البائسة، وقد ألفيتُها أوّل الأمر ذات مظهر حقير، ولزيادة الحرَج كان صاحبها قد أصابه ضجر وسآمة فتركني ليرجع إلى نصيبين، وفي اليوم الثاني لسوء حظي فقدت كيس الهرطمان، فكان غذاؤها في أثناء خمسة أيّام كاملة مقصوراً على قليل من العشب استطاعت ارتمامه عند توقفاتنا المختلفة، وعليها جهاز الركوب، ومع ذلك فقد ظهر عليها عند وصولنا إلى الموصل نشاط موفور واستعداد غير منزور بحيث لا يشك أحد في أنّها أصابها الهزال وسوء الحال، وأنا لا أعرف في العالمين خيلاً يمكن أن توازن خيل العرب في هذا الشأن.

أبو طالب في الموصل

وبعد وصولي إلى الموصل بوقت قليل ذهبت إلى نائب السلطان بها محمَّد باشا[1] لأقوم بما يجب عليّ له فتلقاني تلقياً حسناً جداً، ودعاني أن أقضي عدَّة أيّام معه. وهذا الأمير من سلالة قدامى السلاطين في مدينة القسطنطينية، وله سطوة عظيمة ويحترمه الشعب كثيراً ولم يكن يكلِّم أحد

(1) قدمنا موجز سيرة محمَّد باشا ابن أمين باشا الجليلي سالفاً ص236. (م).

من مأموريه، ومع ذلك كان يهوى أن يحادثني بتأنس منه، وأعفاني فوق ذلك من تكاليف حاقرة كتقبيل ذيل ردائه، وأمر أن يقدّم إليّ سبيل إدخان وشراب القهوة ثمّ أمر ابنه محمَّد بك قائم مقامه أن يؤدبني إلى المثوى، وأن يعتني بي ويرعاني. ومحمَّد بك شاب جميل جدّ مهذّب، ذو خلق محبوب جداً، وكان كل يوم يُعيرني أحد أفراسه، ويذهب بي إلى مآثر ما حول الموصل وعجائبها فيريني إيَّاها، وكنَّا دائماً مصطحبين ومُصحبين بمقنب من الخيالة، فزُرت قبر النَّبي يونس والقديس جرجيس ﷺ[1] حامي إنكلترا.

والموصل قائمة على ضفة دجلة في كورة الجزيرة الَّتي سمّيت كذلك لوقوعها بين نهرين، ولهذه المدينة كما لماردين خندق عظيم وسور وفيه عدَّة بَدَنات، ويُعبر نهرها على جسر من الحجارة، ولم آكُل خيراً من خبز الموصل ولحم ماشيتها، وفيها كل نوع من الفواكه اليابسة ولكن المناخ كان قليل العذاوة، وسكانها يشتاقون إلى الأطباء اشتياق المريض المحرق بالحمّى إلى قطرة الماء الَّتي تُعيد إليه الحياة والنماء، وأنا أعلم شيئاً قليلاً من الطبّ، وقد سعدت بعلاجي مريضاً أو مريضين فشفُوا، وشاع ذلك في جميع البلد، وفي سياحتي إلى بغداد أزعجت في كل موضع بريد بكثرة المرضى الَّذين يأتون من القرى المجاورة له يستوصفونني الدواء لما فيهم من الداء. وجميع موظفي الدولة وأعيان السكان لما رأوا العناية والرعاية اللتين لقيتهما من محمَّد باشا هرعُوا إليّ يقدّمون لي احترامهم، وكان هؤلاء ناساً مثقفين خاصة وذوي أخلاق محبوبة وتفكير واسع. ومنذ مغادرتي باريس لم ألاق رجالاً ذوي أذهان نيرة مثلهم، ووزراء السلطان لو كانُوا يملكون عشر براعتهم فقط ما خشيت على ما يستقبله «الباب العثماني» من

(1) قال الشيخ ياسين العمري في حوادث سنة 781هـ (1379م) وفيها ظهر الموصل قبر نبي الله جرجيس ﷺ وكان موضعه تل وأرض خربة فبلغ تيمورلنك ذلك فقلع التل من موضعه وظهر القبر الشريف فبنى عليه المرقد»، وسمَّاه أبو طالب «جورج» بالتسمية الإنكليزية.
وقال في حوادث سنة 1143هـ: «وفيها عمر الحاج حسين باشا الجليلي الرواقات والقباب في جامع نبي الله جرجيس ﷺ ثمّ عمر قبة الخضرة». فقوله في القبر (ظهر) ينبئك بحقيقة الخبر؟! (المترجم).

مقادير، ورؤساء كتاب الباشا هم أحمد أفندي وأخوه كلاهما، وسليم[1] بك الحاكم السابق لكردستان، وهو ذو معاشرة جدّ لطيفة ويُجيد التكلّم بالفارسية، وله عدّة أتباع من الترك ذوي مواهب متميزة، وقد كان ثار قبل عدّة سنوات على علي باشا نائب السلطان ببغداد ولكنّه أخفق في ذلك فاضطر إلى الهرب ولاذ بالموصل فوجد فيها ملجأ.

وقد لاقيت بالموصل «نجف خان» وكان سرياً فارسياً غادر حكومة «ببا» للتفصّي من جبروت فتح علي شاه إمبراطور البلاد الفارسية. وقد استفدت من إقامتي بالموصل أن طلبت من الباشا أن يُمدّني بمهمندار آخر لأنّ الموظف الّذي أرسله معي والي ماردين اتفق مع دليلي الأوّل على

(1) ذكره الشيخ ياسين العمري في الدر المكنون غير مرّة وكان من أسرة بيه «بابان» المعروفة ففي حوادث سنة 1216هـ قال: وفيها سار بالعساكر حاكم «الكوي» سليم بك ابن محمود باشا إلى جهة روندوز فخرج لحربه والي روندوز مصطفى بك، فجرى بينهم قتال وقتل أحد أمراء عبد الرّحمٰن باشا أخي سليم بك فعاد سليم بك إلى الكوي وأرسل مصطفى بك إلى والي بغداد (سليمان باشا) يشتكي من سليم بك، فأرسل (الوالي) إلى سليم بك يأمره بالصلح، مع مصطفى بك فقبل في الظاهر وحقد في الباطن ثمّ بعد أيّام ظفر سليم بك في مصطفى بك قريباً من ألطون كبري فقتله، فبلغ ذلك والي بغداد الوزير سليمان باشا فغضب على عبد الرّحمٰن باشا وكان في بغداد وسجنه وأرسل إلى حاكم السليمانية إبراهيم باشا ابن أحمد باشا أن يقبض على سليم بك حاكم الكوي، فبلغه ذلك فهرب بأهله إلى كركوك ومعه سائر إخوته فأرادوا حبسه فهرب إلى بغداد والتجأ إلى الوزير فقبضه وحبسه مع أخيه (المذكور) عبد الرّحمٰن باشا في القلعة ثم نفاهما إلى الحلة وسجنهم» «نسخة دار الكتب الوطنية بباريس 4949 و331» وذكر الشيخ ياسين في سنة 1218هـ الثورة على الوزير علي باشا والي بغداد واستقدام رئيس الثوار أحمد أغا مقدم السينكجرية سليم بك وأخاه عبد الرّحمٰن باشا من منفاهما بالحلة، وأخفقت الثورة فقبض على عبد الرّحمٰن باشا وسليم بك وأحضرا عند علي باشا فوبخهما وحبسهما وهرب سليم بك على قرب حتّى قدم كركوك فلم تثبت له قدم، فقدم الموصل ونزل في بعض قراها وأرسل إلى محمّد باشا، فأرسل هذا إلى علي باشا يتشفع فيه فعفا عنه وأقام في الخيام شرقي دجلة». (الورقة 333) ثمّ قال: «وفيها أرسل والي بغداد الوزير علي باشا إلى الموصل أن يأمر محمّد باشا (الجليلي) سليم بك وإخوته ومن معهم من الببا أن يحاربوا أولاد حسن ابن ذهاب فركب سليم بك وإخوته وساروا إلى حمام علي فوجدوا الأرض بلقعاً وقد هرب (العرب) في البر ثمّ استولى سليم بك على أغنامهم وهي أربعة آلاف رأس غنم».

الاضرار بي بدلاً من إطاعة أوامر سيِّده، فرعى الباشا شكايتي وأمر المهمندار المذكور أن يغادر الموصل في الحال، وكلَّف في الوقت نفسه قاسماً وهو خواجه داره أي ثقته بمصاحبتي ومرافقتي إلى بغداد. وقد فاجأ هذا الأمر المهمندار وترك الموصل متوجهاً إلى كركوك بدلاً من أن يعود إلى القسطنطينية، وسلك في ذلك طريق بغداد ابتغاء أن يقفني في الطريق ويحصل منّي على «راضي نامه[1]» أي شهادة حسن السيرة، ولكن آماله خابت، فقد اتخذت جميع ما استطعت من حيطة وتدبير لكيلا يلحق بي إلّا ببغداد.

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر رمضان فَصَلْت من الموصل وقد أقمت فيها خمسة أيام[2] وبعد أن عبرت دجلة نزلت إلى قره قوش على مسافة ستة عشر ميلاً من الموصل. وباليوم الرابع والعشرين عبرنا نهر الزاب الّذي يفصل حكومة الموصل من حكومة بغداد، وواصلنا سفرنا إلى «عنكاوه» وكان يحميني في هذه السفرة جنديان أرسلهما معي محمَّد باشا برهاناً على تقديره مقامي وقدره إيّاي وصداقته، والبلاد الّتي اجتزناها يسكنها عرب[3] نصارى من قبيلة غسَّان، وإذ كانت الفنادق رديئة جداً ذهب دليل الجديد «خواجدار» إلى دور الرؤساء، فكانُوا يسرعون إلى إضافتي.

وفي اليوم الخامس والعشرين وصلنا إلى «آلتون كبري» بعد مسيرة مقدارها ثمانية وأربعون ميلاً، وآلتون كوبري قرية كبيرة يعني اسمها التركي «عدَّة قناطر[4]» وفي الحقيقة يجد المار بها نحواً من ثماني قناطر، وأكثرهن ليس لهن إلّا حنية واحدة مع ضخامة وجسامة تجعلان العبور غاية في السهولة، وفي اليوم السادس والعشرين قصدنا إلى كركوك وهي على مسافة

---

(1) أي شهادة الرِّضا. (المترجم).

(2) سيذكر أبو طالب في كلامه على عودته من النجف إلى بغداد أنَّ محمَّد باشا زوده كتاباً إلى علي باشا والي بغداد يوصيه فيه به. (المترجم).

(3) عدهم عرباً لتكلمهم باللغة العربية في سيرتهم العامَّة. (المترجم).

(4) الصحيح أنَّ معناه «قنطرة الذهب» فألطون: الذهب، وكبري قنطرة، ويقدم المضاف إليه على المضاف. (المترجم).

ستة وثلاثين ميلاً من هناك، وكنّا نسير هكذا مراحل قصيرة بسبب المطر الدائم السقوط الّذي كدّر حالنا بقدر ما كدّرها ثلج جبال سيواس وتوقات.

أبو طالب في كركوك

وكركوك مدينة كبيرة ومحكمة التحصين ولكنّها أخذت مبانيها تتداعى للخراب، ويحيط بالدور سور القلعة، وكلها مبنية بالحجارة أو الآجرّ، ولكن منازل أرباضها مبنية بالمادة الترابية، وهي قائمة وسط سهل واسع ذي منظر جليل ويُرى من مسافة بعيدة.

وفي اليوم السابع والعشرين سرنا ستة وثلاثين ميلاً لنبلغ قرية «طاووق[1]» فدخلناها قبل غروب الشّمس بساعة واحدة وكانت دار البريد فيها معنياً بها جداً، ولكنني لخوفي من أن يعلم بمروري علي حاجي[2] مهمنداري الّذي رافقني من القسطنطينية وأن يتبعني بدّلت الخيل على الفور، وقصدت إلى قرية «خرماتي[3]» فبتُّ فيها. وفي اليوم الثامن والعشرين وصلت إلى كفري وقره تبّه.

أبو طالب في قره تبّه

وقره تبّه بليدة قائمة في لحف سلسلة من الهضاب في سهل واسع ممتد إلى بغداد، وهذا الموضع اشتهر بظفر نادر شاه على الأتراك، ويُستطاع حتّى الآن تقدير سعة موضع الوقيعة بما بقي من الخنادق والمتاريس الّتي أقامها الجيشان الفارسي والعثماني، وكانت كركوك ميداناً لظفر نادر شاه أيضاً. وإذ كانت دور البريد في قره تبّه وجميع ما حولها أكواخاً رديئة كان «مصطفى بك» مستوفي الخراج» في هذه البقاع يُجبر الفلاحين على إضافة المسافرين، ويحتجز ما تنفقه الحكومة على تلك الدور، وكان الفلاحون لا يجرؤون على مخالفة أمره فيستقبلون السائحين

---

(1) هي «دقوقا» التاريخية سميت باسم الدجاجة التركي للتشابه بين اللفظين لا غير. (المترجم).

(2) كان أوّلاً «حاجي علي».

(3) هي المعروفة اليوم بطوز خرماتو. (المترجم).

الأجانب أقبح استقبال، ويقدِّمون إليهم طعاماً رديئاً مُتبَّلاً بالشتائم في الغالب[1]، ويُعدُّون لهم أكاديش مُجاعة يشرّفونها بإطلاق اسم «الخيل» عليها. وقبل فصولي من قره تبّه أردت أن أرى هذا المستوفي الصالح[1]، لألومه على وضاعته فذهبت إليه فاغتاظ منّي وغضب غضباً شديداً، وقال لي: «إنّي كنت حرياً أن أستحييي من أشكو من طعام يقدَّم إليَّ مجاناً». فقلت له: «أنا ما أشكو لنفسي فقط بل للأجانب الّذين يأتون بعدي وأنت الّذي ينبغي له أن يخجل لابتزازه من موظفي البريد قوتَهم باستيلائه على العِوَض الّذي تقدِّمه الدولة، وإجباره الفلاحين على أن يفتقرُوا، ولإساءته معاملة المسافرين».

وباليوم التاسع والعشرين منه سرت ستة وثلاثين ميلاً، وفي الثلاثين منه مررت بقرية صغيرة تُسمَّى «دوخلة[2]» وفي الأوّل من شوال (1218هـ) أي السابع والعشرين من كانون الثاني سنة 1803م وصلت إلى بغداد وقد قدرت المسيرة الأخيرة باثنين وثلاثين ميلاً، واحسب أنّها أربعون ميلاً بلا تقريب، ومع ذلك كانت خيلنا جد رديئة، والمناخ جدُّ رديء بحيث استطلت الطريق ولم يكن طويلاً في الحقيقة. وكل الأرض الّتي بين دوخلة وبغداد ماهي إلّا سهل كثير الانفساح لا دار فيه ولا شجرة، والطرق فيها لا يمكن سلوكها لضنوكها، وكان معي ستة أفراس لي ولأثقالي، وكانت طليحة[3] كل الطلاحة حتّى لقد اضطررت أن أسير على قدميَّ في قسم كبير من الطريق مع ما كان من عَصف الريح ورشقها وجهي بالمطر، ومن حسن حظي أنّي وجدت في ربض بغداد موضع بريد وفيه بَدلتُ الخيل وذهبت بعد ذلك إلى القنصل الإنكليزي المستر «جونس». وإنَّ من الغرابة بمكان مبين أن تكون طرق مدينة كبيرة كبغداد من حيزها إلى مسافة أربعين ميلاً على هذه الحال من الرداءة والعسر على السائحين، ولو كنت سرت ليلاً وضللتُ الطريق لهلكت في وسط الطين والردغات من غير شك، وذلك هو المصيبة الّتي تقع في كل سنة بالتقريب على

---

(1) وهذا من أسلوب أبي طالب التهكمي الّذي تقدّمت منه نماذج. (م).

(2) قرية لا تزال عامرة قائمة على دجلة في الطريق الشرقي من بغداد إلى الخالص الأعلى وقد ورد ذكرها في التاريخ الغياثي لعبد الله بن فتح الله البغدادي. (المترجم).

(3) طلحت الدابة طلحاً وطلاحة تعبت وأعيت. (المترجم).

عدّة سائحين، والمسيرة بين القسطنطينية وبغداد فيها من العسر والصعوبة ما يمنع القيام بها ولا يتهيأ إلّا لرجل أيِّدٍ وافر الصحة، وهذا الطريق كان قديماً من طرق الروم المعتادة[1]، ولكن الأوروبيين تركوه منذ عدَّة قرون، وطوله أربعمائة وخمسة وسبعون فرسخاً وهي تساوي تسعمائة وخمسين «كوساً» هندياً، وألفاً وتسعمائة ميل إنكليزي، وفيه خمسون بريداً أي منزلة بريدية، والقوافل في أحسن فصول السنة لا تسلخ أقلّ من ثلاثة أشهر في إتمام سلوكه، وقد قضيت ستة وخسين يوماً في الطريق، ولكن البريد السريع يُنهي الطريق نفسه في اثني عشر يوماً، ولولا العوائق الّتي لقيتها لاستطعت، كما أظن، إتمام هذا السفر في خمسة أسابيع أو ستة.

أبو طالب في بغداد

وبغداد قائمة على ضفتي دجلة وهي مدينتان[2] إحداهما على إحدى الضفتين والأخرى على الأخرى، وتتميزان باسم بغداد القديمة وبغداد الحديثة، والمدينة الأولى في الجهة الشرقية وفيها يقيم الباشا وكبار الموظفين، والثانية في الجزيرة في الجهة الغربية من النهر، وفيها منازل جميلة جداً، وهاتان المدينتان، ومحيطهما زهاء ثمانية أميال وهما محصنتان بأسوار تحيط بهما خنادق واسعة وعميقة تتخذ مزارع في أيّام السِّلم، ولكنّها لحلول أقل خطر تملأ ماءً من نهر دجلة بسهولة، وتحصينات المدينة الجديدة أقامها السلطان «أويوس كران» المشهور بالسلطان ساوجي[3]

(1) أراد أبو طالب أنَّ هذا طريقهم في حروبهم وهجومهم على عاصمة الساسانيين «طيسفون ـ المدائن ـ سلمان پاك». (المترجم).

(2) سمّاهما أبو طالب مدينتين والمعروف أنّهما جانبان فتركنا قوله على ما هو عليه بله أنَّ المشهور هو أنَّ العتيقة في الجانب الغربي، والجديدة في الجانب الشرقي، وهو ممّا يفهم من كلام أبي طالب نفسه بعد ذلك. (المترجم).

(3) هذا تاريخ نحن ـ أهل المدينة المعنيين بتاريخها ـ نجهله كل الجهل وهو من أوهام أبي طالب فأمّا سور بغداد في جانبها الشرقي فقد بدأ بإنشائه الخليفة المستظهر بالله وأتمه الخليفة المسترشد بالله ابنه وهدمت منه أقسام فأعاد بناءها المقتفي لأمر الله، وجدده الخليفة الناصر لدين الله، وأمّا سورها في جانبها الغربي فقد بناه سليمان باشا المذكور، والظاهر أنّه هدم أبنية عباسية وأدخل آجرها فيه. (المترجم).

وتحصينات المدينة القديمة أقامها سليمان باشا الأخير ليحفظها من غارات الوهابيين. وبغداد بكونها على تخوم الصحراء وفي سهل فسيح تمثل للرائي منظراً من أجل المناظر، وداخلها لا يناسبها ذلك الظاهر منها، لأنه قذر كل القذارة ومستوحل كل الاستيحال، وخصوصاً المدينة القديمة، الَّتي تكون الإقامة فيها بالشتاء بغيضة كالإقامة بمقصود آباد أو جميع المدن الأُخرى في البنغال، ومع أنَّ سوقها الرئيس مبني بالآجر وسقفه قائم على طيقان فليس بأقل من سائر الأسواق إظلاماً، ولا أقل قذارة ونتانة. ودور أعيان السكان مبنية بالآجر والمدر وليست جدرانها قوية وثيقة كأسوار الهند، والأثاث الَّذي فيه والزخرف الَّذي زُخرفت به من النوع الدون، وهو يُظهر لكل البنيان مظهراً تافهاً، وأوجز القول بأن قصر الباشا وأجمل دور هذه المدينة لا تساوي صنوف الدور المتوسطة في لكنو، فضلاً عن أن يوازن ويفاضل بينها وبين قصور النواب آصف الدولة أو قصور آخر وزرائه حسين رضا خان.

إنَّ شهرة بغداد والبصرة والنجف ومدن أُخرى في البلاد الفارسية عظيمة جداً، ولكنَّها يمكن أن يقابل بينها بين صوت الطبل، فإنَّه يستوقف ويستصغي السامع على بعد منه، ويظهر غاية في التفاهة على قرب منه، وأنا أستطيع أن أؤكد أنّي لم أشاهد منذ سفري من القسطنطينية حتَّى وصولي إلى البصرة داراً تجتذب واحداً من اللكنويين إلى سكناها غير دار «أغا جعفر» في كربلا. وفي بغداد مقاهٍ كثيرة ومُدَّخنات[1]، وهذه المواضع العامَّة أشد قذارة وظلاماً من الَّتي في القسطنطينية، وأسواق بغداد جيدة التموين فالرمان والليمون وآلوبخارى أي الإجاص المجفف فيها ألذُّ ما أكلتُ منها في عمري.

وإذ كانت غايتي بسلوكي هذا الطريق أن أزور بقايا أجساد الشُّهداء والأولياء من مذهبنا المسلمين الشيعة، وزيارة عدَّة قبور لأجدادي الصالحين الأتقياء من ذرِّيَّة النبي ﷺ[2] خصَّصت القسم الأكبر من وقت إقامتي ببغداد

---

(1) المدخنات جمع المدخن على وزن المتحد موضع الادخان بالتبغ وهو من المشتقات المقيسة. (المترجم).

(2) هذا هو الموضع الثاني الَّذي ادعى فيه أنَّه متصل بالنبي ﷺ بفرع من فروع النسب. (المترجم).

بقضاء هذا الواجب المقدَّس، وأشهر المشاهد هي مشاهد التسعة والسبعين إماماً[1] أي خَبراً، في مشهد المشهورين باسم «كازم» (الكاظم) ومنه أخذ اسم الكازمين (الكاظمين) الَّذي أطلق على المشهد الَّذي هما فيه، والقرية الَّتي شيد فيها هذا القبر هي في مدينة الجزيرة (ما بين النهرين[2]) من بغداد، على أربعة أميال من بغداد، ودورهما أجمل من دور بغداد نفسها، وقد سكن محلة كبيرة منها أجانب من الفرس والهنود، ويحيط بها سور من الرهص، والمسافة بين بغداد والمشهد غير قصيرة، ولذلك يوجد دائماً في جانب الجسر الغربي عدَّة مئات من الحُمر والبغال مُسرجة ملجمة يستطيع الإنسان أن يستأجر منها بنقد قليل، فإذا وصل إلى باب مدخل الكاظمين وجد شخصاً يُلزم العناية بمطيته.

إنَّ قبة المشهد وكذلك قبة مشهد كربلاء شيدت مجدداً قبل عدَّة سنين، وطبقت بطابِاق مذهب بنفقات محمَّد خان قاجار إمبراطور البلاد الفارسية، أمَّا الصحن والسور والأبواب والسوق فقد أعيد تشييدها بنفقات النواب الأخير آصف الدولة وزير هندستان، وليس السوق بكبير جداً ولكنَّه لا يشبه سوق في نظافته وترافته، والمشهد وإن كان أقل فخامة من مشهد كربلاء، جميل وواسع والقبة الَّتي تضينه ملبسة أوراقاً من الذهب، وسمكها يجعلها مرئية من مسافة خمسة فراسخ، وداخل المشهد مرصع بالآجر الملوَّن، فلذلك يحدث تأثيراً جميلاً في النظر، وهذا النوع من الزينة البنائية مخترع في هذه البلاد ولم يدخل بعد في أوروبا ولا في الهند، وأنا أراه أفضل من كل ضرب من التزويق بالأصباغ وبالتذهيب، وهذا الآجر يمثل أوراداً وأشياء أخرى، وعليه كتابات بحروف جميلة كل الجمال، وأوجز القول بأنَّها تقوم بكل ما يستطيع قلم المزوِّق من رسوم خيالية، وأقسام المشهد المختلفة قد جُمعت جمعاً فنياً بحيث تمثل كلها، كما يظهر، كلاً واحداً، لا يقربه إتلاف الزمان. وفي صحن المدخل قبة مشتملة على رَمم وابنين من أبناء الأئمَّة، وقد جرت العادة بالصلاة

---

(1) الظاهر أنَّ في ترجمة الأصل وهماً فهذا التعداد غير وارد في المذهب، فموسى الكاظم عليه السلام هو الإمام السابع وحفيده الجواد هو التاسع. (المترجم).

(2) وهذا خلط جديد من أبي طالب إن صدق المترجمون ولم يزيدوا من أنفسهم هذا الإيضاح القبيح. (المترجم).

عند قبورهما. وحراسة المشهد موكولة إلى ناظر وعدّة خدّام، ومع أنَّ هذا الموضع غير بعيد من بغداد فالأتراك المتعصبون يكثرون سبّه[1]، والمتدينون من الشيعة يستطيعون الصلاة فيه بحسب مذهبهم، وقديماً كانت جمهرة من هؤلاء الشيعة مقيمة بجوار هذه المشاهد وسامراء والنجف وكربلاء يصيبها سب[1]، من أهل السنّة ولكنهم لا يجسرون اليوم على الانتهاء إلى هذا الشطط بسبب مجاورة البلاد الفارسية لبلادهم[2] فإنَّ إمبراطور الفرس لا يفوته أن ينتقم للأشخاص الّذين يذهبون مذهبه في الدِّين، عندما تصيبهم شتائم هؤلاء. وسبب آخر أكبر هو أنَّ العدد الكبير للزوار الّذين يجتذبهم النسك والتقوى إلى هذه المواضع يصرفون كثيراً من المال فيها فيزيدون زيادة كبيرة واردات الحكومة. إنَّ أمراء هندستان، وملوك البلاد الفارسية جرت عادتهم بأن يبعثوا إلى هذه المواضع بهدايا عظيمة، ويستنتج من هذا أنّنا مدينون قبل شيء هذا التسامح وهذا التجمل اللذين نتمتع بهما لبخل الأتراك. والأتراك لتجافيهم عن احترام هذه المواضع المقدَّسة يسلبون ما عند فقراء الزوار ويحدثون لهم تنكيداً مستمراً، فقبل سنوات ـ مثلاً ـ كان مَعبر في قسم ضيق من دجلة، وقبالة قرية جليلة، فرأى سكان القرية من المناسب لأحوالهم أن يشكوا إلى باشا بغداد المحاذير الّتي تجري عليهم من الزحام المفرط للزوار الّذين يسلكون هذا المعبر، وطلبُوا إليه أن ترسو سفن التعبير في موضع غير ذلك الّذي كان ترسو فيه. فتقبل الباشا وقد أعماه تعصبه عن شكاواهم الجائرة قبولاً حسناً، وأجبر الملاحين على الوناء في موضع أعرض ما يكون النهر فيه، وبالقرب من موضع لا يستطيع السياح أن ينالُوا أقلَّ ترفيه فيه، في مساحة مقدارها ثمانية أميال، وكانت نتيجة هذا الأمر أنَّ السفن لم تستطع بعد ذلك عبور النهر إلّا مرّة واحدة

---

(1) هذا من أوهام أبي طالب فجميع أهل السنة الصحيحة، الصحيحي الإسلام والإيمان يحترمون أهل البيت ﷺ ومنهم الإمامان المذكوران وإقامة السلطان سليم الثاني المنارة في المشهد الكاظمي دليل على أنَّ الأتراك ولا سيّما ذوي النسب التركي الصحيح لا المستتركين هم على تلك الشاكلة من حب أهل البيت ألا ترى من أسمائهم «الجواد» و«موسى» و«الكاظم». (م).

(2) ويُقال له: متى تحولت البلاد الفارسية إلى موضعها الجديد بحسب دعواه، حتّى يصح قوله؟ (المترجم).

في اليوم وأنَّ الزوار كانوا يضطرون إلى الانتظار على ضفة النهر عدَّة ساعات وأحياناً عدَّة نُهُر كاملة. إنَّ تقوى الشيعة بعثتهم على أن يشيدوا خانات قوافل في هذا الطريق، للعناية بأحوال الزوار، ولكن الأتراك توصلوا بسبب تنكيدهم إلى أن يطردوا جميع التجار المقيمين فيها بتجاراتهم، بحيث أصبحت الفائدة من هذه الخانات محدودة جداً[1].

ولم أجد مشهداً من هذه المشاهد الّتي ذكرتها مُضاءة بطريقة ملائمة مقبولة باللَّيل، ولا يمكن أن ينسب هذا الإهمال إلّا إلى الأتراك لسوء طواياهم ومقاصدهم أو تهاون الحراس وتغافلهم، وأنَّ مشهد الكاظمين ومشهد النجف ومشهد كربلاء ليس فيها باللَّيل من الضوء إلّا وميض من مصابيح قليلة، وفي سامراء تسد أبواب المشهد عند غروب الشَّمس، وبذلك يمنع الأتقياء من الذهاب إليه للصلاة فيه في الساعات الّتي تجب فيها، وقد أبكاني هذا الأمر، ولقد رأيتُ، وفيَّ من الألم ما فيَّ، قبر أحد أئمّتنا وقوادنا الروحانيين لا يضيئه إلّا مثل نصف الضياء الّذي يعم دائماً مشاهد أولياء مزعومي الولاية في هندستان، مثل مسعود غازي في گوروك بور وشاه مدار[2] في كانوج. وبالقرب من الكاظمين قبر أبي حنيفة المشهور بلقب الإمام الأعظم[3] أي الحبر الأعظم، وقبته مغشاة بالكاشي المزوق وليس فيها تذهيب البتة، ومشهد عبد القادر الجيلاني أحد أشاهر الصوفيين في وسط بغداد، وقد وُقفت عليه عدَّة أملاك جليلة تنفق وارداتها في إعاشة الناظر[4] في شؤونه إعاشة مُرغدة، وإيصاله إلى أن يكون له عدد كبير من الخدم يؤدّي إليهم أجورهم، وقد وجدت فيه زهاء ألفي زائر وطالب أكثرهم جاؤوا من البلاد الهندية، وأقامُوا داخل سور المشهد، ورُتب لهم لكل يوم

(1) ممَّن آذى الزوار والإيرانيين في هذا الأمر الوزير عمر باشا والي بغداد «العراق بين احتلالين 6: 52، 56 للأستاذ عباس العزاوي».

(2) لعلَّه لكنته من «مضر». (المترجم).

(3) سمَّاه «بامان آزم» على اللكنة الشائعة عن الأعاجم. (المترجم).

(4) لم يذكر أبو طالب اسمه ولا ذكره أحد ممَّن أرخ هذه الحقبة من المؤرخين العراقيين المعاصرين لنا، وهو «السيِّد رمضان النقيب» متولي أوقاف جده الشيخ عبد القادر الكيلاني «هكذا ذكره الشيخ ياسين العمري في كتابه «غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر ص75».

راتب[1]، من نفقات مؤسسة الدينية، والناظر وهو يلقب بشيخ المشايخ أي رئيس الأحبار علم بوصولي فدعاني أن أشرب القهوة معه، وقبلتُ دعوته ولم أجد فيه إلّا رجلاً قليل المعرفة فأسرعت ختم الزيارة. وفي وسط بغداد أيضاً قبر الشيخ شهاب الدِّين السهروردي[2] وحوله بستان جميل ومسجد وعدَّة أبنية تابعة له.

وفي خارج سور بغداد عدَّة ترب جميلة فيها رمم أشخاص مشهورين، وأشهرها تربة الشيخ «آهي قوزات[3]» وتربة زبيدة[4] زوج الخليفة هارون الرشيد ويرى خارج بغداد غير ذلك صومعة النصارى المشهورة جداً بكشف أعجوبي عن عين ماء، شيد عليها الخليفة علي فوارة[5].

أبو طالب في سامراء

وبعد أن زرت المواضع المقدَّسة ببغداد وما حولها كما ذكرت عزمت على زيارة قبور سامراء وقبور كربلاء والنجف، ولذلك اكتريت خيلاً، وفي نحو اليوم الخامس عشر من شوال[6] الموافق اليوم الحادي عشر من شباط سنة 1803م عبرنا دجلة وصعدنا في الطريق الَّذي كنت سرت فيه في الأيَّام الثلاثة الأخيرة من سفرة القسطنطينية فبغداد[7]، ووصلت إلى سامراء في اليوم

(1) أصل الراتب في التاريخ الإسلامي لمواد الطعام وعدتها. (المترجم).

(2) كتبه «شهروردي» فأصلحته. (المترجم).

(3) لم أقف على حقيقة اسمه ولا على تاريخه. (المترجم).

(4) كتبها «زبيندة» فأصلحت الاسم. (المترجم).

(5) لعلَّه يشير إلى حكاية عامية خاصة بمشهد العتيقة العباسي العصر أي مشهد المنطقة المعروف في عصر بني العباس أيضاً وما بعدهم بهذا الاسم كما ذكر ابن عبد الحق في كتابه «مراصد الاطلاع» في مادة «سونايا» منه، وهو المُسمَّى غلطاً في العصر الأخير بجامع براثا مع أنَّ جامع براثا كان في غربه على مسافة غير قليلة وقد زالت آثاره منذ عدَّة قرون، وجامع المنطقة قائم اليوم بين الكاظمية وبغداد وهو إلى بغداد أقرب. (المترجم).

(6) في التوفيقات الإلهامية أنَّ أوَّل شوال من سنة 1218هـ يوافق 14 كانون الثاني 1804م.

(7) الصحيح أنَّ السفر من بغداد إلى سامراء يستغرق يوماً واحداً في الجانب الشرقي من دجلة للمسرع السير فأبو طالب قد زاد فضلاً عن أنَّ الطريقين يختلفان من خان يعرف بخان النهروان في أوَّل صحراء طفر المعروفة اليوم بالفرفة وسيبين من كلام أبي طالب أنَّه سلك الجانب الغربي وهذا جد عجيب وغريب. (المترجم).

الخامس قبل غروب الشمس، ولو كنت استعلمت في هذا الأمر في قره تبة لأغناني ذلك عن المتاعب غير المفيدة فسامراء على مسافة أربعة وعشرين ميلاً من قره تبة[1]، وكنت أستطيع أن أمرَّ بها بسهولة في ذهابي إلى بغداد ولكن ثواب هذه السفرة يجب أن يُقاس بمدى المشقة فيها وأنا لم أشرع فيها إلّا ابتغاء تقديم احترام وتعظيم وتكريم إلى هذا المكان المقدَّس، ومن خروجي من بغداد إلى رجوعي إليها كان المطر مستمر النزول. ومن زيادة البلية عليَّ أنَّ دليل باشا بغداد الَّذي أرسله معي ليدلني كان سنياً متعصباً. فكان يهوى تنكيد الشيعة وإعناتهم في كل موضع نمر فيه، فكان هؤلاء الناعسون يهربون عند اقترابنا منهم، ويوسعونني لعناً، وقد بتنا اللَّيلة الأولى تحت خيمة لرئيس عربي من قبيلة بني تميم كانت قريبة بعض القرب من تل يُسمَّى «سور نمرود[2]» الَّذي قيل إنَّ هذا الملك حاول بجنون أن يرقى منه إلى السَّماء. ومنذ اللَّيلة الثانية دخلنا بلدة دجيل في حدود الأرض المقدَّسة، وقد مكثنا عند متسلم أي مدَّعي الإسلام[3]، ومعنى ذلك على مذهب أهل السنة[4]. وفي اليوم الثالث ذهبتُ في أثناء سلوكي الطريق، أقدِّم احترامي إلى قبر إبراهيم (بن) مالك الأشتر قائد مشهور من نسل صهر محمَّد[5] وقبر محمَّد بن الإمام علي الهادي الَّذي يحترمه النَّاس حتَّى أنَّهم لا يقسمون إلَّا باسمه، وكنَّا إذن جدَّ متأخرين حين وصلنا إلى ضفة دجلة، وفي هذا الحين يكون النهر عميقاً دائماً وسريع الجرية، وكان يجب علينا عبوره ولذلك ركبنا سفينة مخرَّفة يظهر على ملاحيها أنَّهم يجهلون صنعتهم كل الجهل، فالمطر، هاطلاً والريح عاصفة بشدَّة في نحو معاكس لوجهتنا، أذهبا جميع مجهودنا سدى، وبعد أن تعبنا ساعة اضطررنا إلى أن

---

(1) هذا من الأوهام فلعلَّ الَّذي أعلم أبا طالب ذلك أراد أنَّها على تلك المسافة من مفترق الطريقين أو ملتقاهما عند خان النهروان. (المترجم).

(2) الظاهر أنَّه «عقرقوف» المشهور. (المترجم).

(3) سبق أن أشرنا إلى وهم أبي طالب في تفسير المتسلم فيما مضى من رحلته وذكرنا أنَّ المتسلم لفظ عربي استعاره الأتراك العثمانيون لمن يتسلم الحكم في البلد أو المدينة قبل وصول حاكمهما. (المترجم).

(4) وهذا من تعصب أبي طالب الأعمى مع أنَّه يلوم المتعصبين في رحلته:
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم (م).

(5) وهذا ومن أوهام أبي طالب أيضاً. (المترجم).

نعود إلى ضفة النهر، واضطررنا أيضاً أن نرجع أدراجنا إلى مسافة ثلاثين ميلاً والارتفاع إلى قرية بلد، ولم نستطع أن نحصل فيها إلّا على سرر نوم رديئة مع مقاساتنا عُسراً شديداً في البحث. وفي اليوم الرابع عدنا إلى ضفة النهر ومن هناك عبرنا بعد أن خاطرنا بأنفسنا، ونزلنا إلى الضفة الأخرى قبيل غروب الشّمس، وبتنا تحت خيمة شيخ أعرابي من سكان الصحراء، وقد ظهر أنَّ هذا الشيخ مُراءٍ ومراوغ كبير، فلأنّه كان متوعك المزاج بنزلة صدرية حادة استعجلني في إنقاذه منها، وقد بعثه باعث الانتفاع بما عندي من علم بالطبّ على الإلحاح عليَّ في أن أمكث بعض الوقت عنده أمرِّضه، فلما أبيت، سوّلت له نفسه أن يخفي بغلي وفرس دليلي في أثناء اللّيل ويؤكد لي أنّهما هربا من مرابطهما وبهذه الخدعة يأمل أن يُبقيني عنده ما دام محتاجاً إليَّ مع إرادته أن يعتصر منّي مكافأةً مالية على رجعِهِ الحيوانين، فأحنقني بهذه السيرة، واعتزمت أن أقول له إنَّ مركز الألم في محجر عينه، ولا أستطيع علاجه إلّا بأحداث شق عميق فيه ولا يمكنني ذلك فلا آلة له عندي، فأقنعته بتقريري. وبالظهر أعاد إليَّ الفرس والبغل، وعاودنا مسيرنا بلا تلبث، وسرعان ما بلغنا نهروان[1]: قرية شهيرة بظفر الخليفة عليّ بأعدائه الخوارج[2]. فعبرنا أودية وأرضاً متحدرة حتّى نحو الساعة الثالثة من بعد الظهر على التقريب وإذ ذاك رأينا خان قوافل متهدماً، وهو قائم على تلّ ويعرف باسم سراي المزراقجي[3] وهذه المنزلة الثانية الّتي ينزل فيها الزوار للاستعداد للزيارة بحسب العادة، ولما كنّا على

---

(1) أراد أبو طالب «القاطول الكسروي» الّذي احتفره كسرى أنوشروان كما ذكرت ياقوت الحموي في «القاطول» من معجم البلدان، وقد سماه النّاس «نهروان» أو «النهروان» على لغة أخرى من باب الأعمام لأنّه كان بعد أن يصب فضل مائه في وادي العظيم يظهر للرائي كالخارج من العظيم إلى قاطول القناية بين العظيم وديالى من جهة بعقوبا، ويظهر للناظر هناك كالخارج من ديالى إلى نهروان الأصلي فوق ما يعرف بكاسل بوست ويمتد إلى آخر لواء الكوت وينتهي عند أرضه الجنوبية، قال الطرماح «طال في شط نهروان اغتماضي». (المترجم).

(2) كانت وقعة الخوارج على النهروان الأصلي تحت كاسل بوست. (م).

(3) هذه الخانات معروفة بخانات المزراقجي أحد أعيان التجار الكبار من الشيعة ببغداد وقد صحفه أبو طالب لغلبة «الميرزا» على ذهنه وكتبه «مرزاكوجي» وسيذكره في سفره إلى كربلاء بصورة «مرزاكيجي». (م).

أربعة فراسخ من سامراء زرنا مشاهد الإمامين العاشر والحادي عشر[1]، وقد خلبني جمالهما.

وإلى يمين سامراء يقوم تلّ يسميه سكان ذلك الصقع «تل المخالي[2]» و«تل» بالعربية يعني تلعة و«المخالي» تعني نوعاً صغيراً من الأكياس يسع أربع ليفرات[3] أو خمساً من الحبوب تشبه الّتي تستعمل في لندن لمؤنة الأفواه الخاصّة بخيل الكراء، ويحكى في هذه القرية حكاية جد خاصّة هي أنّ المعتصم أحد خلفاء بني العباس أراد أن يظهر للحسن[4] العسكري الإمام الحادي عشر صورة واضحة كل الوضوح لسلطانه، فاستعرض جيشه في هذا السهل، فلما انتهى الاستعراض أمر كل فارس من الفرسان أن يملأ مخلاته تراباً ويفرغها في هذا الموضع ففعلُوا، فكان هذا التل من كثرة مخاليهم لكثرة عددهم في وقت قليل، ولما رأى الإمام هذه الأعجوبة قال للمعتصم: لو تأذن لي في أن أريك جيشي. فأذن له، فأشار إذ ذاك إلى موضع معين وفيه رأى الخليفة في الهواء جيشاً كثيفاً من الرّجال والخيل يتقدّم نحوه كأنّه يهجم عليه، والجنود مُدّرعون وللخيل منظر رهيب، فجمّد هذا المشهد عيني الخليفة من الرهب ورجا من الإمام أن يعفو عنه زهوه وتهوّره، فعفاهما عنه بكثير من اللطف، ومنذ ذلك الحادث سمي الحسن بالعسكري ومعنى ذلك «رئيس العسكر[5]». وبالليل دخلنا سامراء وهي تسمي أيضاً «سُرَّ من رأى» أي متعة الناظر، وهي على مسافة ثمانين ميلاً من

---

(1) هكذا وردت الترجمة الفرنسية وهو كلام غير مستقيم فكيف يزور الدفين في سامراء وهو على أربعة فراسخ منه؟! (المترجم).

(2) ذكر ظهير الدّين ابن الكازروني في مختصر التاريخ وعبد الرّحمٰن الأربلي في خلاصة الذهب المسبوك أنّ من آثار المعتصم بسامراء «تل المخالي» وحكايته مشهورة لما جيش الجيوش الى حصار عمورية. (المترجم).

(3) ذكرنا سالفاً أنّ الليفرة خمسمائة غرام.

(4) في الترجمة الفرنسية «حسين»، والحكاية عامية والحسن العسكري لم يدرك ظلامة المعتصم. (المترجم).

(5) الصحيح أنّ لقب العسكري من «العسكر» وهو أحد أسماء سامراء، وهو أخف من سامراء وأقدم نسبة إلى سامراء أي سامري ظهرت في عصر المتنبي في النصف الأوّل من القرن الرابع للهجرة، وإنّما كانوا يسمون المقيم بسامراء قبل ذلك «العسكري». (المترجم).

بغداد، وقيل إنَّ هاتين المدينتين بغداد وسامراء كانتا في أيَّام عزَّة الخلفاء جد متقاربتين بحيث يستطيع ديك من الديكة أن يجوس خلالهما كلتيهما قافزاً من دار إلى دار بسهولة، ويُرى على الطريق بقايا مَبانٍ وعمارات. وسامراء قائمة على الضفة الغربية من دجلة[1] فإذا قصد القاصد إليها وجد الطريق يخط خطاً مستقيماً على التقريب، يسير فيه القاصد إن لم يضطره الخوف من قطاع الطريق من العرب إلى أن يدور عدَّة دورات تفادياً من لقائهم. وفي هذه المدينة أيضاً مشهد علي الهادي الإمام العاشر وقد شيَّده أحمد خان الدنبيلي، وهذه القبَّة تفوق قبب كربلاء في السمك والمتانة والقوَّة، وقبَّة الكاظمين أيضاً، ولكن المهندس المعمار لم يكن كمعمار تلك القبب في الرشاقة والأناقة، فليست مذهبَّة، وداخلُ المشهد يحوي صندوقاً من الخشب أي تابوتاً يغطي قبور أربعة أئمَّة هم علي الهادي والحسن العسكري ونرجس خاتون أم المهدي الإمام الثاني عشر وابنة لعلي الهادي الإمام العاشر، وعلى مسافة رمية سهم من المشهد تُرى المغارة الَّتي اختفى فيها الإمام المهدي الَّذي ينتظر عدَّة أتقياء من الشيعة عودته[2]، وهذه المغارة لم تتغير قط، وإنَّما شيِّدت عليها لصيانتها. وباليوم الثاني من وصولي جاءني ليزورني السيِّد خليل ناظر المشهد ومع أنَّه كان سني المذهب فقد أظهر لي كثيراً من الرعاية والحفاوة. وباليوم الَّذي تلا ذلك اليوم وجدت نفسي متعباً من إزعاج جمهور من الشحاذين، ولم أرد أن أشهد السيرة الجبروتية الَّتي يسيرها دليلي في معاملته للشيعة فصمَّمت على اختصار زيارتي، وبعد أن أتممتُ جميع الأواجب[3] الدينية المقرَّرة عدت سالكاً الطريق إلى بغداد، وما كدنا نسير أميالاً قليلة حتَّى ابتدأ المطر بالسقوط واستمر على تبليلنا حتَّى وصولنا إلى بغداد، والعادة أن لا يقضي الزائر في هذه السفرة إلَّا نحواً من ستة أيَّام إلَّا أنَّ الحالة الراعبة للطرق، والمناخ الرديء استبقياني اثني عشر يوماً في السفر.

---

(1) هذا وهم من أبي طالب فإنَّها على الضفة الشرقية. (المترجم).

(2) يظهر لنا أنَّ أبا طالب لم يكن منهم. (المترجم).

(3) الأواجب جمع الواجب. (المترجم).

أبو طالب في كربلاء

وباليوم الرابع من ذي القعدة[1] (سنة 1218هـ) الموافق لليوم الأوّل من مارت سنة 1803م بعد إقامتي ببغداد ثمانية أيّام استأنفت سفري لزيارة مشهد كربلاء ومشهد النجف الأشرف، وفي هذه المرّة لم أعلم الباشا بنيتي وخطتي فاكتريت خفية خيلاً وبغالاً من حُوذيّ، واتفقت معه على أن يرافقني في جميع الطريق، وسافرت بلطف فائق، ولقيت حفاوة من كل من لاقاني في أي موضع كنت من طريقي، وابتهجت بلقيا قاضي كربلاء «ملا عثمان» وكان عائداً إلى كربلاء، وكان رجلاً سنياً ولكنّه كان قد تفقه وتثقف وتعلم علماً جليلاً، وكان بريئاً من أوهام الأحكام ألتي يحكم بها الطغام قبل الاستعلام، وظهر لي أنّه سرّ سروراً عظيماً بلقائي ورجا منّي أن أكون رفيقه في السفر. وفي الطريق من بغداد إلى النجف رأيت بين كل ثمانية أميال خانات مسافرين مبنية بالآجر تشبه حصوناً، ولكنّها يندر أن يقم فيها المسافرن. وفي اليوم الأوّل سرنا أربعين ميلاً وقضينا اللّيل في خان المزراقجي[2]، ثمّ وصلنا إلى كربلاء في نحو الساعة الثالثة من اليوم الثاني، ونزلت في دار السيّد حمزة وكنت عرفت ابن أخيه في مقصود أباد في البنغال وكنت أرجّي أن أراه ثانية بكربلاء ولكنّه تُوفي قبل وصولي إليها بعدّة أشهر، ومع ذلك فقد استقبلني[3] أبواه استقبالاً حسناً، وأعاناني على إتمام مختلف مناسك الزيارة، وتلقاني حاكم كربلاء أمين أغا[4] بكثير من الأدب ودعاني مرتين إلى التغذّي معه، وأعد لي خيلاً لأسافر إلى النجف، ورغب في دفع كرائها، ولما كان ذلك يحرمني ثواب الزيارة لم أقبل قط هذا البذل. ولقيت في كربلاء عمتي «كربلاي بيكوم» وعدّة نساء من توابعها، وكان شقاء أسرتنا قد اضطرهُنَّ إلى اعتزال العالم فجئن يقضين أيّامهُنَّ

---

(1) في التوفيقات الإلهامية أنّ أوّل شوال وافق اليوم 14 من كانون الثاني سنة 1804م وعلى هذا يكون ذو القعدة من سنة 1218هـ ملابساً لسنة 1804م لا سنة 1803م. (المترجم).

(2) المشهور «خان المزراقجي» وقد جعله أبو طالب «مرزاكيجي» فغيرنا قوله لأن كان يتأول فيوهم في الأعلام وقد أشرنا آنفاً إلى تسميته «مرزاكيجي». (المترجم).

(3) تدلّ هذه الكلمة بالفرنسية على الأقرباء أيضاً. (المترجم).

(4) لم يذكره أحد من مؤرخي هذه الحقبة من العراقيين. (المترجم).

الباقية في الأرض المقدَّسة، وإنَّ هذا اللقاء غير المنتظر سرَّني أعظم السُّرور.

إنَّ الوهابيين كانُوا قد سلبُوا منهن ما يملِكن وقد أعَنْتُهُنَّ بجميع ما أستطيعه إذ ذاك من العون المالي. وقد رمَّم ملك بلاد الفرس محمَّد خان القاجاري قبل عدَّة سنين بنفقاته صحن مشهد كربلاء وتربته. والقبَّةُ كلها مغشاة بصفائح من ذهب، وداخلُ المشهد مزوَّق بالتزاويق والتذاهيب، وقد جيء من بلاد الفرس خاصة بأشهر الصاغة والمزوِّقين والمصورين من أجل ذلك. وجسد أمير الشُّهداء الحسين بن علي سبط النبي محمَّد ﷺ مدفون في وسط البنيان في تابوت من الفولاذ مغطى بصفائح ذهب منزلة فيه، وفي صحن المشهد قبور ستين شهيداً استُشهدُوا مع الحسين، وعلى أربعة أميال من المشهد قبرٌ محفور تحت الموضع الَّذي قُتِل فيه الشُّهداء، ومن هذا الموضع يستخرجون «التُربة» المقدَّسة من أرض كربلاء ويبعثون بها إلى جميع أجزاء الدُّنيا[1]. وقد أُريت أيضاً الموضع الَّذي نصَب فيه الإمام زين العابدين خيمته يوم الوقيعة، وقد بنت الأميرة زوج النواب الأخير للكنو آصف الدولة مقاماً رائع البنيان، وبدأت هذه الأميرة أيضاً في بعض نواحي كربلاء بإنشاء خان مسافرين، ولكن وفاة النواب اضطرتها إلى العدول عن ذلك. وقد اعتاد الزوار أن يزوروا قبر شهيد من الشُّهداء على مسافة ثمانية أميال من كربلاء ولكني لم أجرؤ على الاقتراب منه خوفاً من أن يعتقلني قُطّاع الطريق الَّذين يطوفون في ذلك الصقع مرتدين أردية الوهابيين. وقد أدير على كربلاء سور من الرهص، وكانت مقاماً لكثير من التجار الأثرياء ولكنَّها بعد أن نهب الوهابيون ما فيها[2]

---

(1) لو قال «الدُّنيا الإسلامية» لقارب الصواب. (المترجم).

(2) قال مصطفى جواد: ذكر محمَّد باقر الخونساري في ترجمة الشيخ «عبد الصمد الهمذاني ثمَّ الحائري الفقيه اللغوي الحكيم المتكلم من كتابه روضات الجنَّات «ص353» أنَّه استشهد على أيدي الوهابيين بكربلاء بعدما احتالوا عليه وأخرجوه من داره، وذلك يوم الأربعاء الثامن عشر (من ذي الحجَّة) من شهور سنة ست عشرة ومائتين وألف الهجرية وهو يوم عيد الغدير، قال الخونساري: «وكان رئيس تلك الفئة الخاسرة الطاغية سعود الملعون الَّذي ملك الحرمين المطهرين وهدم مقابر أئمة البقيع وتصرف في دين الله وكان على مذهب الحنبلي وينكر القياس وأهله بما لا مزيد عليه وكان هذا القتل هو القتل الثاني من أهل تلك البقعة المباركة».

أخذت تفقد كل يوم مكانتها، وأخذ أعيان سكانها أيضاً يتركونها، وهذا النهب وقع قبل سبعة أشهر من بلوغي إيّاه، وذلك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة (1217هـ) الموافق لنيسان سنة 1802م بينما كان معظم أتقياء السكان بكربلاء في زيارة مشهد النجف خرج خمسة وعشرون ألف وهابيّ على خيل وجمال عربية بغتةً من الصحراء ودخلوا المدينة وساعدوهم على ذلك، أشخاص من الغاوين، وكان الوهابيون يصرخون للتأليب والتخريب قائلين: «اقتلُوا الشيعة واقطعُوا رقاب الكفرة». فذبحُوا السكان ونهبُوا ما في منازهم وحاولُوا أن يقلعُوا صفائح الذهب من المشهد وكان مثبّتة جداً فلم يستطيعُوا ذلك، ومع ذلك فلم يتحرجُوا من إخراب المشاهد والعبث بالقبور الأُخرى، ثمّ انصرفُوا من تلقاء أنفسهم في أفول الشّمس[1].

- وقال في ترجمة السيّد علي ابن السيّد محمّد بن أبي المعالي الكبير الطباطبائي الحائري ما يفيد أنّ وفاته بعد سنة هجوم الوهابيين على كربلاء قال: «وكان قتل الوهابية الملعونة (كذا) في السنة السادسة عشرة (والمائتين والألف) كما مر في باب العبادلة وذلك في عيد الغدير منها المتوجه غالب أهل البلد (كربلا) فيه إلى مخصوصة أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ ومن عجيب الاتفاق في تلك الواقعة العظيمة أيضاً بالنسبة إلى سيّدنا صاحب الترجمة ـ عليه الرحمة ـ أنّه لما وقف على قصدهم الهجوم على داره بعزيمة قتله وقتل عياله ونهب أمواله فأرسل بحسب الإمكان أهاليه وأمواله في الخفاء عنهم إلى مواضع مأمونة وبقي هو وحده في الدار مع طفل رضيع في الدار لم يذهبوا به مع أنفسهم ثمّ إنّ أولئك الفجرة الفسقة الملاحين لما فعلوا ما فعلوا وقتلوا ما قتلوا ونهبوا ما نهبوا من المؤمنين والمسلمين، وهدموا أركان الدِّين المبين، وهتكوا حرمة ابن بنت رسول الله الأمين، بحيث ربطوا الدواب الكثيرة القذرة في الصحن المطهّر، وأخذوا جميع ما كان من النفائس في الحرم المنوّر، قلعوا ضريحه الشريف وكسروا صندوقه المنيف، ووضعوا هاون القهوة فوق رأس الحضرة المقدّسة على وجه التخفيف، ودقوها وطبخوها، وشربوها وسقوها كل شقي غريب وفاسق غير عفيف، ولم يتركوا حرمة إلّا هتكوها ولا عصمة إلّا خرموها ولا شقاوة إلّا ختموها ولا عداوة إلّا أتموها خافوا على أنفسهم الخبيثة من سوء عاقبة هذه الأطوار، ومن هجوم رجال الحق عليهم بعد ذلك من الأقطار فاختاروا الفرار، على الفرار ولم يلبثوا في البلد إلّا بقيّة ذلك النّهار. ويريدون ليطفئوا نور الله بأقوالهم والله متم نوره. . .» (الروضات ص516).

(1) قال الشيخ ياسين العمري في حوادث سنة 1216هـ: «وفيها يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجّة قدم ركب الوهابي في ستة عشر ألف مقاتل على غفلة وأغاروا على مشهد الحسين ـ رضي ـ صباحاً ودخلوا المشهد وقتلوا من وجدوا قيل خمسمائة نفس وقيل خمسة آلاف وقيل أكثر وقيل ـ

وقد اتُهم حاكم كربلاء «عمر أغا» وكان ذا اعتقادات باطلة جداً، بمواطأة الوهابيين ومنابأتهم والميل إلى فسادهم، بدلالة أنّه عند أوّل روع هرب إلى قرية مجاورة لكربلاء من غير أن يقاومهم البتة، فدعي إلى محكمة وحوكم وأصدر سليمان باشا عليه حكماً بإعدامه فأعدم. وقد قتل الوهابيون في الوقت القليل الّذي لبثوه في المدينة خمسة آلاف إنسان، وجرحوا عشرة آلاف آخرين، وقد أخذُوا الذهب والفضة والأشياء الأُخرى الثمينة الّتي وجدوها، وهذا الحادث لا يزال على حداثته، فلا يتكلّم النّاس على غيره، ولا يتحدّثون بما سواه من الحوادث، وحكاية هذه القسوة والوحشية الوهابية أقَفَّت شعر رأسي إقفافاً، ويظهر مع ذلك أنّ سكان كربلاء كانوا سالكين سبيل الجُبن والنذالة اللذين جعلهم إفراطهما يستسلمون للذبح من غير أن يدافعُوا. ولما خرج الوهابيون عن المدينة استفاد العرب المجاورون لكربلاء من الذعر الّذي عمَّ تلك النواحي والبلاد فدخلوا المدينة وانتهبُوا جميع ما تركه الوهابيون، وقتلوا أيضاً عدداً كبيراً من السكان ولبثوا في المدينة نهارين وليلة واحدة.

الوهابيون

وفي أثناء لبثي بكربلاء اجتهدت في الحصول على علم بالقوانين الوهابية والمذهب الوهابي ولكن رجال هذا البلد كانوا جدّ بُلَداء، وجد مستغربين للاستعلام، مستعجبين من الاستفهام بحيث لم أستطع أن أعلم منهم شيئاً في هذا الموضوع، وإنّما علمت أنّ مؤسس هذا المذهب يُسمّى

= ثمانية آلاف حتّى العجوز والرضيع ونهبوا وسلبوا وهدموا قبر الحسين ـ رضي ـ وأخذوا ما فيه من البسط والأموال، قيل مائة ألف كيس وقيل أقل وقيل أكثر، ولم يسلم من المشهد إلّا خان ومحلة كان في الخان نحو خمسين تفنكجي فقتلوا من ركب الوهابي خلقاً كثيراً وسلموا. ثمّ إنّ الركب عند العصر رحلوا ورجعوا على أعقابهم، وبلغ ذلك إلى كهيه باشا علي باشا فتبعهم بالعساكر فهربوا وأوسعوا في البر» «نسخة باريس الورقة 332» وقال في غاية المرام ـ ص 199ـ: «وفي هذه السنة قدم ركب من الوهابي في ثمانمائة بعير على كل بعير اثنين وغاروا على مشهد الحسين ـ رض ـ ثامن عشر ذي الحجّة ـ وقتلوا جميع أهل المشهد وهدموا القبّة ورحلوا من يومهم بالغنائم، وجملة من قتل ثمانية آلاف رجل وامرأة وطفل وغلام وقيل خمسة آلاف، وكرر ذلك في كتابه «غرائب الأثر ص60».

عبد الوهاب[1] أي موزع جميع الهبات وإنّه كان في بعض نواحي الحلّة على ضفتي الفرات، وإنّ إبراهيم من قبيلة بني حرب بنجد قد تبنّاه، وقد فاق وهو في شبابه أترابه بعقله وصحة رأيه وحافظته، وكان مفرط السَّخاء، فكان إذا أعطاه والده بالتبنّي شيئاً من المال وزعه في الحال بين خدّامه، وبعد أن أتمّ دراسته الأولى وتعلّم الفقه تعلماً بغير تبحُّر سافر إلى أصفهان، وهي يومئذٍ عاصمة بلاد الفرس، فدرس هناك سنوات على أمهر الشيوخ ثمّ قصد إلى خراسان فغزنة ومنها سافر إلى العراق وعاد إلى وطنه، ولم يكن بدأ بدعوته ونشر مذهبه إلّا في نحو سنة 1171هـ (1757 ـ 1758م) وكان في أوّل أمره قد انتحل مذهب الإمام المشهور أبي حنيفة ولم يخالفه إلّا في شرح النصّ ثمّ كشف عن نفسه الغطاء ودعا إلى دين جديد كل الجدّة، وعدّ جميع المسلمين متحزبين وكفاراً ووثنيين، واتّهمهم بأشنع من ذلك، قال: لأنّ الوثنيّين ينسون في أيّام المصائب أوثانهم ويتوجهون بصلواتهم إلى الله الإله الحقيقي مع أنّ المسلمين لا يستغيثون إلّا بمحمّد وعليّ بن أبي طالب أو آخرين من أوليائهم، فالنّاس الّذين يذهبون للصلاة عند قبر محمّد وذرّيّته طلباً للشفاعة يصيرون في كل يوم وثنيّين، فليس في الأمم من بلغ به الحمق أن يعبُد الخيال، واليهود والنصارى الّذين عندهم صورة موسى وصورة عيسى لا يعدّونهما إلهين عند التضرُّع إليهما والصلاة لهما وإنّما يريدون شفاعتهما».. وبأمثال هذا الكلام اجتذب جمهوراً من المؤمنين به ثمّ نَهدَ

---

(1) الصحيح أنّ اسمه «محمّد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، وذكر صاحب الأعلام الأستاذ خير الدِّين الزركلي وهو من موظفي دولة الوهابيين أنّه ولد سنة 1115هـ بالعيينة من نجد ونشأ فيها وكان أبوه قاضيها، ورحل مرتين إلى الحجاز فمكث في المدينة وقرأ على علماء فيها ودخل الشام ثمّ البصرة فاجتواها وأهلها وعاد إلى نجد فسكن حريملا وكان أبوه قد نقل إلى قضائها وجهر بدعوته سنة 143[1]هـ ثمّ عاد إلى العيينة وأيده أميرها ثمّ تركه، فقصد الدرعية من نجد أيضاً سنة 1157هـ فتلقاه أميرها محمّد بن سعود بن محمّد بن مقرن بن مرخان العنزي بالإكرام، وتعاهدا على أن يكون ابن سعود حارساً للدِّين وقاصراً للسنة، كما يرها هو نفسه، وأن يستمر على الجهر بدعوته واتسع بذلك ملك ابن سعود، وتُسمّى هو وأصحابه بإخوان من أطاع الله، وسماهم خصومهم بالوهابيين نسبة إليه، كذا قال الزركلي والصواب: نسبة إلى أبيه على عادة العرب في النسبة إلى الأب أو الجد كالعباسيين، والأمويين. وتوفي سنة 1206هـ بالدرعية «الأعلام 7: 9، 137».

إلى هدم القبور. والقبر النبوي وترب الأئمّة والأولياء والأصحاب، وقد حصل بهذا التلصُّص وهذه الغارات على أموال عظيمة، ولم يَمُتْ إلّا وله سلطان عظيم جداً. وخلفه ابنه محمَّد في الأمر، ولكنَّه كان أعمى فلم يخرج قط وتلقب بلقب «الإمام» والحبر الأعظم، وكان رجل اسمه عبد العزيز عوناً له وهو ابن متبنّى لجدّه وكان هذا رجلاً عملاقاً ذا صوت رهيب، ومع بلوغه ثمانين سنة من العمر كانت له قوّة الشبيبة، وقد أكّد أنّه لن يموت حتَّى يدخل جميع العرب في دين الوهابيين، وكان يذهب في كل أسبوع مرتين ليتلقى الأوامر من محمَّد بن عبد الوهاب، ويرسل جيوشاً كثيفة إلى جميع الأنحاء، فأصبحت هذه الجيوش راعية رهيبة حتَّى ليُقال إنَّ جزيرة العرب كلها قد خضعت الآن لها. والوهابيُّون يُجلُّون رؤساءهم إجلالاً حملهم على أنّهم قبل السير إلى القتال يستجيزونهم أجْوزَةً إلى الجنّة، ويعلقونها في أعناقهم، ثمَّ يزحفون إلى العدو بأكبر ثقة واعتماد. ومع سطوتهم وأموالهم الجمَّة الوفيرة الّتي حصلوا عليها تظهر عليهم ساذجيّة الأخلاق المفرطة، فعدَّة تَمرات تكفي في تغذّيهم ورداء واسع من قماش غليظ يكسوهم سنتين أو ثلاثاً، ويكون فوق ذلك فراشاً لهم، وخيلهم نجدية الأصل، ولا يُخرجون منها إلى غير بلادهم أبداً، وينفقون جميع أموالهم المحصَّلة على إعداد جيش يُقدرهم على تنفيذ خُططهم الّتي هي أجرأ الخُطط، وقد استولوا على جميع جزيرة العرب ما عدا مسقط ومكة والمدينة[1]، وقد تفادوا زمناً طويلاً من الهجوم على هاتين المدينتين المقدَّستين احتراماً لبيت الله ولصلتهم الحسنة بشريف مكة، وكان قد انتقل إلى دينهم، ومن أجل ما كانُوا يأخذونه من الحُجّاج من ضريبة. ولكن عبد العزيز أرسل أخيراً بسبب تحريض الأتراك له، جيشاً مع ابنه سعود إلى

---

(1) قال الشيخ ياسين العمري في كتابه غرائب الأثر ـ ص 70ـ في حوادث سنة 1220هـ: «وفيها حاصر المدينة المنوّرة ابن سعود الوهابي شهرين فأطاعوه من شدَّة الجوع فدخلها وهدم القباب الّتي على قبور الصحابة الكرام ولم يدع إلّا قبّة الحجرة النبوية وترك من علمائه اثنين في المدينة يرشدان النّاس إلى الضلال ـ قاتلهم الله أنّى يؤفكون ـ ولما قدم الحاج إلى مكة ونزلوا على المدينة أغلقوا دونهم الباب فحاصرهم أمير الحاج عبد الله باشا أيّاماً ثمّ خرج ضابط الحرم إلى عبد الله باشا واعتذر من بغي الوهابي وشدَّة الجوع».

الأرض المقدَّسة في جيش كثير العدد، فأشعل في جميع البلاد النّار وأغرقها بالدماء، ودخل مكّة وهدم كثيراً من القبور ثمَّ صار إلى جدَّه لمحاصرتها والتجأ الشريف في الحال إلى سفينة كانت راسية في البحر الأحمر، ووافق السكان على دفع مبلغ كبير من المال، وانصرف الوهابيون إلى بلاد عمان والتحق بهم فور وصولهم أخو سلطان مسقط داخلاً في دينهم، واتبعه جميع سكان الأرياف غير متأخرين، وهكذا لم يبق للسلطان إلّا مسقط وما حولها، ولما رأى سعود أنَّها لا تنجو من الوقوع في أيديهم عاجلاً لم تكن له حاجة إلى أن يستولي عليها بسرعة بل تريث وتربَّص.

وقد رهب سكان البصرة وسكان الحلَّة الوهابيِّين وهم يحيون في قلق دائم، أمَّا سكان النجف[1] وكربلاء[1] فقد بعثوا بكل غال وثمين عندهم إلى الكاظمين وهم يدخنون بسُبُلهم بسكون منتظرين أحوالاً أكثر مناسبة لهم ممَّا هم فيه. وإذ كان الوهابيون يُوقعون تدميرهم غالباً على مسافة جدّ قريبة من البصرة فليس بعيداً استيلاؤهم عليها عمَّا قريب، فقد أخضعوا في الزمن الأقرب قبيلة «عتوب» المشهورة بملاحتها البارعة، وهم اليوم قد بدأوا بتأسيس أسطول، فإذا سيطروا على البحر فسيرُون بعيد ذلك في البصرة ويأخذون بعدها بغداد، ولا أشكّ في أنَّهم سيصلون بعد سنوات إلى أبواب القسطنطينية.

إنَّ نهب الوهابيين ما في مكة وما في كربلاء قد أثار سخط سلطان الترك وشاه الفرس وحملهم على التضافر على إبادة هذه القبيلة المتوحشة الَّتي بعثتها جراءتها على الاقتداء بمحمَّد ﷺ فدعت هؤلاء الملوك إلى

---

(1) قال ياسين العمري في حوادث سنة 1223هـ: «وفيها قدم من الوهابي ركب على الجمال أكثر من ألف نفس ونزلوا على مشهد الإمام الحسين ـ رض ـ وأحاطوا بالسور ونصبوا سلالم ليلاً وعزموا على الطلوع على السور فأحس بهم أهل المشهد وقاتلوهم من على السور وقتلوا منهم أثني عشر رجلاً وقيل أكثر وهزموهم بإذن الله عن المشهد وبعثوا يخبرون والي بغداد سليمان باشا فبعث العساكر مع كتخداه فيض الله أغا، ونادى في بغداد النفير النفير إلى قتال عرب الوهابي، فخرج من بغداد كل من له فرس وتبع العسكر فلما تقارب الجمعان هرب عرب الوهابي وتبعوهم حتَّى هزموهم وأبعدوهم عن العراق» وأراح الله الخلق من أهل النفاق» (ص82).

الدخول في دينها، ولم تكتف بالاستيلاء على جزيرة العرب، وهذه نسخة من كتاب وجه به رئيسهم إلى ملك الفرس «الله الحافظ من كيد الشيطان بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من عبد العزيز رئيس المسلمين إلى فتح علي شاه ملك الفرس، منذ وفاة النبي محمَّد تفاقم الشرك والوثنية في أتباعه تفاقماً مُهلعاً ففي النجف وكربلاء يسجد النَّاس ويركعون لقبور من الطين والمرمر، ويتوجهون بدعائهم إلى رمم تلك القبور، إنَّ هذه السيرة لا يرتضيها سيِّدنا علي ولا سيِّدنا الحسين، ولذلك بذلت وسعي واستفرغت طاقتي ومجهودي في تطهير ديننا المقدَّس من هذه الاعتقادات الباطلة، وبلطف الله نفيتُها منذ زمن طويل، من النجف ومن عامَّة جزيرة العرب، ثمَّ إنَّ حراس المشهد، وقد استولى عليهم الطمع والجشع، شجعوا النَّاس على التمادي في تطبيق الاعتقادات الباطلة، وأبوا الاستجابة إلى مواعظي، فأرسلت ـ وقد علمت أنت بذلك ـ جيشاً من المؤمنين لمعاقبتهم كما يستحقون، فإن كان الفرس منهمكين في هذه العقائد الزائغة فليسرعوا توبتهم. فمن يكن مجرماً باتباع الوثنية والقول بالشرك فإنَّه يعاقب بقسوة، والسلام على من يسمعون صوتي ويقبلون دعوتي».

أبو طالب يقصد النجف

وعندما أتممت واجبات زيارتي بكربلاء سافرت إلى النجف على طريق الحلَّة، فوصلت إليها في اليوم بعينه، وفي هذه المدينة الأخيرة الَّتي هي على مسافة ستة عشر فرسخاً رأيت في طريقي قناتين، الأولى تُسمَّى «النهر الحسيني[1]» وكان السلطان مراد أمر بحفرها لإجراء الماء الفراتي إلى كربلا، والثانية تُسمَّى «نهر الهندي[2]» أو الآصفي لأنَّ النواب آصف الدولة أمر بحفرها بنفقاته وهي أعرض من النهر الحسيني، وكان يُراد بها إرواء النجف موضع مشهد عليّ، وهذه القناة بلغت الآن النفقات عليها عشرة

(1) أراد نهر الحسينية الحالي، وأحسب التأنيث آتياً من الموصوف المحذوف أي القناة، ومتأتياً من اللغة التركية. (المترجم).

(2) أراد نهر الهندية الحالي، وأحسب التأنيث فيه آتياً ممَّا ذكرته في التعليق السابق لهذا أو من الإضافة إلى البلدة. (المترجم).

الكاك من الربيات أي 125 ألف لويس من الذهب، ولكنَّ باشا بغداد والناظر في شؤون القناة جعلاها تمر بالكوفة وعدَّة مدن أخرى، بحيث لا تزال بعيدة عن الوصول إلى موضعها المقصود، بدلاً من أن يستحفراها في خط مستقيم، ومع هذا فالأعمال مواصلة دائماً، فإذا انتهت فالقناة تستمد الماء من الفرات وتسير في المجرى العتيق لنهر (النيِ[1]) الَّذي هو جاف الآن، وكان هذا النهر قديماً عريضاً عرض دجلة بالتقريب، ويبلغ جدران النجف ويصب في الفرات بعد أن يدور دورة كبيرة.

وهذا المشروع الجميل الَّذي قام به نواب لكنو الَّذي يُعيِّش في مستمر الأيَّام. جمهرة من الأشقياء الفقراء سبعين حتَّى آخر العصور على اكتساب سعادة السكان، ويُخصب بلادهم الَّتي صهرتها حرارة الشَّمس منذ زمن طويل[2] فإن كانت ترجمات الشعوب وصلوات الصدِّيقين تستطيع إراحة أرواح الموتى فلا حق لأحد فيها أعظم من حق النواب المذكور، وليس سكان العراق بمنكري فضله، ففي كل يوم يدعون له بالسلام، ولا يذكرون اسمه إلَّا مع إعجاب فائق واعتراف رائق.

أبو طالب في الحلة

والحلَّة مدينة عتيقة ومشهورة، وكانت مقام سلاطين[3] من قبيلة بني مَزيد في عصر خلافة بني العبَّاس وهي راكبة الفرات، وهو يقسمها على قسمين، فالباشا وأعيان الموظفين يسكنون القسم الغربي القريب من الصحراء، ولكنَّهم يملكون على ضفتي النهر عدداً كبيراً من البساتين

---

(1) لم أقف على اسم هذا النهر ولا على حقيقته الجغرافية سوى ما ورد في خرافة اشتقاق «النجف» الَّتي حكتها العامَّة وموجزها أنَّ بحر النجف كان يُسمَّى بحر النيِ فلما جف النيِ قالوا «النيِ جف» ثمَّ سقطت الياء في الاستعمال تخفيفاً فصار الاسم «نجفاً» (يراجع موسوعة العتبات المقدَّسة، قسم النجف ج1، ص12 تعليق للأستاذ الأديب المحقق جعفر الخليلي). (المترجم).

(2) ممَّا يؤسف عليه أنَّ المشروع لم ينجح ولم تحقق أماني أبي طالب. (م).

(3) لم يكونوا سلاطين بل أمراء، ولقب صدقة بن منصور منهم وحده بملك العرب كما في الكامل لابن الأثير. (المترجم).

والقصور، وأعظم العمارات فيها مسجد الشَّمس ومنارة عليّ، فالأوّل شيّد على الموضع الَّذي صلَّى فيه عليّ لأنَّ النبي أمر الشَّمس بالوقوف[1]، والأخيرة تقدم خصيصةً جدّ مسترعية للنظر والعبر، فماذا تلفظ الصاعد فيها هذه الكلمات «بشرف عليّ» اهتزَّت، وإذا قال «بشرف عمر[2]» تبقى ساكنة حاق السكون، وليس عندنا أي دليل حقيقي على الأعجوبة الأولى[3]. وقد قضيت اللَّيل بالحلَّة، وفي اليوم الثاني عند تبلج الصبح واصلت رحلتي، وفي ذلك النَّهار زرت قبر ذي الكفل وبئر الإمام المهدي، وموقفه الَّذي هو على مسافة قريبة من سور النجف والقبر[4] قائم في وسط القرية وسكانها كلهم من اليهود، ولا يأتي بعد «القدس» في التقديس عند العرب من هذه الملة إلَّا هذا الموضع[5]، فهم يأتونه في كل سنة للزيارة.

أبو طالب في النجف

النجف منشأة في سهل وأرضها خليط من الصلصال والرمل، وفيها كثير من الأزهار والأشجار، ويمكن كما أحسب موازنتها، لخصبها بأرض الكاب من بون ايسبيرانس[6] بأفريقية، وفي نواحيها أرض مرتفعة، وخصوصاً مجاري أنهار جافة، ويخرج بخار غليظ يمثل من بعيد سماطاً من الماء في الظاهر[7]. وهذا الحادث الحسيّ المألوف جداً في جزيرة العرب

---

(1) هكذا ورد القول ونحن ننقل ما نرى بأمانة وصيانة. (المترجم).

(2) من خرافات العوام الطغام. (المترجم).

(3) يعني أنَّ الأعجوبة الثانية لا تحتاج إلى برهان لأنَّ المنارة ساكنة حاق السكون بطبيعة بنائها وقيامها وثباتها. (المترجم).

(4) أراد قبر ذي الكفل وكانت هذه القرية تُسمّى قديماً «برملاحة» من الأسماء الأرمانية. (المترجم).

(5) لعلَّ في الترجمة الفرنسية وهماً، الصحيح «عند اليهود» لا عند العرب، كما هو متعالم متعارف. (المترجم).

(6) تقدَّم في الرحلة أنَّ بعض العرب المعاصرين لنا سماه «الرجاء الصالح» وأنَّ الصواب «الأمل الحسن». (المترجم).

(7) هو الآل، جاء في مختار الصحاح «والآل أيضاً: الَّذي تراه في أوَّل النَّهار وآخره كأنَّه يرفع الشخوص وليس هو السراب». (المترجم).

وبلاد التتار خدع غالباً الأشقياء من السُّفار الَّذين يبحثون عمَّا يُطفئ عطشهم المضني لهم المحتدم كالنَّار، وقد أحيط بالنجف سورٌ ذو بَدنات في زواياه، ولما تهددها الوهابيون بالهجوم أرسل النواب آصف الدولة مبلغاً عظيماً من المال لفقراء المدينة، فجمعهم حاكمها في الحال، وقال لهم إنَّه بدلاً من أن يوزع فيهم هذا المال، كما جرت العادة فهو يقترح عليهم أن ينفقوه في حفر خندق محكم يحفظهم من جهمات أعدائهم، فوافقوا في الحين، وفي أثناء إقامتي بالنجف كانت الأعمال في ذلك مستمرة بنشاط. وقبر علي صهر النبي ﷺ وأوَّل الأئمَّة وكذلك المثاوي الَّتي تحيط بالصحن وباب المدخل مشيدة بهندسة عمارية أنيقة والقبَّة والأبراج المغشاة بالقرميد المذهب قد أعيد بناؤها على يد أحد المقربين من نادر شاه. وقد غشوا داخل قبَّة المشهد بالقرميد المزوَّق[1] وكذلك جدران المباني المجاورة له، وقبالة المشهد دكة واسعة من المرمر الأبيض، وعليها يستريح الزوار، وأبواب المشهد والقبر نفسه والقبَّة الصغيرة الَّتي تعلق عليه مصنوعة من الفضة الثخينة، وقد بُعث إلى الكاظمين بقسم كبير من الأشياء الثمينة الَّتي تزين هذا المشهد، لحفظها ومع ذلك لا يزال المشهد محتوياً على بُسط فاخرة ومصابيح من الفضة وشمعدانات ذات أثمان غالية. والزوار الصالحون بعد أن يقوموا بواجب زيارة القبر يأوون إلى زاوية من زوايا المشهد ويقرؤون مرثية في الحسين وكلاماً في مناقبه، وكان ابنه زين العابدين، كما قيل، قد جاء برأسه من الشام ودفنه في هذا الموضع، وهذا الاحتفال الديني إذا انتهى يمشي الزوار إلى القبر ويركعون مرتين احتراماً لآدم ونوح فإنَّهما دفنا في هذا الموضع كما يؤكده الحراس.

وخارج القبر في الممشى المؤدِّي إلى الباب كان قد دفن الشاه عبَّاس، وفي الجانب الآخر من البنيان بالقرب من الدكة حيث يصلي النَّاس مسجد صغير فيه قبر محمَّد خان قاجار آخر ملوك الفرس، ويبخر عنده دائماً بعيدان النَدّ والكافور في شمعدانات من الفضة، وعند القبر أفراد أتقياء يقرؤون ليل نهار آيات من القرآن، وكل هذا التكريم لمحمَّد خان (ميتاً) في

(1) أراد الكاشي أي الآجر الكاشي. (المترجم).

موضع موقوف على مجد النبي ﷺ غاية في الخطأ ويدلُّ على جهل ذرّيّته الفاحش. وفي دخولي إلى الضريح عرتني رهبة قدسية، وارتعش جميع أعضائي[1] ومع اعتمادي على أربعة أشخاص إذ ذاك قاسيت مشقة كبيرة في قضاء مناسك الزيارة. وفي تلك الهنيهة وصل أعرابي ذو لحية بيضاء، لم يمر عليها المشط طوال عمرها، وهي مسترسلة حتّى حزامه وعليه قميص غليظ، وعلى خصره قطعة من الجوخ رَعقباه مُستقشران[2] يدلان على أنّه جاء من سفر بعيد، فدخل غير ملتفت إلى أحد، وبدلاً من أن يصلي الصلاة المقررة ديناً صاح «يا أبا الحسين (السلام عليك[3]) ومع ما فعل من سوء الأدب الظاهر كان إيمانه حيّاً قوياً جداً بحيث كانت دموعه تجري على وجنتيه، وقد ظننت بادئ ذي بدء أنّ أبا الحسين أحد أصحابه، وأنّه كان نائماً عند الضريح وأراد إيقاظه، فلما تأملته حاق التأمُّل حسدته على همته في الإيمان، ولم أشك في أنَّ دعاءه أقبل عند الله تعالى من دعائي، وعلى مسافة قليلة من المشهد مقامان كبيران موقوفان على ذكرى زين العابدين بن الحسين وصفوة الصوفة[4] ولكن الأتراك في جيش الموصل الّذين جاؤوا في الزمن الأقرب للمحافظة على النجف من هجمات الوهابيين قد دنسوا هذه المواضع المقدّسة بكل ضرب من الدنس[5].

وحافظ المشهد وهو حاكم النجف يدعى «ملا محمود» وكان رجلاً محترماً لمعرفته وتقواه، وقد أوصلت إليه كتاباً من باشا بغداد فراعاني أعظم مُراعاة، وأعدَّ لي مثوىً قريباً من المشهد وخدَّاماً يخدمونني، وأراد أن

---

(1) انقلب أبو طالب هنا صوفياً. (المترجم).

(2) المستقشر: ما حان له أنّه يقشر. (المترجم).

(3) هذه الزيارة من الشرح الّذي في الرحلة. (المترجم).

(4) لم تتضح لي حقيقة هذه الاسم ولعلّه أراد صفوة الصفوة. (المترجم).

(5) قال الشيخ ياسين العمري في كتابه الدر المكنون في حوادث سنة 1218هـ: «وفيها قبل خروج هذا الوزير المعظم (علي باشا) من بغداد أرسل والي الموصل الوزير محمَّد باشا الجليلي مائتين وخمسين رجلاً من أهل الموصل لمحافظة مشهد الإمام علي ـ رض ـ فساروا إلى بغداد وأرسلهم الوزير المؤيد علي باشا إلى المشهد وأمرهم باليقظة والتحفظ وكذا أرسل إلى جميع عرب البصرة يأمرهم بالتحفظ من غدر الخائن الوهابي» (نسخة باريس، و333، 334).

أؤاكله في جميع أيام مكثي بالنجف، وإذا كان له طباخون هنود وطباخون فرس كانت مائدته تحفل من الأطعمة بما لم يحفل به جميع موائد الترك الآخرين، ومع أنّه من أهل السنة كان يصلي صلاته المكتوبة في المشهد[1]. ومنذ سفري من القسطنطينية أقبلت في الغالب على التأمُّل والتّبين وقد نظمت في أثناء السفر مرثيتين، في تمجيد علي والحسين، وقد استكتبتهما ببغداد في ورق مذهب ثمَّ علقتا بالنجف وكربلاء بالقرب من الإمامين العظيمين، وحفاظ كل من المشهدين استحسنوا شعري ووعدوني بالاحتفاظ به شهادةً على حرارة عقيدتي.

وبعد أن قضيت جميع واجباتي الدينية استعددت للرجوع إلى بغداد، ولما كانت البلاد مسرحاً ومجالاً لغارات الوهابيين رأيت من الضروري سلوك الطريق الّذي جئت فيه، وإن كان غيره أكثر استقامة منه. وقد زرت بين النجف والحلّة مسجد الكوفة وقبّة الجمل المشيدة لذكرى أعجوبة التلّ الّذي انحنى للسلام على الجمل الّذي كان يحمل جثمان عليّ، الّذي لا يزال في موضعه نفسه[2]، وقضيت الليلة الأولى بالحلّة والثانية بكربلاء وبالثالثة وصلت سالماً صحيح البدن إلى بغداد.

رجوع أبي طالب إلى بغداد

قد كنت لما استأذنت محمَّد باشا[3] في السفر تسلمت منه كتاباً إلى حاكم بغداد علي باشا[4] وأوصا في صارحاً أن أزوره حين وصولي إلى بغداد. وقال لي زيادة على ذلك: «إنّك تحمل فرماناً من السلطان يضمن لك احترامه إيّاك عند لقياك، ولكن هذا الكتاب يكسبك صداقته، وبحمايته تستطيع السفر إلى البصرة ثمَّ تجد بسهولة سبيلاً للإبحار إلى بومباي في سفينة من سفن العرب»: فوعدت الباشا بإطاعته في وصيته كل الطاعة،

---

(1) هذا يؤيد لأبي طالب خطأه في اعتداد أهل السنة والأتراك منهم خاصة متجافين عن أهل البيت فشهادته تنقض رأيه الّذي كرره في رحلته غير مرّة (م).

(2) هل أراد أبو طالب أن ينتقل التل من موضعه. (المترجم).

(3) أراد محمَّد باشا الجليلي والي الموصل المقدم ذكره غير مرّة. (المترجم).

(4) هذه المرّة الأولى الّتي يذكر فيها أبو طالب علي باشا. (المترجم).

وغادرت الموصل على هذا التصميم، ولكني فكرت في الطريق في طريقة عيش الأتراك وقذارة دور البواشية، وتذكرت جميل الاستقبال الذي استقبلني به الإنكليز كلّما لقيتُهم فوجدت نفسي جدّ تائق إلى السكنى في دار القنصل البريطاني المستر جونس، وكان اللّيل قد أطل عند وصولي إلى بغداد من النجف وكنت مُتعباً مُضنى ومبلّلاً حتّى العظام، وقد ضحيت بمنافعي الحقيقية من أجل استراحتي الحاضرة وأمرت دليلي أن يؤديني إلى دار المستر جونس. وقد ساء هذا السلوك غير الحكيم علي باشا وغاظه كثيراً، فإنّه كان أعدّ لي ترجماناً هندياً فضلاً عن إعداده لي منزلاً أمكث فيه أيّام كوني ببغداد، وانتظر وصولي بفروغ صبر، وغاظ جميع السادة[1] المسلمين كذلك أن رأوني أفضل الاجتماع مع نصراني على الاجتماع معهم وقد أرسلت بفرمان السلطان إلى الوالي ولكنّه أبى أن يستقبلني عدّة أيّام بحجّة أنّه مشغول بتنظيم جيش موجه لمحاربة الأكراد، ولما حضرت عنده تركني أنتظر ساعتين طويلتين في خيمة قبل أن يأذن لي في مقابلته ثمّ استقبلني بجفاوة بالغة، خالية من المودّة بالتقريب، وقد علمت بعد ذلك أنّ هذا الإعراض ناشئ في بعضه من صلتي بالمستر جونس المذكور آنفاً، وكان قد ساء ما بينه وبين الباشا كل السُوء، ومع ذلك فقد أطاع الباشا أمر السلطان مع تجدد اغتياظه منّي لما فعلت وزودني أجوزة وأعدّ لي أدلاء، وسلم إليّ كتباً يوصي فيها بي حكّام المواضع المقدّسة (المقدم ذكرها).

والأشخاص الّذين أحبُوا رؤيتي وزاروني عند المستر جونس هم «حاجي حسين» وثلاثة تجار من أصفهان لا غير، ولكونهم من المقيمين ببغداد منذ زمن طويل أصبحوا غرباء عن العادات الفارسية ولم يقتبسوا العادات التركية، فأشبهوا في ذلك الزاغ الوارد ذكره في الخرافة. الّذي نسي مشيته الأصلية في إرادته تقليد مشية الدراج، وحاصل الأمر أنّ الاجتماع بهم كان بارداً تافهاً جداً، وقد شعرت بأنّي أنا نفسي المذنب وحدي، ولم أجرؤ أن أفصح عن شكواي، ولقد كنت أستطيع تحمل سخط المسلمين لو كانت دار المستر جونس على الحال الّتي تصورتها لها، ولكن

(1) أراد مطلق معنى «السيِّد لا السيِّد العلوي. (المترجم).

هذا الرجل الفاضل، لم يفكر قط في إلزام قواعد النظافة في داره إمَّا بسبب معيشته زمناً طويلاً بين الأتراك وإمَّا بسبب سجيته المتهاونة بطبيعتها، ففي مرَّات كان يتغدى في الساعة التاسعة[1]، وفي مرَّات بالظهيرة، ولم تكن له ساعة معينة للعشاء، ومائدته سيِّئة المحتوى والأعداد دائماً، وحديثه عليها كان كئيباً سقيماً، فلا تنشطه فطنة ولا سرور، ومظهر الاحتقار أظهره صاحب الدار للضيوف دَلَّ على أنَّه لم يبتهج قط بالاجتماع معهم، بله أنَّه كان ذا سجية فاحشة الغيرة، ولم يرد البتَّة أن يتحمل قبولي أقلّ خدمة من الموظفين الأتراك قائلاً: إنَّه يجب عليه وحده أن يرعى مصالحي، وإذ وضعت نفسي في حمايته، وكان يحسب نفسه ذا مكانة رفيعة جداً لا تليق بأن يتولى شؤوني بنفسه، وَكَلها إلى وكيله وكان لصاً شهيراً، احتال عليَّ احتيالات بشيعة، وأراد أن يفقدني الحياة، فقد جرت العادة أن تكون المسيرة بين بغداد والبصرة في النهر، وخصوصاً في فصل الأمطار حين تكون دجلة ذات جرية شديدة، وكنت عزمت أن أنضم إلى أشخاص محترمين لاكتراء سفينة حسنة التوزيع والتفريع تجعلنا قادرين على السفر براحة وسماحة، ولكني في اليوم الَّذي عُدت فيه من النجف أعلمني وكيل القنصل المستر جونس أنَّ سفينة جيدة من سفن شركة الهند مشحونة بضائع على عزم الإقلاع بعد ساعات إلى البصرة، وأضاف إلى ذلك قوله: إنَّ الفرصة سانحة جداً للسفر بنفقات قليلة، ولأنِّي حسبت أنَّ السفينة على حال جيدة وافقت على ذلك في الحال من غير أن أحتاط لنفسي بأن أراها قبل ركوبها ورجوت من الوكيل أن يأمر بنقل أثقالي وحقائبي إليها ولكن مفاجأتي بها كانت هائلة، حين بلغت ضفة النهر فقد وجدتها عتيقة مسطحة قذرة بغير بساط، وملاحوها ذوو وجوه متوحشة، وتشبه حقيقةً السفن الَّتي تجلب فيها الأخشاب في كلكتا، فنكصتُ اشمئزازاً وكدت أرجع إلى مثواي ولكني فكرت في سيرة المستر جونس والعيش الممل الَّذي أعيشه ببغداد، فقفزت إلى السفينة عازماً على أن أقتحم كل الأخطار، وقد سلخت أربعة وأربعين يوماً ببغداد، ومنها الأيَّام الَّتي قضيتها في الزيارات، وقد كدت

---

(1) عاد أبو طالب إلى ذكر الطعام وقد ذكره في رحلته مراراً والظاهر أنَّه كان نهماً أكولاً. (المترجم).

أنسى أن أقول إنّي بعد وصولي إلى بغداد بقليل جاءني مهمنداري «علي حاجي» يطلب إليّ شهادة السيرة الحسنة له، فلما رفضت كلّف وكيل المستر جونس أن يكلم سيّده في رعاية طلبه، فاستجاب له لضعف نفسه وحضني على عفو تقصير هذا الشقي، ولكني عددت نفسي، لو أعطيته الشهادة، مذنباً في حق السائحين فرفضت الإعطاء وأبيت كل الإباء.

أبو طالب في سوق الشيوخ

فصلت من بغداد في اليوم السادس عشر من ذي القعدة (سنة 1218هـ) الموافق لليوم العاشر[1] من آذار (سنة 1804م) بالمساء وأخذ الملاحون يجذفون[2] ليل نهار، فبلغنا سوق الشيوخ[3] وهي على مائة وخمسين ميلاً بالتقريب وفي منتصف الطريق إلى البصرة، وهذه القرية هي المقام الدائم لقبيلة المنتفك الّتي تسكن الصحراء بين المدينتين سوق الشيوخ والبصرة، ورئيس هذه القبيلة يُسمّى «الشيخ أنفيتلله[4]» وهو عظيم السلطة يستطيع أن يجيش جيشاً عدته بين خمسين ألفاً وأربعين ألفاً، وقد أزعج الحكومة بالبصرة مدة طويلة، ولكنّه يعد اليوم المدافع عن البصرة. وسوق الشيوخ قد أدير حوله سور من الرهص، ولكن أعظم قوّته تستند إلى كونه على ضفة دجلة الّتي يمكن أن تستعمل مياهها لغمر ما حوله من تلك النواحي في حالة الهجوم عليه، ولما استولى الفرس بقيادة كريم خان على البصرة في الزمن الأقرب أرسلُوا جيشاً للاستيلاء على هذا الموضع،

---

(1) في التوفيقات الإلهامية لمحمّد مختار باشا اللواء أنّ أوّل ذي القعدة من سنة 1218هـ يوافق اليوم 12 من شباط سنة 1804م.

(2) المعروف أنّه لا تجذيف في السفن المنحدرة من بغداد إلى الجنوب في دجلة إلّا إذا جنحت السفينة. (المترجم).

(3) هذا القول يدلّ على أنّه سار في دجلة واسط المعروفة اليوم وقبل ذلك بالدجيلة عند جفافها أو تضايقها. (المترجم).

(4) هكذا ورد الاسم مصحفاً محرفاً والمعروف من شيوخهم أيّامئذٍ حمود بن ثامر بن مسعود وأخوه منصور بن ثامر وبرغش بن حمود بن ثامر وعلي بن ثامر ونجم بن عبد الله بن مانع ومحمّد السعدون وكل هذه الأسماء لا تنطبق على الاسم الّذي ذكره أبو طالب ولعلّه لقب مصحف محرف. (المترجم).

فتركهم العرب يقتربون، وباللَّيل كسروا السّدود عليهم فرأى الفرس أنفسهم قد أحاط بهم الماء قبل أن يلحظوا الخَطر، وحينئذٍ زحف الشيخ إليهم فقتل علي مردان خان قائدهم ومعظم جيشهم. وفي أثناء هذه السفرة الّتي سفرتها في دجلة عشت بتقشف شديد، وإذ لم يكن عندي ما أتقي به حرارة الشّمس ولا ما استذري به من المطر أصابتني في الرابع حمى حادة اضطرتني إلى ملازمة سريري مدة شهر على التقريب بعد وصولي إلى البصرة.

القرنة

وباليوم الثاني والعشرين من ذي القعدة دخلنا مدينة القرنة، وعند جدرانها يلتقي الفرات ودجلة ويكوّنان نهراً أعرض من نهر الكانج بضعفين ويُسمَّى شط العرب أي نهر العرب ويصب في الخليج العربي.

معقل «الكوت الفرنجي»

وباليوم الثالث والعشرين الّذي هو اليوم السابع لهذه السفرة المملّة وصلنا إلى معقل ويسميه الأوروبيون «ماركيل» وهو على فرسخين من البصرة، وشركة الهند تملك فيه مكتب تجارة صغيراً يقيم فيه القنصل[1]، والبناية محوَّطة بسور من الرهص، وتُسمّى «الكوت الفرنجي» أي الحصن الأوروبي، فكوت تعني باللغة العربية حصناً صغيراً. ومنظر هذه البلدة راعني بجماله، والشهرة الحسنة الّتي نالها المقيم الإنكليزي جعلتني أحدّث نفسي باستقبال حريّ بأن يُعيد إليَّ قواي البدنيَّة وقواي المعنوية الّتي أثّرت فيها الهموم والأتعاب تأثيراً ظاهراً، ومن سوء حظي أنَّ أشخاصاً حملهم النفع الدنيء كانُوا قد أذاعُوا بخبثٍ أنَّ علامات طاعون ظهرت ببغداد[2]،

(1) سيأتي في كلامه أنَّ اسمه المستر مانستي وأنَّه وكيل شركة الهند بالبصرة ومركزها بلندن. (المترجم).

(2) لم تكن الإذاعة باطلة ولا أكذوبة قال الشيخ ياسين العمري في حوادث سنة 1218هـ من غرائب الأثر: «وفيها عاد الطاعون إلى بغداد وكان قد انقطع في صفر فعاد إليها في ذي الحجّة وابتدأ في قرشي ياخا (الجانب المقابل وهو الغربي) ثمّ في بغداد في ذي الحجّة فكان يموت في اليوم مائة وخمسون وأكثر» (ص64) وقال في سفر الوالي علي باشا إلى الشمال وعوده إلى بغداد: ⌐

فداخل الخوف المستر مانستي حالما علم بوصولي، فتقدم إلى ضفة النهر وحثّني بالإشارات على أن أبلغ البصرة فقد أعدّ لي فيها منزلاً، ولما علمت بمذيعي هذه الأكذوبة أضمرت لهم كل الاحتقار الّذي يستحقونه ولكنني صرت إلى البصرة إشباعاً لرغبة المستر مانستي وفيها وجدت مثوى معداً لي في دار «أغا محمّد عبد النبي» وهو صديق حميم للمستر مانستي، وكان ملك الفرس قبل مُديدة استقدمه إلى بلاطه ليسند إليه وظيفة سفير لدى حاكم الهند العام، بدلاً من «حاجي خليل خان» الّذي قتله حراسه في بومباي وحمل جثمانه إلى النجف بنفقة شركة الهند ليدفن باحتفال فخم في المشهد المقدَّس.

أبو طالب بالبصرة

ويسكن البصرة كثير من الفرس المتميزين الّذين اضطروا إلى ترك بلادهم مثلي بسبب الثورات الّتي مزّقت هذه الإمبراطورية زمناً طويلاً، وقد جاءني عدّة رجال منهم وكنت أرى في الاجتماع معهم معرفةً ولطفاً وهذا ما عوّضني من السآمة الناشئة من عيشي مع أهل البصرة فإنّهم همج بخلاء[1]، ولكنّهم أوفياء وذوو اعتماد وثقة في صلاتهم التجارية[2]، وهؤلاء الممتلئة أذهانهم من الأحكام المبتسرة والأخطاء لا يشكون في وجود الإكسير[3]. والبصرة مدينة أعظم بكثير من بغداد وهي مركز اجتماع التجار لجميع أصقاع الشرق، وسورها وخندقها العميق المملوء من ماء دجلة[4] يصونانها

* «ثمّ رحل إلى بغداد أوّل صفر يوم السبت وكان الطاعون الشديد في بغداد، وكان يموت فيه كل يوم نحو أربعمائة نفس من الجانبين فتثاقل علي باشا لذلك في الطريق حتّى بلغه أنّ الطاعون انقطع آخر صفر» (67).

(1) قلت: المشهور من الصفات عنهم هو بالضد ممّا قاله أبو طالب كسماحة الأخلاق وطيب الأعراق والسخاء الدائم. (المترجم).

(2) قلت: وليس من الممكن أن يكون للرعاع مثل هذه الصفات، فلعلّ في أصل الترجمة وهماً جعل الجهلاء رعاعاً. (المترجم).

(3) كان هذا عاماً في الأمم حتّى السنين الأخيرة من عصرنا فلا يعد عيباً فيهم. (المترجم).

(4) الصحيح ماء شط العرب. (المترجم).

من كل اعتداء، وفي داخل السور بساتين واسعة وكروم ونخيل وتسقى كلها بنهر يتصل بدجلة، وعامّة الدور مبنية بالرهص بشكل مخالف للمعتاد جداً فهي تشبه الأكواخ، ولما كان المناخ شديد الحرارة والمدينة تحيط بها بطائح صار الهواء وبيلاً، وبالأشهر الأربعة من الفصل الماطر يفيض النهر ويغمر المزارع والحقول، وحينئذٍ يفتح العرب مجاري عميقة لإرواء الصحراء ولكن دجلة[1] في جزرها تترك في باطن المجاري مياهاً مستطيلة راكدة يُحدث تصاعُد أبخرتها الطاعون أو أمراضاً ليست أقلّ منه إضراراً، والعرب يسمون هذا الفصل «ماء الموج» أي فيضان الماء. وسكان البصرة قلِقون دائماً من العرب الجوّالين الرحالين وقد التزمُوا أن يؤدُّوا نصف غلات أرضهم إلى قبيلة «المنتفك[2]» الّتي وعدت أن تدافع عنهم أعداءهم، ومع هذا الاتفاق يهجم العرب غالباً على المدينة باللّيل وينهبون جميع ما تقع عليه أيديهم. وقد شيد «عبد الله أغا» حاكم المدينة في الزمن الأقرب سوراً عليها من جهة الصحراء، طويلاً يمتد ستة عشر فرسخاً، ويحفظ أبوابه حراس متيقظون، وهذا الرجل لم يهمل قط شيئاً لسعادة النّاس وعرف كيفية استحقاقه لتعلّقهم به ومودّتهم إيّاه.

إنَّ قبر طلحة وقبر الزبير الصاحبين من أصحاب النبي ﷺ على ثمانية أميال من البصرة، ولم أجرؤ على زيارتهما، لأنَّ كثيراً من الوهابيين والعرب يطوفون حول البلدة. وبعد اثني عشر يوماً علم القنصل البريطاني أنّي لم يُصبني وباء ولا طاعون مجْدني بأن دعاني إلى داره، وإنّما نلت هذه الرعاية بكتاب من اللورد وأوامر من مجلس المديرين[3] توجب على المستر مانستي أن يقوم لي بجميع أشغالي الّتي تتعلق به، ولكن سيرته أحنقتني فرجوت منه أن يحصل لي على موضع في أوّل سفينة تبحر إلى بومباي حَسبُ ولكنّه لم يفعل حتّى هذا الجميل، فهذا الرجل الفاضل الّذي يمثل شركة الهند بالبصرة يُعَدّ عند سكانها رجلاً ذا مكانة عالية، ومنهم من يُفرط في تملقه، فهو جدُّ مفترّ مزهو بحيث صَدمه تصريحي، وأراد غمي وإهانتي،

(1) قلنا: إنَّ النهر شط العرب لا دجلة وحدها. (المترجم).

(2) تقدّم ذكرها في الرحلة. (المترجم).

(3) أراد أبو طالب «مديري شركة الهند» في إنكلترا.

فمن وظائف القنصل أن يرسل بالرزم والرسائل الموجه بها إلى الهند وهذه الخدمة كثيرة الربح جداً، ففي سنوات معدودات استعمل لهذا العمل التجار العرب من قبيلة عتوب أو أوّل سفينة إنكليزية راسية بالبصرة، ولكنَّه حسب أنّه يكون أربح له أن يكون تحت أمره سفن صغار، يستطيع أن يشحنها، مع الرسائل، ببضاعات تكسبه ربحاً عظيماً، فحصل على ست سفن أو ثمان من ذلك النوع بجميع شؤون التجار بالبصرة، وإشتياموها[1] من خدمه الخاصين به، فلذلك كانوا يطيعونه في أوامره طاعة عمياء. وبعد عدَّة أيّام من وصولي أعلمني المستر مانستي أنَّ سفينة على عزم أن تبحر إلى بومباي وأنَّه يجب عليَّ أنا نفسي أن أدبر أمري مع الاشتيام لأنَّ ذلك لا يختص به البتة، فتوجهت إلى ذلك الرجل إذن فطلب منِّي خمسمائة ربية أجرة حملي في سفينته، وبان لي المبلغ فاحشاً، وسكان البصرة يدفعون أقل منه بكثير عند سفرهم، فأدركت أنَّ احتيالاً يوقع عليَّ، فشكوت ذلك إلى القنصل فقال لي إنّه لا يستطيع أن يتدخل في هذا الشأن أبداً، فرجعت إلى الاشتيام في اليوم الثاني وقدمت إليه ثلاثمائة ربية، فقبل ذلك قائلاً لي: ينبغي أن أطلع السفينة من غير إبطاء لأنَّ الريح طيبة وملائمة للإبحار ولأنَّه ينبغي له الإقلاع، فأعلمته أنَّ أثقالي وحقائبي بالبصرة ولذلك أحتاج إلى ساعة أو ساعتين لنقلها إلى السفينة، ولكنَّه أبى أن ينتظرني محتجاً بأنَّ الريح يمكن أن تتغير في هاتين الساعتين، ويجوز أن يؤخره التغير عشرة أيَّام أخرى بالبصرة، وهكذا فاتتني هذه الفرصة. وبعد أيَّام قليلة بعث المستر مانستي سفينة أُخرى من غير أن يعلمني بها، فلما عاتبته قال: إنَّ هذه السفينة مبحرة إلى البنغال وأنت تود أن ترى عجائب بومباي. ثمَّ أقلعت سفينة ثالثة فوجد حجَّة أيضاً لكيلا يجعل لي فيها موضعاً، فلم أستطع أن أكتم اغتياظي، وقلت له: إنَّه تجافي عن الخلق الإنكليزي[2]، واختار عادات الشرق الخشنة، ونظمت في هجوه قصيدةً، وقرأت عليه أبياتاً منها، فقال لي إنِّي قد أفسدتني لندن وإنَّه

---

(1) الاشتيام هو ربان السفينة كما ذكرت في أوّل الرحلة. (المترجم).

(2) قلت: ومن أدرى أبا طالب أنَّ هذه الخدع ليست من الخلق الإنكليزي، فالإنكليز يراؤون في بلادهم ويكاشفون ويجاهرون في غيرها، وخصوصاً مستعمراتهم، وهذا أمر مشهود من هذا الشعب المتعجرف. (المترجم).

ليس ملياً[1] بإرضائي، وتشاجرنا تشاجراً عليه مسحة من الانبساط تخفف قليلاً من حرافة اللوم والتثريب. وأضيف إلى ذلك أنّي قضيت وقتي بعد ذلك في دار القنصل باستلطاف فائق وعيش رائق، فقد كان حسن الإضافة، وحسُنت اجتماعاتنا بحضور الربان «سبينس» والدكتور «ميلز».

المرأة الأرمنية وقضيتها

وفي أثناء إقامتي بالبصرة أقلقني جداً حادث لم يكن متوقعاً، ذلك أنَّ رُباناً من الربانين اسمه «وايت» كانت له دار ذات أثاث حصن في المدينة، وكانت له فيها خَدينة أرمنية، وجاء ذات يوم عربي فقير فوجد لدى الباب رقعة مكتوباً فيها هذه العبارات «يا سكان البصرة أنا أستغيثكم، فإنّي مسلمة مولودة في مصر وفي أثناء الغزو الفرنسي لها وقعت في يدي نصراني وأنا أمقته مقتاً فأتضرع إليكم أن تنقذوني». فأسرع العربي في نقل الرقعة إلى القاضي وحلف بحضرته أنَّ الرقعة ألقيت إليه من أعلى دار الرُّبان وايت، وأعلن الشهود أنهم في الحقيقة طالما سمعوا هذه المرأة تشكو سوء حظها، فأرسل القاضي موظفاً لدعوة الأرمنية إلى حضور مجلس القضاء، فأبى الرُّبان وايت أن يسلم المرأة وتحصَّن في داره وامتنع، وأخطر القنصل بالحال الّتي صار إليها، وهذا القنصل كانت له كلمة نافذة عند جميع الموظفين الأتراك بمقامه وثروانه، فبعث برسالة إلى حاكم البصرة، يرجو منه أن يؤخر المحاكمة إلى اليوم الثاني واعداً إيَّاه بإطلاق المرأة، إن كانت مسلمة أو أرادت أن تكون مسلمة. فأجابه الحاكم إلى ذلك، وأمر جماعة من الجند أن يفرقوا المتألبين الّذين جمعتهم غرابة الحادث. وكان ربان آخر لسفينة أخرى مشحونة للسفر إلى بومباي يسكن في دار الرُّبان وايت المذكور آنفاً، فذعره هذا الحادث وبعثه على أن يسرع في نقل ماله وأشيائه الثمينة جداً إلى سفينته، وذاع الخبر في الحال بأنَّ المسلمة الشابة متأهبة للهرب. فاجتمعت العامّة واقتحمت دار الرُّبان وأخذت المرأة إلى مجلس القضاء، فسألها القاضي عن الأمر، فأعلنت أنَّ كل هذه الحكاية كذب وهو الغاية في

---

(1) المليء هو القادر المستطيع المتمكن. (المترجم).

التوحش، وأنَّ أهلها نصارى، ولا تريد أن تغير دينها ولا أن تترك سيدها، ولكن الشهود احتجوا بعجرفة بأنهم سمعوها تتلو العقيدة الإسلامية، فدهش القاضي حاق الدَّهش وقال للأرمنية: «إنَّ شهادة هؤلاء المسلمين تثبت أنَّك كنت تدينين بالإسلام، ولكونك أنكرته وارتددت استحققت الإعدام، فإن لم تستبصري وتجحدي هذا الإلحاد خلال ثلاثة أيام فإنِّي سأقضي في أمرك بما يوجبه عليك الشرع». وأرسل بها إلى دار المفتي، وأدخلت في مثوى الحُرم فيه، ولكنَّها استطاعت الهرب باللَّيل والتجأت إلى دار وكلاء التجار الإنكليز، غير أنَّها استَعيدت منها، ودعا بها القاضي في غد ذلك اليوم صباحاً، وأعاد عليها أنَّها إمَّا أن تقتل شرعاً وإمَّا أن تترك النصرانية، وتتزوج رجلاً مسلماً، فوافقت المرأة المسكينة[1] أن تنتقل إلى الإسلام ودفع إليها في الحال ألف قرش صداقاً لها، وفي اليوم التالي لذلك اليوم تزوجت جندياً، فأخذها إلى داره باحتفال الغالبين. وقد أثر هذا الأمر في زهو القنصل تأثيراً سيِّئاً واضحاً فكتب إلى الحاكم قائلاً: «لئن لم يَردَّ إليه المرأة في الحال، وهي نصرانية من غير شك، ليقطعنَّ صلته به وصداقته له، وليندمنَّ الحاكم نفسه يوماً ما على ما فعل». وأمر بإغلاق أبواب دار وكلاء التجار ومنع أن يطأ عتبتها البصريون، فأعرب له الحاكم عن أسفه الشديد، وعزا الأمر إلى العامَّة المليمين[2] وذكر أنَّه كان من المحال عليه أن يضبط الأمر، وأضاف قوله: إنَّ المرأة وافقت أن تتزوج مسلماً وتركت النصرانية ولا يمكن نقض حكم القاضي.

إنَّ كبرياء المستر مانستي وسيرته الجبروتية أحنقتا عليه عدَّة أعيان من أهل البصرة، غير أنَّ ناساً يعتقدون بالإجمال أنَّ كل هذا الأمر لم يكن إلَّا كيداً وتزويراً زوَّره أعداؤه ليذلوه ويُهينوه، وليكن ما يكون فإنَّهم سيندمون عليه. وتركت البصرة وهذا الحادث لم ينته إلى نهاية ولكني علمت أنَّ المستر مانستي رفع القضية إلى باشا بغداد أوَّلاً وإلى القسطنطينية ثانياً فحصل على نقض حكم القاضي مضافاً إلى عزله عن منصب القضاء وأوقع

(1) هذا ما ورد في الترجمة الفرنسية ويجوز أن يكون المترجم أقحم هذه الصفة توجعاً لها، والفرنسيون يكثرون من هذا الإقحام. (المترجم).

(2) المليم: المستحق للملامة. (المترجم).

على الحاكم توبيخ وتأنيب، ونفي لعدَّة من رؤساء المشاغبين، وقد لاقيت في كلكتا الشابة الأرمنية فأكدتْ لي صحة جميع ما سمعته وذكرته آنفاً.

ولو قد شعرتُ عند وصولي إلى البصرة بأنّي سأمكث فيها مدة طويلة لسافرت براً إلى ششتر[1] ومنها إلى شيراز، ومنها أستطيع أن أصير إلى بعض مواني البلاد الفارسية، ومنه أبحر إلى بومباي وأخيراً أبحرت في اليوم التاسع عشر من المحرم سنة 1218هـ الموافق اليوم العاشر من أيار سنة 1803م[2] في سفينة من سفن القنصل تُسمّى «شانون» بعد مكث في البصرة دام خمسة وخمسين يوماً.

أبو طالب يغادر البصرة إلى بومباي

وما كدت أضع قدميَّ في السفينة المذكورة، والريح مؤاتية لها حتَّى أقلعت، وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى مصب النهر، وهو على مسافة تسعين ميلاً من البصرة، ودخلنا في الخليج العربي وهذا الخليج هو إحدى أذرع بحر عمان، وهذا شعبة من بحر الهند، ويمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وطوله قرابة خمسمائة ميل، وعرضه مائة وخمسون ميلاً في مواضع، ولكن عرضه في مدخله ستة وستون ميلاً فقط، والمسافة بين البصرة وبومباي ألف وخمسمائة ميل.

وفي العشرين من المحرم (سنة 1219هـ) كنَّا بإزاء جزيرة خارك[3] ويقدَّر

(1) يعني «تستر» في الجغرافية القديمة. (المترجم).

(2) ذكرنا سالفاً نقلاً من كتاب التوفيقات الإلهامية أنَّ أوَّل شوال من سنة 1218هـ وافق اليوم الرابع عشر من كانون الثاني سنة 1804م فكيف يصح تاريخ أبي طالب؟ لأنَّ أوَّل المحرم من سنة 1219هـ يوافق اليوم الثالث عشر من نيسان سنة 1805م. (المترجم)..

(3) قال ياقوت في معجم البلدان: «خارك بعد الألف راء وآخره كاف جزيرة في وسط البحر الفارسي وهي جبل عال في وسط البحر. إذا خرجت المراكب من عبادان تريد عمان وطابت بها الريح وصلت إليها في يوم وليلة وهي من أعمال فارس يقابلها في البر جنابة، ومهروبان تنظر من هذه لهذه للجيد النظر، فأمَّا جبال البر فإنَّها ظاهرة جداً وقد جئتها غير مرَّة ووجدت أيضاً قبراً يُزار وينذر له، يزعم أهل الجزيرة أنَّه قبر محمَّد بن الحنفية ـ رض ـ والتواريخ تأبى ذلك...» وقال السمعاني في الأنساب وابن الأثير في اللباب: «الخاركي بفتح ـ

طولها بتسعمائة ميل، وعرضها بثلاثة أميال، كان الهولنديون قد استولوا عليها قديماً وأنشؤوا فيها حصناً حصيناً ثمَّ انتزعها من سلطتهم الشيخ «بنداريك». وبالحادي والعشرين مررنا بأبوشهر[1] وهو ميناء من أشهر موانئ بلاد الفرس، وإذ ذاك سكن البحر حاقَّ السكون، ولبثنا في نواحيها عدَّة أيَّام، وقد أسفت على أنَّ الريح لم تسكن قبل ذلك الحين، فأكون مستطيعاً للنزول ورؤية مدينة فارسية، ثمَّ تحركنا في اليوم الخامس والعشرين منه وساحَلنا جانب جزيرة «أبو شايب» قيل إنَّ طولها مائة وخمسون ميلاً، وفي مساء ذلك اليوم ألقينا الأنجر قبالة جزيرة كيش[2] لنستقي ماءً منها.

وبالسابع والعشرين لحظنا جزيرة هرمز وبالثامن والعشرين ساحَلنا جانب «كشمس» أكبر جُزر الخليج العربي. وفي الثلاثين منه دخلنا بحر عمان وفي مدخله يرى المبحر سواحل بلاد الفرس وسواحل جزيرة العرب. وفي الخليج العربي جمهرة من الجزر غير مسكونة وقد أطلق الإنكليز اسم «قبر زوم» على واحدة منها، قيل إنَّ بعض قواد الإسكندر الكبير كان قد دفن فيها، وجزيرة أخرى تُسمَّى «مامه سلمى» وليست هي إلَّا صخرة رهيبة يتكسَّر عليها الموج بشدَّة ولا تستطيع سفينة الاقتراب منها من غير أن تُحطَّم تحطيماً، وقد رأينا في هذا البحر نوعاً من السمك عجيباً جداً، يسميه الإنكليز «سمك الكوكب» وهو مدور، وينشر باللَّيل ضياءً قوياً بحيث يشبه

الخاء والراء بعد الألف وفي آخرها كاف، هذه النسبة إلى جزيرة في البحر قريبة من عمان اسمها خارك...».

(1) كتبناه على صورة ما يحكى ويعرف بين النَّاس أيَّامئذٍ والآن. (م).

(2) قال ياقوت في معجم البلدان: «كيش هو تعجيم قيس: جزيرة في وسط البحر تعد من أعمال فارس لأنَّ أهلها فرس وقد ذكرتها في قيس وتعد في أعمال عمان...» وقال فيه: «قيس جزيرة وهي كيش في بحر عمان دورها أربعة فراسخ وهي مدينة مليحة المنظر ذات بساتين وعمارات جيدة وبها مسكن ملك ذلك البحر صاحب عمان وله ثلثا دخل البحرين وهي مرفأ مراكب الهند وبر فارس وجبالها تظهر منها المناظر، ويزعمون أنَّ بينهما أربعة فراسخ: رأيتها مراراً، وشربهم من آبار فيها ولخواص النَّاس صهاريج كثيرة لمياه المطر وفيها أسواق وخيرات ولملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ودوانيجه وهو فارسي شكله ولبسه مثل الديلم وعنده الخيول العراب الكثيرة والنعمة الظاهرة وفيها مغاص على اللؤلؤ... ورأيت فيها جماعة من أهل الأدب والفقه والفضل...».

القمر محفوفاً بأشعته، وجلده رقيق كلّ الرقة فإذا ما مسّه الإنسان أقل مسّ ظهرت على يده جمعاء دمامل، تكون أحياناً خطِرة جداً.

وفي أثناء هذه السفرة البحرية كنت أجلس غالباً على قنطرة السفينة ساعات كاملة بالليل لأشاهد هذه الأعجوبة، ولما صرنا إلى بحر عمان هبّت علينا ريح معاكسة لوجهتنا، وإذ كانت غير ماطرة لم تزعجنا إلّا قليلاً. ولقد طُفت في أسفاري بحر الهند وبحر الجنوب والمحيط الأطلنطي والبحر الأبيض والبحر الايونيّ وبحر مرمرة والخليج العربي وبحر عمان وقد قاسيت في كل بحر عواصف، ومع ذلك أراد الله تعالى أن لا يصيبني مكروه من الحوادث.

ومررنا في اليوم الخامس من صفر (سنة 1219هـ) حيال مسقط، ولكن مرورنا لم يكن قريباً منها بحيث نرى الأرض، وفي اليوم السادس دخلنا بحر الهند، وهذا منتهى إبحاري، لأنَّ خليج البنغالي الَّذي سافرت منه هو جزء من هذا المحيط، ومن هناك رأينا الركن الشرقي لجزيرة العرب المُسمَّى رأس الخط وهو على مائة وعشرين ميلاً من مسقط. وباليوم العاشر من صفر الموافق لليوم الثالث من حزيران[1] (سنة 1804م) ألقت سفينتنا مرساتها في بومباي بعد سنة إلّا أربعة أيّام من مغادرتي لندن. ومع صغر السفينة لقينا في السفر كل الرفاهية الممكن تصورها، وقضيت أوقاتي فيها باستلطاف واستطراف.

أبو طالب في بومباي

وحين ألقت السفينة أنجرها في ميناء بومباي نزلت إلى البرّ فذهبت إلى الحاكم المستر «دنكان» الَّذي كان لي الشرف بالتعرف إليه في بنغال خاصةً ولم يكن قد استيقظ ولكن خدَّامه تلقّوني بأدب كثير وسألوني هل أود أن آخذ شيئاً من الهوكاه[2] أو بعض المرطبات الأخرى، وبالساعة الثامنة

(1) في التوفيقات الإلهامية أنَّ أول صفر من سنة 1219هـ يوافق 13 أيار سنة 1804م، فالعاشر من صفر يوافق الثالث والعشرين من أيار سنة 1804م. (م).

(2) تقدَّم ذكره هذا الشيء من المشروبات في سياحة أبي طالب بتركية ولم أجد له ذكراً فيما عندي من الكتب. (المترجم).

أعلمني بعض الخدم بأنَّ الحاكم قد لبس ملابسه وأنَّه ينتظرني للتصبُّح[1] معه، فدخلت عليه في الحال وقدَّمت إليه واجب الاحترام، فتلقَّاني بأحب أساليب التلقِّي، وهنأني على رجوعي الميمون، ورجا منِّي أن أزوره غالباً في أيَّام مكثي ببومباي، وإذ كانت داره مكتظة بالضيوف كلَّف وكيله أن يستأجر لي مثوىً في جواره ثمَّ لم نكن أتممنا تصبُّحنا حين قيل إنَّ المثوى قد أُعِدَّ لي، وأمر دامت سيادته أيضاً خدامه أن يحصلوا لي على جميع ما أحتاج إليه، وأضاف إلى ذلك أنَّه يأمل أن يراني كل يوم أتصبَّح عنده وأتغدَّىٰ، ما لم أكن مستجيباً لدعوة من الدعوات، فما أعظم الفرق بين هذا الاستقبال والَّذي وقع لي بالبصرة؟ ودعاني في ذلك اليوم نفسه لمصاحبته إلى دار صديقي عبد اللطيف خان وهي على مسافة قليلة من المدينة، وإذ كان مجيئي إلى بومباي ابتغاء أن أراه لم أرفض دعوته ولكني خشيت أن يسوء ذلك الحاكم فأوضحت له حالي، فقال لي: «اذهب وتمتع بالاجتماع مع أصحابك فإنَّ دَعَتك شؤونك أو مسرتك إلى المدينة فجيء إليها وأحضُر مائدتي في كل جيأة». فشكرت له ذلك شكراً كثيراً وذهبت مع الصديق.

وجزيرة بومباي تقع بين الدرجة 18 والدرجة 19 من خطوط العرض الشمالية وهي مشهورة بعذاوة مناخها، وعذوبة مائها، وأشجارها تثمر من الفواكه بما تثمر به سائر بلاد الهند ولا سيَّما الأنبج[2] اللذيذ، وجميع الإنكليز يسكنون في قلعتها، ومنازلهم عالية ذوات أربع طبقات ومبنية بالآجُرّ، ولها أبواب وشبابيك مزوَّقة وسطوح مغطاة بالقرميد على طريقة الأوروبيِّين في التغطية، وليس فيها دار يستطيع الإنسان أن يوازن بينها وبين أحقر دار في «شورينغي» إحدى محلات كلكتا، وسكانها كلهم بالتقريب إنكليز وفارسيس[3] وبرتغاليون وهندوس. والفارسيس من سلالة الكبريِّين

---

(1) من معانيه أكل طعام الصباح وهو التصبيح. (المترجم).

(2) هي الفاكهة المعروفة عندنا بالعنبة ويؤتى إلى العراق بمخللاتها فقط من الهند، وتُسمَّى في مصر «مانكو» وكذلك في لبنان وهو مختصر الاسم الأوروبي مانكرستان، وقد ذكرها ابن بطوطة في رحلته. (المترجم).

(3) هم مجوس الفرس وقد زحفوا الآن إلى غرب بلاد الهند باعتداده موطنهم الأصلي. (المترجم).

الَّذين عبدوا النَّار، وقد ترك البلاد الفارسية عدد عظيم منهم قبل ألف ومائة سنة بالتقريب تخلصاً من شدَّة وطأة المسلمين، وأقاموا في سوراة وفي بومباي، وفي مدن أخرى من هذه الجهة من بلاد الهند، وقد زاد عددهم أنمى زيادة بحيث رأينا أكثر أهل الصناعات والخدَّام في بومباي من أهل هذه النحلة، وناس منهم يحترفون بالتجارة، وآخرون ذوو ثروات لا تحصى، وكلهم يفهمون الإنكليزية والهندية فضلاً عن لغتهم الأصلية إلَّا أنَّهم لا يتكلَّمون بالفارسية الحديثة، وإذ لم تكن لهم صلات اجتماعيَّة بأهل المذاهب والديانات الأخرى فقد اعتزلُوا واجتمعُوا كلّهم فيما بينهم بالتقريب، ويَحسب الرائي لهم أنَّهم حافظوا على ملامح أجدادهم من غير أقل تغير وتطوُّر، ويدعي أفراد من فلاسفة الإنكليز أنَّ الشَّمس لا تؤثر البتَّة في ألوان النَّاس، ويذكرون اعتماداً منهم على تحقيقهم «فارسيس» بومباي للتمثيل وأرمن «جولفا» من أرباض أصفهان فهم يحافظون على ألوانهم دائماً وأبداً، فإن كان هذا صحيحاً فلماذا كان الأوروبيون بيضاً والأحباش سوداً والهنود سُمراً؟ أنا لا أستطيع إدراك ذلك إن صدَّقت بما هنالك.

المجوس في بومباي

والفارسيس يؤكدون أنَّ عدَّةً من مواقدهم[1] نُقلت من البلاد الفارسية قبل ثمانمائة سنة، ويعبدون إلٰهين أحدهما يدعى «يزدان» وهو مبدأ كل خير والآخر يُسمَّى «أهرمان» وهو مبدأ كل شرّ، ولما كان الخوف دائماً أشدّ سيطرة على الرُّوح البشري من الشكر والانبساط جَدَّ هؤلاء الفارسيس في عبادة «أهرمان» واحترامه واستداموهما أكثر ممَّا يفعلون ليزدان، وهم يغارون من اشتهار صيت نسائهم، وإذا شكوا أقل شك في امرأة منهن قتلوها سرّاً، ومع ذلك ينبغي أن لا يعتقد أنَّهم على أدب كثير، فلم يزُرني أحد منهم أيَّام كوني في بومباي، ولعلَّهم حسِبوني أعلى منهم بكثير فلا أقبل دعوتهم إن دعوني، والفارسيسي الوحيد الَّذي رأيته متعلماً مثقفاً وعرفته

(1) المذكور في الترجمة «مذابحهم» مع أنَّ لهم مواقد في بيوت النَّار فلعلَّ الخطأ في الترجمة الأصلية. (المترجم).

يُسمَّى «ملا فيروز» وهو امرؤ ذو خلق مودود، وكان قد ذهب إلى البلاد الفارسية ودرس فيها علوم الرياضيات وعلم الهيأة وعقيدة «زرادشت» وهو يجيد التكلُّم بالفارسية ولكن الأبيات الّتي نظمها بها بان لي فيها ضعف بلغ حد الركاكة[1].

وعلى مسافة ميلين في شمال بومباي مدينة أخرى كل سكانها من الهنود وفيها أسواق فاخرة تقام لتموين سوق القلعة، وفي نواحيها عدد وافر من البساتين والحدائق لأغنى أغنياء الجزيرة، ومغارس لأشجار اللوز الهندي جدّ كثيفة بحيث لا يتحرك الهواء فيها إلّا قليلاً، والنّاس في بومباي تظهر على وجوهم علامات أتعس شقاءٍ يمكن أن يتصور، فهم أقزام شديدو السمرة، ونحاف الأجساد جداً، وإنَّ عدَّة نساء منهم والصحيح يُقال، فيهن بدانة ونضارة إلّا أنَّ ملاحمهنَّ جافية المظهر، وتصرُّفاتهن مسترذلة، وقد قيل غالباً إنَّ أهل «سوراة» الّتي هي على مسيرة أيّام قليلة من بومباي يتميزون بجمالهم، وقد وجدت عسراً كبيراً في التصديق بذلك، وقائل ذلك يقيسهن من غير شك بنساء النارسيس، إلّا أنَّ نساء البنغال ـ فيما أرى هن أنشط، وأفضل من غيرهن بكل ما يحتمله اسم التفضيل.

وقلعة بومباي مفصولة عن المدينة بمرج واسع، تتمرن فيه الجيوش، ويتخذ متنزهاً لأهل المدينة، ومن هناك يرى الإنسان امتداد البحر إلى ما لا نهاية له، وغابات أخاذة للقلوب وجبال كونكان، وهذه القلعة أوثق وأحكم من قلعة كلكتا، فالبحر يصونها من جهة، وسائرها يحيط به خندق واسع عميق ومملوء من ماء البحر، والسور والبدنات[2] تشبه ما في كلكتا وقد بُطن السور ببطانة من الآجر، وله عدَّة أبواب ذوات قناطر متحركة علواً وسفلاً وسياج من الحديد الغليظ المؤلَّل[3] وهي من إنشاء البرتغاليين الّذين

---

(1) لم يشر أبو طالب إلى أنّه كان شاعراً. والظاهر أنَّ التنكير هو الأصل أعني أنَّ الصواب: ولكنّه كان قد نظم أبياتاً. (المترجم).

(2) البدنات هي أبراج السور وأصول مبانيها وهي جمع البدنة، وقد تقدَّم ذكرها غير مرة. (المترجم).

(3) قالت العرب: ألل فلان الحربة: حدد طرفها. (المترجم).

كانت لهم قديماً أملاك عظيمة، وقد تركوها لأحد ملوك إنكلترا حين تزوَّج أميرة برتغالية، ومنذ ذلك الزمن بقيت في حكم الإنكليز.

وأكابر المسلمين الساكنين بومباي في أيَّام كوني بها هم «عبد اللطيف خان» من أسرة فارسية قديمة ومؤلف الكتاب المُسمَّى «تحفة العالم» أي ندرة العالم «وأغا حسين» ابن أخي السفير التاعس الفارسي حاجي خليل، الَّذي قتل في اليوم العشرين من تموز سنة 1802م في المعركة الَّتي عارك فيها أتباعه «السيبويين» حرسه الشرفيّ «والمرزا مهدي خان» وُلد في البلاد الفارسية وجاء إلى بومباي والهند ابتغاء الإثراء، وقد ساعدتُ قبلاً هذا الرجل عدَّة مساعدات، ومع نكرانه فضلي عليه كل النكران ظهر لي أنَّه كان يحسدني دائماً على الأدب الَّذي يعاملني به حاكم المدينة.

وكنت أتعشى مع المستر دنكان في كل أسبوع مرتين وأحضر في كل[1] الأثانين حفلة الرقص الَّتي يقيمها لسكان المدينة الأعيان، وقد أعربت له غالباً عن رغبتي في الذهاب إلى البنغال فيقول لي بلطف وطيبة: «لم تسترح بعد من نصبك في رحلتك الأخيرة استراحة كافية لتشرع في الَّتي بعدها، فإذا حلَّ وقتها كنت على ثقة من أنِّي سأحصل لك على موضع في سفينة جيدة». وأخيراً تسلَّمت سفينة جميلة من نوع «الفريكات[2]» تابعة لشركة الهند أمراً بالسفر إلى كلكتا، فأعلمني الحاكم بذلك وقال: إن مللت من بومباي فإنِّي أوصي بك اشتيامها[3]» فقلت له: «إنَّ موضعاً تقيم فيه سيادته لا يبعث في الملل ولكني تائق جداً إلى رؤية عيالي الَّذين فارقتهم مدة طويلة، وأنا أقبل تفضلها بالشكر» فاستدعى الحاكم في الحال الاشتيام «هايس» قائد الفريكات وجعلني في حمايته، فسافرت إلى كلكتا من غير أن أنفق شيئاً لأنَّ الإبحار في سفينة تجارية تضطرني أن أدفع ألفي ربية. وفي اليوم السادس من شهر ربيع الأوَّل الموافق 16 تموز ركبت الفريكات

---

(1) قال في مختار الصحاح في ذكره الاثنين «فإن جمعته قلت أثانين» والفصيح أن يثنى ولا يجمع ولكن الترجمة قد جمعته فجمعناه. (المترجم).

(2) من السفن الحربية. (المترجم).

(3) تقدَّم أنَّ الاشتيام هو ربان السفينة وقد ورد في شعر البحتري وغيره. (م).

والريح مؤاتية طيبة، ورفع أنجرها ثمَّ وصل بعد مديدة مصب نهر الكانج، وفي أثناء هذه السفرة البحرية راعاني الاشتيام هايس وزوجه، وقد كانت معه في السفينة، بكل ضرب من المراعاة، وإذ كانت السفينة بارجة أي كبيرة ومعتنى بها تمتعت بكل متعة ونزهة وملذة مستطاعة في البحر، وقد أرسل إلينا دليل بحري، وبعد يومين دخلنا نهر فولتا ومن هناك ركبت سفينة صغيرة وبالمساء من اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الآخر سنة 1218هـ الموافق لليوم الرابع من آب[1] 1803م، بعد غيبة مقدارها أربع سنوات وستة أشهر أبَررتُ[2] في كلكتا وحمدت الله تعالى على إعادته إيَّام إلى وطني صحيحاً سالماً.

أتم ترجمتها مصطفى جواد في كانون الثاني سنة 1969م «والحمد لله تعالى»).



---

(1) في التوفيقات الإلهامية لمحمَّد مختار باشا اللواء أنَّ أوَّل شهر ربيع الآخر من سنة 1218هـ يوافق اليوم الحادي والعشرين من تموز سنة 1803م وأنَّ أوَّل شوال منها يوافق 14 كانون الثاني سنة 1804م وأنَّ أوَّل شهر ربيع الآخر سنة 1219هـ يوافق 10 تموز سنة 1804م فتاريخ أبي طالب مضطرب لأنَّه دخل سنة 1804م وقد ذكر في رحلته سالفاً أنَّه ترك القسطنطينية في الرابع من شعبان سنة 1218هـ الموافق للثاني من كانون الأوَّل سنة 1802م وبالمقابلة ظهر أنَّ أوَّل شعبان يوافق 16 تشرين الثاني سنة 1803م. (المترجم).

(2) أبر: نزل في البر من البحر. (المترجم).

الفهرس

